www.dar-alkotob.com دار الكتب

امرؤ القيس

حياته وشعره

دكتور الطاهر أحمد مكي
أستاذ الأدب ووكيل كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



دار المعارف

www.dar-alkotob.com دار الكتب

● الطبعة الأولى : فبراير ١٩٦٨
● الطبعة الثانية : أغسطس ١٩٧٠
● الطبعة الثالثة : سبتمبر ١٩٧٤
● الطبعة الرابعة : مارس ١٩٧٩
● الطبعة الخامسة : أكتوبر ١٩٨٥
● الطبعة السادسة : يناير ١٩٩٣

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج. م. ع.

دار الكتب www.dar-alkotob.com

الإهـــداء

إلى الشاعر اليمنى عبدالله البرَدُّونى

اعتزازًا بفنه، وعرفانا بدوره، شاعرًا أصيلًا، ومعاصرًا متوهجًا، يجمع بين جلال الماضى، وروعة الحاضر.


www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب



امرؤ القيس كما تصوره الفنان أرتو أورتيس

www.dar-alkotob.com دار الكتب

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب وأنا خارج مصر ، ونفدت وأنا بعيد عنها . وتشاء الظروف أن يقدم للطبعة الثالثة وأنا أتهيأ للسفر ، فلم يتح لى حتى أن أقدمها إلى القراء ، ولكنى واثق أن الذين يقرؤونه سوف يجدون فى حياة الشاعر وشعره من المتعة والأصالة والعمق فوق ما قدّروا .

القاهرة فى ١٩٧٤/٨/٢٧

الطاهر أحمد مكى
٣ شارع مصدق - الدقى
الجيزة - مصر
ت : ٣٦١٣٣٠٦
٣٤٧٩٣٩٢

www.dar-alkotob.com دار الكتب

الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب من عامين ، ونفدت نسخه على غير توقع منى ، وأنا بعيد عن أرض الوطن ، معار لجامعة الجزائر ، وتشدنى اهتمامات أدبية أخرى غير الأدب الجاهلى وقضاياه ، فلم تتح لى الظروف أن أعاود النظر فيه ، تنقيحاً أو تعديلا أو إضافة .

عندما هممت بتحرير الكتاب ، بعد معايشة طويلة للشعر والشاعر ، قال جماعة : مالك وللشعر الجاهلى ، والقارئون على أيامنا عجلون ، يريدون ما هو سهل وواضح وقريب . ويشغل الدارسين فى مجال الفكر ما يشغل المرأة فى عالم الأزياء ، كل وافد جميل ، وكل بدعة محببة ، وكل مستحدث لافت ، ولا عليهم ، هنا أو هناك ، أن يكون الأمر كرغوة كوب البيرة ، فقاعات سبيلها إلى التلاشى .

وقال أستاذ كبير أجله : إن الموضوع قديم وقتل بحثا . وكانت هذه واحدة من مسلمات تفرض نفسها ، دون سند من واقع أو دليل ، فقدم امرئ القيس ليس بمانع من درسه ، كما أن قدم الأساطير والمسرحيات والأفكار اليونانية ، لم يحل دون أن تكون موضع الدرس والاقتباس ، وأن تصبح جواز المرور لمن يريد أن يحشر نفسه فى زمرة الكاتبين المحدثين ، أو الباحثين المجددين . ولست أعرف دراسة كاملة لامرئ القيس الشاعر ، حياة وإنتاجاً ، غير قصة لمحمد فريد أبى حديد ، جمع فيها ما صيغ حول الشاعر من أساطير مسلية وممتعة ، دون أن يتجاوزها إلى الدرس والتحليل . وإلا دراسة متواضعة قام بها الأستاذ محمد صالح سمك ، أيام أن كان طالباً منذ قريب من نصف قرن . وإلا بضعة مقالات مبتسرة متناثرة فى عدد من المجلات ، أو صفحات محدودة ، مبثوثة فى الكتب التى تعرض للأدب الجاهلى بعامة .

كان المنهج الذى قامت عليه دراستى فى الكتاب ، أن ننثر أبيات الشعر ، فى لغة سهلة ، قبل أن تواجه القارئ ، فلا يضيع بين أسماء لأمكنة لا يعرفها ، ولحيوان لم

www.dar-alkotob.com دار الكتب

يره ، وأعتقد بعد تجربة وممارسة ، أن هذه القصائد كانت أقرب إلى القارئ غير المتخصص كما لم تكنه يوما . وكان نفاد الطبعة الأولى فى هذا الزمن الوجيز نسبيًّا ، شاهد صدق على ما ارتأيت .

الجزائر فى ٧ من جمادى الأولى ١٣٩٠ هـ
١١ من يـوليـو ١٩٧٠ م

الطاهر أحمد مكى

www.dar-alkotob.com دار الكتب

مقـــدّمة

فى العقد الثالث من هذا القرن تعرض الشعر الجاهلى فى مصر لمن يجحده كُلاًّ ، دون أن يقدم لإنكاره أدلة معقولة ينهض عليها ، وأثار هذا الاتجاه جدلا واسعاً لم يكن مصدره فى الحق إنكار الشعر نفسه ، لأن القول بنحل شيء منه - قل أو كثر - قديم معروف ، ولم يكن جديدا فى العصر الحديث . فقد تناول المستشرق الألمانى نولدكى Noldeke, Th. المشكلة لأول مرة فى بحث له نشر عام ١٨٢٤م ، عرض فيه للشكوك التى تثيرها الطريقة التى رُوِىَ بها الشعر الجاهلى ، وبعد ثمانية أعوام تناول المستشرق أهلوارد W. Ahlwardt المشكلة مرة أخرى على نحو أكثر دقة ، ودون أن يأتى فيها بجديد انتهى إلى أن القصائد التى رواها العلماء العرب غير موثوق بها ؛ فيما يتصل بالشاعر ، أو ظروف التأليف ، أو ترتيب الأبيات . ومن الواجب إذن أن يخضع كل أثر أدبى من القرن السادس وأوائل السابع الميلادى لفحص دقيق قبل قبوله ، وتابعه فى رأيه المتعقل هذا جلة المستشرقين .

وبقى الأمـــر على مـا هو عليه إلى أن أثار المستشرق الإنجليزى مرجوليـــوث D.S. Margoliouth القضية على نحو أكثر حدة وعنفاً ، فى بحث له نشر عام ١٩٢٥ فى مجلة « الجمعية الأسيوية الملكية » بعنوان : « أصول الشعر العربى The Origins of Arabic Poetry » ، رجّح فيه « أن الشعر الجاهلى الذى نقرؤه على أنه شعر جاهلى إنما نظم فى العصور الإسلامية ، ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين »[١].

وكان يمكن أن تنتهى آراء الجاحد المصرى إلى ما انتهت إليه آراء الجاحد الأوربى قبله ، رأى من حق صاحبه أن يعرضه ، ومن حق الآخرين أن ينظروا فيه ، ثم يقروه عليه أو يهزوا رءوسهم آسفين على ما أضاع من جهد ، لـكن الجاحد المصرى كان طالب شهرة ، وأسهل طريقة إليها فى بيئة دينية محافظة أن يعرض بالكتب السماوية منكراً أو مشككاً . إن إنساناً يدرس الشعر الجاهلى يدعه ليقول فى افتئات جرىء :

(١) أوجز الدكتور ناصر الدين الأسد فى دقة مقال مرجوليوث ومن ردوا عليه من مستشرقين فى كتابه : « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية » ، القاهرة ١٩٥٦ .

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها » .

كان بين كتابة التوراة والقصة التى تعرض لها زمن يقارب سبعمائة عام ، وكان بينها وبين نزول القرآن أعوام تجاوز الألفين ، وكان بين صاحبنا وبينها قرابة أربعة آلاف سنة ، ومع ذلك ينكر رواية القدامى ويطالبنا بالدليل على صحة ما قالوا ! . ومن الدين إلى السياسة ، وأصبح الأمر قضية العصر ، وحملت الشهرة صاحبنا وجعلت منه أديباً كبيراً ومفكراً حرًّا ، واختفى وراءه كثيرون يجنون من حملة التشكيك صرفاً للأمة عن أهدافها القومية ، وشغلالها عن جلائل الأمور فيها ، ومبشرون ألقوا بثقلهم كله على عقائدها الإسلامية يعملون فيها معاولهم هدماً ، علانية أو من وراء ستار ، وحملت الموجة صاحبنا فوق ما كان يتصور ، وبلغ غايته ، ثم هدأت الضجة ، وعاد الكتاب إلى مكانه الحق ، رأى لإنسان فى قضية أدبية ، يقرؤه الناس فيوافقونه عليه ، أو ينكرون ما فيه بلا ضجيج .

أثار إنكار الشعر الجاهلى الناس زمناً ، وشُغلَ به مؤرخو الأدب كثيراً . وأية دراسة للشعر الجاهلى تعرض لهؤلاء الجاحدين ، تفند دعاواهم وترد عليهم ، وكلها حاول أن ينسى سير الزمن ، لقد جاءت دعوى الإنكار فى وقت لم يكن فيه لعرب الجنوب تاريخ مكتوب فى اللغة العربية ، لا يعرف الناس على نحو علمى من أين جاءوا ولا متى عاشوا . ما أسس حضارتهم وخصائص اللغة التى كانوا يتكلمونها . والقليل مما نشر من كتب التراث العربى يعرض لتاريخ اليمن – لأسباب ليس هنا مكان بسطها – فى أسطورية زاهية مثيرة ، يأباها الحسُّ التاريخى الرهيف . وكان الباقى ، وهو الكثير ، مخطوطاً لمّا ينشر ، أو ضائعاً لا يُعرَف له مكان ، أو نُشر فى أوربا ودون الحصول عليه أهـــوال . وقلة فى العالم العربى هى التى تستطيع أن تتخيل لجنوب الجزيرة تاريخا كان إذ ذاك مبتسرا غير واضح الصورة ولا متكامل البناء .

فإذا حاول أحد أن يدرس امرأ القيس ، وهو كندى يمنى ، لم يجد لقومه تاريخا محققاً مترابطاً ، فيبدو الشاعر مقطوع الصلة بمن قبله كأنه من صنع الرواة . والحق

أن أى راو مهما أوتى من سعة الخيال ، ومن عبقرية الخلق ، لا يستطيع أن يصنع تاريخاً من عدم ، وإنما قصارى جهده أن يأتى إلى التاريخ ، فيجعل له أطارف ، ويكسوه أحداثاً ، ويضم إليه أشباهاً ، وهى عمليات لا تتم دفعة واحدة ، ولا من شخص واحد ، وإنما تصنعها الشعوب ترضى بها رغائب نفسية شعورية على امتداد تاريخها كله .

إن « أيام العرب » مثلا ، والتى يراها الجاحدون أساطير مصنوعة ، ويدور حولها معظم الشعر الجاهلى أو يرتبط بها ، موغلة فى القدم ، بل لعلها أقدم مما تشير إليه كتب التاريخ ، هى أخبار لا يمكن أن تكون من عمل كاتب فى بغداد أو دمشق أو القاهرة فى العصر الإسلامى ، لأنها فى الواقع شكل سامى قديم ، لدينا ما يدعمه من مثل ونظائر فى أقدم نصوص التوراة ، ويمكن أن نستعين بما فى هذه من نماذج على توضيح أيام العرب ، وسيتضح لنا أن القصص الذى يصاحب الشعر الجاهلى ، والشعر الذى يتناثر بين القصص ، لم يكونا بمعزل أحدهما عن الآخر ، فلم يحدث أن وجدت القصة ثم صنع لها الشعر ، أو وجد الشعر ثم اخترعت له القصة ، وإنما وجدا معاً وكل منهما يكمل الآخر ، وما من شك فى أن قصصاً كثيراً ضاع وبقى القليل من شعره ، وأن شعراً كثيراً مُحِىَ من ذاكرة الزمن وتخلف بعض قصصه ، ولو أن الشعر دائماً أكثر إصالة وأطول عمراً ، وهو الطريق إلى الإكثار من رواية القصص والإبقاء عليه .

كذلك كانت الأنساب ذات أهمية قصوى ، وكان المهتمون بها يحفظون معلوماتهم عن ظهر قلب ، ومن الواضح أن العرب قبل الإسلام لم يساورهم أى شك فى أنسابهم ، لأن أى شك من هذا القبيل يقوض بنيانهم الاجتماعى والسياسى ويودى به كله ، ومن ثمَّ فمن المستبعد أن يكون علم الأنساب قد تحول إلى صناعة أدبية لها من يعكف عليها ويصنعها من الخيال . فالعربى يفخر فخراً لا حد له بنقاء دمه ، وفصاحة كلمه ، وروعة شعره ، وجودة سيفه ، وسرعة جواده ، وقبل هذا وفوقه بشرف نسبه ، ولم يحدث أبداً أن شعباً من الشعوب ، عدا العرب ، قد رفعوا مسائل أنسابهم إلى مرتبة العلم الصحيح وجلاله .

لقد بدا لى أن الطريقة المثلى ليست فى مناقشة فروض واحتمالات ودعاوى مل الناس نقاشها ، وإنما فى العودة إلى الأصول نفسها ، وبناء تاريخ متكامل على إيجازه

يسبق دراسة امرئ القيس ، أقدم شاعر وأول مجحود ، فنضع الشاعر فى مكانه من القبيلة ، ونعود بالقبيلة إلى موضعها من الشعب ، ويأخذ الشعب مكانه فى أمة سكنت قديماً ذلك المستطيل من الأرض تطوقه مياه المحيط والبحار من جهات ثلاث ، وعرف عبر التاريخ باسم شبه الجزيرة العربية .

وخلال البحث واجهت كثيراً من الروايات المتناقضة ، فلم أجزع لذلك ولا ضقت به ، لأن الاختلاف بين الناقلين أدعى إلى اليقين ، فحيث يقتضى الواقع أن تختلف الرواية ، وأن يتعذر الإجماع بين الرواة ، تكون هذه أقرب إلى العقل والصدق من أقوال يتفرق رواتها فى الأمصار ، ويبعد بهم العهد ، ويكون اعتمادهم على الذاكرة . « ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والإضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال . فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق واتفاقهم يدعو إلى الشك أو التكذيب » .

وقد نقرأ الروايتين المتناقضتين – أو الروايات المتناقضة – عن خبر واحد فنرفضها ولا نرفض معها لباب الخبر ومغزاه ، كما هو الحال فى رحلة امرئ القيس إلى القسطنطينية ، وعودته منها ، ووفاته فى الطريق ، فقد جاء الخبر فى روايات كثيرة متناقضة ، لكنها لا تختلف فى حدوث الرحلة نفسها ووقوع الوفاة ، فأسقطناها جميعاً دون أن نسقط معها ثبوت الرحلة أو الشعر الذى قيل فيها وحولها .

« ليس يكفى فى معيار النقد التاريخى أن يكون اختراع القصة ممكناً ليقال إنها مخترعة ، فإن اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، وإنما يظن الاختراع بالخبر المسوغ يدعو إلى الشك فيه ، ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطراراً إلى نفيه على ثقة أو على ترجيح » .

لقد بعد العهد بيننا وبين عصر امرئ القيس ، لكنى لا أشك لحظة فى أن بعضاً من التقاليد والصور والمعانى الواردة فى شعره لا يتأتى لرجل لم يعش فى نفس الجو الذى عاش فيه ، أو قريباً منه ، أن يفهمها بدقة ، وأن يتمثل التجربة كما عبر عنها صاحبها . ولقد تطورت البادية كما تطورت الحواضر فى شبه الجزيرة العربية ، لكن سير التطور فى الأول كان بطيئاً ومحدوداً حتى أيامنا هذه ، ومن يدرى فلعلى كثيراً من القصص

الوارد فى الشعر ما زال يكون مادة السمر الأولى عند البدو ، وأن شيوخهم وشبابهم يحفظون يحفظون شيئاً من هذا الشعر ، وفى موريتانيا ، على أيامنا هذه ، وجل أهلها قبائل ذات أصول يمنية ، استقرت فى شمال غربى أفريقية ، على شاطئ الأطلنطى من زمن بعيد ، يمضى الأطفال إلى « الكتاب » ، فيحفظون القرآن الكريم ، ويحفظون إلى جانبه كل أشعار امرىء القيس . تقليدا موروثاً يسيرون عليه من زمن بعيد لا يعرفون له بدءاً ، إلا أن تكون حياة الشاعر نفسها . وأعتقد أن عادات البدو الاجتماعية فى الرحلة والنجعة ، وفى الزواج والمعاشرة ، وفى الصيد والحرب ، سوف تساعد كثيراً على إيضاح الإشارات الهامة ، التى نعتمد الآن فى تفسيرها على الحدس والتخمين ، أو نقيسها على حاضرنا ، وهو حاضر رغم أصوله العربية قد بعد كثيراً عن تقاليد العرب الأولى

إن محاولة كهذه سوف تفتح الطريق واسعاً أمام منهج جديد لتفسير الشعر العربى ودرسه ، وتحررنا من دائرة المسلمات التى نتحرك داخلها ، يجتر كل لاحق ما قال سابقه ، يزيد عليه قليلا أو ينحرف به شيئاً ، لكن الجديد فيه محدود ؛ لنضوب المصادر وتوحدها عند الجميع .

إن تقاليد مصر القديمة لا تزال تعيش حية فى كثير من قرانا ، وبخاصة فى الصعيد ، وتبدو واضحة جلية فى حياة الناس الاجتماعية ، رغم تأثير الحضارات المختلفة المتعاقبة ، وبعد مضى أربعة آلاف عام تقريباً . وأتصور أن التقاليد ليست بأقل استمراراً فى بوادى نجد ، ومدّ الحضارة الحديثة فيها واهن وتأثيرها هينّ . ويقص علينا رحالة أوربى زار منطقة شمّر والحجاز الشمالية فى أواخر القرن التاسع عشر ، أن بعضا من رجال القبائل هناك يعرفون « بالبوّاقين » يعيشون على طريقة صعاليك الشعراء الجاهليين ، يعيشون منعزلين عن قبائلهم ، جائلين فى البوادى والقفار ، يطلبون رزقهم من الصيد والغزو والغصب ، ويقتسمون ما يغنمون مع الفقراء والعاجزين .

وفى النصف الأول من القرن الماضى جاء إلى إسبانيا مستشرق أمريكى ، هو ارفنج وشنجتن Irving Washington وأعجب بالحضارة الأندلسية ، فسكن الحمراء ، واندس بين طبقات الدنيا ، غير المتعصبة ، وغير الحاقدة ، وغير المتأثرة بتيار الحضارة الزاحف ، فالتقط من أفواهها حكايات شعبية أندلسية جميلة ، لا تعرض كتب التاريخ لمعظمها ، وبعضها يتصل بفترة ليس لها فى العربية وثائق مكتوبة ، وكلها تسد فراغا ،

الدارسون لتاريخ الاسلام وحضارته هناك فى أشد الحاجة اليه

فلعل معهداً علمياً جاداً يتبنى هذه الفكرة ، أو لعل شاباً عربياً نابهاً من هاتيك البوادى فى شبه الجزيرة العربية يضطلع بالأمر ، فيسدى الى البحث العلمى فى مجال الأدب والتاريخ يدا لا تنسى .

رغبة منى فى دفع جانب من التواكل العقلى بين شباب الدارسين ، وعدد من الباحثين ، حين يقنعون بالدراسات الحديثة ينقلون عنها النصوص القديمة ، بالجزء والصفحة ، دون أن يستخدموا المصادر الأصلية نفسها ، آثرت – كمبدأ عام – ألا أضمن الكتاب المظان التى اعتمدت عليها تفصيلا ، واكتفيت بثبت عام للمصادر والمراجع فى آخر الكتاب

وبعـد ،

فانها أول خطوة على طريق مختلط المسالك ، متشابه المراحل ، مشكل بعضه . بعد الملتمس عزيز المطلب . فلعلها أثارت شبهة ، وأنجحت طلبة ، وحصحصت حقاً ، وأبانت عن يقين .

والله يهدى الى سواء السبيل

القاهرة ٢٧ من رمضان ١٣٨٧
٢٨ من ديسمبر ١٩٦٧

الطاهر أحمد مكى

عرب الجنوب

لم يكن تاريخ بلاد العرب الجنوبية فى فترة ما قبل الإسلام واضحاً ، وما بين أيدينا عنه من مصادر قليل نسبيًّا ، ومضطرب متناقض ، ومصدره روايات شفوية لأحداث بعيدة الغور ، اختلطت بالأساطير والمبالغات ، وإن كانت تتوكأ دائماً على أصل من التاريخ ، فالمسعودى – مثلا – يجعل ملوك الدولة الحميرية خمسة ، ويجعلهم ابن خلدون ثمانية ، ويرتفع بهم أبو الفداء إلى أحد عشر ، أما نشوان بن سعيد صاحب القصيدة الحميرية فيجعلهم ستة عشر ملكاً ، ويتفقون جميعاً على أن أول الملوك حمير وآخرهم الحارث ، ويختلفون فيما عدا ذلك من أسماء الملوك وفترات حكمهم .

وحتى منتصف القرن الثامن عشر لم يحاول أحد أن يستنطق الأرض هناك ، بما فى جوفها من شواهد ، وما بين خرائبها من نقوش وكتابات . إلى أن رأى العلماء الأوربيون المهتمون بالكتاب المقدس ودراساته ، والعاكفون على تحقيق نصه وتتبع إشاراته ، عظم الفائدة التى تعود عليهم من اكتشاف بلاد العرب السعيدة على نحو علمى ، فاقترح المستشرق الدانمركى كريستنس ف. هافن Chr. V. Haven على فردريك الخامس ملك الدانمرك أن يوفد بعثة علمية إلى اليمن ، فاستجاب الملك لرغبته ، وأصدر أمراً بتأليف البعثة عام ١٧٦٠م ، وكانت تتكون من هافن نفسه بوصفه مستشرقاً ودارساً للعربية أكثر من الآخرين ، ومن بترفورسكال Peter Forskal طبيب وصيدلى ، ومن كارستن نيبور Carsten Niebuhr ضابط وجغرافى ، ومن كرستنس كارل كرامر Chr. Carl Cramer جراح وعالم ، ومن جورج فلهلم بورنفيند Georg Wilhelm Baurenfeind الرسام ، وخادم سويدى يدعى Berggren .

وفى ٤ من يناير ١٧٦١ تركت البعثة كوبنهاجن على ظهر طراد حربى دانمركى إلى أزمير فاستنبول فمصر فبلاد اليمن ، وفى نيتها أن تبقى هناك سنوات . أرادت البعثة شيئاً وأراد القدر شيئاً آخر !؟ . لقد بلغت اليمن أواخر عام ١٧٦١ ، ولم يأت شهر مايو ١٧٦٣ حتى سقط المستشرق هافن ضحية الحمى ، ثم توفى فى مخا ، ودفن فى المقابر الألمانية الموجودة بها ، ولم يكد زملاؤه ينفضون أيديهم من تراب القبر حتى شيعوا

عالم الطبيعيات فى يولية ١٧٦٣ إلى مقره الأخير بمدينة يريم ، بعد أن صرعته متاعب الأسفار فيما بين مخا وصنعاء ، وفى أغسطس من العام نفسه توقفت البعثة وهى فى طريقها إلى بومباى بجزيرة سقطرة ، حيث شيعت جنازة الرسام والخادم ، وفى بومباى مرض الطبيب ودفن فى فبراير ١٧٦٤ .

لم يبق من أفراد البعثة غير نيبور ، فأخذ على عاتقه تنفيذ الخطة التى رسمت لها وحده ، وبر بوعده فلم يعد إلى وطنه إلا عام ١٧٦٧ ، أى بعد ٧ أعوام من رحلة قضاها بين البصرة وبغداد والموصل وحلب والقدس وقبرص واستنبول ، ورغم أن أربعة من الباحثين لقوا حتفهم كانت النتائج التى توصل إليها أعظم نتائج علمية جاءت بها بعثة أوربية من اليمن ، لقد بلغ أماكن يمنية لم تطأها قدم أوربى قبله أو بعده ، وكان أول عالم أوربى رأى نقشا عربياً جنوبيًّا . كان باختصار الدقة والصدق والتواضع مجسماً ! .

أورد نيبور كل معلوماته فى كتابه المسمى Deschreibung Von Arabien وقد صدر الجزء الأول منه عام ١٧٧٢م ، وصدر الجزء الثانى بعد وفاته عام ١٧٧٦ ، وبذلك مهد للعالم أن يعرف ما تضمه أرض اليمن من نقوش ذات أهمية لبناء تاريخ بلاد العرب القديم ، وبدأ كثيرون من علماء ومبشرين وتجار وجواسيس ، يقتفون أثره ، حبًّا فى المغامرة ، أو طلباً للعلم ، ولأهداف دينية أو اقتصادية أو استعمارية أو شخصية ، وتطور الأمر فأصبح مجال تنافس بين الدول ، فكان بينهم الألمان والطليان والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون ، ونشروا أبحاثهم فى المجلات العلمية المتخصصة ، وفى كتب يؤلفونها فرادى أو جماعات .

وأسهمت مصر فى هذا الجهد العلمى ، فأرسلت جامعة القاهرة عام ١٩٣٦ بعثة أثرية إلى بلاد اليمن ، تتكون من الدكتور سليمان حزين ليدرس حفائر ما قبل التاريخ ، والدكتور خليل يحيى نامى ليبحث فى النقوش والمخطوطات واللهجات الخاصة فى اليمن ، والأستاذ مصرى شكرى لأبحاث الجيولوجيا ، والأستاذ محمد توفيق العربى العالم فى الحشرات ، وبقيت البعثة هناك ستة أشهر زارت خلالها حضرموت زيارة عابرة ، واستقرت فى ناعط بالقرب من صنعاء ومشهد حيث أجرت بعض الحفائر ، وعنى الدكتور خليل نامى بنشر النقوش التى جاءت بها البعثة ، وفى عام ١٩٤٥ غزت أرجال من الجراد اليمن فاستغاثت حكومتها بمصر ورجتها العون فى دفع هذا البلاء ، فأرسلت

إليها جامعة القاهرة الأستاذ محمد توفيق مرة ثانية فانتهز فرصة وجوده هناك غزار الجوف ، وشاهد كثيراً من خرائبه الأثرية وصّورها إلى جانب آثار أخرى ، ونشر جزءاً منها عام ١٩٥١ . وفى عام ١٩٤٧ زار الدكتور أحمد فخرى اليمن ، وتوالت زياراته له فشاهد مناطقه الأثرية ، وأحضر معه عدداً من الرسومات والصور ، ومجموعة من مائة وثلاثين نقشاً لم تنشر من قبل .

أثبتت هذه الرحلات أن خلف صحارى بلاد العرب الجنوبية توجد أراض زراعية ، كانت فى القديم وطناً لحضارة رفيعة ، أكَّدت ما ذكره المؤرخ اليونانى استرابون من أن جودة مناخ اليمن وخصوبة تربته وغناها أغرت الإسكندر الأكبر بفتحه ، غير أنه أرجأ هذا الفتح إلى ما بعد عودته من حملة الهند ، ولكن المنية عاجلته فى بابل فلم يحقق عزمه ، ولو أن فريقاً آخر من العلماء المحدثين يرى أن ما نسب إلى اليمن من غنى وفير وخصب قوى مبالغ فيه ، وأن معظم الحاصلات التى كان يظن أن بلاد العرب مصدرها فى العصور القديمة . إنما كان يجلبها العرب والمصريون – وكانوا يحتكرون التجارة فى البحر الأحمر – من الهند وسواحل أفريقية الشرقية ، وأنهم كانوا يخفون هذا عن جيرانهم حتى لا يزاحموهم فى الحصول عليها من هذا الأنحاء .

ويمضى الزمن ، وتخطو هذه الدراسات خطوات واسعة ، وتنقل إلى مراكز الأبحاث فى أوربا وغيرها آلاف النقوش ، يعكف على دراستها عشرات من العلماء ، ومن خلال البحث الوئيد المستأنى تبدو حقيقة واضحة هى أن الآثار التى عثر عليها دُوِّنت فى لغة واحدة ، تحدثنا عن دول عديدة قامت فى هذا الجانب من الأرض ، وكان لها من التقدم والازدهار حظ كبير .

واصْطُلِح على تسمية سكان هذه المنطقة باسم القحطانيين أو اليمنيين أو السبئيين أو الحميريين – تغليبا – أو عرب الجنوب ، ويعنى بهم الذين ينتمون أصلا إلى اليمن – أى الواقع يمين مكة – وهو الإقليم الذى وجدت فيه الآثار القديمة التى تشير إلى الدول الأربع وشعوبها ، والتى أشار إليها إراتستينيس Eratosthenes[1] وهم : المعينيون والقتبانيون والحضرميون والسبئيون . ولو أن الأماكن التى وجدت فيها الآثار

(١) فيلسوف شهير ينتمى إلى مدرسة الإسكندرية ولد فى Cirene عام ٢٧٦ ق . م . ثم ترك يموت جوعاً وله من العمر ٨٠ عاماً .

العربية الجنوبية تمتد إلى ما وراء الحدود الجغرافية لبلاد اليمن ؛ فقد وجدت آثار جنوبية في أقصى الجهة الشمالية الغربية لبلاد العرب ، أى في بلاد مدين القديمة ، حيث عثر في العُلا على نقوش معينية كثيرة ، كما وجدت نقوش أخرى عبر مسافة تمتد حتى الكويت .

ولا يُعْرف في أى وقت سكنت هذه الشعوب أرض اليمن ، ولكن المستشرق الألماني نولدكي يرى أنه في الألف الثاني قبل الميلاد مهّدت بلاد اليمن بسبب كثرة الأمطار . وخصب الأرض ، وصلاحيتها للزراعة ، السبيل لظهور مدنيّة خلقت وراءها آثاراً ذات مبان ضخمة ونقوش عديدة ، وأن قربها من البحر وموقعها الفذ جعل منها محطًّا هامًّا لتبادل سلع كثيرة ذات قيمة عالية ، تجد طريقها إلى العالم الغربي فيدفع فيها أسعاراً غالية ، فكان اليمن يصدِّر إليه اللؤلؤ المستخرج من الخليج العربي ، والتوابل والمنسوجات والسيوف المصنوعة في الهند ، والحرير المستورد من الصين ، والرقيق والقردة والعاج والذهب وريش النعام من الحبشة ، وكان للتوابل وغيرها من المواد ذات الرائحة الطيبة أهمية كبرى لاستخدامها في البلاط والمعابد .

وقد اتضح للعلماء بعد البحث المتأنى والإمعان الدقيق في النقوش التى عثر عليها وفكت كتاباتها ، أنه يمكن تقسيم تاريخ اليمن المجهول إلى دول وأطوار .

وأول دولة نلمح معالمها وسط ضباب التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبية هى معين ، وازدهرت فيما بين ١٣٠٠ و ٦٥٠ ق م ، في منطقة الجوف اليمنى بين نجران وحضرموت ، وشملت في عصورها الزاهية معظم بلاد العرب الجنوبية ، بما في ذلك قتبان وحضرموت ومقاطعة ملخ ، وكانت عاصمتها السياسية قرناو وموضعها الحديث مدينة معين ، والعاصمة الدينية يثيل ، وموضعها مدينة براقش الحديثة ، وكلتاهما في الجوف الجنوبى إلى الشمال الشرقى من صنعاء عاصمة اليمن .

وفيما بعد انتشر المعينيون في بلاد العرب وخارجها ، فنجدهم في مصر وبعض الجزر اليونانية ، فقد عثر في مصر على تابوت عليه كتابة معينية ، ويضم جثة تاجر عربى جنوبى اتخذ مصر سكناً ، وكان يتاجر في المواد التى تستخدم في المعابد والطقوس الدينية ، يستوردها من وطنه ويصدر إليه الأقمشة الحريرية ، وقد كُتِبَ النص في العام الثانى والعشرين من حكم الملك بطليموس السادس ، أى قريباً من عام ١٥٩ ق.م ،

ومنه نعرف أن جالية معينية كانت تعيش فى مصر وتتجر فى الطيب والبخور .

وقد مر الشعب المعينى بمراحل من التطور والرقى ، ولو أنه ليس بين أيدينا من الوثائق ما يساعد على كتابة تاريخ علمى لهذه المراحل ، ومكانة شعب معين بين الشعوب العربية الجنوبية الأخرى ، فمن العلماء من يرجع تاريخهم إلى ١٣٠٠ ق.م ويرى أنهم أقدم من القتبانيين والحضارمة والسبئيين ، وهناك من يرى العكس ، وثمة فريق ثالث يرى أنهم تعاصروا .

من النقوش التى وصلتنا استطاع العلماء أن يعرفوا كثيراً من أسماء ملوكهم ونسبهم ، وإن اختلفوا فى عدد الملوك وأيام حكمهم ، وهو اختلاف يؤثر تأثيراً بالغاً فى معرفتنا ببقية الدول العربية ، لأن تاريخ قيام أية دولة جنوبية مرتبط بالدولة الأخرى ، والرأى الراجح أن الدولة السبئية قامت على أنقاض الدولة المعينية ، ولكننا نجهل الملك المعينى الذى استولى فى عهده الملك السبئى بديع إيل بين على مدينة نشق الواقعة فى الجوف ، كما نجهل اسم آخر ملك معينى قضى فى عهده نهائيًّا على الدولة قبل عام ٦٨٠ ق.م.

ويبدو أن الدولة المعينية كانت تضم فى فترة من تاريخها عدداً من الأقطار العربية الجنوبية ، ولو لفترة محدودة من الزمن ، كحضرموت ودادان ، لأن بعض ملوكها كانوا يحملون لقب ملوك معين وحضرموت ، وسنجد هذه الدولة مضافة أحياناً إلى ملك السبئيين أو القتبانيين ، وقتبان دولة جنوبية لا شك فى قيامها . لكنها أكثر دول الجنوب غموضاً ، لا نعرف أحداً من ملوكها ولا متى قامت على التأكيد ، ومن المؤرخين من يعتقد أن تاريخها كان معاصراً لمعين أو سبأ أو لهما معاً .

أما السبئيون فكانوا أول عرب تخطوا عتبة الحضارة ، وطبقاً للآيات الواردة فى سفر أيوب من التوراة كانت سبأ فى بدء أمرها قبيلة متنقلة فى شمال بلاد العرب – لا فى جنوبها – وتؤيد النقوش المكتشفة حديثاً التوراة فيما ترويه ، فقد ورد لفظ سبأ فى نقش معينى مراداً به قبيلة بدوية كانت تسطو على الطريق التجارى الممتد بين بلاد العرب الجنوبية ومعان الواقعة فى الشمال ، وعلى القوافل المعينية المتجهة إلى مصر . كما أنه لا يمكننا فهم قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان جيداً والواردة فى القرآن الكريم[١] إلا إذا قدرنا أن السبئيين كانوا يقطنون أولا شمال الجزيرة العربية .

(١) وردت هذه القصة كاملة فى سورة النمل ، وتبدأ بالآية رقم ١٥ ، وتنتهى بالآية رقم ٤٤ .

ولا نعرف على التحقيق الزمن الذى انتقل فيه السبئيون إلى الجنوب ، ولكن حديث النقوش المكتشفة يشير إلى أنهم أصبحوا سادة الجنوب حوالى عام ٨٠٠ ق.م. وحكموا تسعة قرون ونالوا شهرة واسعة ، حتى ليطلق اسم السبئية أحياناً – تجاوزاً – على كل الدول التى قامت فى الجنوب . ويرى نفر من مؤرخى بلاد العرب الجنوبية أن أواخر القرن السابع قبل الميلاد كان فترة تحوّل وانتقال فى تاريخ تلك الدول بعامة ، وأن نجم دولة معين كان آخذاً فى الأفول ، على حين بدأ يتلألأ نجم دولة أخرى هى السبئية ، التى أخذت تصارع معين وتقهرها ، وأنه فى عام ٦٨٠ ق.م. ظهر البطل السبئى كرب أل وأخذ يتسلم من معين تدريجاً مقاليد التجارة والسياسة ، وأن بطلا آخر سبقه ، هو أول مكرب نعرفه ، أقبل من شمال الجزيرة عام ٨٠٠ ق.م. مجتاحاً بلاد المعينيين وجيرانهم من الحضارمة القتبانيين .

يمتد العصر السبئى من ٩٥٠ إلى ١١٥ ق.م ، وقد ورث السبئيون ممالك أقربائهم الأقدمين ، وأقاموا أنفسهم سادة على بلاد العرب الجنوبية وحكاماً لأزهر عصر من عصور تاريخها ، وقد تحكموا فى البحر ، طرقه وشعبه وموانيه ورياحه الموسمية الغدارة ، واحتكروا تجارته ، ولصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر وبخاصة أجزاؤه الشمالية اهتموا بالطرق البرية ، وعبّدوها بين اليمن والشام على طول الساحل الغربى لشبه الجزيرة ، وتتفرع فى نهايتها إلى مصر والعراق ، وكان الفرع الشامى يطرق البحر عند غزة ، وحوله قامت عدة مستعمرات سبئية على طول الطريق من الجنوب إلى الشمال .

واعتماداً على النقوش فإن تاريخ سبأ ينقسم إلى مرحلتين ، واحدة كان الحاكم فيها يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ويسمى (مكرب) ، والثانية اقتصر فيها على السلطة الزمنية وكان يحمل لقب ملك . ومن بين ملوك سبأ الذين تكشفت عنهم الوثائق اثنان يستحقان مزيداً من الاهتمام ، وهما سموهو عليا ينب وابنه يطعى أمر بين ، فهما اللذان بنيا سد مأرب بين أعوام ٦٥٠ و ٦٣٠ ق.م . ، ويرجح أن الأخير هو الذى قضى على دولة المعينيين وهزم آخر ملوكها . والهمدانى ومن بعده المسعودى وأبو الفرج الأصفهانى وياقوت يعتبرون أن بانى السد هو لقمان بن عاد ، شخصية نصف أسطورية ضائعة فى ضباب التاريخ .

وقد تهدم السد فى ٤٤٩ – ٤٥٠ ق.م ، ويفهم من النقوش أنه أصيب بتلف

مرتين – وربما أكثر – من جراء الفيضان ، وكان يعاد ترميمه فى كل مرة ، ولكن الانهيار النهائى حدث عام ١٢٠ أو ١١٥ ق.م ، أى قبل الهجرة بسبعة قرون ونصف تقريباً ، وفيما يبدو كان التدمير كاملا ، لهذا صيغت حوله أساطير طريفة يمكن للقارئ أن يرجع إليها فى كتب التاريخ العربى .

وقد أشار الأعشى إلى سد مأرب فى قوله :

وفى ذاكَ للمؤتسِى أُسْـوةٌ ومَـأْرِبُ قفَّى عليهـا العَرِمْ
رُخَـامٌ بنتْهُ لهم حِمْيَرٌ إذا جـاءه ماؤُهُمْ لم يـرِمْ
فأروَى الزُّروعَ وأعنـابَها على سَعةٍ مـاؤُهُمْ إذ قُسِمْ
فعاشـوا بذلك فى غبطـةٍ فجـارَ بِهِمْ جـارفٌ مُنْهَـزِمْ
فطـار القُيولُ وقَيْـلاتُها بِيَهْمَـاء فيهـا سرابٌ يَطِمْ
فطـاروا سراعاً وما يقدرو نَ منه لِشُرْبِ صبىٍّ فُطِمْ[١]

ويعزو المؤرخون القدامى ، ويظاهرهم بعض المحدثين ، تدهور الدولة السبئية إلى انهيار السد ، والواقع أن انهياره كان نتيجة التدهور وقمته ولم يكن سببه ، أما السبب فيرجع إلى أن رجلا إغريقياً يدعى هيبالس استطاع فى أواخر العصر البطليموسى أن يحيط علماً بخفايا الطرق البحرية ، وتغييرات الرياح الموسمية ، وأن ينجح فى الخروج إلى المحيط الهندى والعودة منه ، حاملا معه عدداً من السلع المرغوب فيها ، والتى كان يحتكرها العرب ومن بينها القرفة والفلفل ، وهى سلع كان الغربيون ، بتمويه من التجار العرب ، يعتقدون أنها من منتجات بلاد العرب الجنوبية ، وقد قفَّى على أثره كثيرون فساهموا فى ضرب الاحتكار العربى وتدميره ، وقلّت إيرادات سبأ فلم تعد قادرة على الاحتفاظ بمنشآتها القديمة كسد مأرب ، فانتهى به الأمر إلى التصدع والانهيار .

على أنقاض سبأ قامت دولة الحميريين ، وعادت لها السيادة على الطرق التجارية ، لازدياد النفوذ الرومانى فى مصر وضعف دولة البطالسة ، وعمَّرت نحواً من ٦٤٠ عاماً ، يقسمها المؤرخون اعتماداً على ألقاب الملوك إلى قسمين : حمير الأولى ، وامتد حكمها

---

(١) لغويات الأبيات :
لم يرِمْ : لم يذهب – منهزم : له صوت – القيول : جمع قيل ، وهو لقب للملوك حمير – يهماء : صحراء مطموسة المسالك – يطم : طم الشيء كثر حتى علا وغلب .

من ١١٥ ق.م إلى ٣٠٠ م ، وحمير الثانية وحكمت من ٣٠٠ م إلى ٥٢٥ م. وكانت عاصمة كل من الدولتين مدينة ريدان ، وقد شُهرتْ فيما بعد باسم ظفار ، وتقع إلى الجنوب الغربي من صنعاء ، واحتلت مكانة مأرب عاصمة السبئيين وقرناو عاصمة معين وعُرفت دولة حمير الثانية عند العرب باسم دولة التابعة.

وخلال الدولة الأولى تعرضت بلاد العرب لأول مرة للغزو من جانب الرومان حين أرسلوا حملتهم الشهيرة عام ٢٤ ق.م بقيادة إيليوس جالوس للاستيلاء على طرق النقل التي كان يحتكرها عرب الجنوب فكان مصيرها الفشل الذريع. كذلك ينسب إلى أحد ملوك هذه الأسرة ، من القرن الأول المسيحي ، أنه أسس قصر غمدان في صنعاء من عشرين طبقة ، فكان بذلك أول ناطحة سحاب يروى خبرها التاريخ ، وكان الغرض منه أن يحتمي به أمراء الحضر من غارات البدو.

وفي نهاية العصر الحميري الأول ابتدأت قوة عرب الجنوب تنزل من عليائها ، ولكنها لم تلبث أن استجمعت قواها قريباً من عام ٣٠٠ م ، وضمّت إليها القبائل المجاورة من بدو وحضر ، فأخضعت حضرموت وكل بلاد اليمن . وبها بدأ عهد الدولة الحميرية الثانية ، وأصبح لقب الملك الحميري « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وعربهم في الجبال وفي تهامة » ، وتعرف عند العرب باسم دولة التبابعة ، ويرسم المؤرخون العرب لملوكها صوراً أقرب إلى الخرافة منها إلى التاريخ الحقيقي ، ويمتاز هذا العصر الحميري الثاني بدخول المسيحية واليهودية جنوب الجزيرة العربية ومحاولتهما زحزحة الديانة الوثنية فيها .

وفي منتصف القرن الرابع الميلادي غزا الأحباش بلاد اليمن ، بتشجيع من إمبراطور الروم قسطنديوس الثاني ، لكنهم لم يلبثوا فيها غير فترة قصيرة من ٣٤٠ إلى ٣٧٨م ، ثم تمكنت حمير من طردهم واستردت لقبها الطويل واحتفظت به حتى عام ٥٢٥ م ، حين عاد الأحباش إلى غزوها ثانية ، وكان قائد الانتصار في هذه المرة أبرهة [١] وكان في الأصل ضابطاً تحت قيادة أرياط ولكنه اختلف معه في الأمر

(١) شكل سامي لكلمة إبراهيم ، ويلقب بالأصحم أو الأشرم ، وفي أمره شيء من غموض . هل هو حبشي أو يمني ، والظن أنه ولد باليمن ، وينتسب في أسرة حبشية كانت تتخذ اليمن مقاماً ، ولكنه كان نصرانياً ، ولعله كان يحترف التبشير بالمسيحية قبل أن يصبح مساعداً لقائد الجيش أرياط وأن يتخلص منه بالقتل .

فقتله ، وتولى القيادة العليا واستبد بحكم اليمن ، ويذكر الطبرى أن ذا نواس الملك الحميرى المهزوم همز جواده ، واقتحم البحر بأمواجه ، ولم يُرَ ثانية ، وهكذا كانت خاتمة آخر ملك حميرى ذهب بذهابه عصر استقلال اليمن ، وكل ما بقى من الذكريات الرائعة . لتلك الأسرة الحميرية القديمة فى يومنا هذا ، تخليد اسمها فى شخص قبيلة مغمورة تدعى حمير ، تسكن إلى الشرق من عدن .

وأخيراً جاء دور الفرس ، فغزو اليمن . وطردوا منها الحبش ، ووضعوا على عرشها عربياً له تاريخ هو سيف بن ذى يزن . وقد قدمت عليه الوفود للتهنئة من شتى أنحاء الجزيرة ، ومن بينها وفد برياسة عبد المطلب زعيم مكة ، وقد أكرم سيف وفادته ، وخصه بعشرة أمثال ما أعطى الآخرين من هدايا .

وأشرقت شمس الإسلام ، وكان باذان والى الفرس على اليمن ، فاعتنق الإسلام عام ٦٢٨م ، العام السادس للهجرة ، وظل والياً عليه حتى ٦٣٢ م ، حين أصبحت اليمن جزءاً من الدولة الإسلامية ، وانتهى حكم فارس ، وانتهت فى نفس الوقت أهمية اليمن فى مجرى التاريخ العربى الوسيط ، إذ احتل الحجاز مكانه ، واستحوذ وحده ، ولأمد طويل ، على انتباه الرأى الدولى العام .

الصراع الدائم بين دويلات الجنوب ، وقد عرفنا بعضها وغاب بعضها الآخر فى ظلام التاريخ ، وعدم الاستقرار والرغبة فى حياة أفضل ، والطرق التجارية المتصلة ، والمنازعات السياسية الحادة التى قامت خلال عصر الدولة الحميرية بين فارس وبيزنطة ، وتنازعهما لبسط نفوذهما على الجنوب ، ثم تعرضه للغزو الحبشى والفارسى من بعد ، وجفاف الجوفين الحضرمى واليمانى ، كل ذلك كان عاملا هاماً فى تلاشى دويلات بأكملها وفى هجرة مستمرة إلى قلب الجزيرة وشمالها ، بل إن بعضاً من القبائل اليمنية اتجهت إلى أفريقية فهاجرت إلى الحبشة ، وكثر العرب فى شمالها ، وأقاموا فى مدينة أكسوم ، ونجحوا فى بناء حضارة متقدمة ما كان فى وسع الأحباش وحدهم أن يصلوا إليها أو يبتدعوها .

وجريا على السنن الاجتماعى فإن المناطق ذات الخضرة تمثل على الدوام أملا حلواً لسكان المناطق الصحراوية أو حتى نصف الصحراوية ، ومن ثم فإن مهابط الحضر تتلقى باستمرار مزيداً من البدو الوافدين ، مما يؤدى إلى تحركات سكانية واسعة

بحثاً عن الكلأ والماء ، وكان البدوى يغتصب من جاره الذى يعيش فى ظروف خيراً من ظروفه موارد الثروة التى يفتقدها ، بالمبادلة إن استطاع ، أو بالحرب إذا لم يكن إلى الأولى سبيل ، ومن هنا كانت الحروب المستمرة أو ما عرف فى تاريخ العرب باسم الغارات ، وهو نوع من الغزو رفعته ضرورات الصحراء إلى مستوى النظام القومى ، وقد حوّل التنافس الشديد على الماء والمرعى سكان الصحراء ، والمناطق غير المستقرة ، إلى مجموعة من القبائل أو الدويلات المتحاربة ، وكانت الحرب المستمرة تفرض على الضعيف المهزوم أن يرحل أو يذوب فى القوىّ المنتصر ، فالهجرات لا تنقطع ولا تتوقف ، هادئة تأخذ شكل تسلل بطىء متقطع أحياناً ، أو عنيفة فى دفعات قوية ، وأعداد وفيرة أحياناً أخرى ، وفى كلا الحالين يعاد تكوين القبائل تفككاً وتجمعاً واندماجا .

بانهيار سد مأرب عام ١١٥ ق.م وتدهور الحضارة اليمنية ، هاجرت قبائل كثيرة من الجنوب إلى وسط الجزيرة وشمالها ، ويحفظ لنا التاريخ أسماء العديد منها ، ولدينا الآن تفصيلات وافرة عنها ، فى مخطوطة نادرة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، للعالم الثقة عبد الملك بن قريب الأصمعى ، تحتفظ بها مكتبة باريس الوطنية ، وترجع أهمية المخطوطة إلى أن ناسخها هو العالم اللغوى أبو يوسف يعقوب بن السكيت . وأنه نسخها فى ١٠ من شوال عام ٢٤٣ هـ عام ٨٥٧م ، أى بعد وفاة الأصمعى مؤلفها بستة وعشرين عاماً [١] . ومع أن بعض أخبارها وأشعارها أقرب إلى القصص منها إلى التاريخ ، إلا أنه أعطى تفصيلات تؤكد ما لدينا عن تحرك القبائل الجنوبية نحو الشمال .

فقد سار بنو ثعلبة بن عمرو ، ومنهم الأوس والخزرج ، نحو يثرب ووجدوا بها جماعة من اليهود فاستوطنوها معهم ، ثم غلبوهم عليها آخر الأمر .

واتجه بنو حارثة بن عمرو ، وهم خزاعة ، إلى مكة فجاوروا الحرم ثم أجلوْا قبيلة جرهم عنه .

وانعطف عمران بن عمرو نحو عمان فنزلها ، ثم استوطنها هو وبنوه من بعده . وعرفوا فى التاريخ باسم أزد عمان .

وسار بنو جفنة إلى الشام وأقاموا هناك وأسسوا ملك الغساسنة ، وغسان ماء فى تهامة كانوا قد نزلوا به فنسبوا إليه .

---

(١) قام الشيخ محمد حسن آل ياسين بتحقيق المخطوطة ، ونشرها لأول مرة فى بغداد عام ١٣٧٩ = ١٩٥٩ م .

ونزلت طيئ جبلى أجأ وسلمى ، وهما فى الشمال الشرقى من المدينة لما رأوه من الخصب هناك .

وأقامت قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة فى بادية السماوة إلى الشمال من نجد وتتصل بالعراق .

ونزلت جهينة فى رضوى ، وسكنت بجيلة وخثعم وثمالة منطقة السروات ، واتجه فرع من كهلان إلى مدين .

وسارت قبيلة لخم بن عدى إلى الحيرة ، وأسسوا هناك دولة المناذرة ، فكانت مركزاً تلتقى فيه الثقافات العربية والفارسية والآرامية .

ثم هاجرت قبيلة كندة ، ولها حديث خاص سنعود إليه بالتفصيل .

ولم تكن الهجرة وقفاً على عرب الجنوب وحدهم ، وإنما يحفظ لنا التاريخ – ولو على نحو أقل – هجرة عدد من الشماليين إلى الجنوب ، كانت تضيق بهم سبل العيش ، أو يضيّق عليهم الخناق فى الحرب . وعندما فقد عدىّ بن ربيعة المهلهل – خال امرئ القيس على رأى – معركة يوم قضّة ، آخر يوم بين تغلب وبكر ، وأسره الحارث بن عباد ثم خلّى عنه ، لحق باليمن فنزل فى جنب ، حتى وضيع من اليمن .

وهاجرت قبيلة علكّ إلى الجنوب بعد طردها من مكة واندمجت فى قبائل تهامة القحطانية . وخاف أبو دواد الإيادى الشاعر من بعض الملوك فى الشمال فلجأ إلى ملوك اليمن فأجاروه وأحسنوا إليه ، واتخذ طرفة الشاعر إجارته مثلا ، يقول :

إنى كفـــانىَ مِن همّ هممتُ به جارٌ كجار الحذاقىّ الذى انتصفا

والحذاقى هو أبو دواد ، وحذاق قبيلة من إياد ينسب إليها .

إن هجرة القبائل الجنوبية إلى الشمال من جراء جفاف الجوفين اليمانى والحضرمى لا مجال للشك فيها ، وتدهور هذه البلاد بعد بلوغها فى الحضارة شأواً ليس حادثاً شاذًّا ، فقد كان عماد المنطقة الزراعة ، وعماد الزراعة الرى والصرف ، فلما انهارت هذه تلاشت حضارتهم ، وكان لا بد لهم من البحث عن مساكن جديدة . ولا ينبغى أن نقف بالانهيار الحضارى عند المنطقة التى كانت تعتمد فى ريّها على سد مأرب ، لأن منطقة حضرموت شاركتها نفس المصير فيما يبدو ، حيث تشاهد الآن بقايا منشآت الرى القديمة ، تحمل طابع الإهمال ، ويبدو أنها تعرضت لما تعرّض له سد مأرب ،

وبالتالى كان نصيب المنطقة الجفاف وهجرة السكان .

أضف إلى هذا وجود نقوش عربية جنوبية فى الشمال ، وأسماء لشماليين هى من أسماء أهل الجنوب ، مثل : شرحبيل ومعد يكرب وامرئ القيس . ووجود قبائل فى المناطق الشمالية والجنوبية لها أسماء موحدة ، كقبيلة كندة التى نزل قسم كبير منها نجدا والقسم الآخر حضرموت ، وقبيلة الأزد التى نزل قسم كبير منها فى السروات فى الحافة الشمالية من اليمن ، فى حين استقر القسم الآخر فى عمان ، وإليها أيضاً ينتسب الأوس والخزرج وقد اتخذوا يثرب مسكناً ، وكذلك قبيلة إياد التى يضرب بعض أفرادها فى وادى بيشا الواقع على مسير عدة أيام شمال نجران ، على حين ضربت أكثريتها فى السهول الغربية من الفرات السفلى .

والواقع « أن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمراً غير قابل للإنكار فى الجزيرة العربية التى لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات ، على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارئ الخصب والجذب والغلبة والهزيمة . وما من باحث ذى روية يعتسف البت بذلك الإنكار ثم يجزم بحصر اليمانية فى حدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود . فمن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف فى شىء أن يقال إنها برحتها على حسب الطوارئ وعوامل الجو والتاريخ » (٢)

(١) عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ، مزايا الفن والتعبير فى اللغة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .

اللغة العربية فى الشمال والجنوب

بقى أن نشير فى عجالة شافية إلى اللغة التى كان يتكلمها هؤلاء العرب فى الشمال أو الجنوب .

فى أزمان سحيقة كانت تنتشر فى منطقة واسعة الأطراف لغة سامية ، نجمت عنها لهجات مختلفة ، لم تكن فى البدء تخالف الأصل على نحو ظاهر إلى أن تباعدت قبائل الأسرة السامية فى بلاد شتى ، وهاجر بعضها من مهده الأصلى نهائياً ، وأخذت تأثيرات البيئة تبدو فى ألسنة المهاجرين ، وتأكدت المخالفة مع الزمن ووضح التباين ، وأصبحت اللهجات تغاير أصلها كأنها لغة مستقلة ، فكانت الأكادية والكنعانية والآرامية واليمنية القديمة والعربية الشمالية والحبشية السامية ، ولغات أخرى ضاعت فى مجاهل التاريخ . ومن العسير الآن أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية ومقدار كلماتها ، بل من العبث إطالة البحث فى أمر غامض مجهول نشأ ونما فى أزمنة سبقت العصور التاريخية .

وعلى المدى البعيد تطورت السامية لتصبح فى الجنوب لغة تنطوى على لهجات عدّة ، ولتصبح فى الشمال أخرى تتفرع عنها لهجات عديدة ، دون أن ينفصم ما بين اللغتين فى الجنوب والشمال ، ولو تصورنا الجزيرة العربية قبل الإسلام — وحتى الآن — لوجدناها تموج بوحدات مستقلة تتمثل فى قبائلها العديدة ، وكانت النظم والعادات والتقاليد فى فترة من الفترات تباعد ما بين هذه القبائل ، فسلكت كل واحدة طريقها الفرد الذى تمليه عليه ظروفها الخاصة ، جغرافية أو اجتماعية ، سياسية أو اقتصادية ، فكان فى العربية ما اصطلح على تسميته باللهجات .

غير أنه من جانب آخر ، كانت هناك عوامل لقاء واحتكاك مصدرها التجارة والجوار وتبادل المنافع والحج والأسواق والحروب والجدب ، إلى جانب لون من اليقظة السياسية كان يعتمل لا شعورياً فى نفوس سكان شبه الجزيرة ، فهيأ ذلك كله لواحدة من اللهجات تجمعت لها أسباب الغلبة أن تتطور فتصبح لغة الحضارة لهؤلاء القوم ، وأن تذوب فيها اللهجات الأخرى تاركة بعض الملامح والسمات . إن الحضارة وحدها

هى القادرة على فرض لهجة ما على كتل عظيمة من البشر .

وعند ما تصبح هذه اللهجة لغة الحضارة فإن بقية اللهجات لا تختفى ، وإنما يضيق محيط استخدامها فحسب ، وينحصر فى أغراض الحياة اليومية العاجلة ، وفى نفس الوقت فإن اللهجة التى ارتفعت إلى مستوى لغة الحضارة تصبح اكتسابية ، وأداة لأقلية تعتمد عليها فى التعبير عن الأفكار والمشاعر والمدركات البعيدة عن مستوى العامة ، وعلى قدر انتشار تلك اللغة بين طبقات المجتمع تستطيع أن تحافظ على مطابقتها للواقع وطواعيتها للتطور ، وقدرتها على التعبير عن كافة الانفعالات الإنسانية ، وكل من الفرنسية والإيطالية والإسبانية مثلا لهجة إقليمية تفرعت عن اللاتينية ، واستطاعت أن تصبح لغة حضارة ، وأن تحتفظ بحيويتها دواماً .

من الصعوبة بمكان أن نرسم حدوداً بين العربية الجنوبية والعربية الشمالية ، لأننا لسنا أمام لغتين من أصلين مختلفين جمعت بينهما مكانيا مصادفات التاريخ ، بل إزاء لغات منبعثة من أصل واحد فرقت بينها ظروف اجتماعية معينة ، فالانتقال بين إحداها والأخرى انتقال غير محسوس ، وتزداد الصعوبة إذا أردنا أن نضع حدوداً بين اللهجات التى هى فى داخل المجال اللغوى لكل واحدة منهما .

إذا حاولنا أن نتبين العربية الجنوبية من واقع النقوش السبئية ، وهى أحدث من النقوش المعينية والقتبانية والحضرمية نجد أنها قريبة جداً إلى اللغة الأدبية (لغة الحضارة) العربية الشمالية ، وظلت السبئية بدون تغيير يذكر منذ عام ٨٠٠ ق.م. تقريباً حتى ظهور الإسلام ، وكان المعينيون يتكلمون نفس اللغة التى يتكلمها السبئيون مع اختلاف اللهجة . وهو أمر ليس بغريب فقد أشرنا قبل إلى أن السبئيين كانوا يقطنون فى الأصل شمال الجزيرة ، فى بلاد الجوف الشمالى أو قريباً منها .

ولدينا نقش بالغ الأهمية ، يرجع تاريخه إلى ما بين عامى ٥٤٢ ، ٥٤٣ م ، سجل فيه أبرهة الحاكم الحبشى على اليمن إصلاحه لسد مأرب وأحداثا أخرى ، وقد كتب فى لغة يمنية لا تفترق كثيراً عن العربية الشمالية ، فقد جاء فيه : « بقوة وعظمة ورحمة الرحمان ومسيحه والروح القدس ، أنا أبرهة حاكم الملك الجعزى المسمى (رمحيش ذو بيمن) ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وعربها من الجبل وتهامة » .

وآخر من جزم بذلك الأستاذ فلبي Philiby في كتابه « العرب قبل الإسلام Background of Islam » ، وقد صدر في الإسكندرية عام ١٩٤٧ ، وهو يعرف بلاد العرب الحديثة جيداً ، ويحذق من تاريخها القديم وجغرافيتها وتقاليدها ولغتها الدارجة مالا يحذقه إلا قلة من المستشرقين ، ويصرح فيه بأنه « يستطيع أن يدعى أنه قرأ بقدر الاستطاعة وهضم بالفعل كل النقوش العربية الجنوبية ، وعدتها ستة آلاف نقش ، وأن يقرر في ضوئها أنّ اللغة العربية الجنوبية لا تختلف كثيراً عن العربية الشمالية ، ولا تعدو أن تكون شكلا قديما للشمالية التي اختفت منها كلمات لم تعد مستلزمات الحياة تتطلبها ، مما يتعلق بالآلهة الوثنية وأعمال الري والزراعة وتجارة البخور » .

ومن الواضح أن جلّ هذه النصوص عسير الفهم ، لا بسبب اللغة نفسها وإنما لأسباب ترجع إلى طريقة الرسم ، فهي مجردة من الحركات قصيرة أو طويلة ، وقد وصلتنا غير كاملة ، وتتحدث غالباً عن عبادات ليس لدينا معلومات عنها ، وكثير من عباراتها غير واضح الدلالة تماماً لما تشتمل عليه من صيغ دينية مبهمة ، تتصل بتقديم القرابين إلى المعبودات ، واصطلاحات غامضة تتعلق بفن المعمار ، ومن هنا تصبح ترجمتها عسيرة تحتاج إلى جهد غير عادي ، وقد نفهم كلمات أو أجزاء فحسب ، وقد يكون هذا الفهم ناقصاً ، وكثيراً ما يقنع الباحثون منها بمعناها العام في صورته التقريبية .

وقد عثر في الشمال على ثقافتين : سامية جنوبية وأخرى سامية شمالية ، فهناك جنوبيون هاجروا إلى الشمال كما قلنا ، واستقروا فيه تدريجاً ، وتمثّلوا ثقافته حتى غلبت عليهم أخيراً ، ويظهر ذلك واضحاً فيما خلّفوه لنا من نقوش وآثار ، ويعتقد شبرنجر A. Sprenger (١٨١٣ — ١٨٩٣) أن الساميين الشماليين هم ساميون جنوبيون انتقلوا إلى الشمال .

والصفويون ، وهم الذين نعرف عنهم شيئاً قبل أن يمتزجوا في الشعوب السامية الشمالية ، يبدون في النقوش التي وصلت عنهم محتفظين بالخط السامي الجنوبي واللغة السامية الجنوبية والعقائد السامية الجنوبية ، لأنهم كما يبدو من آثارهم لم يتركوا حياة البداوة نهائيًا ، بل كانوا يجمعون بين الحضارة والبداوة ، فمنهم الرعاة ومنهم الزرّاع ، ومن ثم لم يكن تأثرهم بالحضارة السامية الشمالية سريعاً بل تدريجاً ، ومع مرور الزمن

نراهم كغيرهم يمتزوجون مع القبائل الشمالية المستقرة ويذوبون فيها .

أما النبطيون والتدمريون والموآبيون والعبريون وغيرهم من الشعوب السامية الشمالية ، فقد كانوا – فيما يظن – عرباً من الجنوب ، إلا أنهم فى الوقت الذى عرفناهم فيه كانوا قد تمثلوا لغة الساميين الشماليين وعقائدهم .

وقد أدى هذا إلى اعتراض بعض العلماء على تعبير « عربية جنوبية » و « عربية شمالية » . لأنه ليس تقسياً جغرافيًّا صحيحاً ولا تاريخيًّا دقيقاً ، فليست هناك حدود واضحة – كما رأينا – تفصيل شمال الجزيرة عن جنوبه ، وتبين لنا من أين وإلى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبى من اللغة العربية ، ومن أين وإلى أين سادت العربية الشمالية ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن تقسم العربية إلى لهجات بائدة وأخرى باقية .

ليس بين أيدينا من اللهجات البائدة غير ما أوردته النقوش التى عرضنا لها ، ودلالاتها ظنية ، والمستفاد منها قليل .

أما الباقية فهى العربية الشمالية ، وطفولتها وأطوارها الأولى مجهولة ، وما وصلنا منها مزيج من لهجات كثيرة ، تتكلمها قبائل مختلفة ، أغلبها من الشمال وأقلها من الجنوب امتزج بعضها ببعض امتزاجاً شديداً يصعب معه التمييز بينها ، وصارت لغة واحدة يعسر علينا اليوم أن نردها إلى أصولها الأولى . يقول السيوطى فى المزهر : « الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتُدِىَ وعنهم أُخِذَ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين أُخِذ عنهم أكثر ما أُخذ ، وعليهم اتُّكِلَ فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين » والطائيون قحطانيون جنوبيون وليسوا بعدنانيين .

وواضح أن امتزاج هذه اللهجات وذوبانها فى بعضها لم يتمَّ دفعة واحدة ، أو فى زمن واحد ، بل حدث شيئاً فشيئاً ، جرياً على سنن الصراع اللغوى ، فكانت اللهجة تبتلع الأخرى أولا ، ومن الاثنتين تتكون لهجة جديدة ، وتمتزج الجديدة بأخرى ، وأن ذلك حدث أولا بين اللهجات المتماثلة التى تختلف فيما بينها فى الصوت من جهر وهمس وشدة ورخاوة وتباين فى النبر وغيرها من الفروق الطارئة التى لا تمس العناصر الرئيسية للغة من اشتقاق وإعراب ونظم ، ثم تهيأت الأسباب لواحدة من بينها لتكون لغة الحضارة ،

وكانت هذه وهي تتغذى باللهجات المختلفة تفقد الكثير من صفاتها الموغلة في المحلية ، من اللهجات المختلفة الأخرى ما يعن لها من مفردات وما يألفه متحدثوها من صيغ وتراكيب ، وتتهيأ لتكون اللغة العليا لحاجات الإنسان الراقية ، فتصبح لغة الشعر والأدب والحديث بين الطبقات العليا في المجتمع ، وتتطلب تهيئة وترويضاً وتثقيفاً ، ويصبح الشعراء صنّاعها في الصقل ، وأداتها في النشر . إنهم يصنعون بالكلمات ما كان يصنعه الملوك القدامى بالنقود ، يفرضون القيمة التي يريدونها ، ويحددون السعر الذي على كل فرد أن يقبله ، وكل منا حين يكتب إنما يغترف على غير شعور منه ، من فيض الكلمات الرقيقة الطافحة بالمشاعر التي صقلها أولئك الشعراء .

يمكن القول أن نفوذ الشعراء الأدبي والسياسي ، وكان كبيراً وغير محدود ، هو الذي أعطى اللغة الأدبية – أو الفصحى في تعبيرنا الحديث – طابعها النهائي وجعل منها المثال المحتذى ، والقصائد التي لدينا من الشعر الجاهلي ذات لغة واحدة رغم أن أصحابها يمثلون قبائل مختلفة ونواحي متعددة من شبه الجزيرة ، والملامح القبلية في شعرهم نادرة مما يؤكد قولنا إن الشعراء كانوا يتحدثوا لهجة مكتسبة تخالف لغة المحادثة العادية(١) .

وكانت هذه اللغة المكتسبة ، تزداد كل يوم اتساعاً ، وتكتسب أنصاراً ، عن طريق التقليد والرواية ، فأصبحت مفهومة لدى الجميع ، يقول المستشرق الإنجليزي رينولد نيكلسون R. Nicholson : « إذا وجدنا أن اللغة لا تجري على ألسنة الشعراء الجوالين فحسب ، وكانوا عادة على جانب من الثقافة ، أو عرب الحيرة وكانوا مسيحيين ، بل تتداولها ألسنة الرعاة واللصوص والبدو الغلاظ في كل البقاع ، إذا وجدنا هذا فليس ثمة داع للشك في أننا نسمع من خلال شعر القرن السادس الميلادي اللغة العربية التي كانت

---

(١) تبدو بعض الملامح القبلية في شعر امرئ القيس حين يستخدم الفعل هراق بدل أراق ، والأول صيغة حميرية ، والثاني صيغة شمالية ومعناهما واحد ، وقد ورد اسم المفعول من هذا الفعل في معلقته :

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معوّل

والأعشى ، وكان يفد على ملوك الفرس ، تكثر في شعره الألفاظ الفارسية :

بالجلّسان وَطيبٍ أردانُهُ بالوَنّ يضرب لي يَكُر الأصبعا

والناي نرمٍ ، وَبربَطٍ ذي بحةٍ والصّنجُ يبكي شجوَهُ أن يُوضعا

الجلسان : الورد الأبيض ، أوقبة ينثر عليها الورد والريحان .

الون : المعزف أو العود – الناي والبربط والصنج من آلات الملاهي .

ويقول ابن قتيبة : إن العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، لأن ألفاظهما ليست بنجدية .

مستعملة فى طول البلاد وعرضها » .

وجود لغة عليا للشعر والأدب ، وتتكلم فى المحافل والمجامع ، ولهجات محلية لحاجات الناس اليومية ، ليس فيه شىء مخالف للعادة لا عند العرب ولا عند غيرهم ، لا فى العصر الجاهلى ولا بعد آلاف الأعوام من عصرنا الحديث ، وليس فيه ما يخالف ما انتهت إليه قواعد علم اللغات ، ويعززه الحاضر المشاهد فى أكثر من مكان . فاللغة التى يعبر بها شعراء المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة العربية – حتى وقتنا هذا – يجب أن تكون كلماتها مما لا يسمع فى الحياة اليومية ، كما أن الشعراء المنشدين بين البربر فى المغرب العربى ينظمون أشعارهم فى لغة تخالف لهجاتهم الدارجة .

ولغة العالم العربى الثقافية الآن على امتداده واحدة فى الصحف والإذاعة والكتب والمحاضرات والندوات ، وعبر أراضيه الشاسعة يوجد العديد من اللهجات تقترب من الفصحى أو تبتعد عنها بقدر ما أتيح لأصحابها من الثقافة العربية الخالصة ، وما أتيح لها من البعد عن المؤثرات المحرِّفة للغة فى ألسنة الناس ، وبعض هذه اللهجات يتشابه ويتقارب ، وقليل منها ينبو حتى ليكاد يصبح لغة مستقلة .

ولقد كانت لهجات الشمال فى القرون القريبة من الإسلام ذات سلطان قوى واسع ، فكانت تبتلع اللهجات الجنوبية ابتلاعاً ، الواحدة تلو الأخرى ، فكان أن شملت معظم شبه الجزيرة العربية ، فى حين أخذت اللهجات فى بلاد اليمن تتدهور وتتلاشى حتى كادت تفنى فى القرن السادس الميلادى ، من جرَّاء فقد اليمن لحريتها واستقلالها السياسى ، إذ كانت تئن تحت حكم الأحباش طوراً وتحت حكم الفرس طوراً آخر ، بينما كان هذا القرن هو عصر النهضة الشاملة فى الشمال ، واللغات تتبع الحضارة صعوداً وانحطاطاً ، فتقلص ظل اللهجات اليمنية وانفسح المجال أمام الشمالية ، كما تقلصت اللغات السامية الأخرى فى سورية والعراق وأطراف الشام أمام اللغة العربية الشمالية التى كانت تفيض حيوية وقوة .

ولقد تم ذلك على نحو أسرع وأشد بين القبائل الشمالية من الجنوب العربى ، على حين أنها فى داخل اليمن وأقصاه الجنوبى كانت تسير بخطى متواضعة ، حتى جاء الإسلام بأفكاره وثقافته وكتابه فأجهز على ما كان عالقاً بعد ببعض الألسنة اليمنية من بقايا لغتهم الأولى ، ولم يفلت من هذا المصير إلا ثلاث لهجات ساعد انعزالها

وانزواؤها على حمايتها من اللغة العربية فاحتفظت بشكلها القديم حتى عصرنا الحاضر ، وهى : المهرية وتتكلم الآن فى منطقة مَهَرَة ، الواقعة شرقى حضرموت ، ولهجة الشحر وتسمى حِكلى ، وتتكلم بها القرى الضاربة فى بلد مرياط من ناحية ظفار الحبوظى ، واللهجة السقطرية وتتكلمها جزيرة سقطرة والجزر المجاورة لها ، وقد بعدت هذه اللهجات عن أصولها ، بل وعن اللغات السامية جميعها لتأثرها الشديد باللغات التى احتكت بها .

اتخاذ أهل الجنوب لغة الشمال الأدبية الراقية والزاحفة ليس أمراً عسيراً ولا مستبعدا ولا وحيداً ، فقد كان فى الجزيرة العربية يهود ، وكان هؤلاء اليهود وافدين ، جاءوا إلى يثرب فى القرن الأول أو الثانى للميلاد ، وكانت العبرية أو الآرامية لغتهم دون ريب ؛ ومع ذلك تكلموا العربية ، وشعروا بها فى قصائد لا يرقى إليها الشك ، ولا ينكرها منصف ، ومن شعراء كانوا معاصرين لامرئ القيس ، فإذا جاز أن تتغلب اللغة العربية – الأدبية على الأقل – على الآرامية أو العبرية التى كان يتكلمها اليهود قبل نزوحهم إلى الجزيرة العربية ، وحافظوا على استخدامها فى صلواتهم حتى بعد أن اتخذوا العربية لساناً ، فأولى أن يتم التوحيد بين لغة العرب فى الجنوب ولغتهم فى الشمال .

هل يعنى هذا أن العربية الجنوبية انقرضت تماماً فى القرن السادس الميلادى ؟ من العسير الجزم بذلك ، ولكن المرجح دون ريب أن ازدواجية اللغة كانت هى السائدة . وأن العربية الجنوبية كانت تحتل المكان الأول والأهم فى المناطق النائية والمنعزلة ، بينما فى المراكز الحضارية تأتى العربية الشمالية فى المقدمة ، على أن بقاء العربية الجنوبية لغة محادثة عند بعض القبائل لم يحل دون قيام علاقات أدبية رفيعة بين الجنوب والشمال .

ويمكن القول أن لغة المحادثة الشمالية لم تكن عسيرة الفهم على غالب أهل اليمن فى أواخر القرن السادس الميلادى ومطلع القرن السابع ، فلم يرد فى أى من كتب التاريخ التى عرضت لمقابلة الرسول عليه السلام عام ٦٣١م للوفود القادمة من الجنوب أن اليمنيين استعملوا فى الحديث العربية الجنوبية . وليس ثمة ما يشير إلى أنهم جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهـــل الحجاز كما أن الدعاة الذين أوفدهم الرسول إلى اليمن - ومنهم على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل ومن كان يصحبهما فى عمل الولاية أو التعليم ، كانوا يتكلمون العربية الشمالية فى دعوة الناس إلى الإسلام ويتخذونها

الوسيلة فى تنظيم المجتمع اليمنى الجديد . وهناك رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وليس فى أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بغير العربية الشمالية فى الجيل السابق للبعثة أو الجيل الذى تقدمه ، وأقدم شعر وصل إلينا لا يتجاوز هذا الجيل .

غير أن العربية فى اليمن – وفى غيرها – تأثرت شيئاً بما كان غالباً على أهلها من لهجاتهم القديمة ، وما درجوا عليه من عادات فى النطق والنبر ، وما كان يكتنفهم من ظروف طبيعية واجتماعية تختلف فى جوهرها عما كان يكتنف عرب الشمال ، فهم يستخدمون ألفاظاً يعرفها عرب الشمال حيناً ويجهلونها أحياناً : ومن قبيل ذلك ما روى أن رجلاً من بنى كلاب ، أو من سائر بنى عامر بن صعصعة ، خرج إلى ذى جدن من ملوك اليمن . فأُطلع إلى سطح عليه الملك : فلما رآه الملك اختبره فقال له : ثب ، يريد اجلس ، فقال الرجل : ليعلم الملك أنى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب فى كلام نزار الطفر ، أى الوثوب إلى أسفل ، فقال الملك ، ليست عربيتنا كعربيتهم من دخل ظفار حمّر ، أى فليتكلم الحميرية » . ولهذا تذكر المعاجم العربية : « الوثب هو القعود بلغة حمير »

ومنه ما روى أن أبا هريرة – وهو يمنى – لقى النبى صلى الله عليهِ وسلم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنه ويسره ولم يفهم المراد بهذا اللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك ، ثم قال : آلمدية تريد ؟ وأشار إليها ، فقيل له : نعم ، فقال : أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

وكان النبى فى حديثه مع زعماء القبائل اليمنية أو رسائله إليهم يرعى ما درجوا على استخدامه من تعابير وألفاظ ، فقد جاء فى رسالته إلى وائل بن حجر الحضرمى : « من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب من حضرموت(١) » . وفى مِن الجارة يستخدم مِم ، وفى الاستفهام يستخدم كلمة مهم بمعنى : ما الأمر وما الشأن ؟ ، وكلمة مخلاف بمعنى ناحية أو كورة .

---

(١) – الأقيال : جمع قيل ، وهم الملوك – العباهلة : الثابت حكمهم – الأرواع : الحسان الوجوه – المشابيب : السادة .

وقد نزل القرآن الكريم بهذه اللهجة الأدبية التى كان العرب يقولون بها الشعر ، ويتبادلون القول فى المحافل والمجامع ، ولعل قريشاً ، وكانت تمثل مركز الثقل فى الحياة العربيـــة – إذ ذاك – من مختلف جوانبها ، كان بين جمهورها كثرة وافرة قادرة على التحدث بهذه اللهجة وتفهمها ، فقيل إن القرآن نزل بلهجة قريش ، وهى دعوى وجدت فيما بعد من يدعمها لأسباب سياسية ، خلال فترات النزاع القبلى العنيف . لقد كان الشعراء هم الذين أعطوا اللغة فى البدء وحدتها وصفاءها ونقاءها ، وكان القرآن هو الذى ثبتها إلى الأبد ، وجعل منها لغة الثقافة والحضارة لمائة مليون من البشر أو يزيدون .

كندة

نزحت كندة إلى قلب الجزيرة منذ النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى ، وليس لها نصيب فيما بين أيدينا من نقوش يمنية ؛ ربما لأنهم كانوا أنصاف بدو وأنصاف حضر ، كثيرى التنقل والترحال ، ولم يتح لهم عمر الدولة ، وكان قصيراً ، استقرارا يطورون به حضارتهم على نحو ما كان عليه أشقاؤهم من بقية دول عرب الجنوب ، كما أنهم جاءوا فى فترة قليلة النقوش نسبياً ، لأنها خلت من الملوك العظام ومن المشروعات الكبيرة ، والنقش الوحيد الذى فيه إشارة إلى كندة متأخر . جاء قريباً من زوال دولتهم ، يقول النقش : إن أبرهة نائب النجاشى على اليمن خلال احتلال الحبشة لها ، عين يزيد بن كبشة من كندة عام ٥٣٥ م حاكماً على سبأ بدلا من معديكرب ابن الملك سام يفع ، والذى كان يحكم تحت السيادة الحبشية ، لكن يزيد ما لبث أن تحين الفرصة وقاد حملة ضد أبرهة ؛ وانضم إليه الزعماء الحميريون ، إلا أن أبرهة انتصر عليهم وبطش بهم ، وسجل أحداث الثورة وهزيمة الثوار فى أثر إقامة عام ٥٤٢ م تخليداً لترميمه سد مأرب ، ومن بين أسماء جميع الملوك الحميريين فإن اسم يزيد أقربها إلى الأسماء العربية الشمالية .

قبل اكتشاف هذا النقش لم يكن أى من المؤرخين أو الأدباء يعرف من هو ابن كبشة الذى يشير إليه امرؤ القيس مباهياً ومفتخراً فى قصيدته التى يرد فيها على سبيع بن عوف بن مالك بن حنظلة ، وكانت بينهما قرابة أمَّل معها سبيع أن يجود عليه امرؤ القيس بشىء إذا أتاه وسأله ، ولكن هذا أخلف ظنه ، فقال سبيع أبياتاً يعرض فيها بامرئ القيس ويذمه ، ورد عليه امرؤ القيس بقصيدة يفخر فيها بنفسه وبقومه ، وذكر ابن كبشة مفتخراً بخئولته :

وأنا الذى عرفتْ معدٌّ فضـــله   ونَشَدْتُ عن حجر بن أمّ قَطَامِ
خالى ابنُ كبشةَ قد علمتَ مكانه   وأبو يزيدَ ورهطُه أعمامى
وإذا أُذيتُ ببلدةٍ ودّعتهـــا   ولا أقيم بغير دار مقـــام

واكتفى شراح شعره بالقول : « ابن كبشة وأبو يزيد من أشراف كندة » وإذا

كانت النقوش أماطت اللثام شيئاً عن ابن كبشة فإن أبا يزيد عم امرئ القيس ما زال فى انتظار المزيد من الضوء والوضوح .

على أى حال من الثابت أن كندة بطن من كهلان ، كانت تسكن جبال اليمن الشرقية مما يلى حضرموت ، وكان ثور الجد الأعلى لامرئ القيس بسيطر على منطقة الأحقاف ، ملكها وأخذ الإتاوة من أهلها ، حتى إذا غُلِبَ هو وقومه على أمرهم هاجروا ونزلوا حضرموت ، وساكنوا الحضرميين ، ثم ما لبث أن حدث بينهم خلاف وحروب كادت تأتى عليهم ، وضعف أمر كندة وظهر عجزها عن القدرة على مواصلة الحرب ، فغادرت حضرموت واتجهت شمالا حتى نزلت فى مكان دعى فما بعد : غمر كندة أو غمر ذى كندة ، وهى أرض لبنى جنادة بن معد فى نجد على بعد يومين من مكة شرقاً ، واتخذوا عاصمتهم فى « بطن عاقل » ، وكان ذلك نحو عام ٣٥٠ م .

اختلط بنو كندة بعرب الشمال اختلاطاً أصبحوا به كأنهم شماليون فعلا ، ولكن دون أن يتنكروا لأقربائهم فى الجنوب ، وحرص ملوك التبابعة على أن يجعلوا منهم ما كان عليه اللخميون للفرس ، وما كان عليه الغساسنة لبيزنطة ، فيهيمنوا لهم على الطرق التجارية الشمالية التى ترتادها قوافلهم حتى يأمنوا اعتداء بدو الشمال عليها . فلما وقع الخلاف فى قبيلة بكر ، وهى تسكن شمال نجد ، سار جماعة منهم إلى حسان بن تبع ملك اليمن ، وكان ملوك اليمن للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين فما يقول ابن الأثير . فطلبوا منه أن يولى عليهم ملكاً ، فاختار لهم حُجْر بن عمرو زعيم الكنديين قريباً من منتصف القرن الخامس الميلادى ، وثمة عوامل كثيرة رجحت اختياره : كان أخا حسان من الرضاع – أو أخاً غير شقيق – وله عصبية يمنية ، ومن أسرة تولت الملك فى بلادها الأولى ، واستقرت فى الشمال منذ أكثر من قرن فعرفت اتجاه العصبيات فى المنطقة ، وفهمت العقلية الشمالية ومناحى تفكيرها .

انتظمت مملكة حُجْر بن عمرو معظم بلاد نجد مما يلى الحجاز شرقاً ، وبلغت شمالا أطراف الشام والعراق ، وانتزع جانباً من الأرض التى كانت تحت سيطرة المناذرة ، وفى فترة ازدهار المملكة كانت تمارس نفوذاً على قبائل عمان فى الجنوب ، وسار حجر بقبائل ربيعة فى محاولة لغزو البحرين ، فلما علم زياد بن عمرو بن الهبالى القضاعى القائم عليها خالف حجرا فى طريقه وسار بدوره إلى غمر كندة ، وأفسد فى البلاد ثم

حمل معه أسرى كثيرين فيهم زوجة حجر ، فيما قيل ، فأسرع إليه حجر وأدركه عند الحفير قرب عين أباغ[١] ، وقتله واستعاد زوجته ، ولما علم أنها كانت راضية عن عمل زياد انتقم منها وقتلها .

وكان حجر يسمى « آكل المرار »[٢] ، لأنه إذا غضب تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مراراً .

وتوفى حجر بن عمرو آكل المرار عام ٤٨٠م ، بعد أن حكم نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، وبعد أن طعن فى السن ، ودفن فى بطن عاقل .

بعد حجر جاء ابنه عمرو ، وعرف بالمقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ، فلم يضف إلى المملكة أو الحلف قبائل جديدة ، وكان ميالا إلى السلم راغباً فى الهدوء ، فنزل عن لقب ملك ، وآثر أن يدعى « سيد كندة » ، ووثق صلاته باليمن ، فتزوج بنتا لحسان بن تُبَّع ، وحسّن صلاته بالغساسنة فتزوج هند الهنود بنت ظالم بن وهب ، وكانت أختها مارية زوجة للحارث الثانى بن أبى شمر الغسانى ، ويلقبه المؤرخون العرب بالأعرج ، وكان أعظم شخصية فى تاريخ الجفنيين ، وحكم من ٥٢٩ إلى ٥٦٩ م . وكانت تربطه بمناذرة الحيرة صلة نسب ، فقد تزوج الأسود بن المنذر ملك الحيرة بنتاً له جاء منها بولد هو النعمان بن الأسود . ثم تقرب إلى القبائل التى كان يحكمها فى نجد فتزوج أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى من بكر بن وائل ، وعين أخاه معاوية الجون ، أى الأسود ، على اليمامة .

وفى أيام عمرو ظهر فى قبيلة تغلب وائل بن ربيعة المعروف بكليب وائل ، فوحد قبائل ربيعة وقوى أمرها ، وحررها من سيطرة الكنديين ، وقد استنجد عمرو المقصور بمرثد بن عبد ينكف الحميرى فأنجده مرثد بجيش كبير . والتقى عمرو بكليب فى ديار بنى أسد ، على مقربة من جبل القنان ، فقتل عمرو فى المعركة ، وتحررت قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة إلى حين .

خلف عمرا المقصور ابنُه الحارث ، وهو أشهر ملوك كندة وأعظمهم ، وكان يلقب « أبا الملوك » . وقد أتاح له خروج بكر وتغلب منهكين تماماً من حرب البسوس

---

(١) مكان بين الفرات والشام .

(٢) المرار شجر مر ، من أفضل العشب وأضخمه . إذا أكلته الإبل قلصت مشافرها فبدت أسنانها .

أن يعيد سلطان كندة على قبائل ربيعة فى نجد ، وعلى بنى أسد وبنى كنانة وبنى بكر خاصة ، وكانت مطامع الحارث واسعة وآماله كبيرة ، فأرسل ابنه حُجْرا فى جيش لفتح فلسطين لكن رومانوس الحاكم البيزنطى عليها هزمه ، وقد آثر أنستاسيوس إمبراطور بيزنطة أن يتخفف من مشاكله ويقلل من أعدائه ، وبخاصة بعد حربه مع الفرس ، فعقد مع الحارث بن عمرو الكندى معاهدة يترك بمقتضاها آل كندة مهاجمة الشام ، ويتعاونون على قتال الفرس والمناذرة ، وفعلا قام الروم بمساندة من آل كندة بهجوم على الحيرة واستولوا على قافلة .

وفى أيام الحارث فتح الأحباش اليمن وأذهبوا دولة التبابعة ، وظلوا فيه مستعمرين من عام ٥٢٥ إلى ٥٧٥م ، فضعف شأن كندة لأنهم كانوا يستمدون نفوذهم من قوة اليمن ، فآثر الحارث أن يحسن علاقاته مع الفرس ، وأن يتقرب إلى الأكاسرة وكان معاصره منهم قباذ ، وفى عهده ظهر مزدك عام ٤٨٧ فى فارس ، ودعا إلى شيوعية فوضوية ، وكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأن الذى يمنع الناس من سلوك طريق السداد منحصر فى خمسة أشياء : الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر ، وإذا قمعت هذه الأخلاق الشيطانية استقام طريق الحق . ومنشؤها كلها من شيئين : المال والنساء ، فينبغى أن يجعلا على الإباحة بين الخلق أجمعين حتى تأمن الآفات الخمس . وقد افترص العامة هذا المبدأ ، وتبعه خلق كثير ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى بهم الناس ، وقوى أمرهم حتى إنهم كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وتبعهم قباذ الملك ، وتعصب لهم فجعل المزدكية الدين الرسمى لفارس ، فعظم أمرهم ، واعتنق مذهبهم آلاف من الناس .

إبان حركة مزدك كان يتولى أمر الحيرة المنذر الثالث (٥٠٦ – ٥٥٤ م) وهو الذى تسميه العرب : ابن ماء السماء ، لقب كان لأمه مارية أوماوية ، فدعاه قباذ ملك الفرس إلى الدخول معه فى الدعوة الجديدة فأبى ، فبلغ التوتر بينهما غايته ، ومن جانب آخر كان الحارث بن عمرو الكندى طامعاً فى الحيرة وليس لديه ما يحول دون اعتناقه المزدكية ، فآمن بها ، وأدرك قباذ أن الحارث قوى الشخصية واسع الدهاء فعقد معه معاهدة على أن يكون للحارث وقومه مادون جنوب الصراة[1] يسيمون فى تلك المنطقة

---

(١) الصراة : قناة تصل بين دجلة والفرات قرب بغداد اليوم .

أنعامهم ، وما فوقها فهو لقباذ ، ثم ولاه مُلك الحيرة بعد أن طرد المنذر منها عام ٥٢٩م .

ليس لدينا من الإشارات التاريخية ما يعين على توضيح موقف الحارث ؛ هل آمن بالمزدكية عقيدة أم اتخذها وسيلة لتحقيق مطامعه السياسية دون أن تمتد مبادؤها إلى الواقع العملى فى حياته ، لكن من الواضح أن فى أخلاقه ما يود أن يسنده بهذا المعتقد ، وبما لا يخاف منه لو شهر به بين الناس ، وهو اتجاه سيكون لنا هادياً فى تفسير اتجاهات امرئ القيس الغزلية فيما بعد .

على أن مقام الحارث فى الحيرة لم يطل ، ذلك أن كسرى أنوشروان لم يكن على رأى أبيه فى المزدكية ، فتتبع ، وهو ولى العهد ، مزدك وأصحابه ، ودبَّر لهم مذبحة عظيمة عام ٥٢٣م قُتلَ فيها منهم خلق كثير ، ثم تعقبهم فى كل مكان ، فلما آل إليه الملك بعد وفاة قباذ عام ٥٣١ م ، ألغى اتخاذ المزدكية ديناً رسميًّا للدولة ، ثم أعاد المنذر الثالث إلى الحيرة ، فلما عاد المنذر عزم على الانتقام من الحارث بن عمرو فطلبه ، وكان مقيماً بالأنبار ففر بماله وولده وهجائنه ، فتتبعته خيل المنذر من تغلب وبهراء وإياد ولحقته بأرض كلب فهرب الحارث تاركاً إبله وهجائنه فانتهبوها ، وقتلوا ولديه عمرا ومالكا ، وأسر بنو تغلب ثمانية وأربعين من بنى آكل المرار ، قدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم بحفر الأملاك فى ديار بنى مَرِين العباديين[١] . وصار الحارث إلى مسحلان فقتله كلب عام ٥٤٠م ، ويقول الكنديون إنه لم يُقتل ولكنه مات مجهداً وهو يلاحق ظبياً فى رحلة صيد ، والرواية الأولى أقرب إلى منطق الأحداث .

وقد ترك موت الحارث صدى أليماً لدى قومه وأسرته ، وعدد من القبائل اليمنية التى كانت تقطن وسط الجزيرة وشمالها الشرقى ، وتعلق عليه الأمل فى وحدتها وبقائها وأمنها . وحفظ لنا أبو تمام فى حماسته الصغرى (أو الوحشيات) بيتين لحميرى مجهول ينعاه فيهما :

يا خليلىَّ بَكِّيَا   وانعَيَا لى أبَا حُجُرْ

أَبْلغا لى بكاءَهُ   حيث لا يبلغُ الخبَرْ

كما سجل امرؤ القيس مأساة قومه فى أبيات تضمنها ديوانه :

ألا يا عينُ بكِّى لى شَنِينَا   وبكِّى لى الملوكَ الذاهبينَا[٢]

---

(١) مكان بين دير هند والكوفة . (٢) شنين : فعيل من الشن وهو الصب .

ملوكاً من بنى حُجْر بنِ عمرٍو   يســاقون العشيةَ يُقْتــــلونَا
فلو فى يوم معركةٍ أُصيبوا   ولكنْ فى ديار بنى مَرِينَا
فلم تُغْسل جماجمُهم بِغَسْــلٍ   ولــكنْ بالدماء مُرَمَّلينــــا
تَظَــلُّ الطيرُ عاكفةً عليهم   وتنتزِع الحواجِبَ والعيونَا

وربما كان عمرو بن كلثوم ، وهو تغلبى ، يشير فى البيت التالى من معلقته إلى نفس الأحداث :

فآبوا بالنِّهــــاب وبالسبايا   وأبنا بالمــــلوك مُصَفَّدينا

خلال عزل المنذر الثالث عن مُلْك الحيرة ، وتولية الحارث بن عمرو الكندى عليها ، تنفست قبائل وسط الجزيرة الصعداء ، كراهية فى المنذر وهرباً من قسوته ، ورحّبت بالحارث ورغبت إليه أن يولِّى عليهم من أبنائه من يحكمهم ليبطل ما بينهم من الغزوات والحروب ، ففرق أولاده فيهم :

حجر بن الحارث على أسد وغطفان .

وشرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وبنى حنظلة والرباب .

ومعد يكرب على قيس عيلان بأسرها .

وسلمة على تغلب والنمر بن قاسط .

ورواية حماد فى الأغانى تجعل له ابنا خامساً اسمه عبد الله ولاّه على قبيلة عبد القيس ، كما يجعل معد يكرب مكان سلمة ، وسلمة مكان معديكرب فى توزيع القبائل .

وبقى أبناء الحارث على ما خلفهم أبوهم عليه ، لكن المنذر الثالث أخذ يسعى بينهم بالوقيعة انتقاماً لنفسه منهم ومن أبيهم ، يهادى سلمة ويرسل إلى شرحبيل من يوغر صدره على إيثار أخيه بالهدايا دونه حتى تحاربوا ، فقاتل سلمة بن الحارث ، ومعه بنو تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة والصنائع [١] أخاه شرحبيل بن الحارث ، ومعه قبائل بكر بن وائل وطوائف من بنى عمرو بن تميم والرباب وبنو حنظلة . والتقى الاثنان فى الكُلاب [٢] واشتدت الحرب بينهما فتخلى عن شرحبيل بنو حنظلة وبنو عمرو

---

(١) الصنائع : قوم من شذاذ العرب كانوا يحاربون مع الملوك بأجر أو بجزء من الغنائم.
(٢) الكلاب : ماء بين الكوفة والبصرة ، أو بين جبلة وشمام .

والرباب وثبت معه بنو بكر ، وتخلى بنو سعد عن سلمة وثبت معه بنو تغلب والصنائع ، فكانت الدائرة على شرحبيل وصحبه ، وقتل شرحبيل نفسه [١] وعرفت هذه المعركة عند العرب بيوم الكُلاب الأول [٢]. وقد أشار إليها امرؤ القيس فى قصيدته التى مطلعها :

أرانا مُوضِعين لأمر غيبٍ ونُسحر بالطعام وبالشرابِ [٣]

إلى أن يقول :

وأعلم أننى عمَّا قليل سأنشبُ فى شبا ظُفر وناب [٤]

كما لاقى أبى حجرٌ وجدّى ولا أنسى قتيلا بالكلاب

وفى آخر الأمر أدرك سلمة نوايا المنذر السيئة ، فخرج من تغلب والتجأ إلى بكر بن وائل خصومهم التقليديين فأذعنوا له ، وملّكوه عليهم ، فبعث فيهم المنذر يدعوهم إلى طاعته فأبوا ، فسار إليهم ومعه تغلب والنمر بن قاسط وكانت بينهم وقعة على جبل أوارة ، دارت فيها الدائرة على سلمة وأنصاره ، قتلهم المنذر وأحرق نساءهم ، وذلك بنجد قريباً من عام ٥٤٨م ، وتعرف هذه المعركة عند العرب بيوم أوارة الأول [٥]

وبقى حجر بن الحارث ملكاً على بنى أسد ، لكنه أساء سيرته فيهم ، وشق فى جمع الضرائب منهم ، فلما قُتل أخواه تضعضع نفوذ كندة ، فخرج بنو أسد عليه ، وحجر يومئذ بتهامة ، ونبذوا طاعته ، ورفضوا دفع الإتاوات وضربوا رسله ، فبلغ ذلك حجراً فسار إليهم بجند من ربيعة ، ومن جند أخيه من قيس وكنانة ، فأتاهم وأخذ

---

(١) فى رواية ابن قتيبة أن قاتل شرحبيل يوم الكلاب الأول هو أخوه معد يكرب . وليس سلمة ، وهو غير صحيح لأن معد يكرب كان حاكما على قيس عيلان ، بعيداً عن مسرح الأحداث ولم يشارك فيها .

(٢) للعرب يومان مشهوران باسم الكلاب ، الأول كان بين شرحبيل وسلمة على ما أشرنا إليه . والثانى كان بين بنى سعد والرباب وبين الحارث بن كعب وقبائل من اليمن ، وفيه قتل عبد يغوث بن وقاص الحارثى بعد أن أسر ، وقال وهو فى الأسر قصيدته المشهورة :

أيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن نداماى من نجران أن لا تلاقيا

(٣) موضعين : مسرعين – لأمر غيب : للموت المغيب ، يريد أننا نسرع فى آجالنا نحو الموت دون أن ندرى ، ونخادع أنفسنا عنه بالجميل من الطعام والشراب .

(٤) يريد أنه سيموت كما مات أبوه وأجداده من قبل .

(٥) رواية ابن رشيق القيروانى فى كتابه « العمدة » تجعل سلمة ومعد يكرب اسمين لشخص واحد . وأوارة اسم الجبل الذى تمت عليه المعركة . وهناك يوم يعرف بيوم أوارة الأخير ، وكان بين عمرو بن هند ملك الحيرة وبين بنى دارم ، وكانت الغلبة فيه لعمرو.

سراتهم وجعل يقتلهم بالعصا ، فسمّوا « عبيد العصا » وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرمة إلى تهامة ، وحبس جماعة من أشرافهم فيهم عمرو ابن مسعود بن كندة بن فزارة سيّد بنى أسد ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص ، الذى استعطف حجراً فى قصيدة مؤثرة :

يا عينِ ما فابكى بنى أســـدٍ هُمُ أهـــلُ النّدامهْ
أهـل القِبابِ الحُمْرِ ، والنعَّم المُؤَبّل ، والمُدامه (١)
وذوى الجيـــاد الجُرْد ، والأسـل المُثقّفَةِ المُقامه (٢)
مهلا أبيْتَ اللعن ! مهلاً ، إنّ فيما قلتَ آمه (٣)
فى كل وادٍ بين يثربَ والقصـــور إلى اليمـــامَه
تطريبُ عانٍ ، أو صياحُ مُحرَّقٍ ، أو صوتُ هامه (٤)
ومنعتَهُمْ نجـــدا فقد حلّوا علىَ وَجَـــلٍ تهـــامه
بَرِمتْ بنـــو أسدٍ ، كما برمتْ ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من نَشَمٍ وآخر من ثُمامه (٥)
إمّا تركتَ ؛ تركتَ عفوا ، أو قتلتَ فلا ملامه
أنت المليكُ عليهمُ ، وهم العبيـــدُ إلى القيـــامه
ذَلّوا لسوطك مثـــلَ ما ذلّ الأشَيْقِرُ ذو الخُزامه (٦)

فعفا حجر عنهم رحمة بهم ، وتأثّرا برائعة شاعرهم ، وبعث فى إثرهم فأقبلوا وهم يضمرون الانتقام ، وقد ثأروا لأنفسهم فعلا وقتلوه .

---

(١) النعم : المال الراعية ، وأكثر ما يقع على الإبل – المؤبل : المقتنى – المدامة : الخمر

(٢) الجياد الجرد : الخيل القصيرة الشعر ، وهو مما يستحب فى الخيل – الأسل المثقفة : الرماح المحددة المقومة .

(٣) الآمه : العيب .

(٤) الطرب : غناء الإنسان فرحاً أو حزيناً ، وتطريب عان : تأوهات أسير – الهامة : رئيس القوم ، والهامة من طير الليل الصدى . وكانت العرب تزعم أن القتيل الذى لا يدرك بثأره تصير روحه هامة فتزقو عند قبره تقول : اسقونى اسقونى . فإذا أدرك بثأره طارت ، وكلا المعنيين قد يكون مرادا هنا .

(٥) النشم : شجر جبلى تتخذ منه القسى – الثمامة : نبت بالبادية .

(٦) الأشيقر تصغير الأشقر ، وهو الأحمر من الدواب – الخزامة : حلقة من شعر تجعل فى وترة أنف البعير يشد بها الزمام .

أورد صاحب الأغانى أربع روايات عن مقتل حجر : الأولى لابن هشام المتوفى سنة ٢٠٤ هـ – ٨١٩ م ، وموجزها أن بنى أسد ، وهم على مسيرة يوم من تهامة ، استشاروا كاهنهم عوف بن ربيعة فأذن لهم ، فركبوا كل صعب وذلول ، فما أشرف النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبّته ، وحاول حجّابه أن يدفعوا عنه المغيرين ، لكن علباء بن الحارث الكاهلى ، وكان حجر قد قتل أباه ، تمكن من الإفلات منهم ، ثم طعنه فقضى عليه . فانصرف عن حجر حُرَّاسه لقسوته عليهم ، وانتهبوا هجائنه ، ولفوه فى ريطة بيضاء وطرحوه على ظهر الطريق ، وضم عمرو بن مسعود عياله وقال : أنا جار لهم .

وأسند أبو الفرج الرواية الثانية إلى أبى عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣هـ = ٨٢٨م ، وكان عالماً بالشعر وغريب اللغة والرواية ، وجمع شعر أكثر من ثمانين قبيلة ، ومؤدى روايته أن حجرا خاف على نفسه من بنى أسد ، فاستجار بِعُوَيْر بن شِجْنة التميمى لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بنى سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث الأسدى وغافله فقتله .

صاحب الرواية الثالثة هو الهيثم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ = ٨٢١ م ، ويذكر فيها أن حجرا لما استجار عُوَيْر بن شِجْنة لبنيه وخدمه تحوّل عنهم فأقام فى قومه كندة مدة ، وجمع لبنى أسد حشداً عظيماً من قومه ، وأقبل مُدِلاً بمن معه فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبى ! وما خير عيش يكون بعد قهر ، وأنتم بحمد الله أشد العرب فموتوا كراماً . فقر رأيها على مواجهته ، فساروا إليه وقد ارتحل نحوهم ، فلقوه فاقتتلوا قتالا شديداً ، وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث ، فحمل على حجر وطعنه ، فقتله ، وانهزمت كندة ، وفيهم يومئذ امرؤ القيس ، فهرب على فرس شقراء له وأعجزهم ، وأسروا من أهل بيته رجالا وقتلوا آخرين ، وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا ما كان من جوارى حجر ونسائه وأمواله فاقتسموها بينهم .

ونسب الرواية الرابعة إلى أبى يوسف يعقوب بن السكيت ، العالم اللغوى المتوفى عام ٢٤٥هـ – ٨٥٩م وموجزها أن حجراً كان قد وفد على أبيه الحارث بن عمرو فى مرضه الذى مات فيه ، وأقام عنده حتى هلك ، ثم أقبل راجعاً إلى بنى أسد ، وكان

قد أغار عليهم فى النساء وأساء ولايتهم ، وكان يقدم بعض ثقله أمامه ، ويُهيَّأ له نزله ، فلما دنا من بلاد بنى أسد ، وقد بلغهم موت أبيه طمعوا فيه ، فلما أظلهم وضُرِبت قبابه تشاورت بنو أسد وقرّ رأيهم على الفتك به . فخرج نوفل بن ربيعة بن خدان فى خيل له ، حتى أغار على الثّقل فقتل من فيه ، وساق الثقل وأصاب قينتين لحجر ، ثم أقبل إلى قومه ، فلما عرفوا ما حدث أدركوا أن حجراً سوف يقاتلهم وأن لا مفر من مواجهته . وبلغ حجراً أمرهم فأقبل نحوهم ، غير أنهم هزموا أصحابه ثم أسروه وحبسوه ، وتشاوروا فى قتله فعارض كاهنهم ، فلما رأى ذلك علبْاء بن الحارث خشى أن يتواكلوا ، فدعا غلاماً من بنى كاهل – هو ابن أخته وكان حجر قد قتل أباه – فقال له : خُذْ بثأر أبيك ، فدخل الغلام عليه فقتله .

تلك هى الروايات الأربع ، لا أستثنى منها رواية ابن الكلبى ، رغم ميل العلماء المحدثين إلى تجريحه ، فلا يستقيم مع المنطق أن نقبل روايته عندما تخدم رأيا يتفق مع هوانا ، ثم نرفضها عندما تأتى على غير ما نريد لمجرد أن قائلها ابن الكلبى ، ودون أن يكون وراء الرواية نفسها ما يزيدها قرباً من الواقع أو بعداً عنه غير اسم الراوى . وفى كلٍّ نقص وفى كلٍّ زيادة ، وإذا تدارسناها كلها فى ضوء شعر امرئ القيس ، وشعر عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد ، وكان معاصراً للأحداث وطرفاً فيها ومسه هجيرها ، وجدنا :

أن امرأ القيس يأسى لإفلات علباء بن الحارث من غارة قام بها على بنى أسد ، وتخصيصه من بين قومه أمر يوحى بأهميته ، ويؤكد الدور الذى لعله فى مقتل حجر :

وأفلتهنّ عِلْبـــاءٌ جريضـــاً ولو أدركْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ

وفى مقطوعة أخرى ينحى باللائمة على البراجم ويربوع ودارم وآل مجاشع ، وكلها قبائل من تميم ، لأنهم خذلوا عمه شرحبيل بن عمرو ، وقعدوا عن نصرته وغدروا به ، فلم يعلموه بخذلانهم له فيرحل عنهم سالماً قبل حلول العدو به . ويفخر بما فعل عُويرْ بنُ شِجْنة من إجازته لقومه بعامة ، ولهند أُخته بخاصة ، ويذكر اسمها صريحاً :

ألا قبَّح اللهُ البَرَاجَم كلَّهـــا وجـدّع يَرْبوعا وعفّـر دارما
وآثـر بالمَلْحـــاة آلَ مُجَاشِـع رقابَ إمــاءٍ يقتنين المفارِمَــا

فما قاتلوا عن ربِّهم وربيبهم ... ولا آذنوا جاراً فيظعنَ سالما
وما فعلوا فِعْلَ العُوَيْر بجـــارِهِ ... لدى بابِ هندٍ إذ تجرَّد قائما

وفى مكان آخر يمدح بنى عوف قوم العوَير ، وأنهم ابتنوْا لهم حسباً بالوفاء ، وأضاعه غيرهم بالغدر ، يمنعون جارهم ولا يُسلمون من يلوذ بهم ، ولا يصنعون ما صنع بنو حنظلة ابن مالك بن زيد مناة ، من قبيلة تميم ، حين شاركوا فى الغدر بِشُرَحْبيل ، ثم يمدح العُوَير بأنه كان وفيًّا لم يفرِّط فيمن استجاروا به :

إنّ بنى عوْفٍ ابتنـوْا حسباً ... ضيّعة الدُّخْلُلون إذ غدروا[١]
أدَّوْا إلى جارهم خُفَـــارَتَهُ ... ولم يَضِع بالْمَغيب مَن نصروا
لم يفعـلوا فعلَ آلِ حنظلةٍ ... إنهمُ جَيْرِ بئسَ ما ائتمروا[٢]
لكنْ عُـوَيرٌ وفىَ بذمّتـــه ... لا عَـوَرٌ شانه ولا قِصَرُ

وأن عويرا كان فى عمله هذا مثالا عالياً فى الوفاء ، فلم يكتف بإجارتهم وإنما حمل هنداً ورفقتها من نجد حيث مسرح الأحداث إلى نجران مهبط قومها الأول لتستقر آمنة :

عُوَيْرٌ ومَن مثل العوير ورهطِهِ ... وأسعدَ فى لَيل البلابلِ صفوان[٣]
هُمُ أبلغوا الحىَّ المضّلل أهلهمْ ... وساروا بهم بين العراقِ ونجران

أما الأحداث كما يصوّرها شعر عبيد بن الأبرص فمؤداها أن حجراً قُتِل فى معترك ولقِى حتفه بين اشتجار الأعنّة ، ورنين القسىّ ، وقراع الرماح ، وتنازل الفرسان :

يا ذا المخوِّفنا بمقتــلِ شيخهِ ... حجرٍ ، تمنِّى صاحب الأحلامِ
لا تبكنا سَفَهاً ولا ساداتِنا ... واجعل بُكاءك لابن أمٍّ قطامِ
حجرٍ غـــداة تعاورتْه رماحُنا ... بالقـــاع بين صفاصفٍ وأكامِ
حتى خطرن به وهنَّ شوارعٌ ... من بينِ مقتصدٍ وآخرَ دامِ
والخيلُ عاكفةٌ عليه كأنَّهـــا ... سُحُقُ النخيل نأتْ عن الجرَّام

ويفهم من شعره أيضاً أن امرأ القيس حضر المعركة ، وفر عند الهزيمة :

---

(١) الدخلل : خاصة الرجل ومداخله فى أمره .
(٢) جير : فى معنى حسب ، وقيل معناه حقا ، وهى فى معنى القسم .
(٣) البلابل : الأحزان والفكر.

وركضكَ لولاه لقيتَ الذى لقوْا   فذلك أنجى لكَ ممَّا هنالِكا

ثم يُعَيِّر عبيدٌ امرأ القيس بأنه فر وترك أباه مقتولا ، طريح الأرض ، للغربان تريغ سواد عينيه ، وأن قومه أسداً لا يدينون للملوك ، لقاحٌ لم يصبهم فى الجاهلية سباء لا يحفلون من الحرب ، ولا يقعدون عنها إذا دعوا إليها ، وأن امرأ القيس كان مجدوداً فلم يدرك علباء بن قيس ، ولو أدركه لدارت عليه الدائرة :

أتوعدُ أُسرتى وتَركتَ حجــراً   يُريـغ ســوادَ عينيه الغرابُ

أبوا دينَ المـلوك فهم لقـاح   إذا ندِبوا لحرب ما ؛ أجابوا

فـلو أدركتَ علباء بن قيس   قنعت من الغنيمة بالإياب

شعر امرئ القيس إذن ، وشعر عبيد بن الأبرص يلتقيان فى تصويرهما للحادث ، ويتفقان مع الرواية الثانية ، رواية الهيثم بن عدىّ ، ومن ثم فهى الرواية التى نرتضيها من بين الروايات الأربع التى أوردها صاحب الأغانى ، ونقلها عنه أو شاركه فى روايتها آخرون ، ولا نرى بأساً أن نستهدى الروايات الأخرى فى تقويم رواية الهيثم وتفصيل موجزها إذا احتاج الأمر إلى بيان .

لم تكن دولة كندة على غرار دولتى المناذرة أو الغساسنة ، وإنما مجرد اتحاد أو تحالف يجمع بين عدد من القبائل ، ولم تكن تعتمد على سند قوى من فارس أو بيزنطة ، بل إنها بعد أن توطد سلطانها أصبحت منافساً خطراً لكل من الحيرة وبنى غسان الواقعتين تحت نفوذ هاتين الدولتين ، وبخاصة المناذرة ملوك الحيرة ، فقد طردوا مَلكها وضموها إلى حلفهم كما أشرنا إليه من قبل .

ولم تكن للكنديين حضارة متميزة ، ولا مدن ضخمة ، لأنهم كانوا أقرب إلى البداوة ، والشىء الواضح فى قيام دولتهم القصيرة العمر أنها كانت أول محاولة فى قلب الجزيرة العربية لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية لها زعيم ، وهى محاولة لم تنجح على أيديهم ، ثم قُدِّر لها أن تنجح فيما بعد على يد القرشيين بظهور الإسلام . وأحوالهم الاجتماعية ، رغم أنهم جنوبيون ، لاتختلف عن أحوال عرب الشمال .

ولقد ذهب سقوط أسرة حجر بنفوذهم السياسى كدولة ، لكنهم كقبيلة ما يزالون حتى الآن ، ولعبوا دواً كبيراً فى الصدر الأول للإسلام ، واشتهر بينهم عدد من القواد ،

وكان لبعضهم دور ملحوظ فى فتح فارس والعراق . ومنهم حجر بن عدىّ ، وكان من عظماء أصحاب الخليفة الرابع ، على بن أبى طالب ، فأراد أن يوليه رئاسة كندة ، ويعزل عنها الأشعث بن قيس فأبى أن يقبل ذلك والأشعث حى ، وقد قُتِلَ حجر فى المعارك التى دارت بين علىّ ومعاوية ، وكلاهما ، حجر والأشعث ، من أحفاد الحارث ابن عمرو آكل المرار ، جد امرئ القيس .

سيرة شاعر

كأى شاعر جاهلى آخر لا نعرف عن طفولته كثيراً ، أمر طبيعى فى مجتمع متبدٍّ ، يحسب للسنّ حسابه ، ويجعل لتقدم العمر وزنه ، ويسقط من حساب الرعاية والعناية فى مجال الحكاية أو الرواية ، ما يتصل بالمرء فى سنّ طريّة لا يدفع معها غازيا ، ولا يهجم مقاتلا ، ولا يقول شعراً تقوم فيه الكلمة مقام السيف ، والإشادة بالأمجاد والمفاخر مقام الطعن والنزال .

هو فى رواية الأصمعى : امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المُرار بن معاوية بن ثور .

وقد ارتضى ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » رواية الأصمعى فنقلها عنه دون أن يشير إليه .

ويتفق محمد بن حبيب مع الأصمعى فى روايته حتى حجر آكل المرار ثم يضطرب به الأمر ، فيزيد أسماء هى خلط ذاكرة وتكرار متذكِّر ، فهو عنده : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الملك بن عمرو بن حجر آكل المرار بن عمرو ابن معاوية بن الحارث بن يعرب بن ثور بن مُرْتع بن معاوية بن كندة .

وتأتى رواية ابن الأعرابى متهالكة ظاهرة القصور ، تسقط الملك الحارث جد امرئ القيس وكان أعظم ملوك كندة وأذيعهم صيتاً ، وأكثرهم جرياناً فى شعر حفيده ، وتسقط معه حجراً آكل المُرار وهو مؤسس المملكة وبانيها فيما تذكر كتب التاريخ ، فهو يرى أنه : امرؤ القيس بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن ثور .

وقد ارتضينا أن نقف بنسب امرئ القيس عند ثور ، وهو أول من حمل لقب كندة ، ولم نتجاوزه إلى ما بعدها ، لأن الروايات التى ترتفع به إلى كهلان أبى الشعب الجنوبى الثانى ، المقابل لحمير (١) ، تدخل فى دائرة الشكّ وتخضع فى مجال النقد والدراسة لما تخضع له بقية الأنساب العربية .

واسمه حندج ، وعدىّ ، ومُلَيْكَة ، ويروى الفيروزابادى فى معجمه أن اسمه :

---

(١) انظر جدول الأنساب العربية فى آخر الكتاب .

سليمان ، وهو رأى لم ينسبه إلى أحد ، ولم يدعمه بخبر ، ولم أقف له على مصدر ، وليس فى طبيعة الأسماء الجاهلية ما يدعمه .

وكان يكنى أبا الحارث ، أو أبا وهب ، أو أبا زيد ويلقب بالملك الضلّيل ، وامرىء القيس . والقيس الذى يضاف إليه صنم كان يعبد فى الجاهلية ، وتعدل الكلمة فى اللغة الشمالية عبد القيس ، وبه سُمِّى كثيرون ، وأصاب ثعلب شاكلة الصواب حين رأى أنها بمنزلة عبد الله وعبد الرحمن ويقال له : ذو القروح ، وإيّاه عنى الفرزدق فى قوله :

وهبَ القصائدَ لِى النوابغُ إذ مضوْا ... وأبو يزيدَ وذو القروح وجَـرْول [١]

وأمه تغلبيّة ، فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، وأخواها كليب ومهلهل . وكانت تغلب القبيلة تقطن فى الجاهلية الشمال الشرقى من الجزيرة العربية[٢] ، ذات بطش وصولة ، وكان يقال : « لو أبطأ الإسلام لأكلت تغلب الناس » . وكليب[٣] هو الذى تضرب به العرب المثل فى العزّة فيقال : « أعز من كليب وائل » ، ولما قتله جسّاس ابن مرة فى ناقة لامرأة يقال لها البسوس كانت فى جواره ، اندلعت الحرب بسببها بين قبيلة بكر التى ينتمى إليها جسّاس ، وتغلب التى ينتسب فيها كليب ، واستمرت أربعين عاماً ، وعرفت بحرب البسوس ، وكانت بدايتها قرب نهاية القرن الخامس الميلادى ، وانتهت بتدخل المنذر الثالث ملك الحيرة حين أصلح بين الفريقين ، وهما أولاد عمومة ، قريباً من عام ٥٢٥م ، فاستجابوا له لأن الحرب أنهكتهما فلم تعد بهما قدرة على مواصلة القتال .

وإذا كانت أخبارنا عن كليب نادرة لا تتجاوز فى مضمونها حديثاً قصيراً عن

---

(١) النوابغ هم : النابغة الذبيانى ، والنابغة الجعدى ، والنابغة الشيبانى . وأبو يزيد شاعر مخضرم فحل ، عمر طويلا ، ويقال إنه مات فى خلافة عثمان ، واسمه ربيعة بن مالك ، ولقبه المخبل ، وكنيته أبو يزيد ،وإليه يشير الفرزدق . وذو القروح : امرؤ القيس . وجرول يعنى به الحطيئة ، شاعر مخضرم ، نشأ معلول النسب ، متبرماً بالناس يهجوهم جميعاً ، جيد الشعر ، مستوى الأسلوب ، ينسب إلى مدرسة زهير ، توفى عام ٥٩ هـ = ٦٧٨ م .

(٢) انظر مصور توزيع القبائل فى آخر الكتاب .

(٣) اسم كليب الحقيق وائل بن ربيعة ، فلما أصبح سيد تغلب اختار شاهداً على سلطانه جرو كلب ، ثم حمى أرضاً من العالية (ما فوق نجد إلى أرض تهامة إلى ما وراء مكة) وكان يلقى ذلك الكليب فى أية بقعة منها شاء فلا يستطيع أحد أن يرعى أو يستقى من مكان يسمع فيه عواؤه إلا بإذن من وائل ، فعرف وائل من ذلك الحين بلقب كليب وائل ، أو بكليب فحسب .

عِزّته ودوره فى الحرب ، فأخبار مهلهل وجيزة فى مادتها ، وافرة فى دلالتها ومع غيرها تصلح تفسيراً لفلسفة امرئ القيس فى الحياة إذا ارتضينا الرواية القائلة أن أمه أخت مهلهل .

آلت سيادة تغلب إلى عَدِىّ بن ربيعة ، أو مهلهل كما شهر فى كتب الأدب ، بعد مقتل أخيه كليب ، وكان على النقيض منه ، جادةً وأخلاقاً وسيرة فى الحياة .

كان صبوح الوجه ، فصيح اللسان ، محبًّا للحياة ، يعيش عيشة الفراغ ، عكوفاً على الشراب ، مولعاً بالنساء ، فلما قُتِلَ أخوه رثاه بالشعر ، وتهدّد بنى مُرَّة قوم جساس وتوعدّهم بالثأر ، وغبر على ذلك زمناً ، يتكلم كثيراً ولا يفعل شيئاً ، فضاق به قومه ، وقالوا : « إنما هو زير نساء لا يصلح لحرب ولا يقوى على الأخذ بالثأر » ، وانتهى إليه ما قالوا ، فثارت حميته ، وجزّ شَعره ، وقصر ثوبه ، وهجر اللهو ، وحرّم على نفسه الشراب ، وأنشأ :

أقـولُ لتغلبٍ والعـزُّ فيهـا ... أثيروهـا لذلـكم انتصـارُ
خذوا العهدَ الأكيدَ علىَّ عمرى ... بتركى كلّ ما حوت الديارُ
وهجرى الغانياتِ وشربَ كأسٍ ... ولُبسى جُبَّـةً لا تستعارُ
ولست بخالعٍ درعى وسيفى ... إلى أن يخلـع الليلَ النهـارُ
وإلا أن تبيد سراةُ بكرٍ ... فـلا يبـقى لهـا أبداً أثارُ

وتزعم قومه فى الحرب ، فلما كان يوم قِضَة ، وهو آخر أيامهم ، وكان على تغلب ، أسره الحارث بن عُباد ، وهو لا يعرفه ، فقال له الحارث : تدلنى على عدّى ابن ربيعة المهلهل وأنت آمن ؟ فقال المهلهل : إن دللتك على عدى فأنا آمن ولى دمى ؟ فقال الحارث : نعم ، قال : فأنا عدى : فجز ناصيته وخلاّه ثم خرج مهلهل فلحق باليمن ، فنزل فى جَنْب ، حى من مَذْحِج ، وكان صاحب لوائها معاوية الخير بن عمرو ابن معاوية ، فأجار مهلهلا ، ثم خطب إليه ابنته ، فتوقف مهلهل قائلا : إنى طريد غريب فيكم ، ومتى أنكحتكم قال الناس اعتسروه ، فأكرهوه حتى زوَّجها ، وكان مهرها أدما ، وفى ذلك يقول :

هانَ على تغلب بمـا لَقيتْ ... أُختُ بنى الأكرمين من جُشَمٍ (١)

---

(١) جشم فرع من تغلب كان مهلهل سيده .

أنكحَها فقـــدُها الأراقِمَ في جَنْبٍ ، وكان الحِباء من أدمِ [١]
لو بأبانَيْنَ جـــاء يخطبُهـا رُمِّـلَ ما أنفُ خاطبٍ بدَمِ [٢]

ثم انحدر فلقيه عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، عم المرقش وأبو صاحبته أسماء ، فأسره ومات المهلهل في إساره قريباً من عام ٥٣١ م .

كان مهلهل شاعراً ولم يكن محارباً ، ويعده علماء القرنين الثالث والرابع الهجرى في العراق أقدم ممثل للشعر العربي ، وهي فكرة سنناقشها فيما بعد ، وربما كان مصدرها بيتاً من الشعر ورد في لامية الفرزدق ، والتي ضمَّنها حديثاً عن عدد من شعراء الجاهلية ، ولمحاً من أخبارهم ، ونقدات سريعة لشعرهم ، وأشرنا لبيت منها قبلا ، والبيت الذى اتكأ عليه علماء العراق منها في اعتبار المهلهل أقدم شاعر هو :

وأخو بنى قيسٍ وهُنَّ قَتَلْنه ومهلهلُ الشعراء ذاك الأوّلُ [٣]

وطبقاً لرواية ابن النديم في كتابه « الفهرست » كان للمهلهل ديوان برواية الأصمعي وابن السِّكِّيت ، ولكنه ضاع ولم يصلنا ، ولو وصلنا لأفاد كثيراً في إلقاء بعض الضوء على فجر القصيدة العربية .

وكان لامرىء القيس خالان آخران ، هما عديّ وسلمة ، لم يبق لهما من خبر غير اسميهما ، ولم يَتَتَبَّعْ أحد آثار أحفادهم ، غير ليلى بنت مهلهل ، لأنها ستصبح أم الشاعر عمرو بن كلثوم .

تكاد الروايات تجمع على هذه الخئولة ، إلاّ رواية واحدة تقول إن أمّ امرئ القيس هي : تَمْلِك بنت عمرو بن زبيد من مَذْحِج ، فهي يمنية وليست عدنانية . واستشهد رواتها ببيت شارد ينسب لامرئ القيس أورده صاحب الأغاني :

ألاَ هل أتاها ، والحوادثُ جمّةٌ بأنَّ امرأ القيسِ بن تَمْلِك بَيْقَرَا

---

(١) الأراقم تطلق على أحياء من تغلب هم : جشم ومالك والحارث ومعاوية وثعلبة وعمر ، بنو بكر بن حبيب ابن غنم بن تغلب .

الحباء : المهر – الأدم : الجلد ، يريد أنهم لم يكونوا أرباب نعم فيمهروها الأبل ، وإنما دباغون للأدم ومنه كان مهرهم .

(٢) أبانان : جبلان ، يقال لأحدهما أبان الأبيض ، والآخر أبان الأسود ، وكانت في سفحهما منازل تغلب – رمل بالدم : لطخ به ، وما زائدة .

(٣) أخو بنى قيس : طرفة بن العبد .

ولم يرد البيت فى أى من مخطوطات ديوان امرئ القيس أو مطبوعه ، ويخيل إلىّ أنه صُنعَ ليدعم الخبر الذى تضمنته الرواية .

ترددتُ طويلا أمام خئولة كليب ومهلهل لامرئ القيس ، لأنه لم يعرض لهما ولا مرة فى شعره ، ولهما من الصفات ما يفتح أمامه مجال الفخر والادّعاء واسعاً وعريضاً ، ولتغلب من الأمجاد ما يحمل الانتساب فيها شرفاً وعزة . كما أن أحداث حرب البسوس وكانت قاسية ومريرة وقاسية وعمرّت طويلا ، لا تترك صدى من أى لون فى شعر امرئ القيس ، ولا يعرض لها من قريب أو بعيد . وإلى جانب ذلك يصرّح هو نفسه فى قصيدة له ثابتة ، يلتقى فى روايتها الأصمعى والمفضل الضبى وآخرون ، بأنّ خاله هو ابن كبشة[1]:

خالى ابنُ كبشةَ قد علمتَ مكانَه ... وأبو يزيدَ ورهطُـه أعمامى

وقد أماطت النقوش التى اكتشفت حديثاً فى اليمن اللثام عن هذه الشخصية وعرفنا منها أن اسمه يزيز ، وأن أبرهة ولاّه على كندة عام ٥٣٥م ، وامرؤ القيس لمّا يزل صبياً ، فتزعم ثورة وطنية ضد الاحتلال الحبشى كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

يمكن أن يقال تأييداً للرواية الأولى أن التزاوج بين كندة والعدنانيين كان شائعاً ، فأصهر عمرو المقصور فى بكر كى يكسب ودّهم ، وربما أصهر حجر فى تغلب ، وكانت على أيامه تتزعم القبائل العربية كلها فى الشمال الشرقى من الجزيرة بقيادة كليب وائل ، ليبلغ نفس الغاية . وأن امرأ القيس لم يعرض لحرب البسوس فى شعره لأن أحداثها انتهت مع مولده ، فلم يكتو بنارها ، ثم شُغِلَ عنها فى شبيبته بمباذله ، كما شغل فى هذه الفترة عن أحداث قبيلته نفسها ، ثم توزعته أحداث الثأر وطلب الملك رجلا ، ولأن أخواله – إذا ارتضينا الرواية – تخلوا عنه فلم يسايروه فى حروبه حتى النهاية فى البدء ، والتزموا من أسرته موقف العلماء فى خاتمة المطاف .

والرواية التى تقول إن كليباً قتل عمراً المقصور جد امرئ القيس ، قبل أن يولد هذا ، حين تزعمّ قبائل ربيعة فى محاولة لتحريرها من التسلط اليمنى . تدعم رواية المصاهرة ولاتضعفها ، فمن الشائع بين القبائل العربية فى القديم ، وحتى أيامنا

---

(١) لا نعرف شيئا عن ابن كبشة غير إشارة امرئ القيس ، وما ورد فى نقش أبرهة المشار إليه ، ومن تتبعى للأسماء الجنوبية يغلب على ظنى أن « كبشة » اسم سيدة ، وإذن يكون يزيد منسوبا إلى أمه لا إلى أبيه .

هذه ، أن تكون المصاهرة بين كبار رجال القبائل سبيلا إلى دعم الصلات ، وإزالة الإحن ، وتقريب أواصر الود . فلعل حجراً رأى فى إصهاره إلى سيدى تغلب شيئاً يمكن أن يخدمه فى مجال السياسة والسيادة كما أصهر أبوه من قبل فى بكر مصلحة لا عاطفة .

وتأتى رواية إصهار حجر فى تغلب مقترنة فى الأعم الأغلب ، بإصهار المنذر الثالث ملك الحيرة فى كندة (حكم من ٥٠٦م إلى ٥٥٤م) ، وزواجه من هند بنت الحارث بن عمرو ، أخت حجر وعمة امرئ القيس ، فكان له منها عمرو ابن هند طاغية الحيرة ، وحكم من ٥٥٤ إلى ٥٦٨م ، وإلى أمه ينسب ، وزواج المنذر من هند ثابت تاريخياً ، وانتسابها فى كندة قريب من اليقين . ولدينا شعر لعمرو ابن لأى بن مَوْألة بن عائذ بن ثعلبة ، من أشراف قبيلة بكر ، يخاطب فيه عمرو ابن هند ، ويفخر عليه بأن قومه من بكر عاونوا فى الأخذ بثأر خاله حجر ، وانتقموا له مع كندة من أعدائهم بنى أَسد ، وأمدّوا ابنه امرأ القيس بجيش هدم به الآمن من مساكنهم ، وقتل رجالهم وهزمهم فى الحرب :

عمرَو بنَ هندٍ إنَّ مَهْلَكَةً	قولُ السفاهِ وشدّةُ الغَشْمِ
وبنـــا تُدُورِكَ فى بنى أسدٍ	وَغَمٌ لخالك أكبرُ الـــوغمِ
قتلوا ابنَ أمِّ قطامِ سيّدَهم	حجـــراً وما برئوا من الإثمِ
فسما امرؤ القيس الهمامُ له	فى جَحْفلٍ من وائلٍ صُتْمِ
لَهُمُ فهدَّمَ مِن مساكنهمْ	ما كان أَرْعنَ آمنَ الهدْمِ
لم يلقَ حىٌّ مثلَ صَبْحتِهِمْ	فى الناسِ من قَتْلٍ ومن هزْمِ

وقد اعتنقت هند المسيحية ، بينما ظلّ زوجها المنذر على وثنّيته ، وبنت ديراً فى الحيرة أقامت له شاهداً أوردت فيه نسبها كاملا ، وحفظ لنا ياقوت فى « معجم البلدان » فقرات منه : « بَنَتْ هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو ، وأَمَة المسيح ، وأم عبده ، وبنت عبيده » ومن اعتساف الرأى أن نقبل أحد الخبرين ، وهو زواج المنذر من كندة ، ونرفض الآخر ، وهو إصهار حجر فى تغلب ، دون مرجح صريح ثابت من شواهد التاريخ .

لكنّ إشارة بيت الشعر على تفرّدها وإيجازها وقصورها لا مجال لإنكارها أو تجريحها ، وفيما أرى تعدل الروايات الأخرى . وانطلاقاً مع دلالتها يغلب على ظنى أن القول بخئولة

كليب ومهلهل لامرئ القيس مجرّد خبر نتلقاه ، لا نطمئن إليه يقينا ، ونتردد طويلا قبل أن نقول إنه مختلق من صنع الرواة . ولربما نحتاج إلى التوفيق بين الروايتين ، ودون أن نكذّب الرواية الأولى ، أو نتجاهل إشارة الديوان ، نرّجح أن حجراً تزوّج فاطمة بنت ربيعة ، وليس من الضرورى أن تكون أمّ امرئ القيس ، فمن الثابت أن حجراً تزوج بأكثر من امرأة ، ويخيّـل إلىّ أن النفور الذى كان قائماً بين امرئ القيس وزوجات أبيه كان مع فاطمة هذه ، لأنها ؛ تيهاً منها بشرف أسرتها ، وإحساساً بعراقة حسبها ، كانت تسرف فى الغطرسة على أميرات وأمراء البيت المالك الكندى ، مما بغّضها إليهم ، وأوغر صدورهم عليها . فأغفل امرؤ القيس الحديث عن قومها فى شعره متعمداً ، وانتظرت عمته هند ، زوج المنذر وأم عمرو ملك الحيرة ، الفرصة المواتية ، لكى تثأر لنفسها وقومها ، فتعمَّدت أن تذلّ فاطمة بنت ربيعة فى شخص ابنة أخيها ليلى بنت المهلهل ، وأم الشاعر عمرو بن كلثوم ، فأهانتها فى حفل عام ، وطلبت منها أن تخدمها حين دُعِي القوم إلى تناول الطعام ، ولم تسكت ليلى على الإهانة ، وأدرك ابنها ما أصاب أمه ، فانتقم لها بقتل عمرو بن هند نفسه .

وُلد امرؤ القيس فى ديار بنى أسد ، وهى وما حولها كانت مسرح تنقلاته ، ومعظم الأمكنة التى تردّد فى شعره من منازلهم ، عبر المنطقة التى تعرف بنجد ، وإليها نسبه ابن قتيبة على أى حال . ويبدو أن دائرة نشاطه كانت أوسع من ذلك ، فكان يرحل إلى اليمامة وإلى البحرين وإلى اليمن .

ولا نعرف له تاريخ ميلاد أكيداً ، وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى كان جلّة المستشرقين يدرسون امرأ القيس على أنه معاصر للرسول عليه السلام ، مُضَلّلين برواية فارسية جاءت فى كتاب « تذكرة الشعراء » لدولة شاه السمرقندى ، ولم يشر دولة شاه إلى المصدر الذى اعتمد عليه أو نقل عنه ، ومن بين هؤلاء المستشرقين سيل Sale الإنجليزى ، فى الفصل الثالث من مقدمته للترجمة الإنجليزية للقرآن ، وهنجشتنبرج Hengstenberg الألمانى فى مقدمته لمعلقة امرئ القيس عندما نشرها لأول مرة فى بونا عام ١٨٢٣ م ، وريسك Reiske فى مقدمته لمعلقة طرفة ، وهربلوه Herbelot فى مقال له عن لبيد بن ربيعة نشره فى المكتبة الشرقية . وكان رسموسن Rasmussen الوحيد فى عصره الذى أوضح فى كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام »

أن امرأ القيس كان معاصراً لعمرو بن هند ملك الحيرة (حكم من ٥٥٤م إلى ٥٦٨م) ، والحق أنه كان أقربهم جميعاً إلى الصواب .

بمقارنة الأحداث يمكن القول أن امرأ القيس طرق باب الحياة فى مشارف الربع الثانى من القرن السادس الميلادى ، قريباً من عام ٥٢٦م ، جاء إلى الدنيا وجدّه الحارث ملك على كندة ، وسلطانها يمتد فيشمل الحيرة ، وأبوه وأعمامه يتقاسمون قبائل وسط الجزيرة وشمالها الشرقى ، يحكمونها بالسياسة طوراً وبالقهر أطواراً ، وكان هو أصغر أخوته ، فلم يكن بدعاً أن يصبح الولد المدلل ملء نهاره صيد ولعب ، ومحتوى ليله شرب وطرب ، يسير مع جمع من صحبه ممن هم على شاكلته ، من أبناء أسرته المالكة ، أو من أبناء سادة الأسر العربية من طيئ وكلب وبكر وغيرهم ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه ، وخرج للصيد فتصيَّد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنّته قيانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء الغدير ، أو يمل هو طول المقام ، فينتقل منه إلى غيره وفى مثل هذا الفراغ فإن المرأة تكوِّن الاهتمام الأول للرجل ، وبخاصة إذا كان جميلا وسيما قسيما ، يأمل أن يكون فارس ميدانه . ولقد كان امرؤ القيس كذلك ! .

لكن الترف وحده لا يفسر إدمان امرئ القيس على الرحلة ، وابتعاده الدائم عن مواطن الأسرة ، وفيما يبدو لى لم تكن صلته بوالده حجر ، وكان متزوجاً من أخرى غير أمه ، صلة وثيقة ، عمادها العطف والبر ، وأنه كان يفتقد عند أهله الحنان الذى يشد الأطفال إلى البيت ، ويجمع الصبيان إلى الأسرة ، ويجعل من الاحترام المتبادل بينهم عرفاً سائداً ، ولقد كان الأب ضائقاً بسيرة الابن ، فحاول أن يقوّمها ، وأن يحمّله المسئولية صغيراً ، فوكل إليه رعاية أملاك الأسرة من الإبل ، لكن امرأ القيس فشل فى ذلك ، وترك تنميتها إلى مباهجه . وتكاد الروايات تتفق على أنه كان دائم الخلاف مع والده ، وتعطى لذلك أسباباً مختلفة .

رواية ترجع السبب إلى أن امرأ القيس عشق عُنيزة ابنة عمه شُرَحبيل ، وطلبها زماناً فلم يصل إليها ، فكان محتالا يطلب الغرة من أهله . فلم يمكنه ذلك حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ، حين ارتحل الحىّ ، فتقدم الرجال وخلّفوه النساء والعبيد والعسفاء والثَّقَل ، فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعد قومه غلوة ، فكمن فى غيابة من

الأرض حتى مرّ به النساء ، فإذا فتيات فيهن عنيزة ، فلما رأين الغدير قلن : لو نزلنا فى هذا الغدير واغتسلنا ليذهب عنا بعض الكلال ، فقالت إحداهن : فافعلن ، فعدلن إلى الغدير فنزلن ونحيّن العبيد عنهن ودخلن الغدير ، فأتاهن امرؤ القيس محتالا وهن غوافل ، فأخذ ثيابهن وهن فى الغدير ، ثم جمعها وقعد عليها وقال : والله لا أعطى جارية منكن ثوبها ، ولو ظلّت فى الغدير إلى الليل ، حتى تخرج كما هى مجردة فتكون هى التى تأخذ ثوبها ! فأبَيْن ذلك عليه حتى ارتفع النهار ، فخشين أن يقصرن دون المنزل الذى يردنه ، فخرجت إحداهن فوضع لها ثوبها ناحية فمشت إليه فأخذته ولبسته .

ثم تتابعن على ذلك حتى بقيت عنيزة ، فناشدته أن يضع لها ثوبها ، فقال : لاتمسيه حتى تخرجى عريانة كما خرجن ! فخرجت ونظر إليها مقبلة ومدبرة ، فوضع لها ثوبها فأخذته ولبسته ، فأقبل النسوة عليه فقلن له : غدّنا فقد حبستنا وجوّعتنا ! فقال : إن نحرت لكن ناقتى تأكلن منها ؟ فقلن : نعم ، فاخترط سيفه فعرقبها ثم كشطها ، وجمع الخدم خطباً كثيراً فأجّج ناراً عظيمة ، فجعل يقطع لهن من كبدها وسنامها وأطايبها فيرميه على الجمر ، وهن يأكلن منه ، ويشربن من فضلة كانت معه فى زقّ له ، ويغنّيهنّ ، وينبذ إلى العبيد من الكباب حتى شبعن وشبعوا ، وطربن وطربوا ، فلما ارتحلوا قالت إحداهنّ : أنا أحمل حشيته وأنساعه : وقالت الأخرى : أنا أحمل طنفسته ، فتقسّمن متاع راحلته وزاده بينهن ، وبقيت عنيزة لم يحمِّلها شيئاً ، فقال لها امرؤ القيس : يا بنت الكرام ، ليس لك بدّ من أن تحمليني معك فأنا لا أطيق المشى ولم أتعوده . فحملته على بعيرها فكان يميل إليها ويدخل رأسه فى خدرها ويقبلها ، فإذا مال هودجها قالت : يا امرأ القيس ، قد عقرت بعيرى ! حتى إذا كان قريباً من الحى نزل فأقام ، حتى إذا أجنّه الليل أتى أهله فقال فى ذلك :

قِفَا نَبْكِ مِن ذكرى حبيبٍ ومنزلِ	بسقط اللوِّى بين الدَّخُول فحوملِ
.. ..	.. ..
ألا ربَّ يومٍ لك منهنّ صالحٍ	ولا سيا يومٌ بدارة جُلْجُلِ
ويومَ عقرتُ للعذارى مطيّتى	فيا عجباً لرحلها المتَحَمَّلِ
فظلَّ العذَارى يرتمين بلحمها	وشحمٍ كهدّاب الدِّمقس المفَتَّلِ
ويوم دخلتُ الخدر خدرَ عُنَيْزةٍ	فقالت : لك الويلاتُ إنك مُرْجلى

تقول ، وقد مال الغبيطُ بنا معاً : عقرتَ بعيرى يا امرأ القيس فانزلِ
فقلت لها : سيرى وأرخى زمامَــه ولا تُبعدِينى عن جنَاكِ المعَلَّلِ

.. ..

وأن ذلك أغضب والده منه وأثاره عليه فطرده ، وَهى رواية نقبلها جملة ، ونتحفّظ إزاء تفاصيلها .

ورواية البغدادى فى « خزانة الأدب » أنه كان يشبِّب بزوجة أبيه ، هرٍّ بنت سلامة بن عبد ، وأم الحارث بن حصين بن ضمضم بن جناب الكلبى ، وأن أباه غضب لذلك فأقصاه عنه ، وشعْر امرئ القيس يعرض لهرّ هذه ثلاث مرات . يكنى لها مرة ، ويذكر اسمها صريحاً مرتين . فقــد أشار إليها كناية فى البيت السابع من المعلقة ، متأسِّياً عن حاضره بماضيها ، ومؤملا أن يكون له مع صواحبه اليوم ما كان له معها بالأمس :

كدأبكَ من أمِّ الحويرث قبلها وجـارتِها أمِّ الرباب بمأســلِ

والثانية فى المقدمة الطللية للقصيدة الرابعة عشرة من الديوان فى طبعته الجديدة وهى من رواية الأصمعى ، ومطلعها :

لَعَمْرُكَ ما قلبى إلى أهــله بحــرّ ولا مقصرٍ يوماً فيــأتينى بِقرّ

وفيها يرسم صورة أخَّاذة لامرأة جميلة ، إن شبَّهتها بالنعاج لجمال عينيها فأنت مصيب ، وإن شبهتها بالدمى لتناسق قوامها فأنت مصيب ، وتعوّد امرؤ القيس أن يراها ، وأن يشرب عندها ، مذ كان وليداً ، حتى ذهبت بشبابه ، وتعوّد أن يقبّلها فيجد لفهما طعم خمر معتقة مستوردة من أكرم مكان تصنع فيه :

أُغادى الصبوحَ عند هرٍّ وفَرْتَنى وليداً ، وهل أفنى شبابى غيرُ هرّ (١)
إذا ذقت فاهَا قلت : طعمُ مُدامةٍ معتَّقة ممــا يجىء به التُّجُــرْ (٢)
هما نعجتـــان من نعاج تبـــالة لدى جُؤذريْن ، أوكبعض دُمى هَكِرْ (٣)

وفى المرة الأخيرة عرض لها فى مقدمة طللية أيضاً ، وتساءل عنها : أظعنتْ أم

---

(١) الصبوح : شرب الغداة .
(٢) المدامة : الخمر – المعتقة : القديمة – التجر : تجار الخمر .
(٣) النعجة : أنثى بقر الوحش – الجؤذر : ولدها – تبالة وهكر : اسما مكانين .

مقيمة ؟ ويتجاوز السؤال ليقرر أن جمالها مصيدة رجال ، لا يكاد أحد يراها حتى تطوّق قلبه ، فيصبح أسير هواها ، وافلت منها حجر أبوه فلم يقع فى حبائلها ثم رمته هو فأصابت قلبه ، فوقع صريع هواها ، لكنه لم يستطع أن يصنع معها ما صنعت معه فيوقعها فى شباك غرامه :

وفيمن أَقام مِن الحيّ هِـــــرٌّ ... أم الظاعنون بها فى الشُّطرْ (١)

وهِـــرٌّ تصيد قلـــوبَ الرجال ... وأفلتَ منها ابنُ عَمْرو حُجُرْ

رمتنى بسهمٍ أصـــابَ الفؤادَ ... غـــداةَ الرحيلِ فلمْ أنتصرْ

واتفق شرّاح الديوان على أن أم الحويرث فى المرة الأولى هى : هر أخت الحارث ابن حصين بن ضمضم . وفسروها فى المرة الثانية بأنها كانت جارية لامرئ القيس . وفى المرة الأخيرة قالوا إنها ابنة سلامة بن عبد ، أو عبد الله بن عُليم من كلب ، وابنها الحارث بن حصين بن ضمضم بن جناب الكلبى ؛ وهى الرواية التى اعتمدها البغدادى قبـــلا .

لكن تصويرها فى الأبيات يُبعد أنها كانت زوجة لحجر ، أوحتى زوجة لأى رجل ، كذلك يَبعد أنها كانت جارية لامرئ القيس نفسه ، وفيما يلوح لى كانت جارية لحجر ، وكانت تعشقه ، وكان هو موزع القلب مشغولا عنها ، فحاول الابن وليداً مراهقاً أن يجد عندها منفذاً لطاقاته المكبوتة فى مجال الغريزة أو الشعور . ولا نستبعد مع هذا التفسير أن يكون الابن قد شبّب بامرأة أخرى لأبيه ، وأن أباه غضب لذلك وطرده ، فمن ينصب الشباك لابنة عمه عاشقاً ، ويلاحق جارية أبيه متغزّلا ، يمكن أن تقع عينه على زوج أبيه مشتهياً ، وليس فى أخلاق امرئ القيس كما يصورها شعره ما يأبى أيّا منها ، وليست تأباه على النحو العنيف مثاليات أسرة يقبل الجد الأقرب فيها مبادئ مذهب يدعو إلى أن يكون المال والنساء على المشاع ، ثم يورثه ابنه من بعده سلوكاً ، فنحن نعلم أن مما أثار قبيلة أسد على حجر ملكها ، أنه كان يغير على نسائها . كما أن امرأ القيس خلف أباه حجراً على زوجته هند بنت ربيعة بن وهب بن الحارث ، بعد وفاته ، ولم تكن أعقبت منه نسلا ، وكان ذلك من الجائز المقبول فى شريعة الجاهليين ، ولا أراه كان مستحبًّا أو مرغوباً فى شرعة الذوق السليم .

---

(١) الشطر : جمع شطير ، وهو البعيد .

كذلك كان أبوه غير راض عنه شاعراً ، روى الأصمعى قال : بينا امرؤ القيس قاعد ذات يوم وهو يشرب مع أبيه ، وهو غلام حين احتلم ، وأبوه يشرب مع ندمائه وفتية من أهل بيته ، إذ مرّ عليهم الساقى بالكأس ، فقال امرؤ القيس :

اسْقِيَا حجـــراً على عـــلاتّه   من كمَيْت لونُها لونُ العلَقْ

فسمعه أبوه ، فقال للساق : الطُمْ وجهه ، وأخرجه عنى ، وقال له : إياك أن أسمعك تقول شعراً فأقتلك ! وكان حجر يرفع نفسه عن الشعر وولده ، فغبر امرؤالقيس بذلك زماناً ، فكان لا يقول الشعر إلا سرّا مخافة من أبيه . فبينا أبوه ذات يوم نائم فى قبّته وقد شرب حتى طابت نفسه إذ انتبه وامرؤ القيس يشرب من فضل آنية أبيه وهو يقول :

وهـــرٌ تصيد قلـــوب الرجال   وأفلتَ منهـــا ابنُ عمرو حُجُرْ

فوثب إليه أبوه ، فجعل يجَأ فى عنقه حتى أدمى منخريه ، ثم طفق يلطمه ويقول ألم أنهك عن أن تقول شعراً ، وعن أن تذكرنى فى شعرك ! ثم دعا مولى له يقال له ربيعة – وكان حاجبه – فقال له : انطلق بهذا إلى موضعٍ فاقتله ، فإنى لا أظنه إلا سيشتمنا ، وجئنى بعينيه . فانطلق ربيعة ، فاستودعه رأس جبل مُنيف . وعرف أن أباه سيندم على قتله إذا هو صحا من سكره ؛ فعمد إلى جؤذر كان عنده فذبحه وانتزع عينيه ، فاحتملهما إلى حجر ، فقال له حجر : أقتلتَه ؟ قال : نعم ، قال : فأين عيناه ؟ قال هاهما ؛ فوقعت الندامة على حجر وهمّ بقتل ربيعة . فلما رأى ذلك ربيعة قال : أبيت اللعن ! إنى استودعته ولم أقتله ، قال : فأين هو ؟ قال : فى موضع على رأس الجبل ، قال : فائتنى به ، فانطلق ربيعة إلى امرئ القيس فوجده حيث خلفه ، وسمعه وهو يقول ، وظن أنه قاتله :

لا تُسْلمَنّى يا ربيعُ لهـــذه   وكنتُ أرانى قبلها بك واثقـــاً

مخالفـــةٌ نوى أسيرٍ بقـــريةٍ   نوى عربيات يَشِمْن البوارق[١]

فإما ترينى اليوم فى رأس شاهقٍ   فقد أغتدى أقودُ أجردَ تائقا[٢]

---

(١) النوى : النية ، أى الوجه الذى يقصدونه – يشمن : أى ينظرن أين وقع السحاب وفيه البرق .

(٢) الشاهق : الجبل المرتفع – الأجرد : الفرس القصير الشعر – التائق : الممتلئ من كل شىء ، أرادها ها هنا اجتماع السلاح عليه وكماله .

وقد أذْعرُ الوحشَ الرِّتاعَ بقفرةٍ وقد أجتلى ببعض الخدود الروائقا (١)
نواعمُ تجلو عن متـــونٍ نقيّةٍ عبيراً وريطـــاً جاسدا وشقائقا (٢)

كان والده يأنف أن يقول ابنه الشعر لأنه ملك ، وكان امرؤ القيس حريصاً على قوله ، وهى رواية تدعمها الإشارات التاريخية فى مضمونها ، ولا بأس بعد ذلك أن يكون القصّاص قد أضافوا إليها شيئاً من أفاويه الأساطير ، فقد كان الأب يمانيًّا ، ولم يحفظ لنا التاريخ أن ملوك اليمن كانوا بالشعر محتفين ، أى شعر حتى ولو كُتبَ فى العصر الذى خلّف العديد من النقوش والآثار . وهو شيء كان يشاركهم فيه سادة القبائل فى الشمال ، فقد كان للقبيلة سيدها وشاعرها ، وَقلّما كان السيد شاعراً . ولا بأس أن يكون بين اليمنيين من عاش فى الشمال ورأى احتفاء الناس بالشعر ، فأعجب به وكافأ عليه وهادَى قائليه ، ففرق بين الإعجاب بشيء سياسة أو عاطفة ثم احترافا ، وفى مطلع هذا القرن كان علية القوم فى مصر – وفى غير مصر من العالم العربى – يستجدون الصحافة أخبارها وثناءها . وليس بينهم من يرضى لابنه أن يكون محرراً فى صحيفة أو حتى رئيس تحرير . وحتى أيامنا هذه فإن كثرة لا بأس بها فى مجال الكم والعدد ، تعجب بالتمثيل وتُصَفِّق لأهله ، لكنها لا ترتضى لأحد من بنيها أن يعتلى خشبة المسرح ينثر المرح والبهجة ، أو يصنع الحزن والتفكير .

وإلى جانب ذلك لم يكن امرؤ القيس محبوباً من النساء ولا مطلوباً ، غير موفّق فى حياته العاطفية ، كثير الزواج كثير الطلاق ، مئناثاً مفرّكا يفتقد أهم ما يطلب فى الزواج وما من أجله تتزوج المرأة . وعندما هرب من المنذر بن ماء السماء وجاور فى طيّء تزوج أم جندب ، وبدا له أن يسألها يوماً : « ما يكره النساء منى ؟ قالت : يكرهن منك أنك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الإراقة ، بطيء الإفاقة . وسأل أخرى عن مثل ذلك فقالت : يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب ! فقال : أنت صدقتنى ، إن أهلى أرضعونى بلبن كلبة » !

---

(١) أذعر : أفزع – الرتاع : اللواتى يرتعن ، وأصله من الرعى ، وكثر ذلك فى كلامهم حتى سيروه إلى اللهو واللعب – القفرة : الأرض الخالية – أجتلى : أنظر – الروائق : المعجبات ، بين النساء .

(٢) المتون : الظهور – الريط : الأبيض من الثياب – الجاسد : الثوب المشبع من الزعفران ، شبه حمرة الثياب بشقائق النعمان .

ولقد صدقته الأولى ، وسخرت منه الثانية فلم يفطن لها أو فطن وآثر التسليم ، يوهم نفسه ، أو يوهم المرأة ، صدق ما قالت ، وكان فى الحالين هو المخدوع الوحيد ؛ لأنه يعرف أكيداً كما تعرف هى ألاّ صلة بين نتن العرق ورضاع لبن أشد الحيوانات ضعة فى الصحراء ، ولم يكن من عادة أجلاف البدووغلاظهم أن يرضعوا لبن الكلاب ، فكيف بمن كان أبوه ملكاً يتقاسم مع أبنائه الشراب ، ومن كانت أمه بعض أمجادها أنها أخت سيدى تغلب مهلهل وكليب فى رواية ، أوأخت يزيد بن كبشة أول حاكم على كندة فى اليمن من قبل أبرهة فى رواية أخرى .

وكما افتقد فى أسرته العطف والهدوء النفسى ، افتقد بين زوجاته الحب والتقدير ، فلم يكنّ حريصات على رضاه أو مناغاته ، وكان هو من جانب آخر سيئ الظن بهن ، سريعاً إلى التخلّص منهن .

عندما كان مجاوراً فى طيئ نزل به علقمة بن عبدة التميمى ، فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك ، فقال علقمة : قد حكّمتُ امرأتك أمّ جُندُب بينى وبينك ، فقال قد رضيتُ . فقالت أم جندب : قُولاَ شعراً تصفان فيه الخيل على روىّ واحد وقافية واحدة . فقال امرؤ القيس قصيدته التى أولها :

خليليَّ مرّا بى على أمِّ جنـــدبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفؤادِ المُعذّبِ

وقال علقمة قصيدته التى أولها :

ذهبتَ من الهجران فى كلّ مذهبِ ولم يك حقّا كل هذا التجنُّبِ

فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منك ، قال : وكيف ، قالت : لأنك زجرتَ فرسك ، وحرّكتَه بساقك ، وضربتَه بسوطك ، فى قولك :

فللساقِ ألهوبٌ ، وللسوط دِرّةٌ وللزجْرِ منه وقْع أهوجَ منْعَب [1]

أما علقمة فأدرك الصيد ثانياً من عنان فرسه ، لم يضربه بسوطه ، ولم يَمرِه بساقه ، ولم يزجره ، حين قال :

فأقبلَ يهوى ثانياً من عِنــانِهِ يَمرّ كمرِّ الرائحِ المتحلّبِ

فقال لها : ما هو بأشعر منى ، ولكنّك له عاشق ! ثم طلّقها ، وخلفه عليها علقمة ، فسمى الفحل لذلك . وقد أنكر كليمان هوار Clement Huart القصة ،

(١) المنعب : الذى يستعين بعنقه فى الجرى وعده .

ورآها ضرباً من الخرافة ، بزعم أنّ الشاعرين لم يلتقيا ، وأن علقمة وُلِد بعد وفاة امرئ القيس ، وتبعه فى إنكاره بعض الباحثين العرب المحدثين والواقع أنَّ امرأ القيس تُوفى قريباً من عام ٥٦٥م ولدينا شعر لعلقمة يرجع أكيداً إلى نحو عام ٥٥٤م ، على نحو ما سنفصّله بعد قليل (١) .

من وجهة النظر النقدية الخالصة لم يكن الحق فى جانب أم جندب وكان مع امرئ القيس ، وإشارته إلى أن تحريك الساق يلهب الفرس فى الجرى ، وضربه بالسوط يجعلهُ يدرّ فى العدْو ، وزجره يجعله كالأهوج لا عقل له ، تصوير لما يجرى فى الصيد والسباق ، ولِما يحدث لفرسه ولغير فرسه أحياناً ولا يفهم منه – فى غير مجال التحامل – أن فرس امرئ القيس كان كليلا لا يسبح فى عدوه إلا إذا غُمز بالساق وأُلهب بالسوط . وفى البيت التالى للبيت الذى اتخذته أمّ جندب أساساً لتفضيل علقمة على امرئ القيس ، حقّق امرؤ القيس الشرائط التى رجّحت كفة علقمة ، فأبان أن فرسه أدرك الوحش دون تعب أو مشقة ، فى طَلَق واحد لشدة جريه ، وكان فى سرعة عدوه كلعبة الخذروف يديرها غلام ماهر :

فأدركَ لم يجْهدَ ، ولم يَثْنِ شــأْوَه يمرّ كخذروف الوليدِ المثَقَّبِ

لقد تغلّب هوى الأنثى فى أمّ جندب على حيدة الناقد ، وعبَّرت – ربما من حيث لا تدرى – عن نفور داخلى تحسُّه فى أعماقها نحو زوجها ، فكان نقدها انعكاساً لنفس كارهة أكثر منه حكماً لامرأة متذوّقة أو ناقدة .

ومن جانب آخر لو لم تقم حياة امرئ القيس على ضيق من رأى زوجاته فيه رجلا ، لتقبل نقدها راضياً ، أو لتعزَّى عنه متسلّياً ، لكنه مضى سريعاً يلمس الجانب الذى يحس بعجزه عن توفيره لها فطلقها .

ولا ينفى ذلك أن أم جندب نفسها لم تكن حريصة على استرضائه ، أو فى الأقل على تجنب إثارته ، إن لم تكن فى ذلك راغبة ، حتى ولو كانت على صواب ، وإلاَّ لاستطاعت أن تعبِّر عما تريد دون أن تفجع زوجها فى مباراة على هذا النحو . وكانت المرأة العربية فى عصر امرئ القيس ، وما بعد عصره قادرة دائماً على تجنب هذه المزالق ، وتجاوزها بما يعلى قدرها فى مجال العاطفة ، ولا يحط من حصافتها فى مجال التقويم

(١) انظر الفصل الخاص بالرحلة إلى قيصر.

والتقدير . ولقد عرض الأمر للخنساء الشاعرة حين نازل أخوها معاوية أباه عمرو بن الشريد فى سباق خيل ، وسبق الأب ابنه ، فتوزعتها العاطفة ، وحار قلبها بين إجلال الأب وحبّ الأخ ، فكانت لها هذه الأبيات التى تتسم بالذكاء اللمّاح والتخلّص اللبق ، فلم تجعل سبْق أبيها ناجماً عن عجز أخيها ، ولكن ما خالط قلب معاوية من هيبة أبيه وجلال قدره وكبر سنه ، قلّل من جرأته على أن يسبق أباه :

جارَى أباهُ ، فأقبــلا وهُما ... يتعــاوران مُـلاءةَ الحضْرِ
حتى إذا نَزَتِ القلوب وقــدْ ... لـزَّتْ هنــاك العُذرُ بالعُذرِ
وعلا هُتافُ الناسِ : أيُّهما ؟ ... قال المجيبُ هناك : لا أدرى
برزتْ صحيفةُ وجــهِ والدهِ ... ومضى على غُلَوَائه يجـرى
أوْلى فأوْلى أن يســاوِيهَ ... لـولا جــلالُ السِّنِّ والـكِبْرِ
وهمــا ، وقد برزا ، كأنهمــا ... صقران قد حطَّا على وكْـرِ

ومن بعدها سُئلتْ فاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية عن أولادها الأربعة ، عمارة والربيع وأنس وقيس ، وكان يقال لهم الكمَلَة لفضلهم : أىُّ بنيك خير ؟ قالت ثِكلتُهم إن كنتُ أعلم أيّهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » .

وهو تخلّص جميل ، لأن الطبيعى أن يتقارب الناس فى الكمال ، يرجح أحدهم فى جانب وتشيل كفته فى جانب آخر ، وليس من الطبيعى فى شيء أن يكون الأبناء نسخاً مكرورة حتى فى المواهب والفضائل . لكنها أمّ لا تريد أن تأخذ من بنيها موقف المفاضلة ، ولو كانت تصنع ذلك فى الواقع ، أو تشعر به فى خفايا النفس وبين طيات الضمير .

أىّ أديان العرب كان يملأ وجدان امرئ القيس ؟ لم يعن أحد من القدامى بإلقاء بعض الضوء على عقيدة امرئ القيس الدينية ، والسبب واضح ، فما دام قد عاش قبل الإسلام فهو جاهلى ، وما دام جاهليًّا فهو وثنى ، شأن الكثرة الغالبة من قومه ، فلا ضرورة أن يشار إلى دينه ، ولا ضرر فى أن يترك ذلك لفهم الدارس وفطنته

وطوال ثلاثة عشر قرناً خلت ، كان الناس يرون فى امرئ القيس وثنيًّا ابن وثنىّ ، حتى جاء الأب لويس شيخو[1] فى مطلع هذا القرن ، فألّف كتابه « شعراء النصرانية » ،

(١) كان الأب لويس شيخو راهباً ومبشراً ومتخصصاً فى الآداب العربية ، وأستاذاً فى الجامعة اليسوعية =

وحاول فيه أن يجعل من معظم الشعراء الجاهليين ، وامرؤالقيس فى طليعهم ، مسيحيين . ومسيحية امرئ القيس لم يشر إليها ، فيا أعلم ، أى مصدر عربى أصيل صراحة أو ضمناً ، وليس فى شعر امرئ القيس ما يبرر افتراضها . ولكن ذلك لا ينفى أن امرأ القيس كشاعر كان يرسم بعض صوره الشعرية بمادة ملتقطة من جو مسيحى ، فوجه حبيبته يشرق فى الظلام إشراق مصباح راهب متعبد فى جوف الليل :

يُضىءُ الظـــلامَ بالعشاءِ كأنّه ‏ ‏ منـــارةُ ممسىَ راهبٍ متبتِّـلِ

والبرق يتألق وميضه فجاءة ، فى سرعة خاطفة ، تألق مصباح الراهب أميلت فتيلته بصب الزيت عليها :

أصاحِ ترى برقاً أُريكَ وميضَهُ ‏ ‏ كَلمع اليدينِ فى حَبىٍّ مكلّلِ
يضىء سناهُ ، أو مصابيحُ راهبٍ ‏ ‏ أمالَ السليطَ بالذُّبالِ المفتَّلِ

ويتخيل حبيبته من بعيد ، فيمد إليها بصره عبر المسافات الشاسعة ، يصنع ذلك ليلا ، والنجوم تلمع فى السماء لمعان مصابيح الرهبان توقد مساء ليهتدى بها السائرون :

تنوّرتُهـــا من أذرعاتٍ ، وأهلُهـــا ‏ ‏ بيثربَ ، أدنى دارها نظرٌ عالِ
نظرتُ إليهـــا ، والنجومُ كأنها ‏ ‏ مصابيحُ رهبانٍ ، تُشَبُّ لقفَّالِ

وفى واحدة من رحلات صيده ، يصوّر لنا الثور تطارده الكلاب ، فإذا أدركته التفت به ، وأخذت بساقه ، ومزقت بدنه ، كما يلتف الصبيان حول حاج مسيحى قادم من بيت المقدس ، يخرقون ثيابه تمسحاً ، ويمزقونها تبركاً :

فأدركْنَهُ يأخذْنَ بالساقِ والنســـا ‏ ‏ كما شَبرقَ الولدانُ ثوبَ المقدِّس (١)

وناقته صلبة قوية ، تطوى الطريق سراعاً ، وتتحمل العنت صابرة ، ثابتة أمام تقلب الطبيعة كألواح تابوت موتى النصارى :

وعنسٍ كألواحِ الإرانِ نسأتُهـــا ‏ ‏ على لاحبٍ كالبُرْد ذى الحبرات (٢)

= فى بيروت . ولد فى ماردين بالجزيرة عام ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٩م ، وانتقل إلى لبنان فتربى فى مدرسة الآباء اليسوعية فى غزير ، وانتظم فى سلك الرهبنة الكاثوليكية ، وأنشأ فى عام ١٨٩٨ م مجلة « المشرق ». ومن مؤلفاته أيضاً : « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » ، وتوفى ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م .

(١) النسا : عرق – شبرق : مزق .

(٢) عنس : ناقة – الإران : سرير الموتى للنصارى – لا حب : طريق بين .

ويصف قدم الدار ، بَعُدَ بها الأنيس حتى تغيرت رسومها ، ودرست آثارها فأصبحت كخط الكتب فيما تقادم من مصاحف الرهبان :

أتتْ حججٌ بعدى عليها فأصبحتْ   كخطِّ زبورٍ فى مصاحفِ رهبانِ

وربما أوهم القائلين بمسيحيته أن أمه من تغلب فى رواية ، وكانت عامة تغلب تعتنق المسيحية فيما يقال ، وعمته هند أم عمرو بن هند تمسّحت وبنت لهـا ديراً ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

لكن ذلك كله وأكثر منه لا يكفى دليلا على أن امرأ القيس اتخذ المسيحية ديناً . وغاية ما فى الأمر أن شمال الجزيرة الشرقى أصبح منذ القرن الخامس الميلادى هدفاً لحركات تبشيرية متوالية ، فكان المبشرون يتجولون فى مضارب البدو لدعوتهم إلى المسيحية ، وبعض الأجانب يتناثرون فى الحواضر وأطراف نجد يتجرون فى الخمور ويدعون إلى المسيحية فى نفس الوقت ، وأن صوامع عديدة تناثرت على حافة الصحراء ، ولو أن جانباً كبيراً من نجد ظل بعيداً عن نشاط المبشرين . وكان موقف العرب من المسيحية متحفظاً فى الحواضر ، بينما كان البدوى يزدرى المسيحيين واليهود على السواء . وبعض القبائل التى اعتنقت المسيحية كجذام وتغلب وعاملة كان إيمانها رقيقاً للغاية ، لا يتجاوز بعض المظاهر الشكلية التى لا تصطدم مع العرف الجاهلى الوثنى ، ولم يمثّل فى طريقها أية عقبة فيما بعد ، لكى تُقبل كغيرها من القبائل الوثنية على اعتناق الإسلام .

ومع هذا يمكن القول أن زهد الرهبان ونسكهم ، وحياتهم الخاشعة المتقشّفة ، فى أديرة نائية منعزلة ، يوقدون نيرانها ليلا ليهتدى بها الضالون فى حلكة الليل ، والحائرون عند مفارق الطرق ، وما يقدمونه من نماذج خيّرة حين يجعلون من صوامعهم مراكز للأسعاف والإيواء فى أيام القحط والأوبئة ، كان يثير كوامن الشعور عند البدو ، ويلهب خيال حُداة القوافل ، ويثير أحاسيس الشعراء ، ويقدم لهم مادة جديدة وطريفة للتمثيل والتصوير كالمقارنة بين مصابيح الرهبان ونجوم الليل والوجوه المشرقة ، وما تثيره نواقيس الصوامع ، فى جرسها الرتيب ، عبر الفيافى الموحشة ، لدى القوافل الراحلة يقول المتلمس [١] :

---

(١) شاعر جاهلى ، كان شابا حين كان امرؤ القيس يطرق أبواب الشيخوخة ، وسنأتى على خبره فى الفصل الخاص بامرئ القيس وأولية الشعر العربى .

حنَّتْ قلوصى بها والليلُ مطَّرقٌ   بعد الهدوِّ ، وشاقَتها النواقيسُ

إلا أن إعجاب الشعراء ، وهم فنانون أصحاب حسٍّ رقيق ، بهذه النماذج شيء ، واعتناقهم المسيحية شيء آخر ، وإلى مثل هذا الإعجاب يمكن أن نُرُدَّ الإشارات المسيحية القليلة الواردة فى شعر امرئ القيس ونلحظ أنه حين يعجب بهذه النماذج ، ويتخذ منها المثل ، لا يقف عندها وحدها ، ولا يُغفل غيرها من كل جديد مثير لأنه ليس بمسيحى . وإذا كانت مصابيح الرهبان أداته لتوضيح ضوء النجوم ، وإشراق وجه الحبيبة ، فأبنية اليهود الآمنة المتينة العالية المحصّنة وسيلته لتصوير نياق صاحباته فى طولها وأمنها وقوتها وامتلائها :

فعزَّيتُ نفسى حين بانوا بِجَسْرةٍ   أمونٍ كبنيانِ اليهودىِّ خَيْفق[1]

أما الأب أنستاس الكرملى فسلك بالأمر طريقاً أخرى ، حاول أن يلتمس لامرئ القيس ديناً فى ضوء أخلاقه وما يصوِّر شعره ، فوجده تميز من بين شعراء عصره بالفكرة الجريئة ، والتعبير الفاضح ، والخروج على ما هو متعارف عليه من حدود القول ، وفى حياته الشخصية عُرف بالعكوف على الملذات ، والإسراف فى اللهو ، وكثرة الزواج وسهولة الطلاق ، والتطلّع إلى زوجات أبيه ، وتعشُّق بنات عمه ، فحاول أن يردَّ ذلك إلى ما كان سائداً من المذاهب الاجتماعية فى عصره ، ووجد المزدكية أقرب ما تكون منه فنسبه إليها .

وأعتقد أن خلق امرئ القيس كان استجابة لغرائز منطلقة ، أكثر منه اتباعاً لفلسفة معينة ، ولقد اعتنق جده الحارث المزدكية مصلحة لادينا ، ثم عدل عنها حين لم تعد مصلحة ملكه تقتضيها ، كما عدلت عنها فارس نفسها ، وتتبعت معتنقيها قتلا وإفناء ، وليس فى تاريخ جده وأسرته ما يشير إلى أنها بقيت فيهم ديناً ، وإن كنت أميل إلى أن جانباً من عهد امرئ القيس مرده إباحية فاشية فى أسرته ، وأن إقبال جده على اعتناق المزدكية حين اقتضت مصلحته ، كان نتيجة لهذه الإباحية ولم يكن سببا فيها . وفيما خلا هذا الجانب من حياة امرئ القيس ، ليس فى سيرته ، محارباً وطالب ثأر ومسرفاً فى الانتقام ، ما يتفق ومبادئ المذهب المزدكى ، وقد جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والأمم ، وينهاهم عن المباغضة والقتال .

---

(١) بانوا : انقطعوا — الجسرة : الناقة — الخيفق : الطويلة .

انتفى إذن أن يكون امرؤ القيس مسيحيًّا أو يهوديًّا أو مزدكيًّا ، وبقى له ما يفترض أن يكون عليه من العقيدة ، وما يفهم من كتب التاريخ التى تحدثت عنه تفصيلا ، أو عرضت له فى مقام الإشارة والإجمال ، وثنيًّا على دين آبائه وأجداده ، ولا يقدح فى عقيدته أن يأتى من الأفعال مالا يستقيم معها ، أو ما هو من خصائص غيرها ، فالوثنية لا تستوعب المؤمن بها فتمنعه أن يأخذ بعض الصفات من هنا ، وأن يتقبل بعض الآراء من هناك . والشاهد الوحيد على وثنيته أورده الأغانى ، حين أشار إلى حجّه إلى ذى الخُلصة ، واستقسامه بالقداح عنده ، حين خرج لغزو بنى أسد ثأراً لأبيه ؛ فلما خرج له « الناهى » ثلاث مرات جمع القداح وحطّمها ، وقذف بها فى وجه الصنم . وهى رواية تحمل من مرجّحات الصدق ما يجعل منها يقيناً ، على غير ما يبدو للوهلة الأولى . فاختيار ذى الْخُلَصة لم يجئ عفواً ، ولم يكن مجرد صنم عادى صادفه امرؤ القيس فى الطريق ، أو كان قريباً من منازل قومه فى نجد ، وإنما كان أحد أصنام خمسة تقصد فى الجزيرة العربية من مكان بعيد ، وكان له بيت فى « تَبالة » من منازل خثعم ، فى الطريق بين مكة واليمن ، وكان يدعى بالكعبة اليمانية ، على حين يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزاً بين الكعبتين . فامرؤ القيس ذهب فى أخطر أمر اعترضه ، فى أدق مرحلة من حياته ، إلى أكبر صنم يعظمه قومه ، يطلب منه المشورة والتوجيه ، فلمّا جاءه النصح على غير ما يهوى أعرض عن ربه منكراً . أمر قد يعرض لأشد الناس إيماناً حين تفجؤه الأقدار بما لا يتوقع أو يحب ، فيفقد معها الصواب الذى ينتهى به إلى العناد والكفران . وكانت هذه المرّة الوحيدة التى سجلها التاريخ لوثنية امرئ القيس ، ولا حاجة به بعد ذلك لكى يتتبعه فى مزاولته لطقوس عبادته ، حين يجرى فيها على المألوف والمعتاد عند كل الناس .

ليس فيما بين أيدينا من شعر امرئ القيس صور أدبية اتخذ مادتها من التقاليد الوثنية غير اثنتين ، حين شبَّه قطيعاً متراصاً من بقر الوحش ، سود القوائم والرءوس ، بيض الظهور والبطون ، بفتيات يمنيّات يرتدين أثواباً بيضا ، حُلِّيت أسافلها بسواد ، وشعورهن فاحمة ، وانتظمن صفوفاً يطفن بصنم « دوار » :

فعنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نعــــاجَه عذارى « دُوارٍ » فى مُلاءٍ مُذيَّلِ

فإذا أراد أن يصور ألم الفراق ساعة الرحيل ، حين تغيب الطرق بأحبّائه ، اتخذ

من فراق الحجاج مثلا ، يقدمون من كل فج على « منى » ، فيرمون الجمرات « بالمحصّب » ، ثم يتفرقون إلى منازلهم ، وقد لا يلتقون مرة أخرى :

فللّهِ عَينا مَن رأى مِن تفــرُّقٍ أشتَّ وأنأى من فِـراقِ المحصَّبِ

ذلك ما عثرتُ عليه فى شعره ، وأتخيل أن الإشارات المسيحية واليهودية والوثنية كانت أكثر مما لدينا ، فلعلَّ جانباً كبيراً منها ضاع فيما لم يصلنا من شعره ، ولعلها كانت بعض أسباب ضياعه .

ويتصل بدين امرئ القيس ما أثير من جدل حول ورود لفظ « الله » فى شعره . فمن الباحثين مَن أراح نفسه من المشكلة وأنكر الشعر الواردة فيه ، بزعم أن « الله » أثر إسلامى ، فلا مجال لأن ترد الكلمة فى شعر جاهلى .

وفريق ارتضى أنّ الرواة المسلمين هروباً من كل ما هو وثنىّ استبدلوا كلمة « اللات » بكلمة « الله » وهى تساويها فى الوزن العروضى ، فلا تضطرب معها موسيقى الشعر ، وآخرون اتخذوا منها دليلا على أنَّ امرأ القيس كان يدين بالمسيحية ، أو على علم بها ومنها جاءته ، والاتجاهات الثلاثة فيما أرى جانبت الصواب ؛ لأن لفظ « الله » لم يكن مجهولا عند العرب فى عصر البعثة المحمدية ، أو ما قبلها ، والقرآن ، وإلى « الله » يدعو ، كان يتحدّث إلى العرب بلغتهم ، وفى ألفاظ يفهمونها ، وكل ما هناك أن مفهوم الجاهلى من كلمة « الله » يغاير ما أراده الإسلام منها ولها .

أحصيتُ المرّات التى وردت فيها كلمة « الله » فى شعر امرئ القيس فوجدتها إحدى عشرة ، أربعاً منها فى مجال القسم ، إحداها على لسان صاحبته واثنتان منها فى مقام لا يليق فيه الحلف بإلـه . فى الأولى تقسم صاحبته أنها استنفدت حِيَلها فى صدّه عنها ، وفى دعوته إلى الاستقامة ، ولكنها تراه على استهتاره مقيماً :

فقالتْ : يمين الله مالكَ حيــلة وما إنْ أرى عنكَ العمايةَ تنجلِي

ويرد عليها — أو على الأخرى — فى قصيدة ثانية ، إنه سيبقى عندها ، ولو دفع حياته ثمناً لبقائه معها ، ويقسم لها يمين فاجر أن الناس ناموا ، فما أدرك أحد مجيئه ولا أحسّوا به :

فقلتُ : يمين اللهِ أبرحُ قاعِــداً ولو قطعوا رأسى لديكِ وأوصالى
حلفتُ لهــا بالله حِلْفــةَ فاجرٍ لناموا ، فما إنْ مِن حديثٍ ولا صالِ

ثم يقسم بالله مهدداً بطونا من بنى أسد ، بأن دم أبيه لن يذهب هدراً ، ولن يهدأ له بال حتى يقضى عليهم جميعاً :

والله لا يذهبُ شيخى باطلا
حتى أُبِيرَ مالكاً وكاهلا

وجاءت ثلاث مرات فى مقام الدعاء . فى أولاها يحمد الله على أنه أصبح آمناً فى جوار قيس وشَمِر ابنى زهير ، من بنى سلامان بن ثعل ، وإبله ترعى مطمئنة حيث طاب لها ، فسمنت ، واكتنزت لحماً ، حتى ضاقت عنها جلودها :

أرى إبلى والحمدُ لله أصبحتْ ثِقالاً إذا ما استقبلتْها صعُودُها
رعتْ بحيالِ ابنى زهيرٍ كليهما معاشيبَ حتى ضاقَ عنها جلودُها

وفى الثانية يدعو بالقبح والمذلة وقطع الأنوف على البراجم ويربوع ودارم قبائل من تميم ، لأنهم تخلوْا عن عمه شُرَحْبيل فلم يدافعوا عنه :

ألا قَبَحَ اللهُ البراجمَ كلَّها وجَدَّع يربوعاً ، وعَفَّر دارما

والثالثة فى آخر قصيدة من ديوانه ، من زيادات أبى سهل ، وليست مما تطمئن إليها النفس ، وجاءت على لسان ذئب يتودد إليه امرؤ القيس كى لا يفترسه ، فيدعوه إلى أخوة مواسية ، فيرد عليه الذئب :

هداك الله ! إنك تدعونى لشىء لم يفعله سبعٌ قبلى :

فقلت له : يا ذيبُ هل لكَ فى أخٍ يواسى بلا أُثْرَى عليك ولا بُخْلِ
فقال : هداكَ اللهُ إنك إنما دعوتَ لما لم يأتِه سَبُعٌ قبلى

وجاءت ثلاث مرات أخرى فى مجال الإخبار . أجار عُوَير بن شِجْنة بعضا من أهل امرئ القيس خلال حروبه ، فمدحه شاكراً ، ومدح قومه بأن الله اختارهم وفضلهم بالعُوَيْر . فكانوا أوفى الناس ميثاقاً لمن يجاورهم أو يعاهدهم أو يلوذ بهم .

فقد أصبحوا والله أصفاهُمُ به أبرَّ بميثاقٍ وأوفَى بجيرانِ

ثم نذر ألاَّ يشرب الخمر حتى يدرك ثأر أبيه ، فإذا ظنّ أنه ناله عاد يحلّها لنفسه ، ويشربها غير آثم عند الله ، ولا واغل فى مجالس القوم :

فاليوم أُسْقَى غير مُسْتَحقبٍ إثْماً من اللهِ ولا واغلِ

والأخيرة جاءت فى القصيدة الخمسين ، وهى من زيادات نسخة الطوسى ، ومع

أنها لم تنسب لأحد غير امرئ القيس ، أشك فى أنها له ، لأن طابع الوعظ المباشر يغلب عليها ، وهو غير معتاد فى شعره ، وفيها جاء ذكر « الله » فى بيت أعجب به الثعالبى وأثنى عليه ، وقال إنه من جوامع الكلم ، لأن فيه الاستنجاح بالله ، ومدح البر ، والحث عليه :

والله أنجحُ ما طلبْتَ بهِ والبرُّ خيرُ حقيبةِ الرجلِ

وجاءت مرة واحدة فى مقام التعجب ، تكوّن جانباً من صورة وثنية ، أو هكذا كانت فى عصر امرئ القيس ، العجب الحزين لفراق يكون كتفرق الحجاج غداة رمى الجمار :

فللّه عينَا مَنْ رأى مِنْ تفرُّقٍ أشتَّ وأنأى مِن فراقِ المحصَّبِ

وجاءت كلمة « الرحمن » فى حوارٍ زُعِمَ لامرئ القيس مع عبيد بن الأبرص ، أورده كاملا علىّ بن ظافر الأزدى المتوفى عام ٦١٣ – ١٢١٦ م فى كتابه « بدائع البدائه » ، وعنه نقله ابن منظور المتوفى ٧١١هـ – ١٣١١ م ، فى كتابه « لسان العرب » ، ولم أعثر له على أثر فيما بين يدى من المصادر الأولى .

قال عبيد يسأل :

ما السودُ والبيضُ والأسماءُ واحدةٌ لا يستطيعُ لهنَّ الناسُ تِمساسَا

فأجاب امرؤ القيس :

تلك السحابُ إذا الرحمنُ أرسلَها روَّى بها من محولِ الأرضِ أيْباسَا

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجب الناسا

فرد امرؤ القيس :

تلك الموازينُ والرحمنُ أنزلها ربُّ البريةِ بين الناسِ مقياسا

وذكْر امرئ القيس لكلمة « الرحمن » ، دون معاصريه من الشعراء ، يقوّى الرأى فيه شاعراً يمنيًّا وثنيًّا ، لأن « الرحمن » اسم لإله جنوبى قديم ، أو وصف له فى أضعف الحالات ، ثم تنوسى اسم الإله وحلت بعض صفاته فى الدلالة عليه .

كان امرؤ القيس وثنيًّا كبقية قومه ، وكشاعر يمثل الذروة فى مجال الثقافة والشعور والتفاعل مع ما حوله ، ويحترم شعائر أمته وتقاليدها ، ولكنه لا يجرى معها

إلى النهاية فى الإيمان بما تباشر من طقوس وعبادات . وكفنان لا يدع الوثنية تعتقله داخل دائرة ضيقة محددة من الخيال ، فهو يلتقط مادة صوره الشعرية من الحياة العريضة حوله ، بكل جوانبها ، مسيحية أو يهودية أو وثنية على حد سواء .

لـكن الفتى الشاعر العابث ، الخلىّ من تبعات الحياة ، يعبّ من مباهجها ، سرعان ما ألقى على كاهله أثقل عبء يلقى على كتفى عربىّ أمير . . . أن يأخذ لأبيه ثأراً ، وأن يسترد لقبيلته ملكا ! .

طالب ثأر

رواية واحدة من بين روايات أربع أوردها « الأغانى » تقرر أن امرأ القيس شهد لقاء كندة مع أسد ويتزعمها عِلْباء بن الحارث ، وأنه هرب على فرس شقراء له ، وأسرع فلم يمكنهم اللحاق به . وهى الرواية التى ارتضيناها قبلا .

والروايات الأخرى تصمت عنه تماماً ، ومفهومها أنه لم يحضر ، ودون تكلف نستنتج منها أنه لم يكن حفيًّا بالصراع السياسى والقبلى الذى كان دائراً بين أبيه وقومه وبين القبائل التى تدين لهم بالطاعة والولاء ، ولا يناقض ذلك فى شىء أنه حضر معركة واحدة من معارك عديدة ، ويرجح استنتاجنا أنه لم يثبت عند اللقاء فلاذ بالفرار .

وثمة روايات أخرى تجعل بدء رحلة امرئ القيس لطلب الثأر عهداً أوصى به حجر قبل وفاته إلى واحد من أصحابه ، أودعه تركته من سلاح وخيل وطلب إليه أن يدفع بها إلى أىّ واحد من أبنائه الكثيرين لم يجزع لموته ، ونفّذ الصديق الوصية ، فمرّ على أبناء حجر الواحد تلو الآخر ، وروى لهم حكاية مقتل أبيهم ، فكلٌّ جزع . حتى إذا أتى امرأ القيس ، وكان فى قرية من قرى حضرموت يقال لها « دمون » يجلس مع نديم له ، يشربان الخمر ويلعبان النرّد ، فأعلمه الخبر فلم يلتفت إلى قوله ، واستمرَّ فى اللعب حتى لا يفسد على صاحبه الدسْت(١). فلمّا انتهى من اللعب التفت إلى الناعى وقال : « ضيَّعنى صغيراً ، وحمّلنى دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغدا أمر » . وأخذ على نفسه العهد ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن رأسه بطيب ، ولا يلهو ، حتى يدرك ثأر أبيه من بنى أسد ، فيقتل منهم مائة ، ويجزّ نواصى مائة . .

وهذا الخبر لا نطمئن إليه ، لأنه يناقض ما هو أوثق ، من مشاركته فى المعركة ، إلا إذا أسرفنا فى التأويل وارتضينا أنه فر من المعركة بعد أن هُزم قومه وقبل أن يُقتل أبوه ، وأن الخبر جاءه هارباً فى دمون .

والسؤال الذى يطرح نفسه للوهلة الأولى ، لماذا كان امرؤ القيس من دون إخوته

(١) الدست : المجلس ، وهى كلمة فارسية .

جميعاً هو الذى صمد للكارثة ، وحمل عبء الثأر واستعادة الملك ، وأنفق فى سبيل ذلك أعواماً من حياته ثم حياته نفسها أخيراً ، وليس ثمة إشارة إلى أن واحداً من إخوته أعانه فى شىء أو تولَّى عنه أمراً طوال أعوام الصراع .

يمكن للمرء أن يعطى أكثر من جواب لهذا السؤال : لعل إخوته ، وكانوا أكثر التصاقاً بالواقع منه ، رأوْا أن فى إعادة بسط سلطان كندة على ما كانت تحكم من قبائل يتطلب تضحيات جساماً لا قبل لهم بها ، وقد يعودون ملوكاً ولكن لأمد قصير ، لأنهم يعتمدون على أصدقاء فى الجنوب تلاشى سلطانهم ، ولأن أعداءهم فى الحيرة كانوا ضعافاً فأصبحوا أقوياء ، وأخيراً فلأن عصبيتهم انتثرت ، وخصومهم تضاعفوا .

وكان امرؤ القيس على النقيض من إخوته ، أمضى شبابه لاهياً فوجدها فرصة سانحة ليدرك هدفين فى ضربة واحدة : ملْكا جاءه على غفلة منه ، وفرصة يدخل بها ومعها التاريخ بطلا مقاتلاً كما دخله من قبل شاعراً غزلاً .

دُفِعتْ أسد إلى الثورة على حجر بفعل طغيانه ، ولعلها كانت تؤثر أن تجد لمشكلتها مع مليكها حلاً آخر غير الحرب وغير الثورة ، وأرادت بعد مقتله أن تتجنب حرباً شبيهة بحرب البسوس يذهب ضحيتها شباب القبيلتين ، فأرسلت إلى امرئ القيس وفداً منها يمثل كهولها وشبانها ، فيهم المهاجر بن خداش ، ابن عم عبيد بن الأبرص الشاعر ، وقبيصة بن نُعَيْم وكان فى بنى أسد مقيما . وقد أكرمهم امرؤالقيس ، واحتجب عنهم ثلاثاً ، وخرج إليهم فى قباء وخف وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا فى الغارات ، فلما رأوه تقدم إليه من الوفد قبيصة بن نُعَيم ، وكان رجلا حكيماً بصيراً بمواقع الكلام فقال :

« إنك فى المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله ، فلا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرِّب . ولك من سؤدد منصبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أَصلك ، مَحْتد يحتمل ما حُمِل عليه من إقالة العثرة ، ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعتْ إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ، فى الذى كان من الخطب الجليل ، الذى عمَّت رزيته نزاراً واليمن ، ولم تختص به كندة دوننا للشرف البارع » .

« كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ،

ولو كان يُفدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه ، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمدُ الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال : إمّا أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً وأعلاها فى المكرمات صوتاً ، فقدناه إليك بِنِسْعه[١] يذهب مع شفرات حسامك ، أو فداء بما يروح من بنى أسد من نَعمها ، فهى ألوف تجاوز الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها ، لم يردده تسليط الإحن على البرآء ، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، فنسدل الأُزُر ، ونعقد الخُمُر فوق الرايات » .

واختار امرؤ القيس الثالثة : « لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم ، وأنى لا أعتاض به جملا أو ناقة ، وأما النّظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً » .

انصرف بنو أسد ، وارتحل امرؤ القيس حتى نزل بكراً وتغلب فسألهم النصر على قاتلى أبيه ، فأمدوه العون ، فأقبل بمن معه ، لكن أسداً كانت قد رحلت عن منازلها بعد أن أنذرها عِلباء بن الحارث ، فأصاب بنى كنانة ، وهو يحسبهم بنى أسد ، فوضع السيف فيهم وهو يصيح : يالثارات الملك ! . . . يالثارات الهمام ! فخرجت إليه عجوز من بنى كنانة فقالت : أبيت اللعن ! لسنا لك بثأر ، نحن من كنانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم ، فإن القوم قد ساروا بالأمس ، فقال فيهم :

ألا يالهفَ نفسيَ إثْرَ قومٍ ... همُ كانوا الشفاء فلم يُصابوا
وقاهم جَدُّهمُ ببنى أبيهم ... وبالأشْقَيْن ما كان العِقاب[٢]
وأفْلَتْهُنَّ عِلباءٌ جريضاً ... ولو أدركْنَهُ صَفِرَ الوطابُ[٣]

ثم تبع بنى أسد فأدركهم ظهراً ، وقد تقطعت خيله ، وهلكوا عطشاً ، وبنو أسد جامّون على الماء ، فنهد إليهم فقاتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحجز

---

(١) النسع : سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال .
(٢) يعنى ببنى أبيهم بنى كنانة ، لأن أسداً وكنانة أخوان ، ابنا خزيمة .
(٣) أفلتهن : يعنى الخيل – الجريض : الذى يغص بريقه عند الموت .
صفر الوطاب : أى هلك فخلا جسمه من روحه كما يخلو الوطاب من اللبن .

الليل بينهم ، وهربت بنو أسد . فلما جاء الصباح أبت تغلب وبكر أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك ! قال : ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ، ولا من غيرهم من بنى أسد أحدا ، قالوا : بلى ولكنك رجل مشئوم ، وكرهوا قتال بنى أسد ثانية ، فانصرفوا عنه وتركوه .

لم يقنع امرؤ القيس بما أصاب ، ومضى يهدد بنى أسد ويتوعدهم ، ويزهو بما قتل منهم وما أفنى ، فيرد عليه عبيد بن الأبرص ، شاعر بنى أسد :

ياذا المُخوِّفنـــا ، بِقتـــلِ أبيه ، إذلالا وحيْنـــا (١)
أزعمتَ أنّك قد قتلتَ سراتنـــا كذباً وميْنـــا (٢)
هـــلاَّ على حُجْرِ بنِ أمِّ قطـامِ تبكى لا علينـــا
إنَّا إذا عضّ الثِّقـــافُ برأس صَعدَتِنا لويْنـــا (٣)
نحمِى حقيقتَنَـــا ، وَبَعضُ القومِ يسقطَ بَيْن بَيْنـــا
هـــلاَّ سألتَ جمـوعَ كِنـــدَةَ يومَ ولَّوْا أين أينـــا
أيّام نضربُ هَامَهم ببـــواترٍ حتى انْحنيْنا (٤)
وجمـــوع غسَّـــان الملـــوكِ أتينهمْ وقد انطوينا
لُحُقـــا ، أياطلهنّ قد عـــالجنَ أَسفاراً وأَيْنَـــا (٥)
ولقـــد صَلَقْن هـــوازناً بنـــواهلٍ حتى ارتوَيْنـــا (٦)
نُعْليهُمُ تحت الضبـــابِ المشرفىِّ إذا اعترَيْنـــا (٧)

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) سراتنا : جمع سرى ، أشرافنا .

(٣) الثقاف : ما يسوى به الرمح – الصعدة : القناة المستوية ، أى إذا ماسويت رماحنا ، وثقفت وأعدت للقتال . ملنا بها على العدو لنعملها فيه .

(٤) الهام : جمع هامة ، رءوسهم ، وهامة القوم رئيسهم – بواتر : سيوف قواطع .

(٥) لحقا : جمع لاحق ، خيل ضامرة – أياطل : جمع أيطل ، خواصر– الأين : التعب ، أى تحملن كثيراً من مشاق السفر .

(٦) صلق : أوقع بهم وقعة منكرة – نواهل : عطاش .

(٧) علاه بالسيف : ضربه – المشرفى : السيف ، نسبة إلى « مشارف » الشام ، قرى من أرض العرب تدنومن الريف ، شهرت بصنع السيوف – عراه : غشيه .

نحن الأُلَى ، فاجمــعْ جموعَكَ ، ثُمّ وَجِّهْهُمْ إلينـا
وأعلمْ بأن جيـــادنا آلين لا يقضين دِيْنـــا
ولقـــد أبحْنـــا ما حَمَيْــتَ ، ولا مبيــح لما حمَيْنا
هـــذا ، ولو قدرتْ عَليــك رماحُ قومى ما انتهَيْنا
حتى تنـــوشَكَ نوشــةً عاداتُهنّ إذا انتــــوينا
نغـــلى السِّبــاء بكلّ عاتقةٍ شمولٍ ما صحونا[١]
ونُهين فى لذّاتِهـــا عُظْم التـــلادِ إذا انتشينا
لا يبلغُ البـــانى ، ولو رفـعَ الدعائم ، ما بنينـا
كم مِنْ رئيسٍ قد قتلنـــاهُ ، وضيْمٍ قـــد أبَينا
ولـرُبَّ سيّدِ معشرٍ ضخمِ الدسيعةِ قد رَمينـــا[٢]
عِقبـــانه ، بظلال عِقْبـــانٍ تيمِّمُ ما نَوْينـــا[٣]
حتى تركنـــا شِلْوَه جَـــزَر السباعِ ، وقد مضينا[٤]
وأوانسٍ مثلِ الدُّمَى حـــورِ العيونِ قد استبينا[٥]
إنّا لعَمْــــرُك ما يُضامُ حليفُنـــا أبداً لدَيْنـــا

فلما امتنعت بكر وتغلب من أتباع بنى أسد خرج من فوره إلى اليمن . فاستنصر قبيلة أزدشنوءة ، فأبوا أن ينصروه وقالوا : إخواننا وجيراننا .

فنزل بقَيْل يدعى مرثد الخير بن ذى جدان الحميرى ، وكانت بينهما قرابة ، فاستنصره واستمده على بنى أسد ، فأمده بخمسمائة رجل من حمير ، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس بهم ، فقام بالمملكة بعده رجل من حمير يقال له قرمل بن الحميم ، فسوَّف امرأ القيس وطوَّل عليه حتى هم بالانصراف وقال فيه :

---

(١) عاتقة : خمر معتقة – الشمول : الخمر أيضاً .
(٢) الدسيعة : العطية .
(٣) العقبان : جمع عقاب . وهو طائر ضخم سريع .
(٤) شلوه : بقيته – جزر : جمع جزرة ، وهى الشاة والناقة تذبح وتنحر ، أى أصبح للسباع طعاماً .
(٥) الدمى : جمع دمية ، وهى الصور والتماثيل – حور العيون : جمع حوراء ، وهى الشديدة بياض العين مع شدة سوادها – استبينا : أسرناهن فى الحروب .

وإذ نحن ندعو مرثدَ الخيرِ ربَّنا   وإذ نحن لا ندعى عبيداً لقرمل

فلما سمع ذلك منه أنفذ له الجيش ، وضم إليه جمعاً من شذاذ العرب ، واستأجر من قبائل العرب رجالا ، ثم سار بهم إلى بنى أسد ، ومر بتبالة[١] ، وبها صنم للعرب تعظمه ، يقال له ذو الخلصة ، فاستقسم عنده بقداحه ، وهى الآمر والناهى والمتربص ، فأجالها فخرج الناهى ، ثم أجالها فخرج الناهى ثانية ، ثم أجالها فخرج الناهى للمرة الأخيرة ، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم ، وقال له : « . . . . لو كان أبوك الذى قُتل ما عقتنى ! » . ثم خرج فظفر ببنى أسد .

وكان المنذر يخشى أن ينجح امرؤ القيس فيما يريد ، وأن يعيد لكندة سطوتها ، فوجه إليه الجيوش ، وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة فسرحهم فى طلبه ، وتفرقت عن امرئ القيس حمير ومن كان معه ، فلم تعدله بهم طاقة ، فنجا فى جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة ، ومعه الدروع التى كان بنو المرار يتوارثونها ، فأرسل المنذر إلى الحارث يتوعده بالحرب إن لم يسلم إليه الكنديين اللائذين به ، فأسلمهم إليه ، وأمر المنذر باثنى عشر فتى من أمرائهم فقُتلوا فى جفر الأملاك[٢]

لم ينس امرؤ القيس لبنى حنظلة موقفهم منه ، وتخليهم عنه وقومه ، فاتخذهم مثلا للغدر والخذلان والخبث والشر ، وتهددهم بالفضيحة والذل :

أحنظل لو حاميتُمُ وكرُمتمُ   لأثنيتُ خيراً صادقاً ولأرضانى
ولكن أبىَ خذلانكم فافتَضَحتُمُ   وخبَّثتُمُ من سعيكم كلَّ إحسان
وقد كان أصفاكمْ بأخلصِ وُدِّهِ   على غيركم ، فكنتمْ شرّ خُلْصَانِ
وكم مطرتْ كفّاه من كفٍّ نائلٍ   له فيكمُ فاشٍ ،وكم فكَّ من عانِ
أحنظلُ لاشكرٌ بصالح فعله   ولا عفَّةٌ ، إذ نصرُكمْ خاذلٌ وانِ

---

(١) موضع إلى الجنوب من مكة ، على طريق القوافل ، وقد بقيت قائمة حتى عصر الدولة الأموية . وكانت أول عمل وليه الحجاج الثقفى ، فلما قرب منها قال للدليل : أين هى ، وعلى أى سمت ؟ قال : تسترها عنك هذه الأكمة . قال : لا أرانى أميراً إلا على موضع تستر منه أكمة ! أهون بها ولاية ، وكرراجعا ، فقيل فى المثل : « أهون من تبالة على الحجاج » !

(٢) مكان بين الحيرة والكوفة ، سمى بذلك لقتل هؤلاء الفتيان عنده .

فألفيتُمُ عند الجـــوار أذلةً　　وعيدانكُم فى الجهدِ أخورُ عيدانِ

. . . .　　. . . . .

أحنظلُ هــذا ذكرُ ما قد فعلته　　وأجْلُو لكم وجْه الحديث بتبيانِ

سأوقدُ حتى يعلَم الناسُ غــدرَكُم　　بمشهورةٍ فوق العلاءِ بنيران

وأبتُمْ بـلا غُنْمٍ ولا بسلامـــــةٍ　　فيــاشرَّ أتباعٍ وياشرَّ أخدَانِ

وإذا شكر العوير بن شجنة وقومه ، قال إنهم حفظوا جيرانهم ، ولم يفعلوا ما فعل بنو حنظلة :

أدَّوْا إلى جارِهم خَفَارتَـــهُ　　ولم يَضِـــعْ بالمغِيب من نَصرُوا

لم يفعلوا فِعْلَ آلِ حَنْظَـــلةٍ　　إنَّهُمُ جَيْرِ بئس ما ائتمـــروا[١]

نجا امرؤ القيس من المنذر ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وابنته هند وأدرعه وسلاحه ، ونزل على سعد بن الضباب الإيادى سيد قبيلة إياد فأجاره ، فشكر له امرؤ القيس نصره :

منعتَ الليثَ من أكل ابن حُجْرٍ　　وكاد الليثُ يودى بابن حجــرِ

منعتَ ، وأنتَ ذو مَـــنٍّ ونُعْـــمَى　　عَـلَـيَّ ، ابنَ الضَّباب بحيث تدرى

ســأشكُرُكَ الــذى دافعتَ عنِّى　　ومــا يجزيكَ عـــنى غيرُ شكرى

فـــلا جارٌ بأوثق منـــك عَهْـــداً　　فنصرُك للطـــريدِ أعـــزُّ نَصْــرِ

والقصيدة الرابعة عشرة فى الديوان[٢]، وهى كاملة ذات مقدمة ونسيب وصناعة ،

---

(١) جير فى معنى حسب ، وقيل معناها : حقاً ، وهى فى معنى القسم .

شراح ديوان امرئ القيس يرون أن البيت إشارة إلى تخلى بنى حنظلة عن عمه شرحبيل فى معركة يوم الكلاب الأول ، وهو وهم منهم ، لأن شرحبيل لم يكن مستجيراً فى بنى حنظلة حينئذ ، وإنما كان هؤلاء جنداً مساعداً له فى الحرب ، وكانت قبيلة بكر عماده فى المقام الأول ، وقد تخلى عنه بنو حنظلة فعلا ، ومعهم بنو عمرو والرباب ، وفرارهم عن المعركة جبن يعيرون به ، وليس خذلانا للجار يؤاخذون عليه . ولو كان البيت ، والأبيات التى قبله هنا ، تتصل بهذا اليوم ، لما توجه إلى بنى حنظلة باللائمة وحدهم . ولضم إليهم بنى عمرو والرباب . وأخيراً فإن النصر فى هذا اليوم وقاتل شرحبيل كان عمه سلمة ، فهو – أى امرئ القيس – قاتل ومقتول فى نفس الوقت ، إن صح التعبير .

(٢) ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، ص ١٠٩ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ذخائر العرب رقم ٢٤ ، القاهرة ١٩٥٨ .

نظمها خلال إقامته بديار سعد بن الضباب مستجيراً ، يشكره ويعدّد مآثره وصفاته ، فهو ليس بضعيفٍ يوم الحفاظ ، ولا ضيّقِ الصدر عند الشدائد ذى خيل ومال ، عزيز منيع ، ليس كقوم أرضهم مسبعة ، وأموالهم غَنَمَ ، أذلاء يفرّون من السهل إلى الجبـل يتحصنون فيه خوفاً ، وطعامه لحم جزر ، وشرابه خمر معتقة :

لَعمْرُكَ ما سعدٌ بِخُـلَّةِ آثمٍ ولا نَأْنأ يومَ الحفاظِ ولا حَصِرْ (١)
لَعمْرِى لَقَوْمٌ قد نرى أمسِ فيهمُ مرابطَ للأمهارِ والعَكَرِ الدَّثِرْ (٢)
أحبُّ إلينـا من أُناسٍ بقنَّـةٍ يروحُ على آثار شـائهمُ النمِرْ
يفاكِهُنـا سعدٌ ويغـدو لجمعنا بمثنى الزِّقاقِ المُتْرعاتِ وبالجُزُرْ
لعمرى لَسَعَدٌ حيث حُلَّتْ دِيارُه أحبُّ إلينا مِنْك ، فَافرسِ حَمِر (٣)
ونعـرفُ فيه من أبيـه شمائلاً ومن خالِهِ ، ومن يزيد ، ومن حُجُرْ
سماحة ذا ، وبِرَّ ذا ، ووفاء ذا ونائلَ ذا ، إذا صحا وإذا سَكِرْ

ولكن المنذر ظل يطلب امرأ القيس ، فتحول عن سعد الإيادى إلى المعَلَّى بن تَيْم ، من جديلة طَيِّئ ، وقد استشعر فى جواره الأمن والطمأنينة وتباهى بأن المُعلَّى فوق قدرة المنذر ملك الحيرة ، والحارث بن أبى شَمِر ملك الغساسنة ، ولم يصف امرؤ القيس أحداً من الذين نزل بهم مستجيراً بمثل هذه القوّة كما وصف المعلَّى ، ربما لأنه يمنىّ مثله يلتقى معه فى النسب على المدى البعيد .

كأنِّى إذ نزلتُ على المُعـلَّى نزلتُ على البواذخِ مِنْ شَمام (٤)
فـا مَلِكُ العراقِ على المعـلَّى بمقتـدرٍ ، ولا مَلِكُ الشآمِ
أصدَّ نَشَاصَ ذى القرْنَيْن حتى تولَّى عارضُ الملكِ الهمـامِ (٥)

---

(١) الخلة : الخليل – النأنأ : الضعيف المقصر= الحفاظ : الأنفة – الحصر : الضيق الصدر عند الشدة .

(٢) الأمهار : جمع مهر ، ولد الفرس – العكر : جمع عكرة ، ما بين الستين إلى السبعين من الإبل – الدثر : الكثير .

(٣) الضمير فى « منك » يعود على شخص يقارن امرؤ القيس بينه وبين سعد ، ويقول عنه إنه كان بخر الفم ، لأن الفرس إذا حمر أنتن فوه ، فعيره بذلك .

(٤) البواذخ : جمع باذخ ، الشامخ العالى – شمام : اسم جبل .

(٥) النشاص : ما ارتفع من السحاب ، شبه الجيش به – العارض : أصله السحاب المعترض فى السماء ، ويريد به هنا الجيش .

أقرّ حشا امرئ القيس بن حُجْرٍ بنــو تَيْمٍ مصابيحُ الظَّــلام (١)

وعند المعلّ فكرّ امرؤ القيس أن يستقرّ زمناً ، لكنّ بقية قوم المعلّى ضاقوا به ، وطردوا رواحله ، فخرج حينئذ من عندهم ، ونزل على خالد بن أصمع النبهانى ، ونبهان بطن من طيّ ، فأغار بنو جديلة عليه وذهبوا بإبله ، فبقى بلا رواحل يتأسىّ : إلاّ يكن غنى وفير ومال كثير فبلغة من العيش تغنى ، وإلا تكن أبل عتاق فقطيع من المعزى يكفى :

ألاَ إلاَّ تكن إبــلٌ فمِعْــزى كأنَّ قــرونَ جِلّتها العِصيُّ (٢)
وجــاد لها الربيــعُ بواقصــات فآرام ، وَجــادَ لهـا الولىُّ (٣)
إذا مُشَّتْ حَــوَالِبُها أرنَّتْ كأَنّ الحىَّ صبَّحهم نعِيُّ (٤)
فتوســعُ أهلَها أَقِطاً وسمنــاً وحَسبُك من غنى شِبعٌ ورِىُّ (٥)

بقى امرؤ القيس فى بنى نبهان وقتاً ، ثم فارقهم ونزل بعامر بن جُوَيْن ، وكان خليعاً فاتكا ، تبرّأ منه قومه لجرائره ، فراودته نفسه فى أموال امرئ القيس ، وأحسّ هذا بما كان يراوده ، من شعر كان ينطق به :

فكم بالصعيد من هِجانٍ مُؤبَّلهْ تسير صحاحاً ، ذات قَيْدٍ ومرسلهْ (٦)

---

(١) أقر حشا : اطمأنت نفسه ولم تضطرب أحشاؤه فزعا .

(٢) الجلة : جمع جليل ، المسن من الغنم وغيرها .

(٣) واقصات : اسم موضع – الآرام : جمع إرم ، علامات فى الطريق ، يريد مواضع الأعلام فيها – الولى : مطر يلى الوسمى .

(٤) مشت : مسحت بالكف لتنزل درة اللبن – الحوالب : جمع حالب ، عرق فى السرة يدر اللبن فى الضرع – أرنت : صاحت .

(٥) الأقط : شىء يصنع من اللبن المخيض على هيئة الجبن .

• شك الأصمعى فى هذه الأبيات ، وكان يقول : « امرؤ القيس ملك ولا أراه يقول هذا » . والذى دعا العالم الجليل إلى الشك أن الأبيات وردت فى الديوان مجردة من مناسبتها التاريخية . والواقع أنّ أمرأ القيس حين قالها لم يكن ملكا ، وإنما هارب مستجير ، منهوب الرواحل ، معرى من القوة ، يلفه حزن ويأس ، ومشاعر الألم والخيبة ، والرضا بالقليل والقناعة ، تعتور الملوك والعامة على السواء .

(٦) الصعيد : وجه الأرض – الهجان : البيض الكرام من الإبل – المؤبلة : الإبل الكثيرة المجتمعة التى جعلت للقنية لا يمسها أحد .

أردتُ بها فتكا فلم أرتمض له ونهنهتُ نفسى بعدما كدت أفعلهْ (١)

وكان يعرّض بهند ابنة امرئ القيس (٢):

ألا حيِّ هنـــداً وأطـــلالهَا وتظعـــانَ هندٍ وتحلالهـــا
هممتُ بنفسى كل الهمـــوم فأولى لنفسِىَ ، أولى لها
سأحمـــلُ نفسى على آلة فإمَّا عليهـــا ، وإمّا لهـــا (٣)

فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه ، وخافه على أهله وماله ، تغفّله وانتقل إلى جارية ابن مر بن حنبل ، من بنى ثُعَل ، فاستجار به ، ووقعت الحرب بين عامر بن جُوَين وبين جارية الثعلى من أجله . فدافع بنو ثعل عنه ، وقدّر لهم امرؤ القيس موقفهم ، فشكرهم فى قصيدة بدأها بالسخرية من خالد النبهانى لأنه توانى عن استرداد رواحله التى أغار عليها بنو جديلة وكان فى جواره . لقد أخِذَتْ الرواحل كأن عُقابا من عِقبان « تَنوفَى » ذهبت بها ، وعبث المغيرون بذمة خالد ، دون أن يحرّك ساكناً . وامرؤ القيس يتأمل خالداً ، قصيراً يمشى الهوينى ، حائراً بطىء الحركة ، كأتانٍ مُنِعتْ عن الماء وهى عطشى ، تتلكأ حوله راغبة فى الشراب ، لكنها عاجزة عن الوصول إلى ما تريد . أما جارية وقومه فلا يسلمون جارهم ، ولهم من العزّة ما يجعل إبلى فى حماهم ترعى مطمئنة وتبيت آمنة ، فلا يستطيع الذين أغاروا عليها فى بنى نبهان أن يمّسوها هنا ، رغم أنها تسرح فى رءوس الجبال ، وتتلاعب صغارها أولاد الوعول ، على جبال عالية يلفها السحاب ، وتتناثر على بطنها الطرق كما لو كانت برداً مخططاً :

دعْ عنكَ نَهْباً صِيحَ فى حَجَراتِـهِ ولـكنْ حديثاً ما حديثُ الرواحل (٤)
كأنَّ دِثاراً حَلَّقتْ بلبـــونِهِ عُقـابُ تَنُوفَى لا عُقابُ القَواعِلِ (٥)
تلعَّبَ باعثٌ بذمّـــة خـــالدٍ وأودَى عصامٌ فى الخطوب الأوائلِ

---

(١) ارتمض : حزن ، أى فلم أحزن ولم آسف له .

(٢) بعض الرواة ينسبون هذه الأبيات للخنساء ، وهى بعامر أشبه .

(٣) آلة : حالة .

(٤) الحجرات : النواحى .

(٥) دثار : راعى إبل امرىء القيس – اللبون : ذات اللبن من الإبل والشاه – العقاب : طائر ضخم – تنوف : جبل من جبال طيئ مرتفع – القواعل : جبال منخفضة .

وأعجبني مَشْيُ الحُـزُقّةِ خالد	كمشْيِ أتانٍ حُلّئتْ بالمناهِـلِ (١)
أبتْ أجأٌ أن تُسلمَ العامَ جـارَها	فمن شاء فلْيَنْهضْ لها من مُقاتِلِ (٢)
تبيتُ لَبُوني بالقـريَّةِ أمَّنـاً	وأَسْرحُها غِبًّا بأكنافِ حـائلِ (٣)
بنـو ثعـل جيرانُهـا وحماتُها	وتُمنَع مِنْ رُماةِ سعْدٍ ونائـلِ (٤)
تُلاعبُ أولادَ الوعـول رِباعُهـا	دُوَيْنَ السماءِ فى رءوسِ المجادلِ (٥)
مكلَّلةً حمـراءَ ذاتَ أَسِرَّةٍ	لهـا حُبُك كأنّهـا من وَصَائلِ (٦)

فلما وقعت الحرب بين طيئ من أجله ، خرج من عندهم ، ونزل على عمرو ابن جابر بن مازن من بنى فزارة ، وكان عمرو صاحب رحلة وتجربة وخبرة ، فطلب منه امرؤ القيس الجوار حتى ينظر فى أمره ويصلح من شأنه . وخلال إقامته فى بنى فزارة فكّر أن يطلب العون من الإمبراطور جوستنيان Justinien إمبراطور بيزنطة ، ولعله سمع عنه كثيراً من مجيره ، فقد كان « كثير التردّد على قيصر إمبراطور بيزنطة والنعمان ملك الحيرة » . ويوحى تطور الأحداث ومفهومها أن امرأ القيس طلب النصحية من الحارث الغسّانى ، وأن الحارث شجعه على الرحلة ، وقَبِل أن يقدّمه لقيصر ، فثمة هدف مشترك يجمع بينهم . كان الغساسنة ، ومِن ورائهم بيزنطة ، أعداء ألداء لمناذرة الحيرة ، وقد لعب هؤلاء دوراً واضحاً ، بمساعدة فارس فى تحطيم مُلك كندة ، وملاحقة امرئ القيس ، ونجاحهم فى إقصائه وأسرته عن السيادة جعل كلمتهم هى النافذة بين القبائل الضاربة فى شرق الجزيرة الشمالى ونجد ، وكان للغساسنة ولبيزنطة مصلحة

---

(١) الحزقة : الرجل القصير – حلئت : طردت – المناهل : موارد الماء .

(٢) أجأ : أحد جبلى طيى ، والآخر سلمى .

(٣) الغب : أن ترسل فى المرعى يوماً وتترك فيه يوماً ، ثم تراح فى اليوم الثانى – أكناف : جوانب – حائل : اسم موضع .

(٤) سعد ونائل : من بنى نبهان .

(٥) الوعول : جمع وعل ، وهو تيس الجبل – الرباع : الفصلان المنتوجة فى الربيع المجادل : الحصون ، يريد الجبال المرتفعة .

(٦) الأسرة : الطرائق فى الأرض المنبتة – حبك : جمع حباك ، الطرائق فى الرمل ونحوه – الوصائل : ضرب من البرود المخططة .

ملحة فى دعم امرئ القيس لاستعادة سلطانه ، كى يصبح شوكة فى ظهر المناذرة خصومهم التقليديين .

بدأ امرؤ القيس المحاولة فأرسل إلى قيصر وفدا يطلب النجدة على بنى أسد وعلى ملك الحيرة ، وكان مع الوفد ابنه معاوية ، فكتب قيصر إلى النجاشى يدعوه لمعاونة امرئ القيس ، لكن الحبشة كانت موتورة من الكنديين ، فقد تزعم يزيد بن كبشة خال امرئ القيس ثورة ضدها ، حين عينه أبرهة حاكماً على اليمن عام ٥٣٥م ، كما أن أبرهة ممثل الاستعمار الحبشى فى اليمن كان مشغولا بالدفاع عن اليمن ضد احتمالات الغزو الفارسى ، وبتأمين طرق القوافل الشمالية لصالح قومه ، وذلك بوضع الحجاز تحت السيطرة الحبشية . وإزاء ذلك كله رأى امرؤ القيس أن يذهب بنفسه ، ولما كانت نفقات رحلته – كأمير – باهظة ، فقد اتجه أولا إلى تيماء ، وكانت قريبة من ديار بنى فزارة ، ومركزاً كبيراً للإقراض بالربا ، وفيها رهن سلاحه ودروعه عند مراب يهودى اسمه صموئيل (السموءل بن عاديا فى المصادر العربية) .

الرحلة إلى قيصر

كانت الظروف مهيَّأة لتجعل من الذهاب إلى القسطنطينية محاولة يمكن أن تنجح ، فالعلاقات متوترة بين بيزنطة وفارس ، والمناوشات لا تنقطع بين ممثلي الدولتين – الحيرة والغساسنة – على أطراف الجزيرة الشمالية ، وكندة عدو لدود للحيرة منذ لاحق المنذر الثالث امرأ القيس فى كل مكان ، ومنذ أن طرد ، بمعاونة الفرس ، جده من الحيرة ، وقتل أهله ، وكندة وتوابعها فى وسط الجزيرة يمكن أن تكون شوكة فى ظهر الحيرة . واستجابة لهذه الدواعى رأى امرؤ القيس أن يذهب بنفسه إلى قيصر ، مؤملا أن يعينه فى استرداد مُلْك آبائه ، ولسنا نعرف على التأكيد هل الاتجاه إلى بيزنطة كان وليد تفكير امرئ القيس أو اقتراحاً ساقه إليه مجيره عمرو بن جابر بن مازن الفزارى ، وقوّاه الحارث الغسانى ؟

رحل امرؤ القيس إلى القسطنطينية ، رفقة عمرو بن قميئة الشاعر ، من بنى قيس ابن ثعلبة ، وأحد حجّاب أبيه – أو خدمه – فيما تقول بعض الروايات وإليه يشير امرؤ القيس صراحة فى أطول قصائده عن الرحلة :

أرى أمَّ عمرٍو دمعُها قد تحـــدّرا   بـكاءً على عمرٍو وما كان أصبرا

وكان معه جابر بن حنّى التغلبى وإليه أشار فى قصيدة أخرى له تتصل بالرحلة :

فإمــا ترينْى فى رحالةِ جـــابرٍ   على حَرَجٍ ، كالقرّ تخفِق أكفانى

وخرج معه الحارث بن حبيب السلمى ، ولكنه لم يكمل الرحلة ، فمات فى الطريق قريباً من بصرى فى ديار الشام ، وبكاه امرؤ القيس بشعر حفظ لنا منه الرواة بيتين :

ثوَى عند الوَدِيَّة جــوف بُصرَى   أبو الأيتـــامِ والكلِّ العجافِ

فمن يحمِى المضـافَ إذا دعـــاهُ   ويحمـلُ خطةَ الأَنَسِ الضِّعافِ

وكان معه على التأكيد آخرون من أهله ومعاونيه ورفاقه وخدمه ، فقد كان أميراً قادماً على إمبراطور ، ومما يسهّل مهمته أن يبدو فى مظهر يضفى على موكبه مسحة من جلال وعظمة .

يمكن أن نحدّد تاريخ رحلة امرئ القيس إلى القسطنطينية بشيء من المقارنة بين الأحداث البارزة التى سبقت الرحلة أو رافقتها ، على أرض الجزيرة العربية أو خارجها .

أول إشارة ذات أهمية نلتقى بها وتكوّن حجر الأساس فى المحاولة ، لقاء امرئ القيس مع علقمة بن عبدة الملقب بالفحل ، فى محاورة شعرية أشرنا إليها قبلا ، ولم يكن علقمة يومها شاعراً شيخاً ، وإنما كان شابًّا فتيًّا ، أخذ جماله بمجامع قلب أم جندب زوج امرئ القيس فهجرت زوجها رغبة فيه . وأول قصيدة نعرفها لعلقمة قالها بعد يوم حليمة(١)، وكان بين المنذر بن النعمان وبين الحارث بن أبى شَمرِ الغسانى ، وبدأت الحرب بينهما سجالا ، والتقى الجيشان مرتين ، انهزم فيهما المنذر وقُتِل فى الثانية ، وفى هذه الحرب أسر الحارثُ سبعين رجلا من تميم ، بينهم شأس ابن عبدة ، أخو علقمة — أو ابن أخيه فى رواية — فأتى علقمة الحارث ومدحه بقصيدة طويلة أوردها المفضل الضبى فى « مفضلياته » كاملة ، ومطلعها :

طحَابك قلبٌ فى الحسان طروبُ ... بُعَيدَ الشبابِ عَصْرَ حان مشيبُ
يكلّفنى ليلى ، وقد شطّ وليُها ... وعادتْ عوادٍ بيننا وخطوب
مُنَعَّمةٌ ، ما يستطاع كلامُها ... على بابها من أن تُزار رقيب

وبعد مقدمة طللية طويلة ، اكتفينا منها بالأبيات السابقة ، بتوجه بالحديث إلى الحارث :

إلى الحارث الوَهّابِ أعملتُ ناقتى ... لِكلْكلها والقَصْرَيَيْن وجيبُ
إليك أبيتَ اللعنَ ! كان وجيبها ... بمشتبهاتٍ هَوْلُهنّ مهيب
هدانى إليكَ الفرقدان ولا حبٌ ... له فوق أعلام المتانِ علوب
فلا تحرمنّى نائلاً عن جنايةٍ ... فإنى امرؤٌ وسطَ القبابِ غريب

فلما بلغ هذا البيت :

وفى كلِّ حيٍّ قد خبطتُ بنعمةٍ ... فحُقّ لشأسٍ من نداك ذَنُوب

---

(١) جرت معارك هذا اليوم فى مقاطعة نسرين ، وعرف بيوم حليمة نسبة إلى حليمة ابنة الحارث الغسانى وقد عطرت بيديها قبل المعركة مائة بطل من أبطال الغساسنة تهيأوا للموت وألبستهم الدروع وثيابا من التيل الأبيض ، وأعلن أبوها أنه سيزوجها ممن سيقتل النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

فقال الحارث : نعم وأذنبة . وإنما أراد علقمة بقوله :

* وفى كل حىّ قد خبطت بنعمة *

أنّ النابغة كان قد شفع فى أسارى بنى أسد فأطلقهم الحارث ، وكانوا نيفاً وثمانين ، ثم سأله علقمة أن يطلق أسارى بنى تميم[١] ، فاستجاب الحارث لرجائه وأطلق سراحهم .

كانت معركة « يوم حليمة » عام ٥٥٤م ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن وقعة « يوم أوارة الأول » التى قُتِلَ فيها سلمة عم امرئ القيس كانت عام ٥٤٨م ، أو قريباً منه ، وأن حجراً والد امرئ القيس قُتِلَ بعد هذا التاريخ ، وأن امرأ القيس حين التجأ إلى طيّئ والتقى بعلقمة كان قد طوّف فى عديد من القبائل ، وجاب الجزيرة شرقاً وغرباً من الشمال إلى الجنوب ، طالباً العون مرة ولاجئاً مرة أخرى ، وأن طيئاً كانت بين آخر من استجار بهم ، أمكننا أن نحدد لهذا اللقاء تاريخاً يأتى بعد عام ٥٥٥م ، وإذا عرفنا أن امرأ القيس تنقّل فى بطون طيّئ ، وأمضى وقتاً يدبّر أمره ، وأرسل وفداً إلى قيصر قبل أن يذهب إليه ، وأمضى فى تيماء فترة يدبر نفقات رحلته ، وأن الإمبراطور جوستنيان الذى وفد عليه توفى عام ٥٦٥م ، كان لنا أن نقرر دون اعتساف أن بداية رحلة امرئ القيس إلى القسطنطينية تقع فى زمن قريب من عام ٥٦٣ م .

وصل امرؤ القيس إلى القسطنطينية ، تجمع الروايات كلها على ذلك ، وتختلف فيما عداه .

تقول الرواية الأولى : إنه صار إلى ملك الروم فأكرمه ونادمه واستمدّه فوعده ، ثم بعث معه جيشاً فيهم أبناء ملوك الروم ، فلما فصل قيل لقيصر : إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلا من العرب ، وهم أهل غدر ، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوك غزاك ، فبعث إليه قيصر مع رجل من العرب كان عنده يقال له : الطمَّاح بن قيس الأسدى – وكان امرؤ القيس قد قتل أخاً له – بحلة منسوجة بالذهب مسمومة ، ولبسها فأسرع فيه السم ، وتنفّط جلده ، والعرب تدعوه ذا القروح لذلك ، ولما صار إلى مدينة أنقرة ثَقُل فأقام بها حتى مات ، وقبره هناك .

وتقول الرواية الثانية إن الطمَّاح قال لقيصر : إن امرأ القيس غوىّ عاهر ، وأنه لما

---

(١) لمراجعة قصيدة النابغة فى مدح الغساسنة والظروف التى قيلت فيها وشرحها ، انظر : عمر الدسوقى ، النابغة الذبيانى ، ص ١٢٦ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م .

انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهّر بها فى العرب فيفضحها ويفضحك . فبعث إليه بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : إنى أرسلت إليك بحلتى تكرمة لك ، فإذا وصلتْ إليك فالبسها ، واكتبْ إلىّ بخبرك ، فلما وصلت إليه لبسها ، فأسرع فيه السمُّ وسقط جلده ، فسُمِّى لذلك ذا القروح .

ورواية أخرى تذكر أن ابنة قيصر نظرت إليه فعشقته ، فكان يأتيها وتأتيه ، وفطن الطماح بن قيس الأسدى لهما ، وكان حجر قد قتل أباه ، فوشى به إلى الملك ، فخرج امرؤ القيس متسرِّعاً فبعث قيصر رسولا فى طلبه ، فأدركه دون أنقرة بيوم ومعه حلّة مسمومة ، فلبسها فى يوم صائف ، فتناثر لحمه ، وتفطر جسده .

وانفرد ابن سهل برواية أن قيصر زوّجه ابنته ، وأنها كرهته لأنّه كان مُفرَّكاً ، فلما دخلت عليه أبغضته ، فلما أراد المسير دخلت على أبيها فقالت له : إن امرأ القيس يقول لئن غلب على عدوه ليعطفن عليك فيقتلك ويضم ملكك إلى ملكه ، فلم يتهم ابنته على نفسه ، فدعا بسبيبة فأنقعها فى السمّ ، فلمّا تم صنعها ، بعث بها إلى امرئ القيس مع رجل يثق به ، فدخل الحمام فلما خرج لبسها فتقطّع لحمه .

تتفق الروايات إذن على ذهابه إلى قيصر ، وعلى أنه لم يجن من رحلته شيئاً ، وأنه مات فى الطريق ، وتختلف فى التفاصيل ، ويستطيع الدارس أن يميِّز بين ما هو جوهرى أصيل منها ، وما كان من إضافة الرواة وتوليد القصّاص .

فاتجاه امرئ القيس إلى القسطنطينية ليس بغريب ولا الأول من نوعه فى تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام . كان أجداد امرئ القيس ملوكاً على وسط الجزيرة زمناً ، وامتد سلطانهم لفترة من الوقت على الحيرة نفسها ، وكانت جداراً أقامه الفرس ليحميهم من هجمات البدو يضربون ثم يضيعون فى الصحراء ، وكان بين الفرس وبيزنطة صراع طويل ومرير ، فمن الطبيعى أن يستغل امرؤ القيس هذا الخلاف ، وأن يحاول أن يكون هو لبيزنطة فى شمال شرقى الجزيرة ما لها مع الغساسنة فى الشمال الغربى ، وأن يؤدى لها نفس الدور الذى تؤديه الحيرة لفارس ، ومن العادى أن يقابل إمبراطور بيزنطة أميراً من الجزيرة العربية وأن يحاول استخدامه ضد أعدائه ، ولم تكن الأولى فى تاريخه إمبراطورا ، أو فى تاريخ بيزنطة دولة ، فقد سبق له أن قابل على مر الأيام ،

عدداً من كبار رجالات العرب يمثلون عدداً من القبائل العربية من كافة أنحاء الجزيرة .

ومن التعنّت القائم على غير دليل ملموس أن نرفض رواية القدامى القائلة إن أسداً تتبّعت رحلة امرئ القيس إلى بيزنطة تحاول إفسادها ، وهى تعرف سلفاً قوة جيرانهم على الحدود الشمالية ، وفى صراع مع امرئ القيس يتوقف عليه مستقبل القبيلة ومصيرها ، فأرسلت إلى الإمبراطور من يحمل وجهة نظرها ، ويشجب محاولة الشاعر الكندى ، وعبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد ، يشير فيما وصلنا من شعره إلى رحلة امرئ القيس إلى قيصر ، ويسخر من وعيده ، ويتهدّده بأنه سيلقى مصيره وهو بأرض الشام :

أزعمتَ أنّك سوف تأتى قيصراً فَلَتَهْلِكنَّ إذا وأنت شـآمى

لكننا نشك أن اسمه الطّماح ، كما تقول الرواية اعتماداً على بيت من الشعر فحسب ، ورد فى قصيدة موّثقة لامرئ القيس ، دون أن يكون إلى جانب الشعر خبر آخر يفسّر هذه الإشارة ويوضّح شخصية الرسول ، لأن ما فى بيت الشعر يحتمل أكثر من تفسير ، والتفسير الأقرب إلى المنطق ليس فى صالح الرواة ، والبيت هو :

لقد طمحَ الطمّاحُ من بُعدِ أرضــه لِيُلْبِسنى من دائه ما تلبّسنا

فالطمّاح فى البيت ليست علماً على شخص ، فيما يبدو لى ، وإنما هى صيغة مبالغة من طمح ، كناية عن رجل عدّو لامرئ القيس فحسب .

تبدو الرحلة غريبة فى إطار وهم قديم ، سار على خطاه المحدثون ، هو أن امرأ القيس رحل إلى القسطنطينية ليطلب من الإمبراطور البيزنطى مســاعدته فى الأخذ بثأر أبيه ، ذلك أن امرأ القيس ثأر لأبيه فعلا ، وقَتَل بسببه كثيراً . واحتمال أن يرحل من أجل هدف كهذا يبدو ضرباً من الحقد المجنون ، والواقع أن امرأ القيس لم يكن مشغولا بالثأر بقدر ما كان يهدف إلى استعادة عرش يصبح به ملكاً مسموع الكلمة ، مهيب الجانب ، فى منطقة واسعة الأرجاء ، تضم العديد من القبائل ، ويحتاج حكمها إلى قوة ، وهو صريح فى تحديد هدفه هذا :

فقلتُ له : لاتبكِ عينُك إنمــا نحـاولُ ملكاً ، أو نمـوتَ فَنُعْذَرَا

كذلك نرفض أن يكون الإمبراطور قد غضب على امرئ القيس لأنه شبّب بابنته ، ولا نستبعد أن يكون شاعر كندة قد خفق قلبه عند مرآها ، لأن التغزُّل فى امرأة جميلة ليس بمستغرب من شاعر هوايته الحديث عن النساء ، ولم يكن مما يعاب

فى بيزنطة فى عصر امرئ القيس ولا بعد عصره ، ولدينا أخبار لا يتسرَّب إليها الشكَ عن شاعر عربى آخر ، هو يحيى الغزال ، جاء بلاط قيصر سفيراً لعبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس ، فأعجبته زوجة الإمبراطور فتغزَّل فيها ، وسجَّل غزله فى شعر تحفظه كتب الأدب والتاريخ[١]. وكان الإمبراطور مسروراً بما قيل عن جمال زوجته وكانت زوجته أكثر منه سروراً .

وفيما يبدو يعود السبب فى إخفاق رحلة امرئ القيس إلى الإمبراطور نفسه ، فقد كان شيخا هرما ، وتوفى فى نفس العام الذى فارق فيه الشاعر العربى مدينة القسطنطينية عام ٥٦٥م ، فحالته لا تسمح له بأن يعد أو يغامر ، وكانت الدولة فى أواخر أيامه مهدَّدة بهجمات البرابرة ، على حين تضاءل الجيش من ٦٥٠ ألف مقاتل إلى ١٥٠ ألفا ، فأرضى امرأ القيس بلقاء حارّ ، وطيب خاطره بهدايا حسنة ، دون أن يتجاوز ذلك إلى إمداده بالمقاتلين .

ومن ثمَّ نرفض خبر الحلَّة المسمومة ، ونرى من تجميع الأخبار فى صورها المختلفة أن امرأ القيس كان مصاباً بمرض كالجدرى ، وأن عرقه نتن له رائحة عرق كلب ، وأنه كان مصاباً بخلل جنسى فى بنيته ، وانعكس ذلك فى التهاب جلدى تذكر كل رواية واحدة من أعراضه المختلفة ، ولا تناقض بينها أو تباين ، لأن العلاقة بين أمراض الجنس وأمراض الجلد مقررة علميًّا ، وأن المرض هو الذى أودى به فى الحقيقة ، ولا نتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد منه ، لنقرر أن الرحلة كلها مكذوبة غير معتمدين على دليل ، فى حين أن أحداثها تتردد فى شعره ، ويرتبط بها أكثر من قصيدة ومقطوعة ، موثقة الرواية . على ما سنعرض له بعد قليل .

كانت وفاة امرئ القيس عائداً من القسطنطينية نحواً من عام ٥٦٥م ، قريباً من أنقرة ، ويذكر الأب شيخو فى كتابه (شعراء النصرانية) أن الإمبراطور حين بلغته وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال ينصب على ضريحه ففعلوا ، وكان التمثال قائماً حتى أيام الخليفة المأمون ، وأن الخليفة شاهده عند مروره من هناك لما دخل بلاد الروم غازياً فى إحدى صوائفه .

ولما بلغ الحارث بن أبى شَمِر موت امرئ القيس ، وعرف ما ترك عند صموئيل

(١) انظر مثلا : المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٢١ طبعة محمد محيى الدين ، القاهرة ١٣٦٨ – ١٩٤٩ .

(السموءل) من سلاح ودروع طمع فى أن يستولى عليها لنفسه ، دون أن يدفع ما عليها ، فأرسل الحارث بن مالك ليطلبها من صموئيل ، لكن هذا رفض ولاذ بحصنه ، وأغلقه دون رسول الحارث الغسانى وتقول الرواية إن الرسول أخذ ابناً لصموئيل كان خارج الحصن ، وجعل إطلاق سراحه مقابل دفع السلاح ، فرفض صموئيل ، وآثر أن يحتفظ بما خلّف امرؤ القيس حتى ولو فقد ابنه ، وقد قُتِل ابنه فعلا . تلك هى القصة فى جوهرها ، ثم صُنِع منها فى أيام صموئيل أو بعدها ، وربما لهدف دعائى يهودى مقصود ، قصة تمثل الصراع بين الغدر والوفاء ، جعلت من صموئيل بطلا لأسطورة أصبحت مثلا ، سجلها الأعشى فى شعره وقد عاش قريباً من أحداثها ، والشك فى نسبة الشعر إليه والظنّ بأن صانعه هو أحد أبناء صموئيل يسقط اعتبار القصيدة من شعر الأعشى ، لكنه لا يسقط القصة نفسها من أحداث التاريخ ، وقد يكون الشعر مصنوعاً قيل ليدعم موقفاً معيناً ، ولا يتأتى أن يُنْحل شعر فى مجال التفاخر والتباهى ، يعتمد على قصة موضوعة ، ليس لها سند من جوهر أحداثها ، وإن اختلفت التفاصيل واختلفت الناس إزاءها فى التفسير والتعليل .

تروى كتب الأدب والتاريخ أن رجلا من قبيلة كلب أسر الأعشى وحبسه ، ثم اجتمع عنده شرْب فيهم شُرَيحُ بن عمرو الكلبى ، فعرف الأعشى ، فقال للكلبى : مَن هذا ؟ فقال خشاش التقطته قال : ما ترجو به ولا فداء له ؟ خلِّ عنه ، فخلَّى عنه ، فأطعمه شريح وسقاه ، فلما أخذ منه الشراب سمعه يترنّم بهجاء الكلبى ، فأراد استرجاعه ، فقال الأعشى :

شُريحُ ! لا تتركنِّى بعدما علقتْ ... حِبالَكَ اليومَ بعد القِدِّ أظفارى[1]
كُنْ كالسموءلِ إذ طافَ الهُمامُ به ... فى جحفلٍ كهزيع الليل جرَّار
بالأبلق الفرد من تيماءَ منزلُهُ ... حصنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غدَّارِ
خيَّرَهُ خُطَتَىْ خَسْفٍ فقال له : ... اعرضهما ، هكذا أسمعْهُما حارِ[2]
فقال : ثكلٌ وغدرٌ أنت بينهما ... فاخترْ ، وما فيهما حظٌّ لمختار
فشكَّ غيرَ طويلٍ ، ثم قال له : ... اقتلْ أسيرَك ، إنِّى مانعٌ جارى

(١) القد : سير يقد من جلد غير مدبوغ .
(٢) حار : ترخيم حارث .

وسوف يُعقِبُنيه إن ظفـرتَ به ربٌّ كريمٌ ، وبيضٌ ذات أطهار
فاختار أدراعَهُ أن لا يُسبَّ بهـا ولم يكنْ عهدُهُ فيها بختّار[١]

ما صدى هذه الرحلة فى شعر امرئ القيس ؟

ليس لنا أن نتوقع من إنسان رهِيف الحسّ كامرئ القيس أن يصبح شاعراً نظّاماً ، يجعل من قصيده أرجوزة يضمنها وقائع رحلته وأحداث قومه على نحو علمى يختنى معه الانفعال والعاطفة والخيال ، ويحل مكانها التروّى والعقل والحقيقة ، فى وقت وبيئة لم يكن التاريخ فيهما علماً يكتب فى النثر بله الشعر ، ولا أظن شاعراً فى القديم أوالحديث ، فى لغتنا أوغيرها من اللغات ، عُنِى بأن يجعل من شعره معرضاً لوقائع التاريخ كحقائق مجردة ، ومع ذلك أعطانا امرؤ القيس فى ديوانه من الإشارات التاريخية والجغرافية ما يكفى ليجعل من الرحلة واقعاً تاريخيًّا ، ومن الشعر المروىّ عنه حقيقة يصعب إنكارها .

من الشعر الذى يتصل بالرحلة إلى قيصر ثلاث قصائد يلتقى فى روايتها العالمان الجليلان ، عبد الملك الأصمعى والمفضل الضبىّ وآخرون ، ومقطوعة تفرّد الضبىّ بروايتها ، وقصيدة أوردها الطوسى ، لم تثبت فى رواية المفضل ونسبها غيره إلى امرئ القيس ، ومقطوعتان مما زاده السكّرى على غيره من الرواة .

الأولى من القصائد تتضمن إشارات وافرة إلى الرحلة وأحداثها[٢] ، ويبدو أنه قالها فى الطريق إلى القسطنطينية ، لأنها رغم وميض التشاؤم الذى يبرق بين سطورها ، تعكس روح شاعر لم يصرع اليأس طيب آماله بعد ، ومن الوجهة النقدية هى من خير شعره ، ولا تكاد تنقص عن أروعه ، وتبدو فيها شخصية امرئ القيس الشاعر واضحة . فقد بدأها بمقدمة طللية مصرّعة طويلة ، أطول مقدمة طللية فى ديوانه ، وتلائم موضوع الرحلة ، وأتبعها بغزل وقورحيّ على غير العادة ، انتقل منه إلى تذكّر أهله الصالحين وقد بعد به الطريق . وتجاوز « خَمَلَى » و « أوْجَرَ » من بلاد الشام ، فلما أشرف على

---

(١) ختار ؛ مبالغة من الختر ، وهو أسوأ الغدر وأقبحه .

(٢) ترتيبها الرابعة من الديوان فى طبعته الجديدة بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، وهى الرابعة فى مخطوطة الأعلم الشنتمرى ، والخامسة فى مخطوطة الطوسى والرابعة فى مخطوطة السكرى ، والخامسة فى مخطوطة البطليوسى ، والسادسة عشرة فى مخطوطة ابن النحاس ، والأربعون فى مخطوطة أبى سهل ، (انظر الفصل الخاص بديوان الشاعر).

« حَوْران » بدا له كل شيء جديداً وغريباً وحقيراً ، لا يصله به نسب ولا تشدّه إليه عاطفة ، فكأنه يرى شيئاً كثيراً ، ولا يرى شيئاً ، فلما عبر « حماة » « وشيْزر » تقطعت به أسباب الذكرى يأساً ، وشغل بما فيه من شدة وعناء ، وقد أغذّت القافلة تجهد نفسها بسرعة فوق طاقتها ، حتى ضجّت الإبل ، ومن تخلّف لشيء أصابه لم يتربّص عليه أحد حتى يدرك الركب ، ورغم أهواله لم ينس صويحباته هناك ، فى ظعائن مرتفعة ، خضراء اللون كأثل الوادى ، خلّفن « بِيشة » و « الغُمَيْر » قاصدات « غَضْوَر »[١] :

تذكّرتُ أهلى الصالحين وقد أتتْ ... على خَمَلَى خوصُ الركابِ وأوْجَرا[٢]
فلما بدتْ حَوْران فى الآل دُونَها ... نظرتَ فلم تَنْظُرْ بعيْنيك منظرا[٣]
تَقطّعَ أسبابُ اللُّبانةِ والهوى ... عشيَّةَ جاوزْنا حماةَ وَشيزَرا[٤]
بِسَيْرٍ يَضجُّ العَوْدُ منه ؛ يَمُنُّهُ ... أخو الجُهدِ ، لا يُلوى على مَن تعذّرا[٥]
ولم يُنسنى ما قد لقيتُ ظعائناً ... وخمْلا لها كالقَرِّ يوماً مُخدَّرا[٦]
كأثْلٍ من الأعراض مِنْ دون بِيشةٍ ... ودون الغُمَيرِ عامدات لغَضْورا[٧]

ثم وصف ناقته ، وأنها تحمل على ظهرها فتى لم تحمل الأرض مثله ، وفاء بما عاهد عليه ، وصبرا على ما يلقى ، واستعرض بعض ما صنع من أجل الثأر لأبيه مباهياً ، فهو المُنْزِلُ الألوف من بوادى ناعط بأرض همدان على بنى أسد ، فإذا أرادوا الأمن لأنفسهم فعليهم أن ينزلوا ما غلظ من الأرض وخشن أو يتحصنوا بالجبال . وفخر بقومه من اليمن فزعم أن بوسعه أن يسوق إلى بنى أسد من يغزوهم من حمير ، لكنه عمد إلى طلب العون من قيصر نكاية بهم وتشنيعاً ، وإظهاراً لمكانته وشرفه :

---

(١) لم نعرض للمقدمة الطللية للقصيدة ، لأننا سندرسها فى الفصل الخاص بدراسة هذه المقدمات .

(٢) خملى وأوجر : موضعان قبل الشام .

(٣) حوران : مدينة فى الشام – الآل : يريد به الأفق ، والضمير فى « دونها » يعود على أسماء فى بيت سابق .

(٤) اللبانة : الحاجة .

(٥) العوذ : الجمل المسن وفيه بقية – يمنه : يجهده – لا يلوى : لا ينتظر ، لا يتربص .

(٦) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى الهودج فيه سيدة – الخمل : ريش النعام – القر : الهودج – مخدراً : جعل كالخدر .

(٧) الأثل : شجر – الأعراض : جمع عرض ، وهو الوادى – بيشة والغمير وغضور : مواضع فيها ماء يقام عليها .

فدعْ ذا ، وسلِّ الهمَّ عنكَ بجسْرَةٍ ذَمولٍ إذا صــام النهارُ وهجّــرا

. . . .

عليها فتى لم تحمل الأرضُ مثله أبرَّ بميثــاقٍ وأوفى وأصــبرا
هو المُنزل الآلاف من جوِّ ناعطٍ بنى أسدٍ حَزناً من الأرض أوْعرا[1]
ولو شاء كان الغزْو من أرض حميرٍ ولـكنَّه عمداً إلى الرومِ أنْفرا

وخلال الرحلة أحس عمرو بن قميئة ، وكان شيخاً معُمَّرا ، بقسوة الغربة ، وعذاب الوحدة ، وضباب الغد ، فحن إلى قومه وأرضه وأمسه ، وشعر فى العالم الجديد بوحشة مقبضة ، فبكى وهو يفارق آخر شبر من أرض الجزيرة ويضع أول قدم فى أرض بيزنطة ، وأدرك أن بينه وبين نهاية الرحلة أمداً غير قصير ، فهدهد امرؤ القيس من آلامه ، وسلاّه عن أحزانه : إنما نحن طلاّب ملك تهون دونه الصعاب ، ولئن متنا دونه فسوف يلتمس لنا الناس عذراً ولئن عدتُ بجيش من قيصر أسترد به ملكي فسوف أطوى الأرض طيًّا فنبلغ أوطاننا فى زمن وجيز :

بكى صاحبى لمَّا رأى الدّربَ دونَـهُ وأيقنَ أنّا لاحقــان بقيصرَا
فقلتُ له : لاتبكِ عينُك ، إنمــا نحاولُ مُلْكاً ، أو نموتَ فنُعذرا
وإنِّى زعيمٌ إنْ رجعتُ مُملَّــــكاً بسَيْرٍ ترى منه الفُرانِقَ أزْورا[2]

ثم أخذ يصف الطريق التى سلكها ، طريقا واضحة مسلوكة ، لا يحتاج فيها إلى علم يُرشِد أو منار يهتدَى به ، إذا شمّته الإبل المُسِنة رغتْ جزعاً لبعده وقلة مائه ، وما تلقى من مَشقّة ، وكانت دابته فى الرحلة فرساً قويًّا استخدم من قبل فى البريد ، خميص البطن كذئب الغضا ، منطلقاً يتصبَّب العرق من جوانبه لشدة السَّيْر ومشقَتِه ، فإذا حرّكه بالركْض والزجْر من جانبيه تبختر فى مِشيه وتمايل ، ثم حرَّك فمه

---

(١) ناعط : جبل فى صنعاء وبه حصن يحمل نفس الاسم – الجو : المنخفض من الأرض تتجمع فيه مياه المطر ، أو تتسرب إليه فتبقى فيه مدة طويلة وتنبت فيه الأعشاب ، ويطلق على اليمامة وثلاثة عشر موضعاً غيرها ، وذكر شراح الديوان ان « جو » هنا يراد بها « اليمامة » وهو خطأ ولا يستقيم المعنى معه ، ومن ثم آثرت أن أفهمها على معناها الأصلى وهو الوادى – الحزن : ما غلظ من الأرض وماخشن

(٢) الفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ، ويقال إنه شبيه بابن آوى – أزور : مائل العنق .

باللجام عبثاً ونشاطاً ، فإذا شقَّ علينا السيْر طلبت من صاحبي أن يروِّح عنَّا ، فأرن « الفرانق » بالغناء ، وهو على فرس قوى شديد ؛ ليِّن العروق والمفاصل ، مقطوع الذّنَب :

على لاحبٍ لا يُهتدَى بمنـــاره ... إذا سافَهُ العوْدُ النباطيُّ جرجرا[1]
على كلِّ مقصوصِ الذُّنابَى مُعَـاودٍ ... بريدَ السُّرَى بالليل من خيْلِ بَـرْبَرا[2]
أقبَّ كسرْحانِ الغضـا مُتَمطِّـرٍ ... ترى الماءَ من أعطافِهِ قد تحدَّرا[3]
إذا زُعْتَـه من جانبيـه كِلَيْهمـا ... مشى الهَيْذَبَى فى دَفِّه ثم فرفرا[4]
إذا قلتُ روِّحْنا أرَنَّ فُـرانِقٌ ... على جَلْعَد واهِي الأَباجِلِ أبْتَرا[5]

ومع الطريق لا ينتهى ، إلى بلاد هو فيها غريب اليد واللسان ، أنكرته بعلبك وأهلها ، وكان الروم فى حمص أشد إنكاراً له ، ووجد نفسه مشدود القلب إلى وطنه يتابع المطر هاطلا ، مؤمِّلا أن يكون مصبُّه ديار أهله وأحبائه ، ولكن لا شىء يشفيه من الشوق إلى ابنة « عفزر » والحنين إليها ، هى وغيرها من جميلات قومه ، لاتطمح أعينهن إلى غير أزواجهنّ تعفُّفا وحسن صحبة ، ناعمات رقيقات لو مرّت نملة صغيرة فوق ثوب واحدة منهن لأثرت فى بشرتها ، وحسبه من الرحلة شقاء أنها تمضى به بعيداً عن أم هاشم والبسباسة بنت يشكر :

لقد أنكرتنى بعلبكُّ وأهــلُها ... ولابن جُرَيْجٍ فى قرى حمص أنكرا
نشيمُ بروقَ المُزْنِ أين مَصـابُهُ ... ولا شىءَ يشفِى منك يا ابنةَ عفزرا[6]
من القاصراتِ الطرفِ لو دبَّ مُحوِلٌ ... من الذرِّ فوق الإِتْبِ منها لأثَّرا[7]
له الويلُ إنْ أمسى ولا أمُّ هاشمٍ ... قريبٌ ، ولا البسْباسةُ ابنةُ يَشْكرا

---

(١) لا حب : طريق واضح – ساف : شم – العود : المسن من الإبل – النباطى : نسبة إلى النبط ، وإليها تنسب النجائب .

(٢) الذنابى : جمع ذنب ، وهوالذيل .

(٣) أقب : خميص البطن – السرحان : الذئب – الغضا : شجرمن نبات الرمل – أعطافه : جوانبه .

(٤) زاع : حرك البعير بزمامه ليزيد فى السير – الدف : الجنب – فرفر : حرك اللجام فى فه .

(٥) أرن : رجع صوته بالغناء – الجلعد : الغليظ الشديد – الأباجل : جمع أبجل وهوعرق غليظ فى الرجل .

(٦) شام : نظر – المزن : السحاب – مصابه : مصبه .

(٧) محول : أتى عليه الحول – الذر – جمع ذرة ، وهى أصغر النمل – الإتب : ثوب رقيق ، له جيب ، وليس له كمان .

فإذا أمضى خمس عشرة ليلة سيراً وراء « الحساء » من أرض بيزنطة ، فى بلاد قيصر ، بدا له أنّ أم عمرو بن قميئة ترسل دمعها غزيراً حزناً على فراق ابنها ، ولم يكن عمرو بأكثر منها صبراً ، فهو بدوره لا يكفّ عن البكاء . وبعيد عن صحبه فى قنصه ولهوه ، وعن المهابط التى احتفت به فتى لاهياً ، ثم أميرا ثائراً ، راح يندب حظه من الدنيا : لا أرتضى صديقاً تأنس به روحى وتقرّ عينى ، إلاّ أخلف ظنى ، وخان سرى ، فأتخذ صاحباً غيره ، لكن الناس كلهم سواسية فى هذا الخلق :

إذا نحن سِرنا خمسَ عشرةَ ليلة ... وراء الحساءِ من مدافعِ قيصرا[١]
أرى أمَّ عمرٍو دمْعُها قد تحدّرا ... بكاءً على عمرٍو وما كان أصْبرا
إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُه ... وقرّت به العينان بُدِّلْتُ آخَرَا
كذلك جَدِّى ، ما أصاحبُ صاحباً ... من النّاس إلاّ خاننى وتغيّرا

ويخلص لنفسه ، يفخر – على غير عادة منه – بقومه فى أصلهم البعيد ، فلقد كانوا قبل غزوة « قرمل » ، ورغماً منها ، يتوارثون الغنى والمجد كابرا عن كابر ، ولئن تراخت خيله عن اللقاء فليس ذلك جبناً منها ، وإنما حنيناً إلى مرابطها فى « بربعيص » و « ميسر » . وما أكثر الأيام التى شهدها فى « تاذف » و « ذات النعل » و « طرطر » فكانت له فيها الغلبة والظفر . وأمّا يوم « قذاران » فقمّة انتصاره وغاية مجده ، وكان فيه ، وأصحابه ، على حذر وقلّة طمأنينة كأنهم على قرن ثور ، فأصابوا حاجتهم ، وأدركوا طلبتهم . ثم أبان عن شيء من عاداته ، يزهو بغناه وثرائه ، أنهم يسكرون حتى يحسبوا الخيل حولهم غنما ، والسُّود شُقْرا :

وكُنّا أناساً قبل غزوةِ قَرْمَلٍ ... وَرِثْنا الغنى والمجدَ أكْبرَ أكْبَرَا[٢]
وما جُبِّنَتْ خيلى ولكنْ تذكّرتْ ... مَرابطَها من بَرْبعيصَ ومَيْسَرَا[٣]
ألا ربَّ يومٍ صالحٍ قد شهِدْتُهُ ... بتاذِفَ ذاتِ التّلِّ من فَوْق طَرْطرا[٤]

---

(١) هذا البيت يأتى فى الديوان ومخطوطاته بعد البيت التالى له ، وقدمناه ليستقيم المعنى . ويصبح لإذا الشرطية جواب هو « أرى » فى البيت التالى .

(٢) قرمل : ملك يمنى ليس بين يدى ذكر له إشارة امرىء القيس .

(٣) بربعيص وميسر : موضعان .

(٤) تاذف وطرطر : موضعان .

ولا مِثْل يومٍ فى قُـذارانَ ظلْتُـهُ كأنّى وأصْحَابى على قرْن أعْفَـرا[١]
ونَشْرَبُ حتى نَحسِبَ الخيلَ حوْلنا نِقاداً، وحتى نحسبَ الجوْنَ أشقرا[٢]

القصيدة الثانية التى تتصل برحلة امرئ القيس يأتى ترتيبها التاسعة من الديوان فى طبعته الجديدة المحققة[٣]. وهى أقصر من الأولى ، فتلك فى أربعة وخمسين بيتاً ، وهذه لا تتجاوز السبعة عشر ، ومن جوّها يبدو أنها كانت تالية فى الخلق لتلك . بدأها بمقدمة طللية قصيرة ما لبث أن تجاوزها إلى ذكر حاله مريضاً على سريره ، يرعاه جابر بن حى التغلبىّ فى رحَالته ، ذوى جسمه ، واتسعت عليه ملابسه ، فهى مضطربة تذهب مع الريح كما لو كانت هودجاً يتمايل . وفى مثل حاله ضعيفاً عاجزاً وحيداً بدأ يلتفّ داخل نفسه ، يسترجع ذكرياته وأيامه وصبواته ، فما أكثر ما فكّ محصوراً ، وافتدى أسيراً وأصدقاء لها معهم ، أيقظهم مُبكِّرين فاستجابوا له بين عاث ونشوان ، ووديان رحيبة قطعها على ظهر ناقة قوية الخلق ، ليّنة المشى ، وسهول أصابها الغيث فأعطت نبتاً متعدِّد الألوان ، هبطها بفرس ضخم يعطيك ما عنده من العدو قبل أن تكلفه ذلك وتسأله إياه :

فإمّا تريني فى رِحالة جــــابرٍ على حرجٍ ، كالقَرّ تَخْفِقُ أكفانى[٤]
فيارُبَّ مكروبٍ كررْت وراءه وعانٍ فككْتُ الغُلَّ عنه ففدّانى[٥]
وفتيانِ صدقٍ قد بعثْتُ بسحرة فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونشوان[٦]
وخرقٍ بعيد قد قطعتُ نيــــاطَهُ على ذاتِ لوثٍ ، سَهْوَةَ المَشْيِ مِذْعان[٧]

---

(١) قذاران : اسم مكان – الأعفر : الظبى الأبيض يخالط بياضه حمرة .

(٢) النقاد : غنم صغار – الجون : الفرس الأسود .

(٣) وهى التاسعة فى مخطوطة الأعلم الشنتمرى ، والثامنة فى مخطوطة الطوسى . والحادية عشرة فى مخطوطة السكرى . والعاشرة فى مخطوطة البطليوسى ، والثانية والخمسون فى مخطوطة ابن النحاس . والثالثة والثلاثون فى مخطوطة أبى سهل .

(٤) الرحالة : أراد بها الخشب الذى يحمل عليه فى مرضه – الحرج : سرير يحمل عليه المريض أو الميت – القر : الهودج .

(٥) العانى : الأسير .

(٦) السحرة : قبيل الصبح – العانى : أراد به هنا كالسكران من النعاس .

(٧) الخرق : الأرض الواسعة – النياط : أراد به هنا ما اتصل بهذه الأرض ذات لوث : ناقة ذات قوة – السهوة : اللينة المشى – المذعان : المطاوعة .

وغيثٍ كألوانِ الفنَا قد هبطتهُ تعاور فيه كلُّ أوْطَفَ حنّان (١)
على هَيْكلٍ يُعطيك قبلَ سُؤالِهِ أفانينَ جَرْيٍ ، غير كَزٍّ ولا وان

وتنتهى به القصيدة ، أو ينتهى بها الرواة ، عند وصف الحصان بأبيات لا تعكس من واقع الرحلة شيئاً ، وخارج عن هدف هذا الفصل أن نعرض لها .

القصيدة الأخيرة التى تتصل برحلة امرئ القيس ترتيبها الثالثة عشرة من الطبعة الحديثة لديوانه[٢] . وأبياتها أربعة عشر ، فهى أقصر من الثانية ، وفيما يبدو قالها أثناء عودته ، ومقدمتها الطللية لا تتجاوز ثلاثة أبيات ، ينتقل منها إلى الحديث عن داء يشدّه إلى السهر ، فلا ينام شيئاً إلا أن يكبّ فينعس ، ومع الظلمة يتذكر داءه القديم ، ويخشى أن يصاب بنكسة يعاوده فيها المرض ، ومع الإحساس بالعجز يفرّج عن ضوائق نفسه ، يتذكر ما صنع وهو سليم معافى ، فما أكثر – فى سوابق أيامه – ما أنجد مكروباً محاصراً ، طاعن عنه الخيل حتى أفلت من عدوّه ، وما أكثر الأيام التى كان يخلص فيها لنفسه ، يُعنى بهندامه ، فيبدو فتى وسيما حبيبا إلى الصبايا ، يشدّهن صوته ، ميلا إليه وكلفا به ، كما ترجع الإبل إلى الفحل منها :

تأوّبنى دائى القــــديمُ فغلّسَا أحاذرُ أن يرتدَّ دائى فأُنْكسا[٣]
فإمـا تَـرَينى لا أغمِّضُ سـاعةً من الليلِ ، إلاَّ أنْ أكبَّ فأنعسا
فيارُبَّ مكروبٍ كررْتُ وراءَهُ وطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنفسا[٤]
ويارُبَّ يومٍ قد أَروح مُـــرجَّلا حبيباً إلى البيض الكواعب أملسا[٥]
يَرُعْنَ إلى صوتى إذا ما سمعنَهُ كما ترعوى عيطٌ إلى صوتِ أعْيَسَا[٦]

ولكنه اليوم غيره بالأمس ، شاب منه الشعر ، وتقوّس الظهر ، وتصرّم من بين

(١) الفنا : عنب الثعلب أونبت يشبهه – الأوطف : سحاب دانٍ من الأرض الحنان : الشديد الصوت .

(٢) وهى الثالثة عشرة فى مخطوطة الأعلم الشنتمرى ، والرابعة عشرة فى الطوسى ، والتاسعة عشرة فى السكرى ، والرابعة عشرة فى البطليوسى ، والسادسة والثلاثون فى ابن النحاس ، والثالثة والأربعون فى أبى سهل .

(٣) هذا البيت يأتى ترتيبه فى الديوان بعد تاليه ، وكمال المعنى يقتضى تقديمه فقدمناه .

(٤) طاعنت : قاتلت عليه أصحاب الخيل .

(٥) المرجل : من يسرح شعره ويدهنه .

(٦) يرعن : يرجعن – عيط : اعتاطت الإبل لم تحمل سنتها – الأعيس : البعير الأبيض الذى يضرب بياضه إلى الحمرة والشقرة .

يديه المال ، وهى عوارض تنفر النساء منه ، ومن أى إنسان ، ومع ذلك فهو لا يضيق بالحياة حتى ولو قست ، ولو بلغ منه المرض مبلغاً يعجز معه عن ارتداء ثيابه بنفسه ، وأشق ما فى حياته أن الموت لا يأتيه معافى فيذهب بنفسه دفعة واحدة ، ولكنه يموت شيئاً بعد شىء ، وذلك أقسى الموت . لقد بُدِّل بصحته مرضاً ، وامتلأ جسمه قروحاً ، كأن منيته قد استحالت إلى بؤس ، ورغم أهوال المرض ، وعناء الغربة ، ومأساة العجز ، يتعلّق بالأمل ، الأمل فى أن يعقب الشِّدة رخاء ، والفقر غنى ، والشيب عمر ومُسْتَمتع :

أراهُنَّ لا يُحْبِبْنَ من قلَّ مالُهُ ... ولا مَن رأينَ الشيبَ فيه وقوَّسا
وما خفتُ تبريحَ الحياة كما أرى ... تضيق ذراعى أن أقوم فأَلْبَسَا
فلو أنَّهـا نفسٌ تموتُ جميعـةً ... ولـكنَّها نفسٌ تساقطُ أنْفُسَا
وبُدِّلتُ قُرْحاً دامياً بعد صِحّةٍ ... لعـلَّ منايانا تحوَّلْنَ أبْؤُساً
لقد طمحَ الطَّماحُ مِنْ بُعْدِ أرضِه ... لِيُلْبِسنى من دائه ما تلبَّسا
ألاَ إن بَعْدَ العُدْمِ للمرء قِنْوَةً ... وبَعْدَ المَشيب طولَ عُمْرٍ ومَلبَسا[١]

أما المقطوعة فهى أبيات ثمانية ، وتفرّد بها الضبىّ فلم يشاركه الأصمعى فى روايتها ، ويأتى ترتيبها السادس والأربعين فى الطبعة الجديدة من الديوان[٢] ، ويغلب على الظنّ أنهـا بقايا قصيدة ، لأنها بلا مقدمة طللية ، وغير مصرّعة ، ويبدو أن ترتيبها فى الخلْق يأتى بعد القصائد التى عرضنا لها من قبل ، لأنها تعكس نفس امرئ القيس يرى الموت فى طريقه إليه ، فلا يملك له دفعاً ، ولا معه مقاومة ، ويتمنّى أن يعرف قومُه حاله وما هو فيه . لقد قطع رحلة الحياة كما يقطعها أىّ إنسان ، ذاق حلو الحياة ومرّها ، ثم جاءته النهاية ، بُلِىَ جسده ، وأُنهكت روحه ، وذوت آماله ، وتلك طبيعة البشر ، فما زعم لنفسه يوماً أنه قُدّ من حجر أو حديد ، وليست ثورته على الموت ، ولا نقمته على انتهاء حياته ، لأن الخلود محال ، لكنه ضائق لموته فى أرض الروم بمنأى عن قومه وأهله ، ولو جاد بنفسه بينهم للقى المنيّة مطمئنًّا ، مؤمناً بأن الموت حقّ ، لقد شقى بآماله الكبار يطلب ملكاً كملك قيصر ، ومَنْ كانت له مثلها وعلى حاله من المرض فإنّ الموت

(١) قنوة : رخاء — الملبس : ما ينتفع به ويستمتع .

(٢) هى الحادية والأربعون فى مخطوطة الطوسى ، والسادسة والخمسون فى مخطوطة السكرى ، والرابعة والثلاثون فى ابن النحاس ، والسابعة فى أبى سهل .

يترقبه بأرض الغربة فى كل خطوة ، وليس له من يأسو أو يَشْفِى أو يعود :

ألاَ أبْلغْ بنى حُجْرِ بن عمــــرٍو ... وأبلـغ ذلك الحىَّ الحريدا[١]

بأنّى قد بَقِيتُ بقـاءَ نفْسٍ ... ولم أُخْلَق سِلاماً أو حديدا[٢]

فلو أنّى هَلَـكْتُ بدارِ قَومى ... لقُلْتُ : الموتُ حقٌّ ، لا خلودا

ولكنّى هلـكتُ بأرض قـــومٍ ... بعيدٍ من دياركُمُ بعيـــدا

أُعالج ملكَ قيصرَ كلَّ يومٍ ... وأجْـدِرْ بالمنيـة أن تعودَا

بأرض الرّومِ لانسبٌ قـريبٌ ... ولا شافٍ فَيُسْنِدَ أو يَعُودا

ولو وافقْتُهنَّ عـلى أُسَيْسٍ ... ضُحَيّا أو وَرِدْنَ بنا زَرُودا[٣]

عــلى قُلُصٍ تظـــلُّ مُقلّداتٍ ... أزِمَّتُهنَّ ما يَعْدِفْنَ عـــودا[٤]

وانفرد السكرى برواية أربعة أبيات ، قاطعة الدلالة فى موت امرئ القيس ، وتذهب بكل الأقاصيص التى صيغت عن الحلّة المسمومة ، فهو يتحدث فيها صريحاً ودقيقاً عن قروح كست بدنه ، وأعجزته عن السير كما لو كان مصاباً فى مفاصله وتكاثرتْ ونزَّ صديدها ، فيبدو معها كل ثوب يلبسه ، ولو كان جديداً يرتديه للمرة الأولى ، قديماً خَلَقاً قد لُبس دهراً ، وتناثرت الدمامل على بشرته كأختام طبعت متراصة على صحيفة :

لِمنْ طَلَــلٌ داثرٌ آيُهُ ... تقـادمَ فى سالفِ الأحْرُسِ[٥]

فإما ترَيْنِىَ بِى عُـــرَّةٌ ... كأنّى نكيبٌ من النَّقْـرِسِ[٦]

وصـيّرَنى القَرحُ فى جُبَّةٍ ... تُخَـال لبيساً ولم تُلبسِ[٧]

ترى أثرَ القَرْحِ فى جلده ... كنقشِ الخواتمِ فى الجِرْجِسِ[٨]

---

(١) الحريد : الذى ينزل ناحية منفردا .

(٢) السلام : جمع سلمة ، وهى الحجارة .

(٣) أسيس وزرود : موضعان — والضمير فى (وافقتهن) يعود على المنايا والأحداث .

(٤) القلص : جمع قلوص ، وهى الناقة الفتية — ما يعدفن : ما يأكلن .

(٥) الأحرس : جمع حرس ، وهو الدهر .

(٦) العرة : القرحة فى الجسم — النقرس : مرض يصيب المفاصل .

(٧) اللبيس هنا : الثوب الخلق الملبوس .

(٨) الجرجس : الصحيفة .

كما انفرد برواية الأبيات التالية له ، قالها وهو يحتضر قريباً من أنقرة :

رُبَّ طعْنَةٍ مُثْعَنْجِرهْ[١]

وجَفنـــــةٍ مُتَحَـيِّرهْ[٢]

وقصيـــــدةٍ مُحَــبَّرَهْ

تبـــقى غـــداً بأنقرهْ

وزاد أبو سهل فى مخطوطته البيتين التاليين :

أجـارتَنـا إنَّ المـزارَ قريبُ ... وإنّى مقيمٌ ما أقام عسيبُ

أجارتَنـا إنّا غريبـان ها هُنا ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

وزعموا أنه قالهما حين حضرته المنية عند سفح جبل اسمه « عسيب » ، قريباً من قبر امرأة غريبة مدفونة هناك . وهو استنتاج ممكن ، إلا أن البيت لا يقطع به ، ويمكن لأى غريب فى أية رحلة أن يستشعر الغربة فيجرى على لسانه مثل هذا الشعر إبداعاً وتمثلا ، وأميل إلى أنهما بعض من قصيدة وليسا بمنفردين .

تلك هى رحلة امرئ القيس من شعره ، صوّرت القصائد جانباً غير قليل من مشاعر صاحبها النفسية ، بعيداً عن ديار أهله ، فى مدن يراها للمرة الأولى ، موزّع القلب بين ملك يرجوه ، وأمس طافح بالذكريات الجميلة وغير الجميلة ، وتصوير الشعر للرحلة أدق وأكمل من تصوير الرواية لها ، وإنْ تجرّد من التفاصيل ، لأنه بعيد عن الافتعال والخرافة والأسطورة وخوارق الأشياء . وفيما وصلنا منه نعرف شيئاً عن رفاق امرئ القيس فى الرحلة ، وعن مشاعره المتلونة ، المتأرجحة بين الرجاء واليأس ، يقوّى عزائم مَنْ معه ، فإذا انهارت عزائمه حاول أن يتماسك ، وفيه إشارة إلى الأسباب التى جعلته يتجه إلى بيزنطة ، وتعداد للمدن التى مرّ بها ، ووصف للطرق التى سلكها ، والمتاعب التى تعاورته ثم حرّكت عليه داءه القديم فذهب ضحية له . ولا أظن شاعراً داخل نطاق الشعر وقيوده ، والفن ومتطلباته ، يمكن أن يتحدث عن رحلة له بأوفى مما تحدث امرؤ القيس ، إذا أخذنا فى الحسبان أن جانباً كبيراً من شعره ضاع ولم يصلنا .

---

(١) المثعنجرة : السائلة ، يقال ثعجر الدم فاثعنجر إذا صبه فانصب .

(٢) تحيرت الجفنة ، إذا امتلأت طعاما ودسما .

ديوان امرئ القيس

حظى شعر امرئ القيس بنصيب وافر من عناية العلماء المتقدمين ، ومنه كانت شواهد النحو والبلاغة ، وشارك فى تدوينه عدد من رواة الشعر وجامعية ، بينهم اثنان من جهابذة اللغة : الأصمعى والمفضَّل الضبىّ ، والأول شيخ علماء البصرة بعد أبى عمرو بن العلاء ، والثانى خير رواة مدرسة الكوفة تحرّياً فى القبول ودقة فى التحرير . وكان الإقبال على درسه وشرحه شائعاً فى مختلف حواضر الإمبراطورية الإسلامية ، على امتداد تاريخها الطويل ، فكان الفرزدق أروى الناس لأحاديث امرئ القيس وأشعاره ، لأن امرأ القيس كان فى صحبة عمه شُرَحْبِيل قبل أن يقتل يوم الكُلاب الأول ، وكان شرحبيل مُسترضعاً فى بنى دارم رهط الفرزدق . وباع الشاعر سلْم بن عمرو البصرى مصحفاً يملكه واشترى بثمنه شعر امرئ القيس ، فعُرِف لذلك باسم « سلْم الخاسر » .

وفى موريتانيا ، حتى يومنا هذا ، يحفظ الصبيان فى « الكتاتيب » ، شعر امرئ القيس أو جانباً كبيراً منه . وهى ظاهرة ذات أهمية بالغة ، لأن عدداً لا بأس به من القبائل هناك تعود أصوله إلى عرب اليمن . وربما لهذا السبب نفسه ، كان العلاّمة اللغوى الأستاذ محمد محمود الشنقيطى ، وهو موريتانىّ الأصل ، اتخذت أسرته القاهرة موطناً ، حَفِيًّا بديوان امرئ القيس ، ينسخه أيان وجده مخطوطاً ويجمع مخطوطاته تملُّكاً ما أتيح له ، وأهدى وقفاً ما نسخه أو حصل عليه لدار الكتب المصرية .

ومن بين شرّاح شعره الذين وصلتنا مؤلفاتهم اثنان من كبار العلماء الأندلسيين : الأعلم الشنتمرى ، والوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ، ومصرى لغوى هو أبو جعفر النحاس ، وآخرون كثيرون من كل صقع إسلامى . ووصلنا ديوان امرئ القيس مفرداً ، أو مضموماً إلى نظائره من كبار الشعراء الجاهليين ، كما أن قصيدته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ترتيبها الأولى ، عند كل الرواة ، فيما اصطلح على تسميته « بالمعلقات » .

مخطوطات الديوان :

أقدم المخطوطات التى بين أيدينا لديوان امرئ القيس ، نسخة لا يعرف جامعها ولا شارحها ولا ناسخها ، كُتبت عام ٤٠٣ هـ = ١٠١٢م بخط قريب من الكوفى ، وتقع فى ١٠٤ ورقة ، ومسطرتها ٢٧ سطراً ، وأصلها محفوظ فى مكتبة « لا له لى » بإستانبول فى تركيا تحت رقم ١٨٢٠ ، ومصورة على « ميكروفيلم » فى معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ٨٦٠ ، وقام بنسخ هذه المخطوطة إسماعيل عبد الحليم بن محمد ثروة الإستانبولى ، وانتهى منها فى العُشر الأخير من ذى القعدة عام ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٥م وأهداها « لشيخه وسيده محمد محمود الشنقيطى » . وتقع فى ١٣٤ صفحة ومسطرتها ١٧ سطراً . وكتبها بخط فارسى جميل ، وتوجد الآن فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥ أدب — ش. وعلى الصفحة الأولى منها إهداء الناسخ ، وتوقيف الشيخ الشنقيطى لها ، وعنوان المخطوطة : « هذا ديوان امرئ القيس ابن حجر ابن عمرو الكِندى ، رواية أبى الحسن الطوسى ، وأبى نصر أحمد بن حاتم عن الأصمعى عبد الملك بن قُرَيب ، وعن أبى عمرو الشيبانى مع بعض شرحه » .

لكن مصورة المخطوطة فى معهد المخطوطات لا تبدو فيها الواو التى تسبق « عن أبى عمرو الشيبانى » ، واعتماداً عليها خطّأ الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم العنوان وقال : إنه « عنوان يشيع فيه الخطـأ والتخليط فليس لأحمد بن حاتم من رواية فى هذه النسخة إلا ما ذكر من أوجه الخلاف فى شروح بعض القصائد ، كما أنه ليس للأصمعى رواية عن أبى عمرو الشيبانى إطلاقاً[١] » وكان الدكتور ناصر الدين الأسد أكثر تحفظاً فقال : « إنه غير مستقيم » وإن صحته : « ديوان امرئ القيس رواية أبى الحسن الطوسى عن أبى عمرو الشيبانى ، وأبى نصر أحمد بن حاتم عن الأصمعى عبد الملك بن قريب »[٢]. وكلا الأمرين التخطِىء والتصحيح فى حاجة إلى تقرير ، لأن معظم ما رواه أبو الحسن الطوسى كان عن ابن الأعرابى ، من رواية

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم ، ديوان امرىء القيس ، المقدمة ص ١٤ و ١٥ ، الطبعة الأولى .

(٢) ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٥٠١ .

المفضل الضبى ، ولم يشر إلى أبى عمرو الشيبانى إلا فى موضعين ، الأول عند حديثه عن رائية امرئ القيس :

أحـــارِ بن عمروٍ كأنّى خَمِرْ ويعدو على المرء ما يَأْتَمِرْ[١]

والثانى عند حديثه عن قصيدة :

أمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى أنْ نأتكَ تنوصُ فتقصرُ عنها خُطْوةً أو تبُوصُ

فقد نصّ على أنها « ليست فى رواية الأصمعى ، وإنما هى من رواية أبى عمرو الشيبانى »[٢] ، وهى حقائق يقررها الدكتور ناصر الدين الأسد فى مكان آخر من كتابه[٣].

فإذا أردنا للعنوان توضيحاً ييسر فهمه للقارئ كان ما نحتاج إليه هو إعادة ترتيب الجملة لتصبح : « هذا ديوان امرئ القيس بن حجر بن عمرو الكندى ، رواية أبى الحسن الطوسى عن أبى عمرو الشيبانى (وابن الأعرابى عن المفضل الضبى) ورواية أبى نصر أحمد بن حاتم عن الأصمعى عبد الملك بن قريب » .

تنسب المخطوطة إلى الطوسى تجاوزاً ، لأن جامعها المجهول اتخذ من نسخة الطوسى أصلا اعتمد عليه ، ثم علّق على بعض قصائده ، وأضاف إليها قصائد أخرى ، فأصبحت المخطوطة تضم ثلاثة أقسام :

القسم الأول ، ويضم اثنتين وأربعين قصيدة ومقطوعة ، كلها من رواية المفضّل الضبىّ ، عدا المقطوعة رقم ٢٠ ، وهى فى ثلاثة أبيات[٤] . ومطلعها :

أذودُ القـــوافىَ عنّى ذِيادا ذِيــادَ غــلامٍ جرىءٍ جوادَا

وقد قرأ الطوسى هذا الشعر كله على ابن الأعرابى فأقره عليه باستثناء المقطوعة رقم ٤٠[٥] ، وهى من أربعة أبيات ، ومطلعها :

ألاَ قبّحَ اللهُ البراجمَ كلَّهـــا وقبَّحَ يربوعاً وقبَّحَ دارمَـا

---

(١) القصيدة رقم ٢٩ من الديوان فى طبعته الجديدة بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ص ١٥٣ .

(٢) القصيدة رقم ٣١ من الديوان فى طبعته الجديدة ، ص ١٧٧ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٩٠ وما بعدها .

(٤) القصيدة رقم ٥٣ فى الديوان المطبوع ، ص ٢٤٨ .

(٥) المقطوعة رقم ١٩ فى طبعة الديوان ص ١٣٠ .

والمقطوعة رقم ٤١[١] . وهى من ثمانية أبيات ، ومطلعها :

ألاَ أبْلغْ بنى حُجْـرِ بنِ عمرٍو وأبْلغْ ذلك الحىَّ الحَرِيدَا

والقصيدة رقم ٤٢[٢] وهى من واحد وعشرين بيتاً ، ومطلعها :

قـد أتانى عن مُرَيْئٍ مَأْلكٌ لابنةِ الحصَّاء أنْ هَبْها فَجُدْ[٣]

فقد ذكر الطوسى أن ابن الأعرابى لم يعرف المقطوعتين ، وقرأ عليه القصيدة فعرفها . وختم هذا القسم بقوله : « هذا آخر رواية المفضل الضبى ، والذى يلى هذا ما رواه ابو عبيدة مَعْمر بن المثنى والأصمعى » . ورواية هذين وغيرهما تكون القسم الثانى من المخطوطة ، وجاءت فى سبع قصائد ختمها بقوله : « تمَّت نسخة أبى الحسن الطوسى من القديم الصحيح المنحول » ، ويعنى به الشعر الذى لم يروه المفضل ونسبه غيره من الرواة إلى امرئ القيس .

لكن صاحب المخطوطة المجهول لم يكتف بما فى نسخة الطوسى من قصائد ومقطوعات ، فأضاف إليها ستًّا وعشرين قصيدة ومقطوعة أنهاها بقوله : « تمَتْ نسخة أبى الحسن الطوسى من القديم الصحيح المنحول ، ومما كتبناه عن غيره من منحول شعره وهو المنحول الثانى » .

وتليها نسخة الأعلم الشنتمرى (أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى) أندلسى من مدينة شنتَ مَريّة Santa Maria، المتوفى عام ٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م وكان عالماً بالنحو واللغة ، حافظاً للشعر جامعاً ، وقد جاء شعر امرئ القيس ضمن مجموعة شعرية له تشتمل على دواوين : امرئ القيس الكندى ، والنابغة الذبيانى ، وعنترة العبسى ، وعلقمة الفحل ، وزهير بن أبى سُلمى ، وطرفة بن العبد . وأوضح السبب فى اختياره لهؤلاء الشعراء : « . . . رأيت أن أجمع من أشعار العرب ديواناً يعين على التصرف فى جملة المنظوم والمنثور ، وأن أقتصر فيه على القليل إذ كان الشعر العربى كله متشابه الأغراض والمعانى والألفاظ ، وأن أوثر بذلك من الشعر ما أجمع الرواة على تفضيله ، وإيثار الناس استعماله على غيره » .

---

(١) المقطوعة رقم ٤٦ فى الديوان المطبوع ، ص ٢١٢ .

(٢) هى القصيدة ٤٧ فى الديوان المطبوع ، ص ٢١٥ .

(٣) مريئ : تصغير امرىء – مألك : رسالة – ابنة الحصاء : اسم ناقة .

ونسخة الأعلم الشنتمرى من أدقّ النسخ التى بين أيدينا وأصحّها ، لأن روايتها واضحة النسب ، موثّقة الرواة ، ينتهى بها السند إلى العالم الأصمعىّ ، وذكْر الأصمعىّ كاف لكى يطمئن المرء إليها جملة ، وليس ذلك مجرّد رأى انتهيت إليه ، إنما هو نهج فصّله الأعلم نفسه ، حين قرر أنه اعتمد فيما أورد من أشعار « على أصح رواياتها وأوضحها وهى رواية الأصمعى ، لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها ، واتفاق أهل العصر على تفضيلها ، وأتبعتُ ما صحَّ من روايته قصائدَ متخيّرة من رواية غيره » .

وفصَّل ابن خير الأشبيلى ، فى فهرسته عما رواه عن شيوخه ، اتصال الرواية بين الأعلم والأصمعى : « كتاب الأشعار الستة الجاهلية ، شرح الأستاذ أبى الحجاج يوسف بن سليمان النحوى الأعلم ، رحمه الله – حدثنى بها أيضاً قراءة منى عليه لها ولشرحها : الوزير أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن عمر بن فندلة رحمه الله – عن الأستاذ أبى الحجاج الأعلم مؤلفه رحمه الله – يرويها الأستاذ أبو الحجاج الأعلم المذكور ، عن الوزير أبى سهل بن يونس بن أحمد الحرَّانى ، عن شيوخه أبى مروان عبيد الله بن فرج الطوطالقى وأبى الحجاج يوسف بن فضال وأبى عمر بن أبى الحباب ، كلهم يرويها عن أبى علىّ القالى ، عن أبى بكر بن دريد ، عن أبى حاتم ، عن الأصمعى رحمه الله » .

وكما أوضح الأعلم نهجه فى الاختيار أوضح نهجه فى الشرح فقال : « شرحت جميع ذلك شرحاً يقتضى تفسير غريبه ، وتبيين معانيه ، وما غمض من إعرابه ، ولم أطل فى ذلك إطالة تخلّ بالفائدة ، وتُمِلُّ الطالب الملتمس للحقيقة ، فإنى رأيت أكثر العلماء فى شروح هذه الأشعار قد تشاغلوا عن توضيح المعانى ، وتبيين الأغراض ، بجلب الروايات والتوقيف على الاختلافات ، والتقصى بجميع ما حوته اللفظة الغريبة ، من المعانى المختلفة ، حتى إن كتبهم خالية من أكثر المعانى التى يحتاج إليها ، ومملولة من الألفاظ والروايات المستغنى عنها ، وفائدة الشعر معرفة لغته ومعناه ، وإلاَّ خاطبنا المتعلم بما لا يفهم ، والجاهل بما لا يعلم » .

وقد أهدى الأعلم كتابه إلى « سيف الدولة أبى الوليد إسماعيل بن المعتضد بالله – المنصور بفضل الله – أبى عمر عبّاد بن محمد بن عبّاد » .

تضم نسخة الأعلم ٢٨ قصيدة ومقطوعة من رواية أبى حاتم السجستانى عن

الأصمَعى ، وست قصائد أخرى مما اختاره من رواية المفضل الضبىّ وأبى عمرو الشيبانى وغيرهما . وشكّ الأصمعى فى إحدى المقطوعات التى رواها ومطلعها :

ألاَ إلاَّ تـكن إبـلٌ فمِعْــزى　　كأنَّ قــرونَ جِلَّتِهـا العِصىُّ

فقد ذكر الأعلم : « كان الأصمعى يقول : امرؤ القيس مَلِك ، ولا أراه يقول هذا ، فكأنّ الأصمعى أنكرها » . وعلى نهج الأصمعى سار الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البَطَلْيوسى ، وقال : « امرؤ القيس لا يقول هذا ، وأحسبه للحطيئة(١) » .

لدينا من مجموعة الأعلم الشنتمرى عدة مخطوطات ، أقدمها كتب عام ٥٧١ هـ - ١١٧٥ م ، وتوجد فى مكتبة باريس الوطنية تحت رقم ١٤٢٤ ، وحجمها من القطع الصغير ، وتضمّ ١٥٠ ورقة ، وكتبت بخط مغربى جميل ، على ورق أبيض ، اسمرّ لونه بفعل الزمن ، وتضمّ النصّ كاملا ، جيِّد الضبط ، والكلمات الصعبة مفسَّرة بحبر أحمر بين السطور ، وبالهامش بعض الشروح والتعليقات ، وعلى الصفحة الأولى عنوان تخرّم بعضه وبقى منه :

« كتاب . . . شعر . . . هلية » .

« شعراء الجاهلية الستة وهم : امرؤ القيس والنابغة وعلقمة وزهير وطرفة وعنترة » .
لمحمد بن يوسف بن إبراهيم بن قحطبة الخزرجى .

وعلى آخر ورقة من المخطوطة : « تمّ جميع الديوان ، وكتبه لنفسه بخط يده محمد بن يوسف بن إبراهيم بن قحطبة ، فى العشر الأول من رجب الفرد ، من سنة إحدى وسبعين وخمس مابة ، حامداً لله تعالى ومصليّا على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم » . ولا نعرف من هو محمد بن يوسف هذا ، لكن رسم المخطوطة ، وطريقة الرسم ، يوحيان بأنه أندلسى ، واحد من كثيرين فى الأندلس الذاهب ، كانوا يُعنَوْن بالمعلقات درساً وكتابة ونسخاً .

والثانية أحدث من الأولى ، كُتبتْ فى القرن الحادى عشر للهجرة ، السابع عشر الميلادى ، وتوجد فى مكتبة باريس الوطنية تحت رقم ١٤٢٥ ، وعدد أورقها ٢٢٣ ورقة ، من القطع المتوسط ، وتضمّ نفس قصائد المخطوطة الأولى وتسير على نفس

(١) لا أشارك الأصمعى والوزير أبا بكر رأيهما هذا ، وفيما يبدو لى كلاهما قرأ المقطوعة مجردة من مناسبتها ، وقد عرضت للأبيات ص ١٢٥ وأبديت رأيى هناك .

نظامها ، وتتميز بتفسير الكلمات الصعبة ، وشرح معنى الشعر مجملا ، فلا يقف عند البيت الواحد ، وإنما يشرح الشعر بيتين بيتين ، وأحياناً يشرح مجموعة من الأبيات دفعة واحدة . وعملا بوعد قطعه المؤلف على نفسه فى المقدمة لا يعرض إلاّ نادراً للقضايا النحوية التى يمكن أن يصبح شعر هذه القصائد موضوعاً لها .

ونص الأبيات يتفق مع المخطوطة الأولى ، وإذا وجد خلاف فهو على التأكيد سهو من الناسخ ، ولا يستحق أىّ اهتمام . والنصّ ليس مشكولا ، وكُتِبَ فى رسم مغربى ، مع إهمال واضح ، وناسخ الشرح هو ناسخ النصّ ، لأنه كُتِبَ فى نفس الرسم وعلى نفس المستوى من عدم الاعتناء . وفى الشرح أخطاء كبيرة وقع فيها الناسخ ، تبلغ أحياناً قدراً يصبح معه من العسير تحديد معنى الجملة ، إلى جانب الفراغ المتعدد الذى يتركه أثناء الشرح ، ويشير إليه من حين لآخر بقوله : « فى الأصل بياض يقرب من هذا البياض » . وبعض الشروح مبتورة ، وغير مفهومة ، تنقصها كلمة ، أو كلمات متعددة ، وأحياناً ينقص قدر كبير من الشرح . ورغم هذه الأخطاء فإن شروح المخطوطة ذات فائدة كبيرة . ويوجد عنوان المخطوطة على الصفحة الأولى ، ونصه :

« هاذا[1] شرح ديوان الشعراء الستة للأديب الأعلم يوسف الشنتمرى ، رحمه الله » .

وثمة مخطوطة ثالثة لديوان امرئ القيس وحده ، كان يمتلكها المستشرق الفرنسى Caussin de Perçeval وأفاد منها مواطنه المستشرق de Slane فى نشره لشعر امرئ القيس ، ولا أدرى لمن آلت ملكيتها الآن ، ولكن سلان فى مقدمته باللغة الفرنسية لشعر امرئ القيس عرَّفَ بها فى إيجاز ، فقد كُتبتْ عام ١١٦٣ هـ – ١٧٤٩ م ، ويزدحم هامشها بشرح الشعر ، ويكثر فيها الخرم وبخاصة عند نهاية المجلد ، وتسبق القصائد والمقطوعات مقدمات توضح مناسبة الشعر ، وهى أخبار تكوّن جانباً من ترجمة امرئ القيس ، ويبدو أن شارح النسخة أخذها من كتاب الأغانى ، وتضم قصائد

---

(١) حين خفت قبضة التزمت على الحياة الثقافية فى الأندلس ، بدأت حركة تحررية فى مختلف مجالات الأدب من شعر ونثر وإملاء ، وتحرر الأندلسيين من قواعد الإملاء المتزمتة لم يدرس بعد ، ولكننا سوف نلحظ قريباً من بداية القرن السادس الهجرى ، والثانى عشر الميلادى ، أن أسماء الإشارة ، وأسماء وحروفاً أخرى تكتب كما تنطق ، ولهذا آثرت أن أترك كلمة « هاذا » فى النص كما هى عليه وهى أدق من ناحية تصوير النطق ومن ناحية التحليل اللغوى .

ومقطوعات لا توجد فى مخطوطتى الأعلم السابقتين ، كما أنها تنقص عنهما بعض القصائد . ولا يقف الخلاف بينهما عند هذا الحدّ ، وإنما يمتد إلى ترتيب القصائد ، وعدد أبيات كل قصيدة ، وقد نجد قصائد فى المخطوطتين الأولى والثانية كل منها موّحدة مجموعة ونجدها فى هذه المخطوطة متفرقة ، موزّعة فى أكثر من مكان ، والعكس صحيح أيضاً . ومن الواضح أن هذه المخطوطة نقلت عن أصل لشعر امرئ القيس مخالف للأصل الذى نقل عنه ناسخا المخطوطتين الأخريين .

وثمة مخطوطة رابعة أشار إليها المستشرقM. Fauriel كتبها ميشيل صباغ لكنها فى الحقيقة منسوخة من المخطوطة الثالثة ، فهى صورة مكتوبة منها ، وليست أصلا جديداً .

ومخطوطة خامسة توجد فى مكتبة جوته Gothe بألمانيا ، تحت رقم ٥٤٧ ويرجع تاريخها إلى عام ١١٣١ هـ — ١٧١٩ م ، وكُتبتْ فى خط مغربى ردىء ، وبخاصة الشروح التى بهامشها ، ولم أطلع عليها ، أو على مَصَوَّر لها ، ولكن أهلوارد Ahlwardt وصفها فى مقدمته باللغة الإنجليزية لكتابه « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين » .

ولدينا فى دار الكتب المصرية مخطوطتان لنسخة الأعلم الشنتمرى ، الأولى تحت رقم ٨١ أدب — ش ، وكانت فى حوزة العالم اللغوى محمد بن محمود بن التلاميد الشنقيطى ، ثم آلت ملكيتها إلى دار الكتب المصرية ، وهى مكتوبة بقلم مغربى ، وتقع فى ١٦٤ ورقة ، يأتى شعر امرئ القيس فى ٢٨ ورقة منها ، ومسطرتها ٢٦ سطراً ، وكتبها أحمد بن عبد المختار بن الطالب أحمد ، لأخيه فى الله السيد حبيب بن سيد العابد الكنتاوى الهاملى ، ضحوة يوم الثلاثاء ، الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ = ١٨٦٥ م ، وخطها واضح منّمق وقد كتب الشعر فى حبر أحمر وأكبر قليلا ، والشرح فى حبر أسود وأصغر شيئاً ، وبها خرم يبتدئ عند نهاية شرح البيت الخامس والأربعين من قصيدة « سمالك شوق بعد ما كان أقصرا » ، وينتهى فى أثناء شرح البيت ٣١ من قصيده : « أحار بن عمرو كأنى خمر » ، ويختم شعر امرئ القيس بقوله : « تمت القصائد المتخيرات من شعر امرئ القيس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

والثانية ، نسخة مصورة ، عن نسخة مكتوبة بخط مغربى ، توجد فى الخزانة

التيمورية بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٥٠ أدب - شعر ، وكتبت عام ١٢٦٢ هـ = ١٨٤٥ م ، ويقع الأصل فى ١٦٠ ورقة ، يشغل منها شعر امرئ القيس ٣٨ ورقة ، والمصوّر من هذه المخطوطة شرْح شعر امرئ القيس والنابغة وعنترة ، أما أشعار علقمة وزهير وطرفة فلم تصور لأنها طبعت ، وتبلغ صفحات الأصل المصوَّر ٩٨ ورقة .

وقام بنسخ المخطوطة محمد بن عبد الجبار بن على بن محمد الطيب الحسنى من أصل لا يشير إليه .

ولدينا مخطوطة تجمع شعر امرئ القيس صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكّرى ، المتوفى عام ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م ، كتبها على بن ثروان الكِنْدى ، عام ٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م ، بخط جيّد صحيح جميل ، نقلا عن أصل مكتوب بخط الوزير المغربى أبى القاسم الحسين بن على ، كتبه سنة ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م . وأصلها محفوظ فى مكتبة ليدن بهولندا تحت رقم ٩٠١ ، وتقع فى ١١٩ صفحة ، وفى كل صفحة ثمانية أسطر ، وهى مضبوطة بالشكل الكامل ، وخالية من الشرح عدا كلمات يسيرة ، ومن مقدمات القصائد إلا قليلا . وتضم ٦٧ قصيدة ومقطوعة ، وفيها يجمع السكرى بين الروايتين البصرية والكوفية ، ومنها نسخة مصورة على « ميكروفلم » بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

وتلى مخطوطة السكّرى فى الأقدمية مخطوطة أبى سهل : خرابُنْداذ بن ماخراشيذ . ولدينا منها فى مصر نسخة كان يملكها الأستاذ محمد محمود الشنقيطى ، وآلت ملكيتها إلى دار الكتب المصرية ، وقد نسخها بقلمه عن مخطوطة توجد فى مكتبات الآستانة ، عليها خط الحافظ جلال الدين السيوطى ، والعالم اللغوى الأديب عبد القادر البغدادى ، صاحب كتاب « خزانة الأدب » ، أتم نسخها عجلا لعشر مضت من ذى القعدة الحرام سنة ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٥ م ، وهو يتهيأ لرحلة إلى المدينة المنورة ، وذكر أن الأصل الذى نقل عنه يأتى فى عشرين كرّاسة ونصف ، ويرجع تاريخه إلى عام ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م وعلى الصفحة الأولى منه : « هذا ديوان امرئ القيس بن حجر الكندى مع شرحه ، رواية أبى سهل خرابنداذ عن أبى جعفر الكوفى المعروف بدندان ، وعن أبى عمر العبدى الإصطخرى » . و « فيه تحريفٌ كثير ، وتصحيف عجيب

لا يكاد يوصف ، ولولا حفظى له من صغرى والحمد لله ما حصلت منه على طائل » .

قدّم لنا أبو سهل ، فى بداية شرحه ، إسناد روايته كاملا ، فى جانبيها البصرى والكوفى ، فهى تنتهى إلى الأصمعى شيخ مدرسة البصرة ، وإلى المفضل الضبى خير رواة الكوفة ، يقول : « قرأت على أبى جعفر أحمد بن الحسن الكوفى المعروف بدندان بشيراز شعر امرئ القيس بن حجر ، ثم قرأته بفسا على أبى عمر حفص بن عمر العبدى الأصطخرى » .

« قال أبو جعفر : قرأته على أبى العَيْشمى ، وعلى عدّة من أصحاب الأصمعى » .

« وقال أبو عمر : قرأته على أبى عبيدة الحسن العَبْدرى ، عن أبى محمد المفضل ابن محمد الضبىّ » .

فرواية أبى سهل بصرية كوفية ، تجمع بين روايتى الأصمعى والمفضل الضبىّ ، وتشتمل على ٥٩ قصيدة ومقطوعة ، وانفردت بقصائد لم تذكر فى أية نسخة أخرى ، وأبو سهل يشرح الشعر بيتاً بيتاً ، من عمله أو نقلا عن الأصمعى وأبى عمرو الشيبانى وغيرهما ، ويفسرّ اللغويات ، وقليلا ما يتعرض للقضايا النحوية ، ويسبق الشعر عادة تمهيد تاريخى ، موجز أحياناً ومطول أحياناً أخرى ، يوضح المناسبة التى قيل فيها .

كتب الشنقيطى نسخته بخط مغربى ، ومسطرتها مختلفة ، والشعر فيها مكتوب بخط أكبر ، والشرح بخط أقل حجماً ، وعلى هامشها تصويبات يبدو أنها من عمله ، ويتخللها بياض يشير الناسخ إلى أنه يساوى البياض الموجود فى الأصل ، وعدد أوراقها ٣٧ ورقة ، يشغل شعر امرئ القيس منها ٣٤ ، والصفحات الباقية تضمّ شعراً لعبد بنى الحسحاس ، والكتاب المأثور عن العَمَيْثل الأعرابى الشاعر صاحب عبد الله ابن طاهر . وتوجد الآن فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٣ أدب – ش .

وتوجد مخطوطة أخرى فى مكتبة « ولى الدين يكن » باستنبول ، تحت رقم ٢٦٨٤ ، ويرجع تاريخها إلى عام ٦٣٩ هـ – ١٢٤١ م ، ومنها نسخة مصورة على « ميكروفلم » بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وتقع فى ٢٠١ ورقة من الحجم المتوسط ، وعورضت على أصلها المنقولة عنه .

ثمة نسخة تنسب إلى ابن النحاس ، وتوجد بمكتبة الأسكوريال فى ضواحى مدريد ، تحت رقم ٣٠٣ ، وأوراقها ١٥١ ورقة ، وفى كل ورقة ١١ سطراً ، وكُتِبتْ

بخط النسخ ، وليس عليها اسم ناسخها ولا تاريخ تدوينها ، ولكننا نعرف من إشارة واردة بأول النسخة أنها كانت فى مكتبة السلطان زيدان الحسنى ملك مراكش ، وقد استولى عليها الأسطول الإسبانى فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، العاشر الهجرى ، أيام فيليب الثانى ملك إسبانيا ، وكانت محملة فى بعض السفن المغربية ، فلعل تاريخ نسخها يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع الهجرى . والشعر فيها تام الشكل ، ومكتوب بخط أكبر من خط الشرح ، ومنها نسخة مصورة على « ميكروفلم » بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

وصاحب النسخة غير معروف ، وعلى الورقة الأولى : (شرح ديوان امرئ القيس المسمى بالتعليقة للعلامة ابن النحاس) ، وكتب بجوار هذه الكنية بخط آخر مائل (بهاء الدين أبو العباس أحمد) ، وهو اسم غير معروف ولا تتحدث عنه كتب التراجم والطبقات التى بين أيدينا . وقد درس الدكتور ناصر الدين الأسد أمره ، فوجد أن هناك اثنين يسميان (ابن النحاس) ، أولهما أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس[١] والثانى : أبو عبد الله بهاء الدين بن النحاس محمد بن إبراهيم بن محمد[٢]. ورجَّح أن الكاتب الذى استدرك على اسم ابن النحاس فجعله بهاء الدين أبا العباس أحمد قد أخطأ ، وأنه يقصد أبا عبد الله هذا ، لأن بهاء الدين أبا العباس لا يظهر فى أىّ من كتب التراجم والطبقات .

ولا يقف الدكتور ناصر الدين الأسد عند هذا الحد من الاستنتاج ، وإنما يرجّح أن صاحب الشرح ليس بهاء الدين بن النحاس ، وإنما هو أبو جعفر النحاس المشهور ، لأن البهاء بن النحاس من رجال القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، ولا نجد

---

(١) من أعلام النحاة بمصر فى القرن الرابع الهجرى ، ويعرف بأبى جعفر النحاس ، كان غزير العلم ، واسع الرواية ، كثير التآليف ، تزيد مصنفاته فى رواية ياقوت على الخمسين وقد ضاع أغلبها ، وتوفى ضحية جهل العامة ، إذ كان يجلس على درج مقياس النيل فى جزيرة الروضة ، ومعه كتاب فى العروض يقطع منه بعض البحور ، فسمعه واحد من العامة يردد هذه المقاطع فلم يفهم من ألفاظه شيئاً ، فظنه يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلو الأسعار ، فركله برجله فتدحرج من فوق السلم فمات غريقا فى النيل فى ٥ من ذى الحجه ٣٣٨ هـ – ٢٦ من مايو ١٩٥٠ م .

(٢) من نحاة القرن السابع الهجرى فى مصر ، ولد عام ٦٢٧ هـ – ١٢٢٩ م وتوفى عام ٦٩٨ هـ – ١٣٩٨ م قال عنه أبو حيان ، وهو من تلامذته : « لم ألق أحداً أكثر سماعا منه لكتب الأدب ، وتفرد بسماع صحاح الجوهرى ، وولى التدريس بالجامع الطولونى » ثم تولى مشيخة الديار المصرية ، ووصفه جلال الدين بأنه كان معروفاً بحل المشكلات والمعضلات فى النحو ، وشهر باسم « البهاء بن النحاس » تمييزاً له عن أبى جعفر النحاس .

فى النسخة التى بين أيدينا ذكراً لأحد من الرواة بعد النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، وكانت شهرته فى النحو ، ولم يصنِّف شيئاً إلا ما أملاه شرحاً لكتاب المقرب . أما أبو جعفر النحاس فله عناية كبيرة بالشعر ويؤلف فيه ، فله (شرح المعلقات) و (شرح المفضليات) و (شرح الحماسة) و (شرح الدواوين العشرة) ، وله كتاب (أخبار الشعراء) . ورحل إلى بغداد ، وروى عن المبرِّد والأخفش والزجَّاج من كبار علماء مدرسة البصرة . ونجد فى الشرح الذى معنا عبارة : « قال أصحابنا البصريون » ، وفيه من الأخبار ما ينال من الكوفيين ويضعّف آراءهم[١] .

ويلتقى الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، محقّق ديوان امرئ القيس ، مع ناصر الدين فى جانب من رأيه ويخالفه فى جانب ، فهو يستبعد أن يكون البهاء بن النحاس هو صاحب الشرح ، لكنه لا يوافق على ترجيح أن يكون صاحبه هو أبو جعفر النحاس ، لأنه عارض روايته للمعلقة وشرحها فى النسخة موضع الدراسة ، بروايتها وشرحها لأبى جعفر النحاس فى مطبوع برلين عام ١٨٧٦ ، فوجد بينهما اختلافاً بيناً ، ومن ثم فهو يرى أن نسبة النسخة لشارحها ما تزال غامضة[٢] . ومع تقديرى لوجهة نظر الأستاذ المحقق أرى أنها غير كافية وحدها لدفع نسبة الكتاب إلى أبى جعفر النحاس ، اعتماداً على التباين القائم بين شرحه للمعلقة فى الديوان وبين شرحه لها فى مطبوع برلين ، لأن هذه فيما يبدو جزء من كتابه (شرح المعلقات)[٣] وليست بعض شرحه للديوان ، وقد تشرح المعلقة بين بقية المعلقات على نهج معين ، ثم تشرح فى ديوان الشاعر نفسه على نهج آخر . وقد يُفهم الشعر بعامة فى مرحلة معينة من العمر على نحو يختلف عنه فى مرحلة أخرى ، فلعل التباين بين شرحى المعلقة مرده إلى هذا السبب أو ذاك .

وتضم هذه النسخة ٥٦ قصيدة ومقطعة ، بروايات مختلفة متداخلة ، بصرية وكوفية ، وهو يشير إلى الراوى ، وإلى من يدفع نسبة القصيدة وينكر أنها لامرئ القيس ويفهم من الشرح أنه اتخذ نسخة اليزيدى (أبو عبد الله محمد ابن العباس بن محمد

---

(١) الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٩٦ وما بعدها .

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم : ديوان امرىء القيس ، المقدمة ص ١٨ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٨ .

(٣) لدينا نسختان مختلفتان من شرح المعلقات « لابن النحاس » ، أولاهما تضم المعلقات السبع المعروفة ، وتضم الثانية تسع قصائد ، بزيادة معلقتى النابغة والأعشى .

ابن يحيى بن المبارك المتوفى ٣١٠ هـ – ٩٢٢ م) أصلا لنسخته . ثم أضاف إليها روايات أخرى .

وعلى نهج الأعلم الشنتمرى نفسه سار مواطنه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى عام ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م . فاختار دواوين الشعراء الجاهليين الستة نفسها : امرئ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة وعنترة . وتوجد مخطوطتها فى مكتبة فيض الله بتركيا برقم ١٠٤٠ ، وتضم ١٥٠ ورقة ، كتبها عبد الكريم بن محمد فى مدينة القسطنطينية . وفرغ من كتابتها فى يوم السبت ٩ من شوال المعظم سنة ١٠٤٦ هـ = ١٦٣٦ م ، ويشغل شعر امرىء القيس منها ٤٠ ورقة ، ومصورة على (ميكروفلم) بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية . وتوجد لها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٢٩٨٤ .

تضم نسخة الوزير أبى بكر ٣٠ قصيدة ومقطوعة ، ولم يعن فيها بالرواية ، لكن من السهل بالمقابلة تبيُّن أنها نفس القصائد التى اختارها الأعلم ، مع اختلاف فى الترتيب فهى إذاً من رواية الأصمعى ، أشاعها فى الأندلس أبو على القالى ، ولم يختر من القصائد الست التى اختارها الأعلم من غير رواية الأصمعى إلا قصيدة واحدة من رواية المفضل بدأ بها الديوان ، هى :

أحــارِ بن عمرٍو كأنى خَمِـــرْ   ويعدو على المــرء ما يأتمرْ

ومقطوعة أخرى من بيتين هى :

إنىِّ حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ   أنّكَ أقلفُ إلاّ ماجنى القمـــرُ
إذا طعنتَ به مالت عمـــامتُهُ   كما تجمّع تحتَ الفَلْكةِ الوَبرُ

وقد شرح الوزير الشعر شرحاً وافياً ، معتمداً على شروح سابقيه ، مصرحاً بنهجه فى المقدمة : « وكل ما ذكرته فى هذا الشرح فمن كتب العلماء أخذته ، ومن مكنون أقوالهم استخرجته » .

وإلى جانب المخطوطات التى عرضنا لها قبل توجد مخطوطات أخرى تضم شعر امرئ القيس منفرداً ، أو مضموماً إلى واحد من الشعراء الستة السابقين ، أو إلى غيرهم . وأوضح هذه المخطوطات واحدة لا يعرف جامعها ، وتضمّ الشعراء الستة الذين شرح شعرهم الأعلم الشنتمرى ، ومواطنه الوزير أبو بـكر عاصم بن أيوب البطليوسى ، وأعطاها

صاحبها اسم « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين » خطّها محمد بن عبد الرحمن الصنهاجى ، فى رسم مغربى منمّق واضح ، وفرغ من كتابتها فى أوائل ذى الحجة سنة ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥ م وجاءت فى ١٤٨ ورقة ، ومسطرتها عشرة أسطر ، ويشغل شعر امرىء القيس منها ٣٦ ورقة . والشعر فيها مكتوب بخط أسود ، والشرح بحبر أحمر وفى حجم أقلّ ، ويكون بين السطور أو على الهامش ، دون التزام لقاعدة مطـردة ، ولكن فى تناسق دائماً . وتوجد فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١١١٦٢٦ز . ومن الواضح أن جامعها اتكأ على نسخة البطليوسى فهو يشير صراحة فى الورقة ٣٨ ب : « قال شارح هذا الديوان عاصم بن أيوب » ولو أنه كان على علم بشرح الشنتمرى وأفاد منه .

ومخطوطة أخرى لنفس الشعراء الستة ، أوقفها المرحوم الشنقيطى عام ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م ، وهى مما آل إليه أو اشتراه خلال رحلاته العديدة فى أرجاء العالم الإسلامى ، لأن مظهرها يوحى بالقدم ، وقد عبثت بها الأرضة وتمزّقت بعض أطرافها ، لكن النصّ فى مجموعه سليم . وهى لا تحمل اسم صاحبها ولا ناسخها ، ولا عنواناً معيناً ، ويمكن إرجاع تاريخها إلى ما قبل القرن العاشر الهجرى ، ويظن أن مكان نسخها المغرب العربى ، وأكاد أشك فى أنها كُتبتْ فى الأندلس ، لأن زخرفة الكتب على النحو الذى جاءت فيه المخطوطة من خصائصه ومما شهر به . فالشعر داخل إطار صنع من خطين أحدهما بالحبر الأحمر والثانى بالأخضر أو الأسود وكُتبتْ بحبر أسمر فى حجم كبير ، على حين تناثر تفسير اللغويات بخط أصغر بين الشعر بحبر وردى أو أحمر أو أسمر ، والمعنى الإجمالى والتعليق يكون بالهامش عادة ، وفى كل الأحوال تتحرك الكتابة ، شعراً وتفسيراً وشرحاً ، داخل تناسق هندسى بديع .

وتتميز هذه المخطوطة من بين جميع مخطوطات امرئ القيس التى وصلتنا بأن الشعر فيها كلها ، أيا كان البحر الذى صيغ فيه ، يكتب البيت منه كوحدة دون بياض أو فاصلة تميز بين شطريه ، وأحياناً يكتب كذلك ما عدا الكلمة الأخيرة من البيت ، فتكتب بعد بياض يفصل ما بينها وبين بقية البيت . يكتب الكاتب ذلك زخرفة وعلى نحو ما كانوا يفعلون فى نوع مُعيَّن من الموشحات ، وأوراق المخطوطة تبلغ ١٠٨ ورقات ، ويشغل ديوان امرئ القيس منها ٢٧ ورقة ، وتوجد فى دار الكتب تحت رقم ٦٦ أدب — ش .

وفيما يبدو كان العلامة محمد محمود الشنقيطى مولعاً بنسخ ديوان امرئ القيس وتملّك مخطوطاته ، فلدينا من مكتبته غير ما أشرنا إليه مخطوطتان أخريان . الأولى تحت رقم ١٤ أدب – ش ، ومصورها برقم ١٠٢٣٩ ز . حصل عليها فى مكة المشرفة عام ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٩ م وتقع فى ثلاثين صفحة وكُتِبتْ فى خط مغربى ، ومسطرتها ٣٣ سطراً ، وتغلب عليها التفسيرات اللغوية والتعليلات النحوية ، مكتوبة على الهامش أو بين الشعر نفسه ، والشعر مشكول كله ، وفى خط أكبر ، وما نكاد نصل إلى الورقة الخامسة منها حتى تختفى الشروح والتفسيرات لغوية أو نحوية ، وهى مجرّدة من المقدمات التاريخية ، ويختمها ناسخها بعبارة : « انتهى شعر امرىء القيس ابن حجر بحمد الله تعالى وحسن عونه ، فى رواية الأصمعى وغيره ، ويتلوه شعر علقمة الفحل » ، لكن النسخة تقف عند هذا الحد ، ويُظنّ أن صاحبها أراد أن ينسخ مجموعة الأعلم الشنتمرى ، ثم توقّف عند نهاية شعر امرئ القيس .

ومخطوطة أخيرة للشنقيطى جمع فيها شعر امرئ القيس ، مما لم يذكر فى ديوان الشعراء ، جمعه من رواية أبى سهل ، ومن رواية الطوسى ، كتبه كعادته فى خط مغربى واضح ، عام ١٣٠٣ هـ – ١٨٨٥ م ويتناثر شرحة فى خط أصغر على الهامش أو بين أبيات الشعر ، وتقع فى ٢٩ ورقة ، ومسطرتها مختلفة ، ومسجلة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦ أدب – ش .

مطبوعات الديوان :

طُبِع ديوان امرىء القيس لأول مرة فى باريس خلال عامى ١٨٣٦ – ١٨٣٧ م ، على يد المستشرق الفرنسى دى سلان، de Slane وأسماه : « نزهة ذوى الكَيْس ، وتحفة الأدباء فى قصائد امرىء القيس » ويضم ما جمعه الأعلم الشنتمرى من شعر امرئ القيس فى كتابه « دواوين الشعراء الستة الجاهليين » ، وآثر حذف المعلقة منه ، فلم ينشرها مع بقية شعره محتجاً بأن المستشرق الألمانى هنجشتنبرج M. Hengstenberg نشرها فى بونا عام ١٨٢٣ . واعتمد أصلا فى نشره للديوان على مخطوطتى المكتبة الوطنية فى باريس ، وعلى المخطوطة التى أعاره إياها المستشرق كوسان دى برسفال de Perçeval M. Caussin وكتب للديوان مقدمة باللغة الفرنسية ضمنها وصفاً شافياً للمخطوطات التى

اعتمد عليها ، وبحثاً موجزاً عن حياة الشاعر ، اعتمد فيه على ما ورد فى كتاب «الأغانى» وناقش الفكرة التى كانت شائعة بين مستشرقى عصره ، ومَن قبلهم ، ومؤداها أن امرأ القيس كان معاصراً للرسول عليه السلام .

وقد حَذفَ من الديوان شروح الأعلم الشنتمرى ، واستعاض عنها بهوامش صنعها باللغتين العربية والفرنسية ألحقها بآخر الديوان ، كما قام بترجمته كله إلى اللغة اللاتينية .

وتلاه وليم أهلوارد W. Ahlwardt وكان أستاذاً للغة العربية فى جامعة جريفزولد Greifswald بألمانيا ، فنشر ديوان امرئ القيس فى لندن خلال عامى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ م ، مع دواوين الشعراء الستة الآخرين ، واعتمد فى نشره على روايتى الأعلم الشنتمرى والسكّرى ، واستخدم مخطوطات باريس وجوته وليدن ، وأسماه : « العقد الثمين فى الشعراء الستة الجاهليين » ، وجاء شعر امرئ القيس فى ٦٨ قصيدة ومقطوعة ، ورتب الشعر أبجدياً حسب القافية ، وجرّده من شروحه وتفاسيره ، وانتزع المقدمات التاريخية من مكانها وألحقها بآخر الكتاب ، مشيراً إلى القصائد التى تتصل بها أو تسبقها ، ثم ضم إلى الديوان ذيلا جمع فيه كل ما وجده من شوارد شعر امرئ القيس وشوارد غيره من رفاقه ، صحيحة أو مصنوعة ، وجرى فيها على نحو ما صنع فى شعر الديوان فرتبها أبجدياً ، وبلغ ما استدركه على الديوان من شعر امرئ القيس ٤٢ قصيدة ومقطوعة وبيتاً مفرداً ، وجدها فى المظان الأدبية المختلفة .

ويعتقد معظم الدارسين المحدثين أن عنوان « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين » ، هو من ابتداع المستشرق الألمانى ، جرياً على عادة المستشرقين فى اختيار عناوين تعكس ثقافتهم الواسعة فى الأدب العربى قديمه ووسيطه ، وتمرّسهم بأساليبه ، من التزام السجع ، واختيار الكلمات المجازية ، على نحو ما صنع دى سلان وغيره ، وبخاصة أنه لم يشر فى مقدمته أنه نقله عن واحدة من المخطوطات التى اعتمد عليها ، ولكنى وجدت فى دار الكتب المصرية مخطوطة تحمل نفس العنوان ، وتضم نفس الشعراء ، بنفس الترتيب ، وترجع إلى تاريخ سابق (كتبت عام ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥ م) فلعل المستشرق الألمانى نقل العنوان عنها ، أو عن كتاب آخر جاء فيه ذكر الكتاب .

وطُبِعَ الديوان بشرح الوزير أبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى ، بطريقة

الحجر ، فى طهران عاصمة إيران عام ١٢٧٢ هـ = ١٨٥٥ م ، وفى بومباى عام ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥ م ، ثم طبع فى القاهرة بالمطبعة الخيرية عام ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ م ، وبمطبعة هندية مرّتين ، فى عام ١٩١٠ م و١٩٢٨ م دون أن يشير أى منهم إلى المخطوطة التى نقل عنها .

ومع يسر الطباعة ، وانتشار الثقافة ، توالت طبعات الديوان فى صور متعددة ، وحده أو مع شعراء آخرين ، مشروحاً أو خالياً من الشرح ، محققاً أو على نحو تجارى وبين هذه الكثرة فإن ثلاث طبعات تستحق أن يشار إليها .

الأولى قام بها الأستاذ مصطفى السقّا ، إذ نشر فى عام ١٩٣٠ ما سبق أن نشره دى سلان ، وأسماه : « مختار الشعر الجاهلى » ، وأعاد طبعه مرة أخرى عام ١٩٤٨ م .

والثانية قام بها الأستاذ حسن السندوبى ، نشرها بعنوان : « شرح ديوان امرئ القيس ، ومعـه أخبار المراقسة وأشعارهم ، فى الجاهلية وصدر الإسلام » . وصدرت الطبعة الأولى منه عام ١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠ م وأعاد طبعه ثانية عام ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م وقد جمع فى طبعته شعر امرئ القيس ، « ما فى ديوانه ، وما هو فى أسفار التاريخ ومجاميع الأدب ودواوين الأشعار ، مما ليس فى الديوان المطبوع ، فضم أشتاتها ، وجمع متفرقها ، وميّز أصلها من دخيلها ، ولم يشأ أن يغمره بالشروح والحواشى والتعليقات ، بل اكتفى بحل ألفاظه اللغوية التى قد تعسر معرفتها على الشادين » . « وزاد عليه الكثير من الشعر المنسوب إلى من يحملون اسم امرئ القيس ، ويختلف فيه الرواة بين امرئ القيس شاعرنا وبين غيره ممن يحملون اسمه فلم يترك شاعراً يسمى بامرئ القيس الا روى أخباره وجاء بأشعاره » .

وأخيراً قام الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم بتحقيق ديوان امرئ القيس معتمداً على معظم المخطوطات التى أشرنا إليها ، ومستخدماً كل ما أحرزناه من تقدم علمى فى مجالات نشر المصادر الأدبية ، وجمع بين كل المخطوطات دون أن يكرر شعراً أو يسقط شعراً ، وكسر الديوان على أقسام ثلاثة :

القسم الأول : رواية الأصمعى ، واتخذ لها أساساً نسخة الأعلم الشنتمرى .

القسم الثانى : رواية المفضل الضبى ، واتخذ لها أساساً نسخة الطوسى .

القسم الثالث : زيادات النسخ على هاتين الروايتين من ملحق الطوسى والسكرى

وابن النحاس وأبي سهل ، على هذا الترتيب .

وهو لا يذكر مكرَراً ، فحذف من نسخة الطوسى ما رواه الأصمعى ، ولم يذكر من نسخة السكرى إلا ما زاد عن نسختى الأعلم والطوسى ، وأثبت من نسخة ابن النحاس ما لم يذكره الأعلم والطوسى والسكرى ، ولم يذكر من نسخة أبى سهل إلا ما انفردت به .

وقد جاءت رواية الأصمعى فى ٢٨ قصيدة ومقطوعة ، ورواية المفضل مما لم يروه الأصمعى فى ١٩ قصيدة ومقطوعة (من رقم ٢٩ إلى ٤٧) ، وشملت زيادات نسخة الطوسى من الصحيح القديم المتحول ٦ قصائد ومقطعات (من رقم ٤٨ إلى ٥٣) وزيادات ملحق الطوسى من المتحول الثانى ٢٦ قصيدة ومقطوعة من رقم ٥٤ إلى ٧٩) ، وزيادات نسخة السكرى ١٥ قصيدة ومقطوعة (من رقم ٨٠ إلى ٩٤) ، وزيادات نسخة ابن النحاس ٦ قصائد ومقطعات (من رقم ٩٥ إلى ١٠٠) ونهج سبيل أهلوراد ، فألحق بالديوان ما وجده فى كتب الأدب والتاريخ من الشعر منسوباً إلى امرئ القيس ، ورتبه على حروف المعجم بحسب القافية ، وبلغت استدراكاته ٥٧ بين بيت مفرد ، وقصيدة مطولة ومقطوعة .

« وعقد فصلا مستفيضاً ألحقه بآخر الديوان ، أثبت فيه خلافات الروايات من حيث اللفظ ، ومواضع الزيادة والنقص ، وأثبت الزيادات التى جاءت فى الروايات جميعاً ، ولم يذكر من خلافات الرواية سوى ما ورد فى نسخ الديوان ، عدا « المعلقة » فقد عارضها بموضعها من « المعلقات » ، فى رواياتها المختلفة وشروحها المتعددة » .

وبذلك أهدى قراء العربية ، وللمرة الأولى ، ديوان امرئ القيس محققاً على نهج علمى صحيح ، وقد صدرت الطبعة الأولى منه ، عن دار المعارف فى سلسلة « ذخائر العرب » عام ١٩٥٨[١] . وعليها اعتمدنا فى دراستنا لحياة امرئ القيس من شعره ، ولمذهبه فى التعبير ومنحاه فى التصوير .

---

(١) صدرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٦٧ .

توثيق الديوان :

إذا كان فى صحيح شعر امرئ القيس ما يكفى لبيان حاله إنساناً ، وتقويم قدره فناناً ، فقد ارتضينا منه روايتى الأصمعى والمفضل الضبى كُلاًّ ، ولم نر فيهما ما يجزم العقل المعاصر باستحالة أن يكون لامرئ القيس ، وأسقطنا كل شعر نسبه الأقدمون إلى آخرين مع امرئ القيس ، ولم يقطعوا فيه برأى . ووقفنا من زيادات الطوسى والسكرى وابن النحاس وأبى سهل موقفاً متحفظاً ، لأن معظمها لا يشاكل شعر امرئ القيس شكلاً ومضموناً . لم نقبلها جملة وفيها ما يستحيل أن يكون لشاعرنا ، ولم نرفضها كُلاًّ لأن بين ما تضمنته شعراً يدعمه واقع الأحداث ، ويرجح فيه جانب اليقين ، وأسقطناها من الاعتبار عند تعادل الظن وتساوى المرجحات .

وقوْلة الأصمعى : « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية ، إلا نتفا سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء » ، أراد بها فيما أتصور أن يعتذر عما أهمل من رواية شعر امرئ القيس ، ولا أظنها تمتدّ إلى القليل الذى رواه . وخارج عن نطاق التصور أن يكون كل ما رواه حمَّاد كذباً ، فقد عاش حماد فى عصر ازدهار ثقافى وحضارى ، ولم يكن الوحيد الذى انتهت إليه الرواية أو أُخذتْ عنه ، وإنما شاركه فيها كثيرون . وجانب مما أثير حوله ، ومن التشنيع عليه ، ينبغى أن يقبل فى حذر ، فقد يكون وليد الصراع بين مدرستى الكوفة والبصرة . وقد وهم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف حين قرر : « أمامنا الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرئ القيس ، حتى لنرى الطوسى يفرد لذلك فصلين فى نسخته ، فصـل يذكر فيه القديم المنحول وفصل[١] يفرده للمستحدث المصنوع »[٢]. لأن الطوسى يعنى بكلمة المنحول ما كان من رواية الأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما ولم يثبت فى رواية المفضل الضبى ، ولا يريد بها شعراً مصنوعاً نُسِبَ لامرىء القيس وليس له ، وأمَّا الفصل الثانى والخاص بالمستحدث المصنوع فليس من عمل الطوسى حتى يُنْسَبَ إليه ، وإنما ألحقه بنسخته شارحها وهو مجهول .

---

(١) هكذا فى الأصل ، وأراها فصلا ، لأنها بدل من « فصلين » قبلها .

(٢) الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى ، ص ٢٤٤ .

بهذا النهج نرى – مثلا – أن القصيدة السابعة والسبعين من الديوان فى طبعته الجديدة ، وهى الرابعة والعشرون من ملحق الطوسى الثانى ، بيّنة الزيف ليس لناظمها من موْهبة الشعر إلا معرفته بالعروض ، ولا تعدو أن تكون نثراً منظوماً فمثل امرئ القيس لا يقول :

وقوم ضربتُ ، وقوم نفعتُ وقوم مدحتُ ، وقوم هجوتُ
وحيَ أبرتُ ، وحيّ جبرتُ وحيّ عصمتُ ، وحى نفيتُ
وخيلٍ طردتُ ، وحرب ضرستُ وأمر نهيتُ ، ونهب حويتُ
وبيضٍ منعتُ ، وبيض سلبتُ وبيض كنفتُ ، وبيض كفيتُ
وقِرْنٍ غلبتُ ، وقرن سلبتُ وقرن كتفتُ ، وقرن شأوتُ
وشعر نطقتُ ، وشعر وقفتُ وشعر كتمتُ ، وشعر رويتُ

وهناك مقطوعات فى زيادات الطوسى والسكرى وابن النحاس وأبى سهل ، جاءت فى شعر امرىء القيس ، ولم يورد رواة الديوان خلافاً حولها ، ثم رواها غيرهم فى مصادر أخرى ، منسوبة لشعراء آخرين ، فالمقطوعة رقم ٩٦ وهى من زيادات نسخة ابن النحاس ، وأبياتها :

الحربُ أوّلُ ما تكون فُتَيَّةً تسعى بزينتها لكلِّ جهولِ
حتى إذا استمرتْ وشبَّ ضرامُهَا عادتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ خليل
شمطاء جزّتْ رأسَها وتنكّرتْ مكروهةً للشمِّ والتقبيل

نسب « لسان العرب » البيت الأول منها لعمرو بن معد يكرب الزبيدى وذكر ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » أنه أنشدها فى حوار له مع الخليفة عمر بن الخطاب حول حرب القادسية ، وجو الرواية ، وحياة الشاعر نفسه ، تجعل الأبيات به أشبه ، ونسبتها إليه أقرب .

وقد يسبق القصيدة أو المقطوعة ذكر المناسبة التى قيلت فيها ، لكن مضمون القصيدة لا يشير إلى شىء من ذلك التمهيد ولا يوحى به ، فلم نقبله قضية مسلمة ، وإنما اعتمدت على النص نفسه ووقفت عنده ، إذا ارتضى المضمون تلك الإشارة أخذنا بها وإلاّ صرفت النظر عنها .

ترجمته إلى اللغات الأجنبية :

حظيت معلقة امرئ القيس ، من بين بقية شعره ، بعناية أكثر من جلة المستشرقين .
فقام فرنر Warner ،وهو مستشرق هولندى تدين له مكتبة ليدن بما يقرب من ألف مخطوطة عربية أهداها إليها ، بترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، ونشرها فى ليدن عام ١٧٤٨ م .
ونقلها إلى اللغة الإنجليزية جونز W. Jonesونشرها فى لندن عام ١٧٨٢ ، وأعاد طبعها كلوستون Closton فى كتابه عن الشعر العربى ، وقد نشره فى جلاسجو عام ١٨٨١ م .
ونقلها إلى اللغة السويدية بولمير B.M. Bolmeer ونشرها فى مدينة لندLundعام ١٨٢٤ م.
وترجمها إلى اللغة الفرنسية كل من سلفستر دى ساسى Silvestr de Sacy وكوسان دى برسفال Coussin de Perçeval. ونقلها إلى اللغة الألمانية هارتمانM.Hartmannعام ١٨٠٢م وإلى اللغة الروسية موركسMurkes. كما شرحها فرسك باللغة التركية ونشرها فى القسطنطية عام ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م . ويقوم الآن السنيور فيدريكو كوريتى دى قرطبة Fedrico C. de Cordoba ، وهو من خيرة المستشرقين العالميين ، وينتظره فى مجال الدراسات العربية مستقبل باهر ، بنقلها مع بقية المعلقات إلى اللغة الإسبانية .

أما الديوان كاملا فقد ترجمه إلى اللغة الألمانية بتصرف روكرت Fr. Ruckert، ونشره فى شتوتجارت وتوبنخن عام ١٨٤٣ . وترجمه إلى اللغة اللاتينية دى سلان عند نشره لديوان امرىء القيس عام ١٨٣٧ م .

امرؤ القيس وسابقوه

السائد بين علماء النقد القدامى أن امرأ القيس أول شاعر جاهلى ، وقد يشذ منهم من يسبق به مهلهلا عدىّ بن ربيعة ، خاله فيما يزعمون . فأبو عبيدة يرى أن الشعر افتُتِح بامرئ القيس وختم بابن هرمة . ويقول الصاحب بن عباد وقوم معه : بُدئ الشعر بملك ، يعنون امرأ القيس ، وخُتم بملك ، يعنون أبا فراس الحمدانى . وقال آخرون : بدئ الشعر بربيعة ، يريدون مهلهلا ، وعاد إلى ربيعة ، يريدون أبا فراس الحمدانى . وقد أثرت هذه الأحكام فى النقد العربى القديم ، فبذل علماء البلاغة جهداً كبيراً للتدليل على أن امرأ القيس أول من قال هذا البيت ، أو جاء بهذه الفكرة ، أو صنع هذا التشبيه ، أو صاغ تلك الاستعارة .

فلما كان العصر الحديث وقف الدارسون أمام استواء القصيدة العربية عندامرىء القيس موقف المفكِّر ، وذهاباً مع المنطق رفضوا أن يكون امرؤ القيس ممثلا لطفولة الشعر العربى ، إنه يمثل من مراحله الفجر الساطع ، أما الخطوات الأولى فقد اختفت مع الكثير الذى ضاع . ودعما لرأيهم قالوا إن امرأ القيس نفسه يقول :

عوجا على الطلل المُحيل لعلّنا نبكى الديارَ كما بكىَ ابنُ خذام (١)

فتساءلوا من هو ابن خذام هذا الذى شعر وبكى قبل أقدم شاعر لدينا عرفه النقّاد ، ودعموا وجهة نظرهم ببيت آخر لعنترة يقول فيه :

هل غادر الشعراء مــن مُتردَّم أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

وبنشر ذخائر التراث العربى ، والغوص فى نفائسه ، لم يعد الأمر كما كان قبلا ، فقد تبين أن ثمة عدداً من الشعراء سبقوا امرأ القيس فى الشعر وفى الحياة وأن عدداً منهم عاصروه ، وكان آخرون امتداداً له ولهم فى مسيرة الخلود . وفى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة معلومات موجزة ، ذات أهمية بالغة ، عن عدد لا بأس به منهم .

ما ليس بين أيدينا ونفتقده حقاً ، ونبحث عنه جادين ، هو المرحلة التى تسبق هؤلاء جميعاً ، ولدينا إشارات عنها فى كتابات أجنبية ، فالقديس نيلوس Nilus

(١) فى رواية ابن خذام ، وفى أخرى ابن حمام .

المتوفى حوالى عام ٤٣٠ م ، وأقدم من أى شاعر عربى وصلتنا أخباره ، يصف لنا غارة بدوية وقعت على دير سيناء عام ٤١٠ م ، ثم يتحدث عن أناشيد استقاء كان هؤلاء البدو ينشدونها عند بلوغهم بعض موارد المياه . وما يزال البدو حتى اليوم ينظمون شعراً من هذا القبيل يتغنون به ، غير فنى ولا مصقول ، وقريب الشبه بالأغانى التى خلدت انتصار العرب على الرومان عام ٣٧٢ م ، وبقيت متداولة حتى أيام سوزمن ، فذكرها فى كتابه « تاريخ الكنيسة » وقد ألفه قريباً من عام ٤٤٠ م .

إن أقدم شعر وصل إلينا يحمل تنوّعاً فى الوزن ، وصفاء واضحاً فى التعبير ، مما يقطع بأنه كان قمّة تجارب سابقة ، ويصاغ وفقاً لتقاليد صارمة متعارف عليها . ويمكن أن يُردّ إلى ما قبل نهاية القرن الخامس الميلادى ، أى قبل ميلاد امرئ القيس بنصف قرن على وجه التقريب ، وكله يستخدم اللغة الأدبية المشتركة ، ومن العسير أن نحدّد الفترة التى قطعها الشعر العربى فى رحلته عبر الزمن حتى بلغ هذه المرحلة من الجودة البالغة . وإذا تخيّلنا له تطوّراً متدرجاً أمكن أنْ نقول إن شيوع العرافة ، واتخاذ العرّافين والمحكمين الكلام المسجوع ، ثم السجع الموزون ، وسيلة للتعبير عن تنبؤاتهم وأحكامهم ، أدّى إلى اعتقاد الناس فى « سحر الكلمة » ، لأن لغتهم تصْدر عن شعور بالفوْق والأفضلية والسموّ ، وتعتمد على المواربة والرمز والإيهام وعلى التهويل والغموض والإغراب ، ورنين اللفظ وموسيقى الجملة ، وعلى شىء من ألمعيّة الكاهن أو العراف أو المحكّم ، وجانب من ثقوب ذهنه ، وحاضر بديهته ، وخلابة بيانه ، وقدرته على الاستنباط والقياس وقراءة الأفكار ، فشاعت العزائم والرقى والتنبؤات والدعوات[١] فى كلام مسجوع أولا ، ثم فى سجع موزون ثانياً ؛ وهذا ما يفسرّ لنا أن الرسول عليه السلام كان يضيق بالسجع ، ويجبه المتحدث به : « أَسَجعٌ كسجع الجاهلية ! » وأوضح الجاحظ فى صراحته المعهودة أسباب كره الناس له فى أيام الإسلام الأولى : « كان الذى كرّه الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر فى التكلّف والصنعة ، أن كهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ،

(١) ما تزال رواسب هذه الظواهر قائمة ، فى كل المجتمعات ذات الحظ المحدود من الثقافة ، فى الشرق والغرب على السواء .

وأنّ مع كل واحد منهم رئيًّا [١] من الجن ، مثل حازى [٢] جهينة ، ومثل شِقّ وسَطيح [٣] ، وعُزّى سَلِمة [٤] وأشباههم ، كانوا يتكهّنون ويحكمون بالأسجاع »

يقول سطيح متنبئاً باحتلال الحبشة لليمن ، أو تعبيراً لرؤيا تدور حوله : « أحلف بما بين الحرّتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملكن ما بين أبين إلى جرش » [٥] .

ويقول شقّ فى الأمر نفسه : « أحلف بما بين الحرّتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، وليغلبن على كل طَفَلة البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران » [٦] .

ومن السجع إلى الرجز ، ومن الرجز إلى الشعر ، وأصاب ابن سلام الجمحى فى كتابه « طبقات الشعراء » شاكلة الصواب حين ألمح إلى أن الرجز سابق على الشعر ، وأن القصائد تالية للمقطوعات ، وأن القصائد وُجدت فى عهد هاشم ابن عبد مناف ، وكان حيًّا بين عام ٤٦٤ م و ٥١٠ م ، لكنه أخطأ حين قرَّر أن مهلهلا وامرأ القيس أول من قصّداه . كان السجع أداة الكهّان فأصبح الرجز غناء الحداة ، حرّاس القوافل تضرب فى طول الجزيرة وعرضها شرقاً وغرباً ، ثم تطوّر مع الزمن فاستعمل فى أغراض من الشعر مختلفة ، من التغنّى به تسلية إلى إنشاده ملاحاة أو تهكماً ، ومن التهكم إلى الهجاء ، استجابة لعداوة شخصية أو قبلية ، يصاغ قصداً أوْ يأتى عرضاً فى تضاعيف الأبيات . وإذا كان الهجاء تطوراً للملاحاة فإن الرثاء ابن النياحة ، وليس من قبيل الصدف وحدها أن يبلغ الرثاء قمته على يد امرأة شاعرة هى الخنساء . ثم تابع التطور سيره ، فى الشكل من بحر إلى بحر ، وفى المضمون من فنّ إلى آخر ، ويخيّل إلىّ أن بحر « الكامل » كان التالى للرجز فى الوجود ، لأنه قريب منه ، وبإضمار تفاعيله يصبح

---

(١) الرئى : هو الذى يعتاد الإنسان من الجن يحبه ويوالفه ، فيما يزعمون ! .

(٢) الحازى : الكاهن .

(٣) شق أنمار بن نزار ، زعموا أنه كان شق إنسان ، له يد واحدة ورجل واحدة ، وعين واحدة . وسطيح ابن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب .

(٤) اسمه سلمة بن أبى حية .

(٥) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ، وأبين : مخلاف يمنى تقع فيه مدينة عدن ، وجرش ، مخلاف يمنى آخر ، مما يلى مكة .

الطفلة : الناعمة .

رجزاً (١) . وكقاعدة عامة يمكن أن أقرّر مطمئنا أن أقدم بحور الشعر العربي ما تركب من تفعيلة واحدة مكررة كالرجز ، والكامل ، والوافر ، والمتقارب ، والرمل ، والهزج ، والخبب ، وأن البحور ذات التفعلتين كانت تالية لها في الوجود ، كالطويل ، والمديد ، والبسيط ، والسريع ، والمنسرح ، وهو ما سنلحظه عند إلقائنا نظرة سريعة على أوائل القدامى من الشعراء الجاهليين .

رافق ذلك التطور إطالة تدريجية في بِنْية القصيدة ، واتساع في مادة الموضوع ، دون أن يطرأ على البناء الأساسي تغيّر ما ، « فالشاعر يبدأ بالحسرة على حبّ ضائع وحبيبة مرتحلة ، وقد يبثّ شكواه ما تخلف في ديار الحبيبة من بقايا وأطلال ، أو يدعو إلى تأمُّل قافلة ظاعنة ، وهو في كلتا الحالتين يستعيد ذكريات سابقة ، ويلف تفكيره في غمامة من الحزن ، ثم يحاول أن ينتزع نفسه من فيض أحزانه ، فيختم النسيب الذي استهلّ به قصيدته بموقف يصف فيه نفسه ، وقد ارتحل وحيداً في صحراء محفوفة بالمخاطر ، ويعدّد فضائل حصانه ، أو ناقته ، وربما استرسل في الحديث عنه ، على ذكر الأوابد من حيوان البادية ، غزال أو ثور وحشي أو نعامة ، وقد يضمن وصف حادثة صيد قام بها أو صحبة ، حافلة بالحياة والحركة ، فإذا وصل إلى هذا القدر تجاوزه إلى غايته ، سياسية تمس مصالح القبيلة ، أو شخصية يهدف منها إلى استثارة أريحية زعيم أو أمير ، وفيهما لا ينسى أن يمدح نفسه ، وأن يعدد مفاخر قومه ، وقد يختم قصيدته بأبيات من الحكمة يضمّنها تجاربه في الحياة » .

أيّ مهابط الجزيرة العربية كانت مصدر ذلك الإلهام ؟

يقول النقاد العرب القدامى بدءا بابن سلام الجمحي في « طبقات الشعراء » حتى ابن رشيق القيرواني في « العمدة في صناعة الشعر ونقده » : « إنّ الشعر العربي بدأ في ربيعة » ، وكانت تسكن إلى الشرق من شمال بلاد العرب ، قريباً من نهري دجلة والفرات ، وقد تهبط جنوباً حتى البحرين . وأكثر قبائلها ذكراً في التاريخ عبد القيس ووائل وبكر وتغلب وسدوس (٢) .

---

(١) الإضمار في الكامل إسكان التاء في « متفاعلن » لتصبح « متفاعلن » بسكون التاء ، وهذه تساوي « مستفعلن » التي بني عليها الرجز .

(٢) راجع الجدول الخاص ببيان أنساب القبائل . ومصور توزيعها الجغرافي في آخر الكتاب .

ومن العجيب أن يكون الشعر فى ربيعة وأن تبدأ أعظم نهضة عربية ممثلة فى الإسلام فى مصر !

فمن ربيعة عدىّ بين ربيعة المعروف بمهلهل ، وهو خال امرئ القيس فى رواية ، وكان امرؤ القيس وأبوه وإخوته وأعمامه مقيمين فى أسد ، وحكاماً على تغلب وبكر وعبد القيس ، وكلها تنسب فى ربيعة . ومنها المرقّش الأكبر ربيعة ابن سعد بن مالك ، وهو عمّ عمرو بن قميئة ، وعمرو بن قميئة ابن عمّ المرقش الأصغر ، والمرقش الأصغر عم طرفة بن العبد ، وطرفة ابن أخت المتلمّس . ومن ربيعة أيضا الحارث بن حلّزة اليشكرى ، وعمرو بن كلثوم ، والأعشى ، وهم مع طرفة بن العبد من شعراء المعلقات . وانتقل الشعر إلى مضر ، إلى تميم منها على التحديد ، فكان منها أوس بن حجر شاعر مضر فى الجاهلية ، ثم استقر فى قيس عيلان فكان منها النابغة ، والنابغة الجعدى ، وزهير بن أبى سلمى ، ثانى شعراء المعلقات ، وابنه كعب ، ولبيد بن ربيعة ، والحطيئة والشماخ وآخرون . ولم يكن الشعر وقفاً على عرب الشمال وحدهم ، وإنما كان للجنوبيين نصيب منه ، وحتى قبل امرئ القيس ، ولكن الظاهرة التى تلفت النظر أنه كان من يمنيين يعيشون بين قبائل ربيعة أو فى منازلها .

لم يكن امرؤ القيس إذن بداية النهضة الأدبية ولا باعثها ، وإنما كان قمتها والمشير إليها ، ولقد سبُق بشعراء ، ورافقه آخرون ، وتدفق بعده منهم سيل لا ينتهى . ويهمنا فى المقام الأول أولئك الذين عبّدوا له الطريق ، والذين التقوا معه عبره ، أو على التحديد أولئكم الذين جاءوا إلى الحياة فى الفترة ما بين عامى ٤٧٥ و٥٣٥ م على وجه التقريب .

إن ثلاثة شعراء على الأقل ، نعرف عنهم شيئا ، ويكوّنون فيما أرى المدرسة التى استهداها امرؤالقيس فى حياته شاعرا ، وكانوا أساتذته فى مجال القول والتعبير .

أولهم زهير بن جناب الكلبى ، وكلب من مَذْحِج ، ومذحج من قُضاعة ، وقُضاعة تنسب فى حِمْير ، فهو إذاً شاعر من الجنوب وليس من الشمال ، أو هو بلغة القدامى قحطانىّ وليس عدنانياً ، ولكن قبيلة كلب اتخذت من قديم مساكنها فى شمال الجزيرة الشرقى ، على حافة بادية السماوة ، قريباً من منازل إياد وتغلب . وجمع زهير ، فيما يقول المؤرخون ، الخصال العشر التى يعدها العرب نهاية فى الزعامة ، « كان سيد

قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم إلى الملوك وطبيبهم ، وحازيهم (١) ، وفارسهم ، وله البيت فيهم ، والعدد منهم » . وكان يقود مَذْحِج وعدداً من قبائل اليمن الأخرى التى تقطن الشمال ، فى صراعها مع بكر وتغلب وقبائل عدنانية أخرى ، وكان يقود هؤلاء ربيعة بن الحارث التغلبى ، ثم ابنه كُلَيب من بعِده ، وقد انتصر كليب على زهير بن جَناب فى يوم خَزازى (أوخزاز) (٢) ، وكوفئ كليب على انتصاره فى هذا اليوم بأن أصبح زعيماً ولأول مرة على القبيلتين بكر وتغلب معاً .

وعمل زهير فترة من الوقت ممثلا للغساسنة فى صحراء الجزيرة ، لكن صلته بهم لم تستمر طويلا ، إذ كان – جغرافياً – أقرب إلى اللخميين فى الحيرة ، فولّى شطرهم ، ويفهم من أبيات رواها له الأغانى ، وأبو حاتم السجستانى فى كتابه « المعمّرين » أنه كان نديماً لملوك كندة ، وربما يشير إلى الحارث جدّ امرئ القيس على التحديد ، وإلى المنذر بن ماء السماء ، وأشار فيها إلى يوم خَزازى أيضاً :

لقــد عُمِّرتُ حتى لا أُبــالِى أحَتْفِى فى صباحى أو مسائى
وحُقَّ لمــن أتتْ مائتان عامــا عليــه أن يملَّ من الثواء (٣)
شهدتُ الموقِدين على خَــزازَى وبالسُّلاَّن جمعاً ذا زُهــاء (٤)
ونادمتُ الملوكَ مــن آل عمــرو وبعــدهمُ بنى مــاء السماء

فإذا عرفنا أن يوم خَزازَى من أيام العرب القديمة ، أقدم من حرب البسوس ، وكانت بدايتها فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وأن زهيراً شهده بنفسه وأسهم فيه ، وذلك لا يتأتى إلا لشاب فتى. أمكننا أن نرجع تاريخ ميلاده ، ونحن مطمئنون ، إلى قريب من عام ٤٧٥ م .

عمَّر زهير طويلا ، حتى ملّ الحياة كبقية رفاقه من بعد ، وزعم الأب لويس شيخو أنه تُوُفِّى عام ٥٦٠ م ، وهى رواية ينقضها أن زهيراً شهد محاولة أبرهة فتح مكة ،

(١) الحازى : الكاهن .

(٢) خزازى : جبل بطخفة فى نجد .

(٣) هكذا فى الأصل ، ويخيل إلى أن الرقم أصابه تغيير ليكون أبلغ فى الدلالة ، وليدخل به زهير فى قائمة المعمرين ، وربما كانت « تسعون عاماً » وعلى أى حال ولد زهير قريباً من عام ٤٧٥ م وتوفى بعد عام ٥٧١ م بأعوام قليلة كما حققناه .

(٤) السلان : واد لبنى عمرو بن تميم ، لعل معركة وقعت فيه فنسبت إليه . . زهاء : هنا بمعنى القوة .

وأن القائد الحبشى أدرك طموحه وتاريخه ومكانته ، فحاول أن يتخذ منه رسولا إلى قبائل الشمال كى يحكمها لحساب الحبشة ، ووجَّهه إلى ناحية العراق يدعو قبائله إلى الدخول في طاعته . وهوخبر تدعمه روايةُ المرزبانى فى « معجم الشعراء » ، والسجستانى فى «كتاب المعمّرين» ، أبياتاً للمسيِّب بن الرَّفل ، أحد أحفاد زهير ، يفخر فيها بأن جدّه قاسم أبرهة إمرته ، فكان على حيّ معدٍّ ، ربيعة ومضر ، وعلى الحى المُعالى منها بكر وتغلب :

وأبرهـــة الذى كان اصطفانـا ... وسَوَّسنا وتاجُ المُلكِ عـــالى
وقاسمَ نصفَ إمْرتِـــهِ زهـــيرًا ... ولم يكُ دونـــه فى الأمرِ والى
وأمَّـــــره على حيّ معـــــدٍّ ... وأمّـــره على الحىِّ المُعـــالى
على ابنىْ وائـــل لهمـا مُهينـاً ... يردّهـمـــا على رغم السِّيال[1]

وقد ضاقت به قبيلة بكر ، وحاول رجل منها اغتياله ، لكنه أفلت من المحاولة وخرج هاربا ، وعاش حتى هرم ، وغَرِض من الحياة ، وخَرِف فكان يُحدِّث نفسه بالعشىّ ، ولا يخرج إلاّ فى رفقة ، فشقّ عليه حاله ، فلم يجد له مخرجا إلا فى الخمر ، فأسرف فى شربها حتى مات بها .

يهمنا من زهير تحديد عصره وقد أومأنا إليه ، فهو من شعراء النصف الأول من القرن السادس الميلادى ، ولا ينازعه هذه الأسبقية إلا شاعران آخران ، ويأتيان بعده بقليل على التأكيد ، وهما أبو دواد الإيادى وعمرو بن قميئة . ثم شعره ، وحفظ لنا السجستانى منه قصيدة كاملة ، فى خمسة عشر بيتاً . وتعكس نفسيته ومشاعره فى صدق ، زها فيها بالمجد الذى أورثه بنيه ، من سيادة وقوة ، وافتخر بأنه نال كل ما يطمح فيه شاب إلا البقاء ، وقد شهد الحروب ، وانتضب الحسام ، وغنم وقتل ، وقام خطيباً ، ولأن يأتى الموتُ المرءَ وبه بقية من قوة ، خير من أن يأتيه محطماً ، عبثاً على من حوله :

جدَّ الرحيلُ ، وما وقفتُ على لميس الأرأشيّهْ
وَلَوَ ثـــوائى اليـــومَ ما علقتْ حبـــالُ الفاطنيّه
حتى أؤديهـــا إلى الملك الهمـــام بـــذى الثويّه

---

(١) السيال : السب والشتم والتهديد .

قـــد نالنى من سَيْبه فرجعتُ محمـــودَ الحذّية (١)
أَبنىَّ إنْ أهلكْ فقـــد أورثتكُمْ مجـداً ، بنيَّة !
وتركتكمْ أولادَ ساداتٍ ، زنـــادكُم وَرِيَّةْ (٢)
مـــن كل ما نال الفتى قد نلتُه ، إلاَّ التحيّة (٣)
كم مـــن محيًّـــا لا يوازينى ، ولا يهبُ الدعيَّة (٤)
ولقـــد رأيتُ النـــارَ بالسُّلاَّن تُوقدُ فى طميّة (٥)
ولقـــــد رحلتُ البازل الوجنـــاء ليس لها وليَّة (٦)
ولقـــد غدوتُ بمشرف الطرَفين لم يغمزْ شظيّة (٧)
فأصبتُ من حُمُـــرِ القنان معاً ، ومن حمرْ القفيَّة (٨)
ونطقتُ خطبةَ ماجـــد ، غـــيرَ الضعيفة والعييّة
فالمـــوت خيرٌ للفتى ، فليهْلكنْ وبـــه بقيّةْ
مـــن أن يُرَى الشيخُ الكبيرُ يُقادُ يُهدَى بالعشيَّة

كذلك أوردت له كتب الأدب بيتين من الشعر ، نازعه فيهما غيره ، وقيل إن عائشة كانت ترددهما ، وأن الرسول عليه السلام تمثَّل بالثانى منهما :

أرفعْ ضعيفَكَ لا يَحُرْ بك ضعفُهُ ... يومـــاً فتدركه عواقبُ ماجنى
يَجزيك أو يُثنى عليك ، وإنَّ من ... أثنى عليك بما فعلتَ كمن جزى

وبيت آخر ، أعجب به النقاد وأثنوا عليه ، وعدُّوه جيداً فى معناه :

إنَّ بنى مـــالك تَلقَى غَـــزِيّهمُ ... فى الزاد فوضىَ وعند الموتِ إخواناً

وأبيات أخرى رواها ابن الأثير فى معرض الأحداث التاريخية ، ونصائح نثرية

---

(١) السيب : العطاء – الحذية : المراد بها هنا نصيبه من العطاء .

(٢) الزند : العود الذى يقدح به النار ، وورى خرجت ناره .

(٣) التحية : البقاء .

(٤) الدعية : الفضلة ، باقى الشىء .

(٥) السلان : وادٍ لبنى عمرو بن تميم – طمية : جبل فى ذلك الوادى .

(٦) البازل : البعير الذى استكمل السنة الثامنة ، وطعن فى التاسعة ، وبزل نابه فاستكمل قوته – الوجفاء : الضخمة الصلبة – الولية : البرذعة .

(٧) غمزت الدابة : مالت رجلها – الشظية : الساق .

(٨) القنان : جمع قنة ، الجبل السهل المستوى المنبسط على الأرض – القفية : الممتازة .

ترويها كتب الأدب ، وأسقطنا كليهما لأنهما يحملان طابع الصنعة والانتحال .

شعر زهير على قلته يسقط القضية القائلة إن امرأ القيس ، أو مهلهلا ، أول من نظم القصائد ، لكن قصيدته – وهي وحيدة – لا تضم مقدمة طللية ، ولا مطلعاً مصرّعاً ويغلب على الظن أنها بقية من شعر وليست قصيدة كاملة ، لا تصلح وحدها أساساً لكي نعرف ماذا أخذ امرؤ القيس من نديم جده وأبيه ، وتبقى لزهير دلالته الأقوى في أن عرب اليمن القاطنين في الشمال كانوا كبقية العدنانيين في قول الشعر ، منذ أن عرف للشعر العربي تاريخ ، وأن امرأ القيس لم يكن أول شاعر يمنى ، ولا الظاهرة الوحيدة التي تفتقد الشبيه والمثيل .

الأستاذ الثاني ، والمباشر ، لامرئ القيس هو : أبو دؤاد الإيادي ، جارية ابن الحجاج ، ولما كان اسم جارية قليل الورود في أسماء الجاهليين فقد حرّفه الأغاني – ومصادر أخرى – إلى حارثة . ونُسب خطأً إلى الأصمعي قوله إن اسمه حنظلة بن الشرقي (١) ، لأن حنظلة شاعر جاهلي معروف ، اسمه أبو الطمحان القيني ، ولا صلة له بأبي دواد (٢) . وينسب إلى حذاقة من إياد فيقال له الحذاقي ، وبهذه النسبة ورد في بيت لطرفة ابن العبد أوردناه فيما سبق ، وكنيته أبو دؤاد ، ويرى المستشرق الألماني F. Krenkow أنها يجب أن تكونَ دواد بلا همز ، لأنها تصغير لكلمة دُود ، مثل دُوَيد ، اسم عربي أصيل وقديم .

كان أبو دواد معاصراً لزهير بن جناب ، وربما جاء معه إلى الحياة في نفس الزمن ، وخلّف لنا من الشعر قدراً أوفر نسبيًّا ، وقد شُهر زهير بالزعامة والقيادة وكانت السياسة أكثر وضوحاً في حياته ، أما أبو دؤاد فكان طبقاً لرواية الأغاني ، موظفاً عادياً على خيل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، أو مديراً للركائب بلغة العصر الحديث ، ودخل التاريخ من أوسع أبوابه شاعراً كبيراً . ويذكر البغدادي في (خزانة الأدب) أنه عاصر قباذ

---

(١) نسب الرواية إلى الأصمعي خطأً ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » . أقول خطأً لأن الأصمعي في « الأصمعيات » يذكر نسبة الشاعر صحيحة ، فيقول في الأصمعية رقم ٦٥ : وقال أبو دواد الإيادي واسمه جارية ابن الحجاج » .

(٢) أبو الطمحان القيني شاعر جاهلي ، كان جيد الشعر مقلاً ، خبيث الخلق فاسقاً ، يذكرون له أنه سئل : ما أدنى ذنوبك ؟ قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلت بديرانية فأكلت عندها طفشيلا (نوع من المرق) بلحم خنزير وشربت من خمرها ، وزنيت بها ، وسرقت كساءها ومضيت ! .

ملك الفرس (حكم من ٤٨٨ إلى ٥٣١ م) ، ومن ثمّ يمكن أن يقال إنه ولد قريباً من عام ٤٨٠ م . ويرى الثعالبي في « المنتخل » أن أبا دواد توفي عام ٥٢٠ م بعد أن تقدمت به السن ، وهو تحديد غير دقيق ، لأن أبا دواد عاش بعد وفاة قباذ ، فاتخذ منه المثل في قصيدة له جاءت كلها ، أو ما وصلنا منها ، خواطر ذاتية ، يتحدث فيها عن همومه ، وخلافه مع زوجه ، ويعرض للفناء ، والغافلين عن الدواهي ، والموت المفاجئ ، وصرعى الأيام :

أين ذو التاج والسرير قُباذٌ خبّنته فبادَ إحدى الخُبونِ
ولقد عاش آمناً للدواهي ذا عتادٍ وجوهرٍ مخزون
وأرى الموتَ قد تدلّى من الحضْـ ـر على ربِّ أهلهِ الساطرون
صرعتْهُ الأيام من بعد مُلْكٍ ونعيمٍ وجوهرٍ مكنون
مَلَكَ الحضر والفرات فما دجلة شرقاً فالطورِ من عَبدين
ولقد كان في كتائب خُضْرٍ وبلاطٍ يُشاد بالآجرون

ولأن كتب الأدب تذكر أن امرأ القيس كان راويته واتكأ عليه ، وامرؤ القيس كان حيّا بين أعوام ٥٢٦ م و ٥٦٥ م ، والرواية تقتضي المعاصرة ، وأرجّح في ضوء دراسة شعره أنه توفي قريباً من عام ٥٥٠ م .

الشعر الذي وصلنا لأبي دواد قليل نسبيًّا ، ويعلّل الأصمعي الراوية قلّة وروده بأن « العرب لا تروى شعر أبي دواد وعديّ بن زيد لأنّ ألفاظهما ليست بنجدية » ، ويزيد الأغاني : « ولمخالفتهما مذاهب الشعراء » . ومن الواضح أن كليهما يشير إلى المفردات ، فليس في موضوعات أبي دواد موضوع لم يعالجه معاصروه ، ومَن جاءوا بعده ، وليس في شعره خروج على العروض العربي المعروف ، لكن قصائده ، فيما يبدو ، كانت تتضمّن ألفاظاً غير شائعة في قاموس اللغة الأدبية المشتركة في عصره ، والتي يلتزم بها الشعراء والمثقفون ، وقد تجافى عنه النحويون أيضاً . وليس بين أيدينا الآن من شعره ما يكفي لدعم الفكرة أو نقضها ، ولكننا نلحظ أن القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني في كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » لا يرى رأي الأصمعي ومن سار على دربه ، ويتعاطف مع أبي دواد وعديّ بن زيد ، ويراهما من خيرة الشعراء .

تميز أبو دواد من بين شعراء زمانه ، بأنه أكثرهم ذكْراً في شعر معاصريه يتتبعون

أحداثه ، ويترسمون خطاه ، ويتخذون من مواقفه المثل ، ولم يكن فى حياته ما يشدهم إليه غير الشعر ، لأن وظيفة القائم على خيل المنذر لا تضفى على صاحبها جاهاً كبيراً فالأسود بن يَعْفُر ، شاعر جاهلى من ندماء النعمان أبى قاموس اللخمى (٥٨٠ – ٦٠٢ م) يشير إليه فى قصيدة يزهو فيها بأيامه الخوالى ويسترجعها ، بعد أن كف بصره وعمى :

ومـــن الحوادثِ لا أبالك أنـــنى ... ضُربتْ علىَّ الأرضُ بالأسدادِ

لا أهتدِى فيهـــا لمدفعِ تَلْعـــةٍ ... بين العُذَيْب وبين أرض مُراد (١)

ماذا أؤمِّـــل بعـــد آل مُحـــرِّقٍ ... تركوا منازَلهم ، وبعـــد إياد

أهل الخَوَرْنـــق والسدير وبارقٍ ... والقصر ذى الشرفات من سَنْدَاد (٢)

نزلـــوا بأنْقِـــرَةٍ يسيل عليهمُ ... ماءُ الفرات يجىء من أطواد (٣)

أرضٌ تخيَّرهـــا لطيبِ مَقِيلهـــا ... كعبُ بنُ مامةَ ، وابنُ أمِّ دُواد (٤)

ويشير إليه فى شعره قيس بن زهير العبسى ، سيد عبس ، وصاحب « داحس » أشهر فرس فى التاريخ العربى ، فقد اشتعلت الحرب بسببه بين عَبْس وذُبيان ، واستمرت قريباً من أربعين عاماً ، يقول قيس :

أحـــاولُ ما أحـــاولُ ثم آوى ... إلى جـــارٍ كجـــارِ أبى دُوادِ

وكانت قبيلة إياد ترى فى أبى دواد شاعرها المقدّم ، وكغيرها من القبائل جعلت له فضل الأسبقية فى نظم القصائد ، وكان يشاركها رأيها ويتعصب له أبو الأسود الدؤلى ، وعدّه الحطيئة أشعر العرب ، واتكأ على قصيدته الميمية ، وجاءتنا فى واحد وأربعين بيتاً ، ومطلعها :

منع النـــومَ ماوىَ التّهْمـــامُ ... وجديـــرٌ بالهمِّ من لا ينـــام (٥)

والحق أنها أجود شعره ، لكن لا نشارك رجال النقد القدامى إسرافهم فى استخدام

---

(١) التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها ، وهو من كلمات الأضداد – العذيب ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال .

(٢) سنداد : نهر من أسفل الحيرة ، بينها وبين البصرة .

(٣) أطواد : جمع طود ، وهو الجبل العظيم .

(٤) كعب بن مامة الإيادى ، يضرب به المثل فى الجود والإيثار ، فقد آثر على نفسه رفيقه النمرى بنصيبه من الماء ، ومات عطشا .

(٥) ماوى : منادى مرخم ، أى يا ماوية – التهمام : الهم .

أفعل التفضيل ، فنقول عنه إنه أشعر العرب ، وكان ابن رشيق القيرواني محقًّا حين قرر : « لم يقل فيه أحد من النقاد مقالة الحطيئة » . كان لأبي دواد ديوان شعر موجود حتى زمن عبد القادر البغدادي المتوفى عام ١٦٨٢ م ، وكان صاحب الخزانة يملك نسخة منه ، ومن روايته له نعرف أن أطول قصيدة لأبي دواد وصلتنا ومطلعها :

أوحشتْ من سُروبِ قَومِي تِعارُ   فأرومٌ . فشابةٌ ، فالسِّتارُ [١]

ولم تصلنا كاملة ، لأن ما هو موجود منها ثلاثة وأربعون بيتاً ، بينما يصرح عبد القادر أن عدة أبياتها ثمانية وسبعون . وهي أطول قصيدة وصلتنا من شعره ، بين عدد من القصائد يبلغ ثلاث عشرة قصيدة ، وعدد آخر من المقطوعات والأبيات المفردة .

ماذا أخذ امرؤ القيس عن أستاذه ، وفيم فاقه أو قصر عنه ؟ . لا معدى لنا من تتبع ما أبدعه أبو دواد وكان فيه أولا غير مسبوق ، مقروناً بما بين أيدينا من شعر سابقيه ومعاصريه ، ليمكن الإجابة عن هذا السؤال في موضعه من الكتاب.

يجمع النقاد على أن أبا دواد متفوق في وصف الخيل ، يقول الأصمعي : « إن نعَّات الخيل المجيدين ثلاثة ، أبو دواد ، وطُفَيل الغَنَوِيّ ، والنابغة الجعدي » ويقول المبرِّد ، محمد بن العباس اليزيدي ، صاحب كتاب « الكامل » : « لم يصف أحد قط الخيل إلاّ احتاج لأبي دواد ». وما كان لأبي دواد إلاّ أن يكون كذلك ، فقد كان يَصْدر في تصويرها عن دافعين هما عماد كل عمل فني أصيل وجميل ، انفعال صادق بالخيل ، يتجلى في حبه العارم لها مُذ كان وليداً ، لا يحول الإقتار بينه وبين اقتنائها وركوبها ، بها يراهن ويقاتل ويرحل :

عَلِق الخيلَ حبُّ قلبي وليداً   وإذا ثابَ عندِيَ الإكثارُ
علقتْ هِمّتي بهنَّ فما يَمـ   ـنعُ منّيَ الأعِنَّةَ الإقتارُ
جُنَّةٌ لي في كل يوم رهانٍ   جُمِّعتْ في رهانها الأعْشارُ
وانجراري بهنَّ نحو عدوِّي   وارتحالي البلادَ والتسيارُ

ومعرفة واسعة ، مستمدة من تجاربه الشخصية وحياته العملية ، عن الخيل وأنواعها ورغائبها وفضائلها ، ما يحسن منها وما به تصبح ، تضع بين يديه مادة وفيرة للتصوير والتعبير ، فلا بدع أن تشغل الخيل ، وكانت مُتعة السراة وبُغية الهواة .

(١) سروب : جمع سرب ، وهو المال السارح — التعار وأروم وشابة وستار : أسماء أمكنة .

الجانب الأهم من قصيده .

يصف أبو دواد حصانه فيقول : إنه غدا مبكّراً ، والليل يجر بقاياه ، على فرس عربى خالص ، طويل العنق ، ينازعه الرّسَن ، ضامر من شدة الجرى ، نحيف من كثرة القنص ، حديد البصر ، مكتنز اللحم ، محكم مفتول ، معتدل صلب ، رفيع الجنْب كذئب الغضا ، يضرب بساقيه ، مستوى الذراع ، إذا اعترضته أرض طرية وثب عليها ، يتقدم من يقوده ويقحمه ، إذا جرى اهتز جسمه كله ، فليس فيه عضو إلاّ وهو يعين ما يليه :

وقــد أغتــدِى فى بياضِ الصباحِ	وأعْجــازِ ليــلٍ مُوَلِّى الذنَبْ
بطــرْفٍ ينازعنى مِــرْسناً	سَلوفِ المقادةِ ، مَحْض النَّسبْ (١)
طــــواه القنيصُ وتَعــــداؤه	وإرشاشُ عِطفيه حتى شَسَبْ (٢)
بعيدُ مدى الطَّرْف ، خاظى البضيع	مُمَرٌّ القُوى ، مُسْمَهِرٌّ العَصَبْ (٣)
رفيــعُ المعــدِّ كَسِيدِ الغَضَــا	تميمُ الضُّلوعِ بجوفٍ رَحِبْ (٤)
ضروحُ الحماتَيْن ، سبْطُ الذراعِ	إذا ما انتحاه خَبارٌ وَثَبْ (٥)
وهــــادٍ تقدَّم لا عيبَ فيــــه	كالجذعِ شُذِّب عنه الكرَب (٦)
إذا قِيــد قَحَّمَ مَــنْ قــاده	وولَّتْ عَلاَبِيُّهُ واجْلَعَبْ (٧)
كهــزِّ الردينىِّ تحت العجــاجِ	جرى فى الأنابيبِ ثم اضطرب

والقصائد الكاملة من شعر أبى دواد ، على قلتها ، ذات مقدمات طللّية ، تتفاوت فيا بينها طولا وقصراً ومعنى ، وأوفاها وأصدقها تمثيلا لمذهبه فى هذا المنحنى ، مقدمة قصيدته الميمية ، وقد أعجب بها الحطيئة ، وقدَّمه بها على كل الشعراء . فيها يوجه

---

(١) سلوف المقادة : رسنه طويل . كناية عن طول عنقه .

(٢) القنيص : الصيد – ارشاش عطفيه : تعريقه إياه حتى ضمر – شسب : ضمر ونحف .

(٣) خاظى البضيع : ممتلئ اللحم – ممر : مفتول – المسمهر : الشديد .

(٤) المعد : الجنب – السيد : الذئب .

(٥) يضرح بحماتيه : يضرب بهما ويرمح ، والحماتان : اللحم المجتمع فى ظاهر الساقين من أعاليهما – الخبار : ما استرخى من الأرض ولان .

(٦) الكرب : أصول سعف النخل .

(٧) العلباوان : عصبتان فى العنق ، والعلباء يمتد حتى يكاد يتصل بالرأس ثم يولى إلى ناحية العنق – اجلعب : امتد ومضى فى السير .

الحديث إلى صاحبته ماوية : إن الهمَّ منع النوم عن عيونه ، والسهر يجلب المزيد منه . قام الناس ، وسهر وحده ، راحلا مهموماً أو مقيما حزيناً ، ألاَ ترى الظعائن تغدو مبكرَّة ، تنساب فى الصحراء انسياب السفين على سطح الماء . وفى الهوادج فتيات طيبات الرائحة ، مساويكهنّ من خشب الضِّرْم ، ذوات دَلٍّ يشفى من الهيام ، وأنَّ بنات نخلة سبينه ، وطيبهنَّ العود الذكى ، يضرمنه فى المداقْ المشتعلة ، خلال ليالى الشتاء القارسة ، ساذجات الأحلام ، غافلات عن الريبة ودواعيها ، قسيمات وسيمات ، خلف ستائر رقيقـــة من حرير ميسان ، مصونات فى الهوادج ، لا يغير لونهن تقلب الليل والنهار ، وتعاور الصيف والشتاء وهن داخل الهوادج ، فى ملابسهن الحريرية الملوَّنة ، على نوقهن العالية ، كنخل « بيسان » أينع فأعطى ثمراً مختلفاً ألوانه ، وقد اتجهن نحو موارد الماء فى بُرد ، وفُلَيْج ، وسَنَام :

منع النومَ ، ماوىَ ، التَّهمـــامُ ... وجديـــرٌ بالهم مـــن لا ينامُ (١)

مَن ينم ليله ، فقد أُعْمِلَ الليـــ ... ـلُ ، وذو البثِّ ساهرٌ مُسْتهام (٢)

هل تـرى من ظعائنٍ باكـراتٍ ... كالعَدَوْلِىِّ سَيْرُهـــن انقحام (٣)

واكنات ٍيقضُمـنِ من قضُبِ الضِّرْ ... مِ ويُشفِىَ بدلهِّــن الهُيام (٤)

وسبتْنى بنـــاتُ نخلـة لـو كُنْـ ... ـتُ قريباً ألَمَّ بى إلمـــام (٥)

يَكْتبين اليَنْجوج فى كَبَّـةِ المشـ ... ـتَىَ وبُلْـهٌ أحلامُهُنَّ وِسامُ (٦)

وَيصـــنَّ الوجـــوه فى المَيسنا ... نِىِّ ، كما صانَ قَرْنَ شمسٍ غمامُ (٧)

وتراهـــنَّ فى الهـــوادج كالغز ... لانِ ما إنْ ينالهـــنَّ السِّهام (٨)

---

(١) ماوى : مرخم ماوية منادى – الهمام : الهم .

(٢) البث : الحزن .

(٣) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى النساء فى الهوادج – العدولى : منسوبة إلى عدول جزيرة بالبحرين كانت مشهورة بصناعة السفن .

(٤) واكنات : شبههن بالطير التى استقرت فى وكناتها – الضرم : نبت طيب الرائحة ، ومنه كن يتخذن مساويكهن .

(٥) نخلة : اسم واد .

(٦) يكتبين : يحرقن العود ويلتفقن حوله – الينجوج : العود – كبة المشتى : شدة برد الشتاء – وسام : جمع وسيمة ، جميلات .

(٧) الميسانى : ثياب منسوبة إلى ميسان .

(٨) السهام : تغير اللون .

نخلات مـن نخل بَيْسانَ أَيْنَعْ ـنَ جميعاً ، ونَبْتُهـنَّ تُؤَام (١)
وتدلَّتْ على مناهـل بُرْدٍ وفُلَيْجٍ مـن دونهـا وسَنَام (٢)

تلك أطول وأوفى مقدمة طللية عند أبى دواد ، يخيَّل إلىَّ أن صاحبها سُبِق بمحاولات فى هذا المجال . ومقدمته ولو أنها لا تبلغ قدراً عالياً من الإجادة والإتقان ، كالذى بلغته فيما بعد على يد تلميذه – أو تلاميذه – إلا أنها حدَّدت الخطوط العريضة لمذهب فى التعبير سيترك بصماته واضحة فى مطالع الشعر العربى ، طوال العصر الجاهلى وما تلاه من عصور . ونلحظ أنها تبدأ بالتشكىٍّ فى بيت واحد ، تمضى منه مباشرة إلى وصف قافلة سيدات ، أو هن فيها بيت القصيد ، لكن الحديث عنهن بارد فاتر يوحى بأنه جاء التزاماً لنهج معين من التعبير ، أكثر منه استجابة لدافع داخلى يفيض بوجدان قائله ، ويحرك مشاعره ، فيجرى القول على لسانه شعراً حارًّا متدفقاً ومثيراً .

وكما عُنى أبو دواد بالخيل ، وبمقدمات شعره ، ترك لنا أبياتاً فى وصف المطر ، ربما كانت بعض قصيدة ، وهى فيما أعلم ، أقدم وصف له فى الشعر العربى . فالرياح تلقح السحاب أسود ليناً ناعماً ، وتدفع قطعان البقر الوحشى كثيفة ثقيلة متوانية ، ثم تأتى ريح الجنوب فتحيله مطراً يُزْهر ، فتسمن عليه قطعان عجاف من الغنم والمعزى . كان سحاباً متراكماً ، سقط أوله غزيراً بذى سلع ، ولمع برقه متوالياً كتوهج المصابيح فى « ضُرافة » قريباً من « لعلع » ، سقط عليها وابلا ، فتفرقت الوحش وجماعاته ، ثم انقطع المطر ، فصفا الجو ورق ، وهدأت الحياة وطابت ، وأمنت الطيور وانتشرت عبر الرياض والوديان ، فرحة نشوى كجماعة سكْرَى .

وعلى فرس كالنسر ، قلق لا يستقر ، أخذ يذعر قطيعاً من الحمر الوحشية ، وهو عائد إلى البيت ، بينما عين النعاج على سخالها ترعاها ، وتُعنى بها :

وغيثٍ تَوسَّنَ منـــه الريـــا حُ جوْناً عشاراً وعوْناً ثقالا (٣)

---

(١) تؤام : جمع توأم .

(٢) مناهل : جمع منهل ، موارد الماء – برد وفليج وسنام : أسماء أمكنة .

(٣) غيث : يريد به هنا السحاب – توسن : تلقح – الجون : يطلق على الأبيض والأسود ، لأنه من أسماء الأضداد ، والمعنى الثانى هو المراد هنا – عشار : لينة ناعمة – عون : جمع عانة ، القطع من بقر الوحش .

إذا كركرتْــهُ ريــاحُ الجنو ... بِ أَلْقَحْنَ منهِ عجافاً حِيالا (١)
وإنْ راحَ ينهضُ نَهْضَ الكسـ ... ـيرِ جأجأهُ الماءُ حتى أسالا
فحلَّ بــذى سَلَعٍ بَرْكَــهُ ... تَخالُ البوارقَ فيــه الذُّبالا (٢)
فــروَّى الضُّرافــةَ مــن لعلعٍ ... يَسُحُّ سِجالاً وَيَفْرى سِجالا (٣)
تخالُ مكاكِيَّــهُ بالضُّحى ... خلالَ الدَّقَارِىِّ ، شَرْباً ثِمالا (٤)
بمثــلِ القطــامىِّ مُسْتَقْبِـلاً ... إذا جُلْتَ فى منكبيه استحالا
ذعــرْتُ السُّكَيْنَ بــه آيِلاً ... وعَيْنَ نعاجٍ تُراعى السِّخالا (٥)

وكما وصف الحصان ، واستهلَّ قصائده بتتبع الظعائن ، وتقصَّى حركة المطر مذ كان سحاباً ، حتى أينع زهراً ، قدم لنا صورة مفصلة عن رحلة صيد قام بها . لقد نهض إلى فرس أشمَّ كصدر الرمح ، رقيق خفيف البدن ، ضامر الحالبين ، فنزع عنه الجلال ، وصعد به على الصِّرار ، وقال لغلامه : ارقب لنا الأوابد وتابعها ، واستطلع الوادى فلعل فيه خافياً ، فغاب الغلام ثم عاد يعدو كالنعامة ، فأخبره عما رآه من صيد ، [فهناك حيوانات كثيرة متفرقة فى الوادى (٦)] ، بينها أوابد يخالطها نعام ، ونعام تتناثر بينه أثوار وحشية ، فتبعها بفرسه ، فصرع ستًّا : نعامة ربداء رائعة ، ضخمة كخباء كبير ، وظليما وحمار وحش ، ومهاتين وثوراً . ثم انقسم صحبه ، بعضهم يُعِدُّ الصيد لحماً ، يشرِّحه أو يقسِّمه ، وآخرون يصنعون منه طعاماً :

فنهضْنَا إلى أشمَّ كصــدرِ الرُّمْـ ... ـحِ صَعْلٍ ، فى حالبيْهِ اضطمار (٧)

(١) كركر : حمل – عجاف : جمع عجفاء ، هزال حيال ، جمع حيلة (بفتح الحاء وسكون الياء) ، القطيع من الغنم أو المعزى .

(٢) سلع : واد باليمامة – برك : صدر ، والمراد بها هنا أول السحاب – البوارق : جمع بارق ، السحاب المصحوب ببرق – الذبال : جمع ذبالة ، الفتائل .

(٣) الضرافة : مكان قريب من لعلع ، ولعلع مكان قريب من ذى قار ، وذى قار على مقربة من البصرة – السجال : الماء ، والقطيع من بقر الوحش – يفرى : يقطع ، يفرق .

(٤) المكاكى : جمع مكاء (بضم الميم وتشديد الكاف) ، اسم طائر – الدقارى : الرياض أو كل أرض خضراء – الشرب : جمع شارب – ثمال : جمع ثمل ، وهو السكران .

(٥) السكين : الحمار الوحشى .

(٦) زيادة عما يقتضيه الشعر فى الأصل ، لأن البيت الذى يتضمن هذه الفقرة ساقط ، وأحسبه يدور حول فكرة كهذه . لكنه ضرورى لفهم ما بعده ، ونظر الهامش رقم من الصفحة التالية .

(٧) صعل : دقيق خفيف البدن – اضطمار : ضمور.

فسروْنـــا عنه الجِلالَ كما سُـ ... لَّ لبيعِ اللّطيمِـــة الدَّخــدار [١]

وأخذْنـــا به الصَّرار وقُلْنـــا ... لحقـــيرِ بنانُـــه إضمـــار [٢]

أوْفِ ، فارقب لنـــا الأوابدَ ، وارَبأْ ... وانفُضِ الأرضَ إنهـــا مِذْكار [٣]

فأتانا يسعى ، تفــرُّشُ أمِّ الــ ... بيْضِ شدًّا ، وقد تعالَى النَّهارُ [٤]

غيرَ جُعْفٍ أوابـــدٍ ونعـــامٍ ... ونعـــــامٍ خلالَهـــا أثْوار [٥]

فى حوال العقارب العمـــر فيهـــا ... حين ينهضن بالصبـاح عـــذار

يتكشّفْـــن عـــن صرائعَ ستٌّ ... قسِّمتْ بينهـــن كأسٌ عُقَـــار [٦]

بين رَبْـــداءَ كالمِظلّـــة أفْقٍ ... وظليمٍ ، معَ الظليمِ حمارُ [٧]

ومهاتين : حـــرس ورئـــال ... وشَبُوب ، ، كأنـــه أوْثار [٨]

ففريقٌ يُفَلِّج اللحم نَيْئـــاً ... وفريـــقٌ لِطابِخيـــه قتـــارُ [٩]

ومن بين أوائل الشعراء يعرض لنا أبو دواد أغنى تنوّع عروضى فى الشعر القديم ، فقد جاءت قصائده ومقطوعاته على أحد عشر بحراً ، هى : الرجز ، والكامل ، والوافر ، والطويل ، والبسيط ، والمتقارب ، والسريع ، والخفيف ، والرمل ، والمنسرح ، والكامل المرّفل . ولا يستخدم بحر الرمل من الشعراء القدامى غير أبى دواد ، فى ثلاث من قصائده ، وطرفة فى ثلاث أيضاً ، وعدى ابن زيد فى سبع قصائد ، وامرئ القيس فى ثلاث كأستاذه ، توافق جاء عفواً ولا مجال فيه للقصد والاختيار ، وانفرد أبو دواد بخاصية عن امرئ القيس ، كان نزّاعاً إلى استخدام بحر الخفيف ، فجاءت

---

(١) سرونا : نزعنا – الجلال : ما تلبسه الدابة لتصان به – اللطيمة : سوق المسك – الدحدار : من الفارسية ، وهى تخت دار ، أى الثوب الذى يمسكه التخت .

(٢) الصرار : الأماكن المرتفعة – لحقير : لخادم – بناته إضمار : لعل صوابها ثيابه أطمار.

(٣) اربأ : كن ربيئة ، أى رقيبا – الأرض المذكار : التى تنبت ذكور البقل ، والمشى فيه أخفى .

(٤) تفرش أم البيض : يعدو كما تعدو النعامة .

(٥) قبل هذا البيت ، بيت آخر أو أبيات ساقطة ، لأن الغلام ذهب وعاد يخبره عما رأى من صيد ، وأخذ فى هذا البيت يعدها .

(٦) أى أن هذه الست وقعت صريعة ، كأنها شربت من كأس واحدة هى كأس الموت .

(٧) ربداء : لونها كلون الرماد ، وقيل سوداء – المظلة : الخيمة الكبيرة الضخمة – أفق : رائع أو رائعة – الظليم : ذكر النعام .

(٨) المهاة : بقرة الوحش – الشبوب : ثور الوحش أما حرس ورئال فلم أهتد إلى معناهما .

(٩) يفلج : يشرح أو يقسم – قتار : ريح القدر والشواء .

له على وزنه خمس عشرة قصيدة ولم يستخدمه امرؤالقيس ولا مرة واحدة .

وكان التصريع معروفا لدى أبى دواد ، فلدينا منه أحد عشر مطلعاً ، لإحدى عشرة قصيدة ، جاءت كلها مصرَّعة (١) .

الثالث ، والأخير ، من أساتذة شاعر كندة ، عمرو بن قميئة ، وكان خادم أبيه ، أوحاجبه ، ورفيقه فى الرحلة إلى قيصر . وهو من قيْس بن ثعلبة ، من بنى سعد ابن مالك ، وينسب فى ربيعة ، من قدماء شعراء الجاهلية ، ويمكن أن نرجع تاريخ ميلاده إلى نحو من عام ٤٨٠ م . مات أبوه وخلفه صغيرا ، فكفله عمه مَرْثد ، وكان من رؤساء قبيلته . وكان عمرو حسن الوجه ، مديد القامة ، سبابتا قدميه ووسطهما ملتصقتان ، ثم حدثت بينه وبين عمه جفوة مصدرها امرأة عمه ، فقد راودته عن نفسه ، فيما تقول الرواية ، فصدَّها وردَّ عليها : « لقد جئت بأمر عظيم ، وما كان مثلى ليدعى لهذا ، ولو لم أمتنع وفاء لعمى لامتنعت خوف الدناءة والذكر القبيح » ، فخافت أن يخبر عمه بما جرى ، فكفأت جفنة على أثره ، فلما عاد عمه قالت له : إن رجلا من أهلك جاء يراودنى ، قال : ومن هو؟ قالت : أنا لا أسميه ، ولكن انظر أثره تحت الجفنة . فلمَّا رأى الأثر عرفه ، وهم بقتل عمرو ، فهرب ، وأتى الحيرة مستجيرا ، ومن هناك أرسل يعتذر لعمه :

لعمــرك ما نفسٌ بِجــدّ رشيدةٍ ... تؤامــرنى سِرًّا لأصْرِمَ مرثــدا
وإنْ ظهرتْ منــه قوارصُ جمَّةٌ ... وأفْرعَ فى لومى مراراً وأصعــدا
على غــير ذنب أن أكون جنيتُهُ ... سوى قوْل باغٍ ، كادنى فتَجهَّدَا

ويبدو أنه كان يتردد على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ويمدحه ، ويتلقى عطاءه ، وأن هناك من كان ينفس عليه مكانته فدس عليه عند المنذر ، وقد ترك لنا فى القصيدة الخامسة عشرة من ديوانه ، وهى أطول قصائده فيما وصلنا من شعره ، وصفاً لرحلته إلى الحيرة ، ومدحه للملك ، واعتذاره عما نسب إليه ، وأنه باطل قاله عدو حاقد ، فكيف يعاقب على جرم لم يرتكبه :

إلى ابــن الشقيقةِ أعملتُهــا ... أخافُ العقابَ وأرجــو النوالا (٢)

(١) التصريع هو استواء آخر جزء فى صدر البيت ، وآخر جزء فى عجزه ، فى الوزن والروى والإعراب ، وأغلبية العلماء لا ترى للإعراب ضرورة ، لأن اختلافه عيب يلحق التصريع ، ولا يخرجه عن حقيقته .

(٢) ابن الشقيقة : المنذر بن ماء السماء .

ألستَ أبـــرَّهم ذِمّـــةً وأفضلَهم ، إنْ أرادوا فضـــالا
فأهـــلى فداؤكَ مُستعتبـــاً عتبتَ فصـــدّقْتَ فىَّ المقالا
أتاكَ عـــدوٌّ فصـــدَّقتــه فهلاً نظرت ؟ هُدِيتَ السؤالا
فـــا قلتُ ما نطقـــوا باطـــلا ولا كنتُ أَرْهبــه أن يُقالا
فإن كان حقًّـــا كما خبَّروا فلا وصلتْ لِى يمـــينٌ شمالا
تصدَّقْ علىَّ فـــإنى امـرؤ أخافُ على غـير جُرمٍ نكالا

كما كان يتردد على بلاط كندة أيام الحارث بن عمرو ، ويعمل حاجباً – أوخادما – لابنه حجر فى بعض الروايات ؛ وليس فى شعره ما يدعم الرواية أوينفيها . فلما تقدّم به العمر اعتزل خدمة حجر وعاش فى قبيلته . وقد اطمأن إليه امرؤ القيس فيما بعد شيخاً محنكا تقدمتْ به السنّ ، ووضحت أمامه الرؤية ، فصحبه معه فى رحلته إلى القسطنطينية ، على نحوما روينا .

وتوفى عمرو ، فيما يبدو ، خلال رحلته مع امرئ القيس ، وكانت العرب تسميه عمراً الضائع ، لأنه مات غريباً لغير هدف يعود على شخصه ، وفى غير عمل يرفع من شأنه .

وصلنا ديوان عمرو بن قميئة يضم بعضاً من شعره ، أما أكثره فضاع ، وما لدينا منه يؤلف عدداً من القصائد تبلغ تسعاً ، أطولها فى تسعة وعشرين بيتاً وأقصرها فى أحد عشر ، ومقطوعات عدتها سبع ، أقصرها من بيتين وأطولها فى ستة أبيات ، وقد نشره السير س . ج . ليـــال C.j. Lyall فى كمبردج عام ١٩١٩ م . وألحق بالديوان جملة من المقطوعات والأبيات المتناثرة ، عثر عليها فى المصادر الأدبية المختلفة ، وتبلغ تسع مقطوعات .

من دراسة الديوان نجد أن عمراً يلتقى مع أبى دواد فى بعض موضوعاته ، ويزيد عليها بعضاً ، ويختلف معه فى تصويرما توافقا فيه إحساساً .

فعمرو أول شاعر قديم بكى شبابه بين شعراء عصره ، وأنه فقد بذهابه شيئاً غالياً ، أيّام كان يلاحق الوحش فى الوهاد ، ويجر إزاره تيهاً إلى الحانات لقد أحب الحياة ونعم بها ، وتركت أحداثها آثاراً على وجهه . ومن الناس من يكون فى وجوده حياةٌ وعيش للآخرين ، ومن يكون بَخيلا لا فائدة تُرجى من ورائه ، ولا خيريُبتغى من وجوده :

يالهفَ نفسى على الشبابِ ولمْ أفقدْ بـه إذ فقدتُهُ أمَمَـا (١)
قـد كنتُ فى مَنْعةٍ أسرُّ بهـا أمنعُ ضيْمى ، وأُهْبِطُ العُصُما (٢)
وأسحب الـريْطَ والبرودَ إلى أدنى تِجارى وأَنفض اللِّمما (٣)
لا تغبطِ المـرءَ أن يُقَـال لـه أمسى فلانٌ بعمـره حَكَمَا
إنْ سَرَّه طـولُ عيشِهِ فلقـد أضحى على الوجهِ طولُ ما سلما
إنَّ من القـوم مـن يُعاشُ بـه ومِنْهمُ مَنْ ترى بـه دَسَما (٤)

كذلك خلّف لنا تصويراً حيًّا لشيخوخته وما صنع الزمان به ، لحوادث تأتيه من حيث لا يتوقع ، وترميه وهو مسالم ، هدّته الأيام وهو يلاحق آمالا كباراً ، يحلم بها ويأمل فى تحقيقها ، ثم أنفق عمره ينتظرها ، والناس ينكرون شيخوخته ، ويسألونه عن صباه الذاهب ، والدهر يُفنى عمره ، وما يُفنى من الدهر شيئاً ، ويرميه بسلاح لا يراه فيتّقيه ، وينال منه بقوّة غير منظورة لا يستطيع لها دفعاً ، وبلغت منه الشيخوخة قدْراً لا يستطيع معه القيام إلاّ مستعيناً بيديه وعصاه ، فلما تجاوز التسعين من عمره ، أصبح أكثر تحرراً من آماله ، ورضا بواقعه :

رمتنى بناتُ الدهر من حيث لا أَرى فكيف بمن يُرْمَى وليس بِرامِ
وأَهلكنى تأميلُ ما لستُ مدركاً وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعامِ
إذا ما رآنى الناسُ قالوا : ألم تكنْ جليداً حديثَ السنِّ غير كَهَامِ (٥)
فأَفْنىَ وما أُفْنى مـن الدهـر ليلةً فلم يفْنِ ما أَفنيتُ سِلْكَ نِظامِ
فلو أنَّنى أُرمَى بِنَبْـلٍ رأيتُهـا ولكنَّنى أُرْمَى بغـير سِهَامِ
على الرَّاحتَيْن مرَّةً وعلى العصـا أَنُوءُ ثلاثـاً بعدهـنَّ قيـامى
كأنىِّ وقـد جاوزتُ تسعين حجَّةً خلعتُ بهـا عنىِّ عذار لجامى

والقصيدة الحادية عشرة من ديوان عمرو بن قميئة ذات أهمية قصوى ، فلأوّل

---

(١) الأمم : الشيء التافه .
(٢) العصم : الوعول .
(٣) الريط : جمع ريطة ، الملاءة إذا كانت قطعة واحدة – البرود : جمع برد ، كساء أسود مربع تلبسه الأعراب – التجار : بائع الخمر – اللمم : جمع لمة : الشعر الذى يجاور شحمة الأذن ، أى يعبث بشعر رأسه فخوراً .
(٤) الدسم : يراد به هنا البخل .
(٥) الرجل الكهام : الثقيل المسن الذى لا غناء عنده .

مرّة يقدم لنا شاعر جاهلى قصيدة كاملة ذات وحدة : موضوعها الغزل ، والمرأة فيها محور الحديث . وحتى المقدمة ، وهى التى تأتى عند عمرو أحياناً ، وعند غيره فى الأعم الأغلب ، مقطوعة الصّلة بما بعدها ، لا يربطها به غير خيط شعورى رقيق ، هى فى هذه القصيدة جزء من الغزل نفسه وليست تمهيداً له .

لقد رحلت « أمامه » ، ولم يبق له إلاّ أن يسأل : أين ذهبتْ ؟ وأن يقنع منها بالخيال ، وأن يلقاها فى أحلامه ، خيالات ورُؤىً تأتيه مع المساء ، وتلحّ عليه طوال الليل ، ثم يذهب بها بياض الفجر . كيف أصبح واقعه وَهْما ؟ لو جاءت لجادت عليه ، وأحالت أوهامه واقعاً . ولقد فزع قلبه عندما أدرك أنّها راحلة ، فلمّا أعدَّ قائد الرحلة الجِمال ، ومضوا مع الصباح الباكر على نُوقٍ قوّية ، فوقها هوادج مترفة ، جُدِّدت أطارفها ، ونأى عنه الظعن ، غلبه الدمع ، ثم انهمر غزيراً . وبعيداً ، فى السهل المنبسط ، تبدو الجمال مسرعة يحثّها الحاديان ، بُدِّلتْ من الظلّ هجيراً ، ومن البيوت المزيَّنة بالستائر هوادج ورحالا :

نأتكَ أُمامــــةُ إلاّ سـؤالا ... وإلاّ خيالاً يـوافى خيـالاً
يُوافى مع الليــــل ميعادُهـا ... ويأبى مع الصبح إلاّ زيـالا
فـذاك تُبـدِّل مـن وُدِّهـا ... ولـو شهدتْ لم تُوانِ النَّـوالا
وقـد رِيع قلبيَ إذ أعلنـوا ... وقيـل أجـدَّ الخليطُ احتمالاً (١)
وحثَّ بهـا الحاديـان النَّجاء ... مع الصبحِ لمّا استثاروا الجمالا (٢)
بَوازِلُ تُحـدَى بأحداجها ... ويحْذيـن بعد نعالٍ النعالا (٣)
فلمّـا نأوْا سبقتْ عَـبْرتى ... وأذْرتْ لها بعد سَجْلٍ سِجالا (٤)
تراهـا إذا احْثَّهـا الحـاديا ... ن بالخبْت يُرْقِلْن سَيْرًا عجالا (٥)
فبالظلِّ بُدِّلْـنَ بعـد الهجيرِ ... وبعـد الحجالِ ألفِن الرّحالا (٦)

---

(١) اجد : حان – الخليط : الركب – احتمالا : رحيلا .

(٢) النجاء : السرعة .

(٣) بوازل : جمع بازل ، البعير بزل نابه ودخل فى السنة التاسعة – الأحداج : جمع حدج (بكسر الحاء وسكون الدال) ؛ مركب للنساء كالمحفة .

(٤) السجل : الدلو الكبير المملوء ماء .

(٥) الخبت : المتسع من بطون الأرض – الرقل : ضرب من السير السريع .

(٦) الحجال : جمع حجلة ؛ موضع يزين بالثياب والستور للعروس .

وينتقل فى بناء منطقى للأحداث لوصف صاحبته « خَوْلة » ، إنها معهن ، زينة النساء ، وأجمل الناس طرًا ، لها عيون سوداء ، شديدة السواد كعينى غزال فى روضة ، يتغذّى بالعشب الأخضر ، وشجر الأرطى الطويل ، مُعتادة السواك ، بيضاء الأسنان ، تخالها « السيال » لشدة بياضها واستوائها ، ولكنها ليست سيالا . وفمها رطب بارد ، نظيف حلو ، كما لو كان آخر ما شربته قبل نومها خمرا ، فإذا قبّلته وجدت له طعماً عذباً لذيذاً ، وشعرها طويل كما لوكان حبالا موصولة . جميلة الوجه يحار فيه الناظرون فيخالونه هلالا ، ذات كفل ضخم كمجتمع الرمل المبتل ، وكف بيضاء رَخْصة . لقد ذهبت ولم تهادنى بزمام نعل أوما يساويه :

وفيهنّ خـــولةُ زيـــن النِّساء	زادتْ على الناس طُرًّا جَمالا
لهـــا عينُ حوراءَ فى روضـــة	وتقرو مع النبْتِ أرطى طوالا [١]
وتُجـــرى السواكَ على بـــاردٍ	يُخالُ السَّيالَ وليس السَّيالا [٢]
كأنّ المُدامَ بُعـــيد المنـــامِ	عليها ، وتسقيك عذْباً زُلالا
كأن الذوائبَ فى فرعهـــا	حِبـــالٌ تُوصّـــل فيهـــا حبالا [٣]
ووجـــهٌ يحَـــارُ له الناظـــرون	يخالونهم قـــد أهلُّوا هِـــلالا
إلى كَفَل مثل دِعْصِ النّقـــا	وكفٌ تُقَلِّب بيضـــاً طِفالا [٤]
فبانتْ ومـــا نلتُ مـــن وُدِّهـــا	قِبالا ولا ما يساوى قبـــالا [٥]

ولكنه لا يقف بالقصيدة عند هذا الموقف من تجافيها له ، وإنما يبدأ فى عتابها وتقويم نفسه ، فيسائلها : كيف تقطعين حبل الحب من ماجد كريم لا يريد أن يسلوك ، أو يتراجع فى حبّكِ ، تقرّب منك ، ورغب فى نوالكِ ، فأطعته ثم أخلفت ما وعدْتِ ، وكان وعْدكِ خدعة وضلالا . إننى فتى ماجد ، كَسيْفٍ طيّب المعدن ، جديد لامع ، برىء من العيْب ، فارس لا يشقّ لى غبار ، أقودُ الفرسان وأصرعُ بهم فرساناً ، ولا أحجم عن النزال عند اللقاء إذا وجدت من يرغب فيه ، وفرساننا كرحى

(١) الأرطى : شجر ذو ثمر تأكله الحيوانات .

(٢) السيال : ما طال من شجر السمر (بضم الميم) .

(٣) الذوائب : الضفائر .

(٤) الدعص : كثيب مستدير من الرمل .

(٥) القبال : زمام النعل .

الموت مستعرة متقدة ، والراجلون منّا يهجمون على لابسى الدروع ، ويسوقونهم أمامهم فى سهولة ويسر ، سوق النُّوق العطوف أولادها الرّضع ، فإذا اشتدّ أوار المعركة ، غطّتْ السيوفُ رقاب الأعداء ، وكست رقابُ الأعداء السيوف ، بينما فوارسنا على الخيل تحمى الراجلين منّا . ذو مروءة يمنعنى سابق فروسيّتى وشجاعتى من قبول الضيم ، فإذا تنافرنا علا صوتُنا غيرَنا لما لنا من الشرف والعظمة ، وما فى قولنا من المنطق والحكمة ، وما نحن عليه من سجايا وفضائل . لقد جبتُ دروب الصحراء خلال هاجرة هى الجحيم حرارة ، استكان فيها الجندب الأسود ، وفى ليالٍ مزّقت ظلامها وحيدا دون عون وغيرى يخاف لو عبرها أن يُصاب بالجنون :

وكيف تبينينَ حبلَ الصفـــا	ء من ماجـد لا يريـد اعتزالا
أراد النَّــــوالَ فنيّتــــه	وأضحى الـذى قُلتِ فيـه ضلالا
فتى يبتنى المجـدَ مثل: الحسا	مِ أخلصه القيْنُ يوماً صقالا[1]
يقـودُ الكُمـاةَ ليلقى الكمــاة	يُنـــازلهم إنْ أرادوا النّزالا
تُشَبّه فرسانهم فى اللقـــاء	إذا ما رحى المـوت دارت حِيالا
ونمشى رِجـالا إلى الـدّارعين	كأعناقِ خوْر تُزَجّـى فِصالا[2]
وتكسو القواطـعُ هـام الرجـال	وتحمـى الفوارسُ منّـا الرجالا
ويأبى لِىَ الضيْمُ ما قـد مضَى	وعنـد الخصام فنعلـو جـدالا
بقوْلٍ يذلُّ لــه الرّاضـون	ونَفْضُلهم إنْ أرادوا فضـــالا
وهاجـرةٍ كأوَار الجحـيم	قطعتُ ، إذا الجندبُ الجوْن قالا[3]
وليــلٍ تعسّفتُ دَيْجـوره	يخاف بـه المُدْلجـون الخبـالا

وكما بكى عمرو شبابه ، ووصف شيخوخته وتغزّل ، تفاعل مع الطبيعة حوله ، فوصف لنا المطر فى أبيات قليلة لا تتجاوز الخمسة ، من قصيدة عدّتها تسعة عشر بيتاً ، وتلى المقدمة الطللية فى الترتيب . يصف فيها السحاب المتجمّع ، والرعد القاصف ،

(١) القين : الحداد .

(٢) الدارعون ؛ لابسو الدروع – أعناق : جمع عنق ، وهو الجيد – خور : جمع خوارة ، وهى النوق الغزيرة اللبن – تزجى : تسوق – الفصال : جمع فصيل ، ولد الناقة .

(٣) الجون : الأسود – قال : نام نصف النهار ، والقائلة الظهيرة .

وقد تحول إلى غيث سقّى منازل الحبيبة ، وكان سقوطه عند الغروب ، فاختلطت صفرة الشمس الذاهبة بحمرة البرْق الملتهبة ، فأكسبته منظراً جميلا ، وساقته رياح الجنوب ، وكادت تنحرف به عن مواقعه ، وما إنْ جاء الضحى حتى تحوّل المطر إلى قنوات عريضة ، تفيض بمياه غزيرة ، وقد سقت هذه الأمطار امرأ القيس بن عمرة (١) وقومه ، والإشارة إليهم عمل تقتضيه مكارم الأخلاق :

فسقّى منازلَهـــا وحِلّتَهـــا ... قَرِدُ الرَّبابِ لصوتِـــه زَجِلُ (٢)

أبـــدى محاسنَهُ لناظـــره ... ذات العشاء مُهلّبٌ خَضِلُ (٣)

مُتَحَلبٌ تَهوَى الجنوبُ بـــه ... فتكاد تعدلُـــهُ وَينجفِلُ

وضعتْ لـــدى الأصناع ضاحية ... فَوَهَى السُّيوبِ وحُطّت العِجَلُ (٤)

فَسَقّى امرأ القيس بنَ عَمْرَةَ إنَّ ... الأكرمين لذكـــرهم نَبَلُ

لم يصف عمرو بن قميئة الحصان فى أىٍّ من شعره ، وهى ظاهرة لافتة تميّز بها وافترق عن معاصره أبى دواد ، ورفيقه فى الرحلة إلى بيزنطة امرئ القيس ، ووصف الجمل بدلا منه فى أبيات قليلة ، فإذا نزلت الهموم بساحته قَراها جملا ، سريعاً ضخماً قويًّا ، فَطَر نابه ، واكتمل خَلْقه ، فهو فى العام التاسع من حياته ، يمتطيه إلى حيث ينسى الهمّ أو ينأى عنه ، على جمل مرقـال ، يندفع بين الإبل كحجر قُذِف به من مِقْلاع ، لا يضنيه السير مهما طالت الرحلة وتوالت ، يعتلى الفلوات ، ويطوى الوديان ، إذا اخترق القافلة أفسحت له بقية مطاياها . وكأنه حين يزجره بصوته ، يحثّ حيواناً أخذ من الفرس سرعته وانطلاقه ، ومن حمار الوحش قوته وبسالته ، وفى طيه الأرض وصراعه معها صلب قوى يذكّره بحبل شديد الفتل من حبال « أندرين » :

وكنتُ إذا الهمـــومُ تضيَّفتني ... قريتُ الهمَّ أهـــوجَ دوسريًّا (٥) *

---

(١) غير امرىء القيس موضوع دراستنا ، وليس بين يدى ما يعين على تحقيق شخصيته .

(٢) القرد : المنعقد المتلبد – الرباب : السحاب الأبيض – الزجل : صوت السحاب .

(٣) مهلب : بارد – خضل : يلمع فيه قوس قزح .

(٤) الأصناع : اسم مكان – ضاحية : ظاهرة – السيوب : جمع سيب مجارى الماء .

(٥) الأهوج : السريع – الدوسرى : الجمل الضخم .

* أخذ هذا المعنى فيما بعد طرفة بن العبد :

وإنى لأمضى الهم عنـــد احتضاره ... بعوجاء مرقال تـــروح وتغتـــدى

بُوَيْزلَ عامــه مِرْدَى قِــذافٍ ... على التأويب لا يشكو الونيَّا(١)

يَشيحُ على الفَــلاةِ فيعتليهــا ... وأذرعُ ما صدعتُ بــه المطُيَّا(٢)

كأنىّ حين أزجُــرُه بصــوتى ... زجــرت به مدِلاًّ أخدريــا(٣)

أطـــالَ الشدَّ والتقريبَ حتىّ ... ذكرتُ بـــه مُمَــرًّا أندريّا(٤)

وتلا هذا الوصف لجمله ، صورة فريدة لمحاولة صيْد ، أقول فريدة لأن صاحبها ليس غنياً فارساً يصطاد رياضة ، وإنما رجل فقير يترصد القطعان ارتزاقاً ، وفيما أعلم ليس بين شعراء الجاهلية من قدّم لنا هذه الصورة . وبين وصف الجمل وتصوير الصيد سقط بيت من الشعر ، اختلط المعنى بسقوطه ، وغُمَّ على كثيرين . وصورة عمرو هنا متماسكة ، لا يعتورها اضطراب أو تفكّك ، وقدّمنا آخر بيت منها على سابقه ليكون المعنى أكثر وضوحاً :

إن حماراً وحشياً كان يقود عانة ، ويتخذ منها مقاماً قصيًا ، ساقها إلى روضة ، أمضت بها شهرىْ ربيع ، فسمنتْ وبُدّلتْ جلوداً ، ونبت لها شعر جديد ، وهو يحرسها ، يرقب الأفق بعيداً ليتبين الأشباح القادمة ، من أعداء صيادين ، أو قطعان أخرى مزاحمة ، ويصعد هذا الجبل وتلك القمّة ، فإذا وجد قطعاناً أخرى من الوحش غريبة عن قطيعه هاجمها ، ودخل معها فى صراع مرير . وإذا أحسّ أن حُمُر القطيع ونعاجه تسربت مِن حوله ، وأن المكان جفّ ماؤه ، وافتقد عشبه ، أرن بصوت قوىّ حتى تجتمع الأبقار ، ثم ساقها إلى منهل عنده طِمْل يمانىّ ، صعلوك فاحش خبيث ، يُهِلّ للحم الطرىّ ، قابض على قوسه متمكن منها ، وبين يديه سهام متخيرة ، شدّ عليها حديداً أزرق ، فلما رآها تروّى قليلا ، ثم اتخذ منها مكاناً خفياً ، على حين لم ير القطيع ما يريبه فأقبل على الماء آمناً عطشاً ، فأرسل الطمل اليمانى فى المقتل الظاهر من بقرة سهماً كأنه سمّ يَثْربىّ ، ولكنه سقط مختلطاً بالدم ، وتكسرت القدح شظايا ، فعضّ الصائد أنامله مغيظاً ، وعاد إلى بيته حسران أسيفا لهفــاً مصاباً ، يلتهب غيظاً ،

---

(١) بويزل : تصغير بازل ، وهو البعير بزل نابه بأن دخل فى السنة التاسعة – التأويب ؛ السير جميع النهار أوالسير فى الليل – الونى : الضعف .

(٢) الفلاة : الأرض لا ماء فيها – أذرع : أوسع – صدع : شق ، أى شق بقية المطايا .

(٣) الأخدر : يقال إنه فحل من الخيل أفلت فضرب فى الحمر.

(٤) ممر : حبل شديد الفتل – أندرى : منسوب إلى أندرين قرية من قرى الشام

لينبئ زوجته بما حدث له ، لقد كانت واثقة هي وبنوها أنه لن يعود إليهم خاوى الوفاض ، وإنما سيأتيهم بلحم فى الصباح أو المساء ، أما وقد عاد لا يحمل غير الحسرة فيبدو مهيض الجناح ، لولطمها مرة لردت عليه بلطمتين :

تمهَّلَ عانةً قد ذبَّ عنها — يكونُ مصامهُ منها قصيًّا (١)
بها فى روضةٍ شهرى ربيعٍ — فساف لها أديماً أدلصيًّا (٢)
مُشيحاً هل يرىَ شبحاً قريباً — ويُوفِى دونها العلَمَ العليَّا
إذا لاقى بظاهرةٍ دحيقاً — أمرّ عليهما يوماً قَسِيًّا (٣)
فلمّا قلّصتْ عنه البقايا — وأعوزَ من مراتعِهِ اللَّوِيَّا (٤)
أرنَّ فصكّها صَخِبٌ دَوَلٌ — يَعبُّ على مناكبها الصَّبِيَّا (٥)
فأوردها على طِمْلٍ يمانٍ — يُهِلُّ إذا رأى لحماً طريًّا (٦)
له شِرْيانةٌ شَغَلتْ يديْه — وكان على تقلُّدِها قويا (٧)
وزرقٌ قد تنخَّلَها لِقَضْبٍ — يَشُدُّ على مناصبها النَّضِيا (٨)
تردَّى بُرْأةً لمّا بناها — تَبَوَّأ مَقْعدا منها خَفِيًّا (٩)
فلما لم يَرَيْنَ كثير ذُعْرٍ — وَرَدْن صَوادياً وِرْداً كَمِيًّا (١٠)
فأرسلَ والمقَاتِلُ مُعْوِراتٌ — كما لاقَتْ زُعافاً يَثْرِبِيًّا (١١)

---

(١) تمهل ؛ تقدم – عانة : قطيع من حمر الوحش – مصامه مقامه .

• يغلب على ظنى أن بيتاً قبل هذا البيت قد سقط من القصيدة ، ويعود عليه الضمير فى « تمهل » ، وبغير هذا الظن لا يستقيم المعنى إلا على تأويل بعيد .

(٢) ساف : شم – الأديم : الجلد – أدلصى : أملس .

(٣) الظاهرة : ما ارتفع من الأرض – الدحيق : العبير المطرود .

(٤) قلصت : ذهبت – مرتع : جمع المرافع ، المرعى – اللوى ؛ النبت الذى ييبس .

(٥) أرن : صوت – الدؤول : من الدألان ، وهومشى فيه تقارب .

(٦) الطمل : الصعلوك الخبيث .

(٧) الشريانة : قوس تعمل من شجر الشريان .

(٨) الزرق : الأسنة – لقضب : لقطع – مناصبها : مقابضها – النضيا : أنضى القوس شد وترها لتصوت ، والنضى من السهام ما فسد لكثرة ما رمى به .

(٩) تردّى : دخل فيها – البُرْأة : بيت الصائد .

(١٠) صوادى : عطاشا – الكمى : الشجاع .

(١١) زعافا يثربيا : سم صنع فى يثرب .

فخـــرَّ النّصْلُ مُنْقَعِضاً رَثِماً | وطـــار القدْح أشتاتاً شَظِيا [١]
وعضَّ على أناملـــه لهيفـــاً | ولاقى يومـــه أسفاً وغيّـــا
وراحِ بحـــرَّةٍ لهفـــاً مُصـــاباً | يُنَبِّئُ عِرْسَهُ أمـــراً جليّـــا
وكانـــوا واثقين إذا أتـــاهم | بلحمٍ إنْ صباحاً أو مُسِيّا
فلو لُطِمتْ هناك بـــذات خَمْسٍ | لأُوِقيَ عنـــدها حَتْنَيْنِ سيَّا [٢]

أولئك هم الشعراء الثلاثة الذين سبقوا امرأ القيس والتقى بهم ، ثم احتذى طريقهم .

كان الأول ، زهير بن جناب ، نديم جدِّه وأبيه ، وزعيم قومه فى ذلك الجانب من الأرض ، وعمّر إلى ما بعد موت امرئ القيس ، فمن الطبيعى أن يلقاه الفتى الشاعر فى مطلع حياته ينغم بالشعر ، وأن يتحدث إليه ويسمع منه ، يحفظ قوله ويعى تجاربه ، وليس أكثر حرصاً من الشيوخ على استرجاع ماضيهم ، والتحدث بتجاربهم إلى الناشئين ومن هم فى سنّ الشباب ، ولا نتجاوز ذلك إلى معرفة ما أخذ منه فى مجال القول ، لأنّ ما وصلنا من شعر زهير ، شابًّا فتيًّا أو شيخاً محطَّماً ، قليل لا يتجاوز قصيدة كاملة ، وبضعة أبيات متناثرة هنا وهناك .

ولقاؤه مع أبى دواد ، ثانى الثلاثة ، محتمل ، وإن كنا لا نملك عليه دليلا تاريخيًّا غير إشارة النقّاد القدامى إلى أنّ امرأ القيس كان راويته ، ويتوكأ عليه . ويرجح هذا اللقاء استنتاجاً أنّ أبا دواد كان على خيل المنذر ، وأن المنذر أصهر فى بيت حجر آكل المرار مرّتين ، تزوّج هنداً بنت الحارث بن عمرو المقصور ، فلما كَبِرَتْ هنـــد عند المنذر أعجبته ابنة أخيها أُمامة بنت سلمة بن الحارث ، فطلّق هنداً وتزوّج أمامة ، فأصبحت فى بلاط الحيرة عمة امرئ القيس وبنت عمّه ، وكانت الحيرة تسبق مَنْ حولها مِن القبائل تقدُّماً وحضارة ، فلا غرو أن تصبح مقصد الشعراء ، يهبطونها لينعموا بذلك كله ، يعينهم عليه أن أهلها عرب ، ولغتها عربية ، وأتصوّر أن امرأ القيس ، على الأقلّ فى فترة من شبابه ، كان واحداً من هؤلاء . وإذا كانت الكثرة الغالبة تنزل

---

(١) القدح : السهم قبل أن يراش ويركب نصله .
(٢) الحتن : المثل .
• هذا البيت يأتى قبل سابقه فى الديوان ، وأخرناه لأن التأخير أكثر مناسبة للمعنى .

الحيرة أملاً فى أيام جميلة تسعد بها ، أو تكسُّبا عند ملكها ، فامرؤ القيس كان يهبطها أميراً مترفاً ، ربما يبحث عن جديد من اللذة يفتقده فى نجد ، ولكن قبل ذلك وفوقه ، ليصل رحماً ويَبَرّ أهلا ، ويعلى من شأن هند وأمامة هناك ، زائراً وسائلا ومهادياً ، وليس ما يمنع ، إنْ لمْ يوجب ، أنْ يمتطى ، وهو الفارس ، ما يحب من خيل المنذر وأن يتعرف بالقائم عليها . ويعزِّز رأيى أن جانباً كبيراً من شعر امرئ القيس ، وبخاصة ما اتصل منه بالخيل ، يلتقى فيه مع أبى دواد أسلوباً وتصويراً .

وكان عمرو بن قميئة أوضح الثلاثة فى لقائه مع امرئ القيس ، فقد عمل فى بلاط أبيه وصحبه فى رحلته إلى بلاط الروم ، ولكنه أقلّ وضوحاً – كمؤثِّر – فى اتجاهات امرئ القيس ، لأن شعر عمرو يعبِّر عن مشاعر إنسان بسيط فقير ، ملتصق بالحياة الدنيا ، مما يرجّح لدىّ أنه كان خادم حجر ولم يكن حاجبه . فإذا وصف معاصروه الذين عرضنا لهم الفرس وصف هو الجمل ، وإذا صوّروا الصيد رياضة وتسلية ، صوّره معاناة من أجل العيش ، وإذا كان صيد أولئك على الخيل ، وقنصهم بالكلاب ، كان صيّاده صعلوكاً فقيراً ، يرقب الحُمُر راجلا ، ويترصّدها حريصاً ، سهامه كليلة ، وأسنّتها صدئة ، ورميُه طائش ، وصغاره جوعى فى المنزل ينتظرون الطعام .

وثمّة شاعر آخر من إياد ، كان معاصراً لامرئ القيس وأقـــدم منه ، وليس بين يدىّ ما يدل على أنهما التقيا ، رغم أن الشاعر الإيادى عاش فى الحيرة ، وليس فى إنتاجهما الشعرى ما يدعم فرضا ، أو يرجّح جانب الاحتمال . هذا الشاعر هو لَقِيط ابن مَعْمَر [١] ، وينسب فى إياد ، وكانت أكثر نزار عدداً وأحسنهم وجوهاً ، وأقواهم أجساماً ، وأشدّهم امتناعاً ، وكانوا لقاحاً لا يؤدّون خراجاً [٢] ، وهم أول معدّىّ خرج من تهامة ، فنزلوا السواد ، وغلبوا على بين البحرين سِنْداد والخَوَرْنق [٣] ، وبلغ من قوّتهم أنّهم أغاروا على أموالٍ لكسرى فانتهبوها ، وأخذوا بعض نسائه ، فجهّز إليهم الجيوش ، فهزموهم مرّة بعد مرّة ، ثم ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة ، فوجه إليهم كسرى

---

(١) فى عدد من المصادر الأدبية يعمر (بفتح الياء ، وسكون العين ، وفتح الميم) .

(٢) لقاح : لم يدينوا للملوك ، ولم يملكهم أحد ، ولم يصبهم فى الجاهلية سباء .

(٣) سنداد . نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلة – الخورنق : قصر كان يظهر الحيرة .

ستين ألفاً فى السلاح ، وكان لقيط فى الحيرة ، يعمل فى بلاط المنذر فى رواية ، أو فى ديوان كسرى فى ثانية ، وأخرى ثالثة تقول إنه كان هناك أسيرا ، وأميل إلى أنه كان ينزل الحيرة كبقيَّة العرب مستمْتِعاً أو مسترْفِدا . على أىٍّ حال أحسَّ لقيط بما كان يدبّر لقومه ، فكتب إليهم منذراً ومحذّراً :

سلام فى الصحيفة من لقيط ... إلى مَن بالجزيرة من إياد
بأنَّ اللّيْث كِسْرَى قد أتاكم ... فلا يَشْغلْكُمُ سوْقُ النِّقادِ (١)
أتاكم منهُمُ سِتُّون ألفاً ... يزجُّون الكتائب كالجراد (٢)
على حَنَق أتيْنكُمُ ، فهذا ... أوان هَلاَكِكُمْ كهلاك عاد

فلما بلغ كتاب لقيط إياداً استعدوا لمحاربة جنود كسرى ، ثم التقوا فاقتتلوا قتالا شديداً ، أصيب فيه من الفريقين ، ورجعت عنهم الخيل ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فلحقتْ فرقة بالشام ، وفرقة رجعت إلى السواد ، وأخرى أقامت بالجزيرة .

كان لقيط إذاً معاصراً لكسرى أنو شروان ، فإذا عرفنا أنَّ كسرى أنو شروان تولى الملك بين ٥٣١ م و ٥٧٩ م ، وأن لقيطاً كتب شعره المتصل بحروب قومه مع فارس فى سن واعية تجاوز معها ميعة الصبا ، أمكن أن نحدّد مجيئه إلى الحياة فى فترة تعود إلى أول القرن السادس الميلادى على وجه التقريب .

كان لقيط معاصراً لأبى دواد ، وكلاهما من قبيلة إياد ، ولما كان أبو دواد أكبر سنًّا ، فقد جعلتْ إياد من لقيط شاعرها الثانى فى مجال التباهى والافتخار . ويضمُّ ديوان لقيط الذى وصلنا عدداً قليلا من قصائد ذات أهمية ، وما يزال مخطوطاً حتى الآن مجموعاً يحتوى على دواوين عمرو بن قميئة ، وعلقمة الفحل ، وأوس بن حجر وغيرهم ، وقصيدة واحدة منه ، طويلة تبلغ عدة أبياتها خمسة وخمسين تكفى لكى تضعه مع شعراء الطبقة الأولى على قدم المساواة ، أرسلها إلى قومه عقب الأبيات التى أوردناها قبلا ، حين تحرَّك كسرى بجيشه نحو العراق ، وحفظها لنا ابن الشجرى كاملة ، وجعلها أولى مختاراته ، واكتفى منها صاحب الأغانى بثمانية عشر بيتاً ، وهى أقدم قصيدة جاهلية مطوَّلة وصلتنا ، وتضم الخصائص الفنية للشعر العربى فى أوج قمته ،

---

(١) النقاد : صغار الغنم ، أو هى جنس منها قصار الأرجل قباح الوجوه وتكون بالبحرين .

(٢) يزجون : يسوقون .

من مقدمة وتصريع ، واستواء لفظ ووضوح معنى ، وتقدم الدليل كاملا على أن اللغة الأدبية كانت تفرض سلطانها على المثقفين فى شتى أنحاء الجزيرة العربية ، لأن قبيلة إياد كانت تسكن أقصى الشمال الشرقى منها (١) .

شُهرتْ مطوَّلة لقيط باسم القصيدة « العينيَّة » ، ومقدمتها غزل صريح بعيد عن الأطلال وبكائها ، فيها يتذكر منازل أهله فتشيع فيه همًّا وحزناً ووجعاً ، لأنه بعيد عنها ، ولأنه متيم فى ذات الجزع بشابة هيفاء القوام ، مرّتْ بذات العذبة ، بيضاء لها عيون بقرة وحشية ، بقرة خذلت رفاقها فى القطيع وأقامت على وليدها ، تحنو عليه ، وتتنقّل به عبر رياض معشوشبة يعيشان عليها :

يا دار عمرةَ مِن محتلها الجـــرعا   هاجتْ لى الهمَّ والأحزانَ والوجعا (٢)

تامتْ فؤادى بذاتِ الجـزعِ خرعبةٌ   مرَّتْ تريدُ بذاتِ العذبة اليَنَعا (٣)

بمقلتى خاذلٍ أدماء طاعَ لهـــا   نَبْت الرياض تُزجّى وسطه ذرعا (٤)

وبعد أبيات سبعة من غزل هادئ مطمئن ، يصنعه صاحبه التزاماً لمنهج معيّن فى التعبير أكثر مما يقوله مستثاراً بامرأة يحبها ، يتوجَّه بالحديث إلى رسوله لقبيلته : اذهب إلى شيوخ قومى ، وأبلغهم رأيى ، وأراه نافعاً إن أطاعونى :

بل أيّها الراكبُ المزجى مطيّتَـــهُ   إلى الجزيرةِ مُرتاداً ومنتجعا (٥)

أبلغ إيـــاداً وخلِّل فى سراتِهِـــمُ   إنى أرى الرأىَ إن لم أُعْصَ قد نفعا (٦)

وانتقل يحذِّر قومه الفرقة ، سوف يحزنه أن يعرف أن أمورهم شتى وكلمة العدو المهاجم واحدة ، لقد زحفت عليهم فارس بجموع تستخف بالحصون مسرعة لا يعوقها فى طريقها شىء ، مستعدةٍ تهيِّئ سلاحها وتشحذه ، وإن هُزمتْ إياد فسوف يكون عار الأبد ، فلا مهرب من وقفة تردها إن أرادوا لأنفسهم الحياة :

---

(١) انظر مصور توزيع القبائل فى آخر الكتاب .

(٢) الجرع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل .

(٣) تامت : جعلته متيما – ذات الجزع : اسم موضع – خرعبة : شابة فتية حسناء – ذات العذبة : اسم موضع .

(٤) الخاذل : النفور – أدماء : بيضاء – تزجى : تسوق برفق – الذرع : ابن البقرة الوحشية .

(٥) المرتاد : طالب الماء – المنتجع : طالب المرعى .

(٦) خلل : امش خلال زعمائهم .

يا لهف نفسيَ إن كانتْ أمورُكُمُ ... شتَّى ، وأُبرمَ أمْرُ الناسِ فاجتمعا
أحرارُ فارسَ أبناءُ الملوك لهم ... من الجموع جُموعٌ تَزْدهى القَلَعا (١)
فهم سراعٌ إليكم ، بين مُلْتقطٍ ... شوْكاً ، وآخر يجنى الصَّابَ والسَّلعا (٢)
هو الجلاءُ الذى تبقى مذلَّتُهُ ... إنْ طارَ طائرُكُمْ يوماً وإن وقعا
قُوموا قياماً على أمشاطِ أرجلكُم ... ثم افزعوا ، قد ينال الأمنَ مَنْ فَزعا

لكن الأمر فى الحرب ، وفيما هو كالحرب ، فى حاجة إلى زعيم يقودها نحو مواطن النصر ، ولقيط يضع لقومه ، ولغير قومه ، الصفات التى يجب توافرها فى الزعيم الحق ، وفى القائد المحارب : لابد أن يكون واسع الصدر ، خبيراً بفنون الحرب ، إذا أقبلتْ عليه الدنيا لا يتخلَّى عن خشونة الجندى ، ولا يركن إلى ترف يميت الرجولة ، ويفتِّت العزائم ، ويشيع الجبن ، وإذا حاقت به الهزيمة صمد فى مَوقعه يموت دونه ، وهب فكره لقومه فلا يهتم بمال يثمره ، ولا نزوات يجمعها أو ضياع يقتنيها ، وليست له أسرة تشغله أو تستغلّ نفوذه ، وما يهدم القائد أو الزعيم كمطامح أهله ، ومطامع صحبه ، ومفاسد حاشيته ، كثير العمل ، قليل النوم ، تتوزعه هموم قومه ، وتؤرِّقه مشاغلهم . يعرف عدوه ، يقوِّم إمكانياته ، ويتحسَّس خدعه ، يحسن الإفادة من تجاربه ، ويستهدى تجارب غيره ، خبر الأيام حلوها ومرَّها ، خيرها وشرّها ، ليِّن العريكة ، يعرف كيف يتقدّم وأين يقف ، متى يسمع لقومه ويطيعهم ، ومتى يجمعهم حوله ويقنعهم بما يريد . قوىُّ الشكيمة ، فتيٌّ جلد ، يصارع المحن ولا يذل أمامها :

وقلِّدوا أمرَكُمْ ، لله دَرُّكُمُ ... رحبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مُضطلعاً
لا مُتْرفاً إنْ رخاءُ العيشِ ساعَدهُ ... ولا إذا عضَّ مكروهٌ بـه خَشَعَا
وليس يشغَلُهُ مالٌ يثمره ... عنكم ، ولا ولدٌ يبغى لـه الرُّفعا
لا يطعمُ النومَ إلَّا رَيْثَ ، يبعثه ... همٌّ يكادُ سناهُ يقصمُ الضُّلُعَا
مُسهَّدُ النوم تَعنيه أمورُكُمُ ... يرومُ منها إلى الأعداء مُطَّلعا
ما انفكَّ يحلبُ دَرَّ الدهرِ أشطُرَه ... يكون متَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا
حتى استمرَّتْ على شَزْرٍ مريرتُه ... مُسْتحكمُ السنِّ ، لا قحماً ولا ضرعا

---

(١) تزدهى : تتهاون بها وتستخف – القلعا : جمع قلعة ، وهى الحصن .

(٢) الصاب والسلع : شجران مران .

وسبق امرأ القيس شاعران آخران ، لدينا نتف من أخبارهما ، وأكاد أجزمُ بأن شاعر كندة لم يلقهما ، لأن ظروفهما وحياتهما الاجتماعية تنأى بها عن لقائه وتباعد ، وهما : الشنفرَى الأزدى ، وتأبّط شرًّا الفَهْمى ، وكلاهما صعلوك ، تعاصرا وتشاركا أحياناً فى غزواتهما ، وشعرهما ضائع ، وما نُحِلاه كثير ، ويمثلان فى الشعر الجاهلى منحى عُرِفا به ، وتتبّع أصوله وما أثّراه فى من تلاهما خارج عن نطاق هذه الدراسة .

بقِى الذين عاصروا امرأ القيس ، وأعنى بالمعاصرة أولئك الذين كانوا شعراء حين كان هو شاعراً ، جاءوا إلى الحياة معه أو قبله ، وسبقوه فى رحلة الفناء أو لحقوا به ، وأول ما يقع منهم فى الخاطر عبيد بن الأبرص ، شاعر بنى أسد ، وندّ امرئ القيس فى القول والحرب ، ومن دراسة شعره وتتبُّع إشاراته يدرك المرء أنه كان شيخاً محنّكا حين كان امرؤ القيس فتى غرًّا . وُلِد فى أواخر القرن الخامس الميلادى تقريباً ، ويظهر فى قائمة الشعراء الذين ترددوا على ملوك الحيرة ، ربما ليسترفدوهم بعض عطائهم ، فقد كان فقيراً بلا ثروة ، ويبدو أنه التقى هناك بالنابغة الذبيانى فتوثّقت الصلة بينهما ، وشعره يعكس آثار هذه الرحلات ، ففيه وصف الفرات والترع القريبة من الحيرة ، والدور الذى لعبه فى الصراع بين بنى أسد قومه وحجر أميرهم ، عرضنا له فيما قبل تفصيلا (١) ومات عبيد فى سن متقدمة ، قبل عام ٥٥٤ م ، قتله المنذر بن ماء السماء ، ذبح فوق قبر نديمين للملك ، حين قدم عليه يوم بؤسه ، وتقول الرواية : إن الملك أسف حين رآه ، وقال : هلاّ كان لغيرك يا عبيد ! أنشدنى فربما أعجبنى شِعْرك ! فقال له عبيد : حال الجريض دون القريض (٢) .

قال أنشدنى :

أقْفَرَ من أهلِه مَلْحُوبُ فالقُطَبِيّاتُ فالذَّنُوبُ (٣)

وهى أجود شعره ، وألحقها التبريزى « بالمعلقات » وجعل ترتيبها الأخيرة ، فأنشده عبيد :

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدى ولا يعيد

---

(١) انظر ص ٧٥ وما بعدها .

(٢) الجريض : غصص الموت — القريض : الشعر .

(٣) ملحوب : ماء لبنى أسد — القطبيات : اسم جبل — الذنوب : موضع .

وقد طلب عبيد أن يُقتل عندما يبلغ منه السُّكر مبلغه ، فقتل ثَمِلا .

والثانى علقمة بن عبدة ، وكان يلقب بالفحل ، وقد نازع امرأالقيس إمارة الشعر ، ويتفق ابن سلام الجمحى فى « الطبقات » ، وابن رشيق فى كتاب « العمدة » على أن له ثلاث قصائد لا يفوقهن شعر :

الأولى مطلعها :

ذهبتَ من الهجران فى كل مذهب ولم يكُ حقّا كلُّ هذا التجنُّب

ليالى لا تبـلى النصيحـة بيننـا ليـالى حَلُّوا بالسِّتار فيعـرب

وحاكم بها امرأ القيس على نحو ما رأينا (١) ، ويقول النقاد : لولا شهرة الملك الضّليل ، لأخملت قصيدة علقمة شعره .

والثانية مطلعها :

طحا بك قلبٌ فى الحسان طروب بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حان مشيب

وقد مدح بها الحارث بن أبى شَمِر الغسانى ، وترضّاه ليفك أسارى قومه (٢)

والثالثة مطلعها :

هل ما علمتَ وما استودعت مكتوم أم حبلُهَا إذ نـأتك اليومَ مصرومُ

وتضمنت أحسن وصف للنعامة فى الشعر العربى ، والتشابه الكبير بين شعر الاثنين ، امرئ القيس وعلقمة ، يوحى إلىّ بأن المؤثِّرات التى تعرّضا لها فى المجال الثقافى كانت واحدة .

وعاصره أوس بن حجر ، أُسَيْدِىّ من تميم ، ويمثّل معه الطرف المقابل فى الاتجاه الأخلاقى ، كان عاقلاً فى شعره ، كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، والحُمُر الوحشية والقوس ، وسبق إلى دقيق من المعانى وأمثال كثيرة . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول عنه : « فحل مضر ، فلما نشأ النابغة وزهير أخملاه » وبعض المؤرخين يراه أقدم من امرئ القيس ، وهو أول شاعر مضرى تصلنا أخباره ، وقد وُلد فى البحرين ، وتنقل فى الجزيرة ، وتردّد على بلاط الحيرة ، والقليل الذى وصلنا من شعره يعكس تأثيراً فارسياً ينمّ عن معرفة ، ولو محدودة ، باللغة الفارسية ، حتى إنّ بيتاً واحداً له يضمّ ثلاثة ألفاظ

(١) صفحة ٦٤ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٨٨ - ٨٩ .

أعجمية ، يقول يصف الناقة :

وقَارفتْ وهى لم تجَربْ وباع بهـــا   من الفَصافِص بالنُّمِّىِّ سِفسيرُ

والفصافص فارسية وهى الرَّطْبة ، النمِّىّ رومية وهى الفلوس ، والسفسير فارسية وهى السمسار .

وتعاصر معه عنترة ، والأعشى ، والنابغة ، وطرفة ، والمتلمّس ، وبشر بن أبى خازم ، وتراجمهم وافرة ، وشخصياتهم يمكن أن تُلتمس فى مظانها ، لكن واحداً من هؤلاء لم يلتق به ، فحين نبغوا بالشعر ، كان امرؤالقيس ضائعاً ثائراً يبحث عن ملْك .

شاعر الأطلال

فى صفحات سابقة انتهينا إلى أن امرأ القيس لم يكن مبدع المقدِّمات الطللية وأن القليل من الشعر الذى تركه سابقوه يضمّ مقدمات أيضاً ، وهو حكم يصحّ فى جملته ، ويحتاج تقريره إلى بيان وتفصيل .

كان للشعراء قبل امرئ القيس مقدمات لكنها لم تكن طللية خالصة ، وإنما كانت إلى الغزل أقرب ، أو كانت مزيجاً منهما .

أمّا شاعر كندة فجعل من بكاء الأطلال عنصراً مستقلا ، ميزها عن الغزل ، وأطال فيها القول ، ونوّع صورها ، فخرج بها عن الرتابة والجمود ، وإن بقى مضمونها متشابهاً مهما كان الثوب الذى ترتديه . ونشأة هذه المقدمات إحدى مشكلات الشعر المعقَّدة ، ولتصوُّر القضية فى وضوح نحتاج إلى معايشة متأَمِّلة مع امرئ القيس ، رفق مقدماته الطللية فى عدد من قصائده .

كل منا تهتَزّ نفسه حين يستحضر أطرافاً من حياته الماضية ، ويسترجع أحداثاً من شبابه الذاهب ، يعيش فى حاضره لحظات من أمسه الدّابر ، وهو أقرب ما يكون إلى ذلك واستثارة به إذا كانت الرحلة له ضرورة ، لا يقرّ فى مكان إلاّ فارقه ، ولا يحط رحله إلاّ ويشدّه من جديد ، فلا يزال موزّع العاطفة بين مهبط عاش فيه وأنس إليه ، وربطته أواصر الودّ بِمَن فيه مِن بشر وحيوان وجماد ، ومنزل يوشك أن يحلّ به ، ويقيم مع آهليه نفس الصلات ، إن مشاعره تموت وتحيا فى الرحلة الواحدة بعدد ما ينزل من الأمكنة ويفارق .

فإذا عاود السير فى نفس الطريق ، ومرّ بنفس المشاهد ، كانت الإثارة أوقع ، والحنين أدعى .

ولقد كانت حياة العرب فى البادية كذلك ، وشىء شبيه به فى الحاضرة ، فى الأولى انتجاعا وفى الأخرى اتجارا ، وفى كليهما طلب للحرب أو المنفعة ، فلا بدع أن يبدأ امرؤ القيس شعره بتصوير مشاعره تلك ، وأن يبلغ هذا التصوير قمته فى المعلّقة . إنه يحنّ إلى أمكنة اجتازها من قبل ، مرح فى عرصاتها وقنص فى جبالها ووديانها ،

وطاب له أن ينزل مياهها وغدرانها ، وأن يطلب إلى نفسه ، وحيداً أو مع رفاقه ، جماعة أو اثنين ، أن يتمهّلوا فى سيرهم بين « الدخول » و « حومل » ، وبين « توضح » و « المقراة » ، يبكى لحظات هناك ، وحيداً أو مع صحب له ورفاق ، يبكى حقيقة ، أو يدع لعواطفه تنثال حوله ، تلح عليه وتضنيه ، فيكون له من الحزن والأسى ما هو البكاء أو أشد منه قسوة ، وإن لم تسقط منه عَبْرة . يتأمّل منازل حلّ بها يوماً ، وقد عبثت بها السافيات من جنوب وشمال ، فذهبت بآثارها وتركت بقايا ، محت شيئاً وخلّفت بعضاً ، لا تكاد إحدى الريحين تُلبسها ثوباً من الرمل ، حتى تأتىَ الأخرى فتعرّيها منه وتُسْفرها من جديد . لقد تقادم المكان وبَعُد به العهد ، وإن بقيت منه دوارس تذكّر به وتدل عليه . ذهب سكانه وخلا من قطّانه ، سكنته الظباء ، وألفته الوحوش ، تأوى إليه ليلا ، وتنتشر فى الوادى نهاراً ، فتناثر بعرها هنا وهناك ، وله من الفلفل حجمه واستدارته ولونه ، يشير إليها ويدلّ عليها . وتذكّر الذين جمع بينهم الحب أو الرفقة ، وفرّقت بينهم الطريق أو الرحلة ، فأخذ كل سبيله ، كان ذلك من سنوات خلت ! يومها بقى وحده ، متفيئاً ظل أشجار الطلْح ، يتابع سير قوافلهم حتى غابت عن ناظريه ، فلم يَعُد لقاؤهم فى حياته غير ذكرى ، ساعتها هاجه الأسى ، وخنقته العَبْرة ، وفاض دمعه حزناً كمنكبٍّ على ثمر حنظل يثقبه ليخرج حبه ، فيجرى دمعه مستثاراً لا يستطيع له إمساكا ، ولا لأسبابه دفعاً ، ثم يدعو رفاقه ، أو نفسه ، أن يتّئدوا فى سيرهم ، ويحبسوا مطاياهم ، ليتملّى تلك المهابط على مهل ، فيداروه يعزّونه بالصبر ، ويصرفونه عن الجزع ، ويدعونه إلى التجلُّد .

لكن امرأ القيس يرى غير ما يرون . إن الدمع يغسل القلب ، ويأسو الجرح ، ويهدهد من ثورة الحنين ، ويحلُّ مغالق النفس ، ولقد وجد فيه شفاءه . ثم تساءل : ماذا يجديه أن يقف بتلك الديار ، ذهب أغلبها ، واستعصى على الفناء بعضها ، هل تملك أن تردّ عليه حبيباً ، أوتعيد له ماضياً ، أوتنسيه تاريخاً ؟

ليست الأولى فيمن عرف وأحبّ ، وليس المكان هو الوحيد فيما فارق وإليه عاد ، والحياة كلها ألوان من المفارقات ، ومن قبلها ذهبت أم الحويرث وجارتها أمّ الرَّباب وكان فيهما جمال وترف ، يتطيبان بالمسك على وفرة ، فحيثما ذهبتا انتشر عنهما ، وأشاع رائحته الطيّبة فى كل جانب ، كنسيم الصَّبا مرّ ببستان ، بستان غاص بزهور

القرنفل ، فحمل معه كثيراً من روائحها الزكية . مرّت بذاكرته تلك الأحداث كلها ، والأسى يحرّك المشاعر ، والحنين يثير الشجن ، ومعهما بلغ إحساسه بالحزن غايته ، فجرى دمعه قويًّا غزيراً ، أغرق نحره ، وبلَّ محمل سيفه :

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيب ومنزلِ … بِسِقْطِ اللِّوىَ بين الدَّخول فحَومَل [١]

فتوضحَ فالمِقْراةَ لم يَعْفُ رسمُهَا … لِمَا نسجتْهُ مِن جنوبٍ وشَمْأَل [٢]

ترى بعرَ الآرامِ فى عَرَصَاتِهَا … وقيعانِها كأنّـه حبُّ فُلْفُلِ [٣]

كأنى غداةَ البَين يَوْمَ تحملـوا … لدى سَمُرَاتِ الحىِّ ناقفُ حَنْظَل [٤]

وقوفاً بها صحْبِى علىَّ مَطِيَّهُمْ … يقولون : لا تهلكْ أسى وتجمَّلِ [٥]

وإن شفائى عَبْرَةٌ مُهراقَةٌ … وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّل [٦]

كدأْبك مِن أمِّ الحَويرثِ قبلها … وجارتِها أمِّ الرَّبابِ بمأسل [٧]

إذا قامتا تضوَّع المسكُ منهما … نسيم الصبا جاءتْ بريّا القرنفل [٨]

ففاضتْ دموعُ العين منى صبابةً … على النحرِ ، حتى بلَّ دمعىَ محملى [٩]

فى قصيدة ثانية يُحيى الأطلال ثم يأسى لها ، كيف يواتيها أن تنعم وقد تفرَّق آهلوها وذهبوا ، فتغيَّرت بعدهم عما كانت عليه ، إذا كانت الأطلال آسية للوداع ، فالإنسان وميْزته الإحساس أشد بها تأثُّراً ، فهو يتحدث عن الجماد ليجد للحديث عن نفسه سبيلا ، ويشفق عليه ليمهد الطريق أمام مشاعره تتدفق حائرة متقلبة ، تتأرجح

---

(١) السقط : منقطع الرمل حيث يستدق من طرفة – اللوى : الرمل المعوج الملتوى – الدخول وتوضح : أسماء أمكنة .

(٢) توضح والمقراة أسماء أمكنة – لم يعف : لم يمح – الرسم : آثار الديار .

(٣) الآرام : جمع رئم ، وهو الظبى الخالص البياض – العرصات : جمع عرصة ، وهى ساحة الدار – القيعان : جمع قاع ، وهو المستوى من الأرض .

(٤) سمرات : جمع سمرة ، وهى شجرة الطلح – نقف الحنظل : شقه عن حبه .

(٥) المطى : جمع مطية ، وهى الناقة ، وتستخدم جوازا فى كل ما يمتطى .

(٦) العبرة : الدمعة – مهراقة : مراقة ، مصبوبة – الرسم : الأثر ، ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض – دارس : درس الرسم عفا .

(٧) كدأبك : كعادتك – مأسل : اسم موضع .

(٨) نضوع : تحرك .

(٩) الصبابة : رقة الشوق – النحر : موضع القلادة من الصدر – المحمل : الذى يحمل به السيف .

بين التماسك والانهيار ، بين الاعتزاز والتذلل : دعا للطلل بأن ينعم ، ثم تراجع فى دعائه ، وجده بقايا دراسة وكان بالأمس دياراً عامرة ، ولا يتأتى النعيم إلا لسعيد ضمن الخلود ، قلّت همومه ، وأمن الفزع . إن السعادة ، أية سعادة ، تبدأ حيث ينتهى الخوف ، وكان آخر عهده بها من أعوام ثلاثة خلت ! ، وذكر ديار سلمى ، عفَّتْ دوارسها لإلحاح المطر عليها ، ويخيّل إليه ، رغم ذلك كله ، أنها لا تزال وحدها هناك مقيمة ، تتأمل ما حولها من أولاد الظباء ومن بيض النعام ، على العهد الذى أخذته معه ، وكان يُخيل إليها يومها ، تفيض أملاً وتشِعُّ اعتزازاً ، أن الحال لن يتغير ، ما كان أجملها من ذكريات وسلمى تبدو فى أتم حسنها ، وأكمل زينتها ، ولقد زعمتْ « بسباسة » أنى كبرتُ ، وكذبتْ ، فإنى لأذهب بفؤاد العروس ، وأسرق قلبها من زوجها ، وأملأ وجدان عروسى وحياتها ، فلا تستجيب لنظرة من غيرى :

ألاَعِمْ صباحاً أيهـا الطَّلَلُ البالى ... وهل يَعِمَنْ مَن كان فى العُصُر الخالى[١]
وهل يَعِمَنْ إلا سعيدٌ مخلَّـدٌ ... قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوْجالِ[٢]
وهل يَعِمَنْ من كان أحْدثُ عهده ... ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوالِ[٣]
ديارٌ لسلمىَ عافيات بـذى خال ... ألحَّ عليها كلُّ أسْحَمَ هَطَّالِ[٤]
وتحسَبُ سلمى لا تزالُ تـرى طَلاً ... من الوحش أو بيضاً بميثاء مِحْلالِ[٥]
وتحسب سلمى لا تزالُ كعهـدنا ... بوادى الخزَامى أو على رسٍّ أوْعالِ[٦]
ليـالى سلمى إذ تُرِيكَ مُنصَّباً ... وجيداً كجيدِ الرِّئمِ ليس بمعْطالِ[٧]
ألاَ زعمتْ بَسْباسةُ اليـوم أنَّنى ... كَبرتُ وألاَّ يُحْسِن اللهوَ أمثالى
كذبْتِ لقد أُصْبى على المرء عِرْسَهُ ... وأمْنعُ عِرْسى أن يُزَنَّ بها الخالى[٨]

(١) عم : دعاء للطلل بالنعيم .
(٢) الأوجال : جمع وجل ، وهو الفزع .
(٣) الأحوال : الأعوام .
(٤) الأسحم : السحاب الأسود – الهطال : المطر الدائم .
(٥) الطلا : ولد الظبية والبقرة – الميثاء : ميل الوادى ، أو الطريق إلى الماء – المحلال : الذى يحله الناس كثيراً .
(٦) الرس : البئر – أوعال : اسم مكان هنا فيما يبدو .
(٧) المنصب : الثغر المستوى – ليس بمعطال : ليس خالياً من الحلى .
(٨) يزن : يتهم – الخالى : الذى لا زوج له .

فى مقدمة ثالثة يدعو رفاقه ، أو نفسه ، إلى المرور بمنازل زوجه ، يرضى رغائب قلبه المعذَّب ، وإنّ لحظات قليلة ينتظره فيها رفاقه ، ليبقى معها ، تنفعه عندها ، ترضيها وينعم هو ، فقد تعوّد أن يجدها ، كلّما جاء طارقاً ، طيِّبة الرائحة بلا تطُّيب ، لا تزدريها العين لأنها دميمة ، ولا تشق على الناظر لأنها جافية الخلق ، ثم داخله الشكّ فيما ليس بين يديه مادياً ملموساً : أتراها على العهد مقيمة وأنا غائب عنها ؟ هل أبقتْ على ما بيننا من مادَّة ، أم اتبعت قول المخبِّب المفسد وأطاعتْه فىّ ، سوف ينأى عنها حِقْبة فيختبر وصلها أو هجرها ، ويكون من أمرها على بيِّنة . ولكنى خبير بأحوال النساء عليم ، أكاد أتصورّها ، تقول لى : إذا بَخِلتُ عليك بالوصال ساءك ، وإن كشفتْ لك عن حبىّ أصبح لك عادة ، إنى أعرفها تماما ، هى لا تصلنى كلَّ الوصل ، ولا تقطعه كلَّ القطع ، وبذلك يبقى دائماً حبها متجدداً حارًا قويًّا عنيفاً كأنه ابن ساعته .

ثم التفت إلى قافلة من النسوة ، تسلك طريقاً عبر أرض غليظة ذات جبال ، داخل هوادج مترفة ، عليهن ألوان من الثياب جميلة الوشى ، غالية الثمن ، متعَدِّدة الألوان ، أنطاكيَّة الصنع ، هنَّ فيها كنخلة حُمِّلتْ بثمرها ، بعضه أحمر وبعضه أصفر ، أو كجنَّة من جنان يثرب غُصَّت بزهور مختلفة الألوان . ضعْن وراء الأفق ، ولم يبق معه منهنَّ إلاَّ ذكرياته ، وكان فراقهن عسيراً عليه ، ومُبكياً له . توزعتهنَّ الطرق ، فريقاً منهن سلَكَ بطن الوادى ، وآخر اختار طريق الجبل ، وقد يلتقيان مرَّة أخرى ، وقد يفترقان إلى الأبد . وداع مُؤثِّر ، كوداع الحجاج عند تفرُّقهم بعد رميهم الجمار ، آخر ما يصنعون من طقوس الحج فى الجاهلية ، وعندما لفتْه هذه الخواطر ، وبلغ هذا القدر من التأمّل ، تدفّقت عيناه دموعاً غزاراً مسرعة ، فكانا كدلوين عظيمين يغترفان من جدول ، ويصبان فى أرض واسعة ، فتجرى مياههما كنهر يفيض فى منحدر :

خليلىَّ مُرَّا بِى على أمِّ جُنــدَبِ نُقضِّ لُباناتِ الفؤاد المعذَّب
فإنَّكمـــا إنْ تنظرانِى ساعــةً من الدهـــر يَنْفعنى لدَى أمِّ جندب

(١) اللبانات : جمع لبانة . وهى الحاجة .

ألم تَرَيانى كُلّمَا جئتُ طارقاً ... وجدتُ بها طِيباً ، وإنْ لم تطيَّب

عقيلةُ أترابٍ لها ، لا دميمةٌ ... ولا ذاتُ خلْقٍ إن تأمَّلْت جأْنَبِ (١)

ألا لَيْتَ شعرى كيف حادثُ وَصْلِهَا ... وكيف تراعى وُصْلَةَ المتغيِّبِ

أدامتْ على ما بيننا من مَوَدّةٍ ... أُمَيْمةُ ، أَم صارتْ لقوْلِ المُخبِّبِ (٢)

فإنْ تَنْأَ عنها حِقْبةً لا تُلاقِها ... فإنَّك مما أَحْدَثْتَ بالمجرِّب

وقالت : متى يُبْخَلْ عليكَ ويُعْتَلَلْ ... يَسُؤْكَ ، وإنْ يُكشَفْ غرامُكَ تدرَبِ (٣)

تبصّرْ خليلِى هل ترَى من ظعائنٍ ... سَوالِكَ نَقباً بين حَزْمَىْ شَعبعَبِ (٤)

عَلَوْنَ بأنطاكِيّةٍ فوق عِقْمَةٍ ... كجِرْمة نَخْلٍ ، أو كجنَّةِ يَثْربِ (٥)

فريقان : منهم جازِعٌ بَطْنَ نَخْلةٍ ... وآخرُ منهم قاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ (٦)

فلّله عَيْنَا من رأى من تفرُّقٍ ... أشتَّ وأنأى من فراقِ المحصَّبِ (٧)

فعيناكَ غَرْبا جدْولٍ فى مفاضةٍ ... كَمَرِّ الخليجِ فى صفيحٍ مُصَوّبِ (٨)

أما فى الرابعة فقد بعد قوم صاحبته ، فاشتدّ شوقه ، وتضاعف حزنه ، وعلى غير العادة ينسبها هذه المرة ، فهى كنانية القبيلة ، يَعْمُرِيّة الحىّ ، تعيش فى غسّان ، فلما تحمَّلوا حزن عليهم ، ورافقهم بعينه حتى غابوا وراء الأنهار من جَنب تَيْمر ، هوادجهن عالية مختلفة الألوان ، تحثُّ السيْر ، فتبدو من بعيد حدائق دوم يتحرك ، أوسفيناً تدفعه الرياح ، أو نخيلا باسقات ريِّى تغمر أسافلها المياه ، من نخيل ابن يامن فى هجر ، بعد المشقّر ودون الصفا ، مرتفعة عالية تمايل عروقها ، مزدهرة

---

(١) عقيلة أتراب : أى خير أترابها – الجأنب : الغليظة اللحم القصيرة .

(٢) المخبب : الرجل الخادع المفسد .

(٣) تدرب : تعتاد .

(٤) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى النساء فى الهوادج – النقب : الطريق فى الجبل – شعبعب : اسم ماء .

(٥) عقمة : ضرب من الموشى – جرمة نخل : ما يصرم من البلح .

(٦) النجد : الطريق فى الجبل – كبكب : اسم جبل .

* هذا البيت يأتى فى ديوان امرئ القيس بعد تاليه ، وقدمناه ليستقيم المعنى ، ويصبح أكثر تماسكا ، ويخيل إلى أننى عدت به إلى مكانه الحقيقى .

(٧) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى .

(٨) الغرب : الدلو الكبير ممتلىء ماء – المفاضة : الأرض الواسعة – الجدول : النهر الصغير – الخليج : فرع النهر – الصفيح : الحجارة الواسعة تجعل على جانبى الجدول لئلا يتهدم – المصوب : المنحدر .

يانعة اخضرّ سعفها وغزر ، واستوى رطبها وتلوّن ، فأهله يحمونه بسيوفهم ، ويحرسونه ضنًّا به ، ورغبة فيه . فاعتم زهوه ، واستوى ثمره ، وتدلّى حمله ، وأرضى نتاجه بنى الزهراء ، وطافت به جيْلان ، عمال اتّخذهم كسرى يطوفون البحرين وما حولها ، يصرمون له ما نضج من نخيلها ، وعبر ذلك الجمال الممتدّ بحار الإنسان عيناً وإحساساً وميلا . لكن هذه الظعائن الجملية الموشاة لا تشبه الدوم وحده ، ولا النخيل فحسب ، إنما تشبه أيضاً تماثيل بديعة ، على قوائم مرمرية ، أو صور مزخرفة على جدر مطلية ، فى سقف كنيسة . ظعائن فى داخلها غرائر منعمات مصونات يتحلين بالياقوت والذهب ، وقد صِيغ على هيئة ظهر جرادة . طيبات الرائحة ، كما لو كان ثمة مجمرة لملك حميرى ، رُمِيتْ بمسكٍ إذ فر مفروك ، فانتشرت رائحته قوية عطرة ، زادها طيباً ما أضيف إليه من زكى العود والبان والطيب والبخور . أولئك النسوة ذهبْن بقلبه واستولَيْن عليه ، وكانت سليمى تدّعيه ثم انقطع ما بينه وبينها من حبل الوصال ، وكان لها فيما خلا من الدهر خليلا ، يسترق النظر إلى خبائها رغم أستاره الصفاق ، فإذا رآها رِيعَ قلبه وخفق ، كما يرتاع الثمل ينظر إلى الخمر رهبة منها وحباً فيها ، يستعظمها ويحرص على التّلذذ بها ، كانت فاترة ، إذا تحرّكتْ لأمر تمايلتْ نشوى ، تدارى قلبها لتشتد ، وتحمل على نفسها لتتماسك ، وتتكلف الجلَد لكيلا تنهار ، ولقد تغيَّر ودّها ، ولئن فعلت فالتْ بهواها إلى غيره ، مال هو أيضاً بحبه إلى امرأة أخرى :

سمالكَ شوقٌ بعد ما كان أقصرا ... وحلّتْ سُلَيْمى بطنَ قَوٍّ فَعَرْعَرا[١]

كِنَانِيَّةٌ بانتْ وَفِى الصَّـدْر وُدُّهـا ... مُجَاورةً غسَّانَ وَالحىَّ يَعْمُـرَا[٢]

بَعَيْنَىَّ ظُعْنُ الحىِّ لمـا تحمَّلـوا ... لدَى جانبِ الأفْلاجِ من جَنْبِ تَيْمَرَا[٣]

فَشَبَّهْتُهُمْ فى الآلِ لمـا تكمَّشوا ... حدائقَ دوْمٍ أو سَفِيناً مُقَيَّرَا[٤]

أو المُكْرَعاتِ مِن نخيلِ ابنِ يامِنٍ ... دُوَيْنَ الصفا اللائى يلين المُشقَرَا[٥]

---

(١) قووعرعر : موضعان .

(٢) بانت : ذهبت .

(٣) الأفلاج : جمع فلج ، وهوالنهر – تيمر : موضع .

(٤) مقيرا : مطلياً .

(٥) المكرعات : النخيل المغروسات فى الماء – الصفا والمشقر : قصران بناحية اليمامة .

سوامقَ جبــارٍ أثيثٍ فروعُــهُ ... وعالينَ قِنْوَاناً من البُسْر أحْمَرَا (١)
حمتْهُ بنـو الرِّبداء مــن آل يامِنٍ ... بأسيافِهِمْ حتَّى أقَــرَّ وأوْفــرا (٢)
وأرضى بنى الربــداء واعتمَّ زَهْوُهُ ... وأكمامُــه حتى إذا ما تهصَّرَا (٣)
أطافتْ بــه جِيلانُ عنــد قِطاعِهِ ... تردَّد فيه العْينُ حتى تَحيَّرَا (٤)
كأنَّ دُمى سقفٍ على ظهرِ مَرْمَرٍ ... كَسَا مُزْبِدَ السَّاجُومِ وَشْياً مُصَوَّرَا (٥) *
غرائِـرُ فى كِنٍّ وَصَــوْنٍ وَنِعمْــةٍ ... يُحَلَّينَ ياقوتاً وشَذْرا مُفَقَّرَا (٦)
وريحَ سَناً فى حُقَّــةٍ حمْيَريــةٍ ... تُخَصُّ بمفْرُوكٍ من المسْكِ أذْفــرا (٧)
وبانًا وأُلْوِيًّا مــن الهِنْــد ذاكيــاً ... ورنْــدًا ولُبْنى والْكِبَاءَ المُقتَّرَا (٨)
غَلِقْنَ بِرَهْنٍ مِن حبيبٍ بــه ادَّعَتْ ... سُلَيْمى فأمسَى حَبْلُها قد تبتَّرَا (٩)
وِكان لهــا فى سالفِ الدَّهــر خلَّةٌ ... يُسَارِقُ بالطَرْفِ الْخبــاءَ المُستَّرَا (١٠)
إذا نالَ منها نَظْرةً رِيــعَ قَلْبُهُ ... كما ذَعَرَتْ كأسُ الصَّبُوحِ المخمَّرَا (١١)
نزيفٌ إذا قامتْ لوجــهٍ تمايَلتْ ... تُرَاشِى الفؤادَ الرخْصَ ألاَّ تَخَتَّرا (١٢)

---

(١) سوامق : مرتفعات – الأثيث : الغزير – قنوان : جمع قنو ، وهوالعذق . البسر : البلح .

(٢) أقر : كمل حمله .

(٣) اعتم : كمل وتم – الزهو : الأحمر والأصفر من البلح – الأكمام : هنا معناها أقماع البلح – تهصر : تدلى وتثنى .

(٤) جيلان : قوم اتخذهم كسرى عمالا بجانب البحرين ليصرموا له النخل .

(٥) المزبد : ذوالزبد – الساجوم : الصبغ .

* غم معنى هذا البيت على شراح ديوان امرئ القيس القدامى ، فلم يفسره الأصمعى ، واكتفى أبو حاتم السجتانى بتفسير بعض ألفاظه . وبعد تأمل بدا لى أن امرأ القيس يتحدث عن سقف كنيسة غاص بالتماثيل والصور التى تقام أو ترسم عادة فى سطحها ، مما يتطلبه معمار الكنائس ، وهوفن قديم نشأ معها ولها .

(٦) غرائر : غوافل عن الدهر – الكن : ما يكتنى به عن الحر والبرد – الشذر : قطع الذهب – المفقر : المصنوع على هيئة ظهر جرادة .

(٧) السنا : ضرب من الطيب – حقة : مجمرة – المسك المفروك : ما فتقت نافجته فانتشرت رائحته وقويت – أذفر : قوى الرائحة .

(٨) الألوى : أجود العود وأطيبه – الرند : شجر طيب الرائحة – واللبنى : ضرب من الطيب – الكباء : كل ما يتبخر به – المقتر : المدخن عند مباشرة النار له .

(٩) تبتر : تقطع .

(١٠) خلة : خليلا – المستر : الكثير الأستار . (١١) المخمر : الثمل .

(١٢) النزيف : السكران – تراشى : تعطيه رشوة ، تداريه وتخاتله – التختر : الفتور والكسل .

أأسماءُ أمْسَى وُدُّهـــا قد تَغيَّرا   سنُبْدِلُ إنْ أبْدَلتْ بالوُدِّ آخرا

القصيدة الخامسة بدأها بتعداد الأمكنة التى مرَّ بها وهى كثيرة : البكران ، وعارمة ، وبُرْقة ، وغوْل ، وحلِّيت ، ونَفْء ، ومنعج ، وعاقل ، والجُب . ورسم صورة لنفسه وقد انتحى بها مكاناً قصيا ، رداؤه فوق رأسه يتقى به الشمس ، جالساً يعد الحصى ، يتلهى به عن الذكريات ، عبراته مُتزاحمة لا تنفد ، وهمومه مُتدافعة لا تتوقف ، يستوى فى ذلك ليله ونهاره ، فهى تلاحقه فى كليهما ، يواجهها وحيداً يطلب العون . وهو على ناقته ، رفيق سيفه ونُمرقُه وردفه ، تسرع به كحمار وحشىّ ، يحث الخطا إلى أماكن مخصبة خبير بها ، يرعى شجرها ويصلح عليها ، ومعه أُتُن بيضاوات الأعجاز ، حوائل غير حوامل ، فيصيح بها ، يهيج عليها من حين لآخر ، يضربها ويصرِّفها كإبل يقوم عليها أجير ، يجمعها بعنف ، ويعبث بها فى حدة ، ويفحش معها دون رفق ، وهى معه كضرائر النساء ، مختلفات الكلمة ، موزعات الهوى ، لا تملك لأذاه دفعاً .

والحمار وأُتُنه فى خصب من الأرض يأكلن بُهمى ، نبتاً له شوك تكلف به الحمر وتصلح عليه ، بُهمى شديدة الخضرة ، تضرب إلى السواد لكثرة ما ارتوتْ ، وعليها أصبحت الأتن سمينة شبعى ، ظماء دائماً إلى الماء ، حتى فى الغداة الباردة . فإذا عطشت أوردها الحمار ماء خالياً لا أنيس به ، طلباً للأمن وحذراً من الصيَّادين ، فإذا انطلقت سحقت الحصا سحْقاً ، لصلابة حوافرها ، حوافر ملساء شديدة قوية ، لسيقان ليست بقصــار ولا معرة ، ذهب ما حولها من الشعر وكأن أعالى أذنابها وما يتفرّع من شعرها حمائل جفون سيف موشاة :

غشيتُ ديــارَ الحىِّ بالبَكرَاتِ   فعارمةٍ ، فبُرْقـــةَ العِيَرَاتِ [١]
فَغولٍ ، فحليتٍ ، فَنفْءٍ ، فَمَنْعِجٍ   إلى عاقلٍ ، فالجُبِّ ذى الأمراتِ [٢]
ظَلِلتُ ردائى فـــوق رأسى قاعـداً   أعدُّ الحصَى مــا تَنْقضى عبراتى [٣]
أُعَنِّى على التّهمـــامِ والذِّكرَات   يَبِتْنَ على ذى الهمِّ معْتكرات [٤]

---

(١) البكرات وعارمة وبرقة : أسماء أمكنة .
(٢) الكلمات فى البيت كلها أسماء مواضع .
(٣) العبرات : الدموع .
(٤) التهمام : مقاساة الهموم – معتكرات : دائمات .

بِلَيــلِ التِّمامِ أو وُصِلْــنَ بِمِثْلِـهِ   مُقايَسَةً أيّامُهــا نَكِرات (١)
كــأنى وَرِدْفى والقِــرابَ ونُمْرُقى   على ظَهْرِ عَيْرٍ واردِ الخَبَرات (٢)
أرَنَّ عَلَى حُقْبٍ حِيــالٍ طروقــةٍ   كذَوْد الأَجير الأربع الأَشِرَات (٣)
عنيفٍ بتجْميعِ الضَّرائرِ فاحشٍ   شتيمٍ كذلْقِ الزُّجِّ ذى ذَمَرات (٤)
ويأكلْــنَ بُهمَى جَعْــدةً حبشيّةً   ويشربْن بَرْدَ الماءِ فى السَّبَرات (٥)
فأوردَهــا مــاءً قليلاً أنيسُهُ   يحاذِرْنَ عمــرا صاحب القُتُرات (٦)
تلتُّ الحَصى لتًّــا بسُمْرٍ رَزينــةٍ   مَوَارِن لا كُزْمٍ ولا مَعِرَات (٧)
ويُرْخِينَ أذْنابــاً كأنّ فروعَهــا   عُــرَا خِلَلٍ مَشْهُورةٍ ضَفِرات (٨)

فإذا مضينا معه إلى مقدمة القصيدة السادسة وجدناه يتساءل : لمن الطلل دارسا خفيتْ آثاره ، فلا يرى منه إلاّ ما يرى من حروف كتبت فى عسيب يمانى ، إنى أعرفه ويثير أحزانى ، هنا كانت هند ، وصويحباتها ، الرباب وفرتنى ، ينزلن هذا الوادى من « بدلان » ، كانت ليالىَ أستجيب فيها لهواى ، وعيون صاحباتى دائمــات النظر إلىّ فى سكون ، كلفات بى ، لا يرسلن أبصارهن إلى غيرى . ولئن أصابنى الدهر بمكروه ، فما أكثر الأمور المبهمة لا يهتدى لها ، كشفتُ حقيقتها وأبنتُ صوابها ، حين يشكل الأمر على الجبان فيغبّر وجهه حيرةً وغمًّا .

وفى حِدَّةِ الكرب ألوذ بالموسيقا ، فربَّ جارية مغنيِّة منعَّمة جعلتها تضرب بالعود ،

---

(١) ليل التمام : أطول الليل – نكرات : شديدات .

(٢) القراب : غمد السيف – النمرق . الوسادة – الخبرات : جمع خبرة ، قاع يحبس الماء وينبت السدر.

(٣) أرن : صاح – حقب : جمع حقباء ، البيضاء العجز ، حيال : جمع حائل ، وهى التى لم تحمل – الطروقة : التى يضربها الفحل – الأشرات : جمع أشرة ، المتبطرات .

(٤) ذلق الزج : حد الرمح – ذى ذمرات : يذمرهن ويزجرهن مرة بعد مره .

(٥) البهمى : نبت له شوك تكلف به الحمير – حبشية : شديدة الخضرة تضرب إلى السواد – السبرات : جمع سبرة . الغداة الباردة .

(٦) عمرو : رجل صائد من أرمى العرب – القترات جمع قترة ، وهومكان الصائد الذى يختفى فيه .

(٧) موارن : جمع مرانة ، الشدة مع الملامسة – كزم : قصار منقبضة – المعرات : التى ذهب ما حولها من الشعر .

(٨) عرا خلل : حمائل جفون السيف .

الرواية هنا ضفرات ، أى مضفورة ، وثمة رواية أخرى صفرات أى خالية من النصال .

عود رقيق رفيع الصوت فيه بحّه ، إذا حرّكت يديها عليه ، وتناثرت أنغامه ، كانت فى رقتها وجمالها أكثر تأثيراً وأعلى صوتاً من هذا الجيش على كثرته وضجيجه .

ورب غارة شهدتها على فرس ضامر لين العطف ، سريع العدو ، حثيث الركض ، إذا قدته تثنى لِلينه كعرق بنت الرُّخامَى ، ريّان منتعشا تنزّلَ عليه المطر ، فراح يهتز ويتمايل مع قطراته الساقطة .

كل شيء ذاهب فى هذه الدنيا ، يأتى ويمضى ثم يفنى ، فتزوَّد من متعها ما استطعت ، من خمورها ونسائها ، نساء بيض كالآرام ، أو سمراوات كالدُّمى ، طوال الأعناق ، ضامرات الخصور ، من المحصنات العفيفات ، أو من المتبرجات المثيرات يعترضن الرجال بزينتهن :

لمــن طَلَلٌ أبصرتُــهُ فشجانى	كخطِّ زَبــورٍ فى عيسبٍ يمانى
ديــارٌ لهنــدٍ والرَّبـاب وفَرْتَنى	ليالينــا بالنَّعفِ مــن بدلان(١)
ليالىَ يدعــونى الهــوى فأجيبُه	وأعْيُنُ مَن أَهْوَى إلىّ رَوان(٢)
فإنْ أُمسِ مَكْروباً فيارُبَّ بُهمةٍ	كشفتُ إذا ما اسودَّ وجهُ الجبان(٣)
وإنْ أُمس مكروباً فياربَّ قَيْنَــةٍ	مُنَعَّمةٍ أَعْمَلْتُهــا بكِــران(٤)
لهــا مِزْهَرٌ يعلو الخميسَ بصوْتِــه	أَجَشُّ إذا ما حرَّكَتْه اليــدان(٥)
وإنْ أُمس مكروبــاً فياربّ غارةٍ	شهِدْتُ على أَقَبَّ ، رِخوِ اللبان(٦)
على رَبِذٍ يزدادُ عفــوًا إذا جــرى	مِسَحّ حَثيثِ الرَّكْضِ والذَّألاَن(٧)
ويَخْدِى على صُمٍّ صِلابٍ مَلاطِسٍ	شديداتِ عَقْدٍ ، لينات مِتــان(٨)
وغَيْثٍ مِن الوَسْمىِّ حُــوٍّ تِلاعُــهُ	تَبَطَّنْتُــه بِشَيْظَم الصَّلَتانِ(٩)

---

(١) النعف : ما انحدر من الجبل وارتفع عن الوادى – بدلان : اسم موضع .

(٢) روان : جمع رانية ، ورنا أدام النظر. (٣) بهمة : مبهم من الأمر .

(٤) القينة : الجارية الضاربة بالعود المغنية ، وقد تطلق على الأمة – الكـران : العود الذى يضرب به .

(٥) الخميس : الجيش – أجش : فيه بحة .

(٦) الأقب : الضامر البطن من الخيل – رخو اللبان : لين العطف .

(٧) ربذ : الذى يرفع قوائمه ويضعها فى سرعة – العفو : الجرى على غير مشقة وتكلف – الذالان : سرعة السير .

(٨) يخدى : يسير سريعاً – الصم : الحوافر – ملاطس : مكسرات للحجارة .

(٩) الحوة : لون يضرب إلى السواد – التلاع : نبات – الشيظم : الطويل – الصلتان : القصير الشعر .

مِكَرّ مِفَرٍّ ، مُقْبلٍ مُدْبـرٍ معَـا كَتَيْس ظِباء الحُلّبِ العَدَوان (١)
إذا ما جَنَبْنـاهُ تأوّدَ مَتْنُـهُ كعِرْق الرُّخامى اهْتزّ فى الهَطَلان (٢)
تمتَّعْ مـن الدنيـا فإنّك فـانٍ من النَّشوات والنساء الحِسان (٣)
من البيض كالآرام ، والأدْم كالدُّمَى حَواصِنُهـا ، والمُبْرقات الرَّوانى (٤)

فى القصيدة السابعة أحسّ بالضياع لأنّ قلبه غير قادر على صبْر الأحرار ، ولا نازع عما هو عليه من الجزع ، فيتيح له هدوءاً واستقراراً . ومقهور القلب والفكر أخذ يسلى نفسه ، إن الدّهر حوّل قُلّب ، يتغيّر بتعاقب لياليه وأيامه ، لا يدوم على حال ولا يُبقى على قرار ، والليالى الدافئة التى نعم بها فى سالف أيامه ، بين قبيلة طيّئْ ، بأرضها المُصلحة من « مُحَجَّر » ، أحب إليه من لياليه القارة الحاضرة .

وما دام الحاضر قد شقّ عليه ، فلا بأس أن يستدرج نفسه إلى الماضى ، يستردّ منه ذكرياته ، ويتحدث عن لياليه مع هِرّ وفَرْتَنى ، فما أكثر ما شرب الخمر المعتّقة عندهما فى الصباح المبكّر ، منذ كان وليداً فتيا ، وذهبتْ هر بشبابه ، وكان إذا قبّلها وجد فاها طيب الرائحة ، ورُضابها لذيذ الطعم كخمرمستوردة . عيونهما جميلة حالمة فاترة ، كنعجتين من نعاج « تبالة » ، تحنوان على ولديهما ، تتأمّلانهما حبًّا ، وترقبانهما حرصاً ، وهما فى تناسق قوامهما كبعض تماثيل دُمى هَكِر ، ورائحتهما طيبة ، منعمّات ينتشر المسك عند أقل حركة منهما ، كما لو كانت نسيم الصَّبا هبّتْ تحمل أريج بخور طيّب :

لَعَمْرُكَ ما قلبى إلى أهله بِحُـرْ ولا مُقْصِراً يوماً فيأتينى بِقُرّْ (٥)
ألاَ إنّمـا الدَّهـرُ ليالٍ وأَعْصُرُ وليس على شىء قويم بِمُسْتمِرْ

---

(١) التيس : الفحل – الحلب : نبات ترعاه الظباء – العدوان : الشديد العدو .

(٢) جنبناه : جنب الفرس قاده دون أن يركبه – تأود : تثنى – الرخامى : نبت له عروق ناعمة تنبت على وجه الأرض .

(٣) النشوات : جمع نشوة ، وهى السكر .

(٤) الأدم : اللائى يضربن إلى السمرة – الحواصن : العفيفات – المبرقات : اللائى يبرقن للرجال ، ويبرزن حليهن ومحاسنهن – الروانى : الدائمات النظر .

(٥) القر : الاستقرار .

ليالٍ بذاتِ الطَّلْح عنـــد مُحَجَّرٍ أحبُّ إلينا من ليالٍ على أقُرْ [١]
أغادى الصبّوحَ عند هرٍ وفَرْتَنَى وليداً ، وهل أفنىَ شبابى غَيرُ هِرّ [٢]
إذا ذُقتُ فاها قلتُ : طعم مُدامةٍ معتّقةٍ ، ممـــا يجىء به التُّجُـرْ [٣]
همـــا نعجتـــان من نعـــاج تبالـــةٍ لدى جُؤْذُرَيْن ، أوكبعض دُمى هَكرْ [٤]
إذا قامتـــا تضوّع المِسْكَ منهمـــا نسيمَ الصَّبا جاءتْ بريح من القُطُر [٥]

فى القصيدة الثامنة وجد الديار تغيرت فلم يستطع أن يهتدى إليها بدءاً ، فتساءل لمن هى ؟ ثم أعطى لها تحديداً جغرافيًّا دقيقاً ، يتمثل فى عدد من أسماء الأمكنة التى عاش بها يوماً ، فهى بين سُحام وعمـايتين ، وذى أقدام ، وصفا الأطيط ، وصاحتين ، وغاضر ، أماكن فارقها آهلوها ، فأصبحت منزلا للنعـاج والآرام . إنها ديار هند والرباب وفرتنى ولميس ، كنا هنا قبل أن تباعد بيننا نوازل الدهر ، اعطفا معى يا رفيقىّ على أطلال أمسى الذاهب نبكيها ، كما بكى ابن خذام قبلى أطلاله . إنها ذكريات تعيش فى أعماق حية متحركة ، وأكاد ألمح قوافلهن ترتفع عليها الهوادج ، مختلفة الألوان كنخل حان صرامه ، فيهن نساء بيض الوجوه ، نواعم الأجسام ، آسرات العيون ، يكثرن من التطيب بالعبير . ويجوس خلال الديار ، حائر الفكر ، موزع القلب ، تختلط فى مشاعره مباهج الأمس مع حرمان اليوم ، وتتداخل ذكريات الماضى مع أشواق الحاضر ، وهو بها ثمل وضائع ، كنشوان احتسى خمراً فى صباح مبكر ، خمراً معتقة ، كرومها فى « شِبام » ، أو عصرت فى « عانة » ، ولونها كدم الغزال ، فهى من أطيب أنواع الخمر ، ما يكاد يحتسيها الشارب حتى يذهب عقله ، وينعقد لسانه ، فيخلط فى كلامه ، كأنه مصاب فى بدنه :

لِمَنِ الديارُ غَشيتُهـــا بِسُحـــامِ فَعَمـــايَتَيْن فَهَضْبِ ذى أقْدام [٦]

---

(١) ذات الطلح : أرض فيها شجر الطلح – محجر : موضع ببلاد طيئ .
(٢) هر وفرتنى : جاريتان – الصبوح : شرب الغداة ، وعكسه الغبوق شرب العشى .
(٣) المدامة : الخمر المعتقة – التجر : جمع تاجر . تجار الخمر .
(٤) تبالة . اسم مدينة انظر هامش رقم ١ . ص ٨٠ من هذا الكتاب .
جؤذرين : ولد البقرة الوحشية – هكر : مدينة فى اليمن .
(٥) القطر : عود البخور .
(٦) سحام : اسم موضع – عمايتان : جبلان – الهضب : جمع هضبة ، قطعة مرتفعة من الجبل – ذوأقدام : جبل .

فصفَا الأطِيطِ فَصاحَتين فَغاضِرٍ ... تمشى النِّعاج بهـا مع الأرآم[١]
دارٌ لهنـد والرَّبابِ وفَـرْتَنَى ... ولَمِيسَ قبـل حوادثِ الأيّـام
عُـوجا على الطّلَل المَحِيلِ لعلّنـا ... نبكى الدِّيـار كما بكى ابنُ خِذام[٢]
أَوَ ما تَـرَى أَظْعَانَهُـنّ بواكِـراً ... كالنخل من شَوْكانَ حين صِرام[٣]
حُـورٌ تُعلل بالعبِير جُلودُهـا ... بيضُ الوجوهِ ، نواعمُ الأجسام
فَظلِلْتُ فى دِمَـن الديـار كأننى ... نشوانُ باكَـرَهُ صَبُوحُ مُدامِ
أُنُفٌ كلوْن دمِ الغـزالِ معتّقٌ ... مِنْ خمْر عانَة أو كُرُومِ شِبامِ[٤]
وكأن شاربَهـا ، أصـاب لسانَهُ ... مُومٌ ، يُخالِطُ جسمَهُ بسقام[٥]

فى القصيدة التاسعة حيا الربع ، ورجاه أن يتكلم ، وأن يكون صادقاً معه فيقصّ له حديث الركبان الذين كانوا ومضوْا . حدِّثْنا : كيف رحلوا يوما ذات ليل ، تبدو ظعائنهم عبر الظلام كنخل غير مثمر ، وفوق الإبل هوادج ضمّتْ نساء على حشايا طرية ، تحيط بهن ستائر منمقة مما ينسج فى العراق ، نساء جميلات تطيّبْن بمِسك وزَنْبق ، صحبتهنّ فى رحيلهن بناظرَىَّ حتى حالت بينى وبينهن رمال عَالية ، تناثرت عليها أشجار من آلاءِ وشِبرِق ، يقصدن « العقيق » أو ثنية مُطْرق ، فلما ضعن وراءها رحلتُ أنا الآخر على ناقة موثقة الخلق ، كبنيان اليهودى خيفق :

أَلاَ انعَم صباحاً أيُّهـا الربْـعُ وانطـقِ ... وحدِّثْ حديث الركبِ إنْ شئتَ فاصدُقِ
وحدِّثْ بأنْ زالتْ بليـلٍ حُمُولُهُـمْ ... كنَخْلٍ من الأعْراضِ غير مُنَبَّقِ[٦]
جعلْنَ حَوايـا واقْتَعـدْن قعائـدا ... وَحَفّفْنَ مِنْ حَوْكِ العراقِ المَنمَّق[٧]
وفوْق الحَـوايا غِـزْلَةٌ وجـآذرٌ ... تَضَمَّخْنَ مِن مِسك ذَكِىٍّ وَزَنْبَقِ[٨]

---

(١) صفا الأطيط وصاحتان وغاضر : كلها مواضع .

(٢) المحيل : الذى أتى عليه حول فتغير.

(٣) شوكان : موضع كثير النخل – صرام : صرم الشىء قطعه ، وصرام النخل جنى ثمره .

(٤) أنف : مستأنفة أول ما فتقت وأخرجت من الدن – عانة : قرية بالجزيرة – شبام : قرية .

(٥) موم : علة يهذى فيها .

(٦) الأعراض : الأودية – غير منبق : غير مزه ، لم يخرج ثمره بعد .

(٧) الحوايا : جمع حوية ، مركب من مراكب النساء .

(٨) غزلة : جمع غزال – جآذر : جمع جؤذر ، ولد البقرة الوحشية .

فأتبعتُهمْ طرْفى وقد حال دُونهم غوارِبُ رملٍ ذى ألآءٍ وشِبرِق (١)
على إثرِ حىٍّ عامدين لنيَّةٍ فحلّوا العقيقَ أو ثنيةَ مُطرِق (٢)
فعزّيتُ نفسى حين باتوا بِجَسْرةٍ أمونٍ كبنيان اليهودىّ خَيْفَقٍ (٣)

فى القصيدة العاشرة دعا رفيقيه إلى استعادة ذكريات أحبّائه ، والوقوف بمنازلهم والتعرّف عليها ، وقد تغيرتْ ودرستْ معالمها . تعاورتها السنون ، وبَعَد بها الزمن ، فتغيرت رسومها وعفت آثارها ، وأصبحت الكتابَ خفاء ودقة ، إنها تذكّرنى الحىّ بأجمعه ، وتهيج بقايا ألم فى الفؤاد لا أستطيع له كتماناً ، ومعها تسحّ دموعى ، وتهطل على ردائى ، كما تنساب المياه من قربة الراوية ذات خروق ورقع :

قفا نبكِ مِن ذكرى حبيبٍ وعرْفانِ ورسمٍ عفتْ آياتُه منذُ أزمانِ
أتتْ حججٌ بَعدى عليها فأصبحتْ كخطِّ زبورٍ فى مصاحف رُهبانِ
ذكرت بها الحىّ الجميع فهيَّجتْ عَقابيلُ سُقمٍ عن ضميرٍ وأشجانِ (٤)
فسحّتْ دموعى فى الرّداء كأنها كُلًى من شَعيبٍ ذات سحٍّ وتهتانِ (٥)

ولدينا ثلاث بقايا لمقدّمات طللية ، اثنتان فى بيتين وواحدة فى ثلاثة أبيات . أقول بقايا لأنها تغاير ما درج عليه امرؤ القيس من مقدمات طويلة ، ذات نظم فنى دقيق ، يفيض حيوية وقوة وتصويرا .

فالمقدمة ذات ثلاثة الأبيات لا يسترجع فيها ذكريات ولا يبكى أحِبَّة ، إنما يتجه هو ورفيقاه إلى الربع ، يناديه فلا يجيبه ، كأنه يكلم أخرس ، لو كانت الدار عامرة كعهده بها ، لوجد عند قطّانها مقيلا فى الهاجرة ، وسكناً فى الليل ، لكن أحداً لا يرد عليه ، ولا يكاد يصدق نفسه أنها خالية ، ربما لا يردّون عليه لأنّهم ينكرونه ، فقدّم لهم ماضيه بين يديه برهاناً : أنا ذلكم الذى رافقكم يوماً فى مرابع « غَوْل » و « ألعس » :

---

(١) غوارب : أوائل – الألاء والشبرق : اسما شجر .

(٢) العقيق : اسم مكان – مطرق : اسم واد .

(٣) الجسرة : الناقة – الأمون : القوية – خيفق : طويلة .

(٤) العقابيل : البقايا ، ولا واحد لها .

(٥) الشعيب : المزادة ، الراوية : القربة ، وكلاهما رقع تكون فى أصول عراها – التهتان : سيلان الماء ، أو المطر الخفيف .

ألِمَّــا على الربــع القديم بعَسعسا كأنِّى أُنادى أو أُكلِّمُ أخرسا[١]
فلو أنّ أهــلَ الدار فيهــا كعهدِنا وجدتْ مقيلا عنــدهم ومُعرّسا[٢]
فلا تُنكرونى إنّنى أنا ذاكمُ ليالىَ حل الحىُّ غوْلا فألعسا[٣]

واللتان من بيتين جاءت إحداهما مطلع قصيدة يهدد فيها بطوناً من بنى أسد ، ويبدؤها منادياً ديار ماوية ، بين الحائب والسَّهْب ، والخبتيْن من عاقل . ويُسائلها : لم صمَّ صداها فلا تسمع ، وعفا رسمها فلا تُرى ، واستعجمتْ فلا تجيب :

يا دار ماويّـــــةَ بالحــائلِ فالسَّهْبِ فالخَبتيْن مــن عاقلِ[٤]
صُمَّ صَداهـــا ، وعفا رَسمُهــا واستَعْجمتْ عن منطق السائلِ[٥]

وفى الثانية يسائل ماوية أيضاً ، أهى مقيمة على وصاله ، فينزل بديارها ساعة من ليل ليلقاها ، أم اختارت القطيعة فيمضى فى طريقه ، ويتوجه إليها أن تبين عما فى ضميرها ، فنى بيانه راحة لنفسه القلقة ، وقلبه الموزّع ، حتى ولو كان الأمر قطيعة :

أماوىّ ! هل عندكم من مُعرَّسٍ أم الصَّرْم تختارين بالوصلِ نيئس[٦]
أَبينى لنــا ، إن الصريمــةَ راحةٌ من الشك ذى المخلوجةِ المتلبِّس[٧]

ما بواعث نشأة المقدمات الطللية وأطوارها التى مرّت بها ؟ لم يصل النقد الأدبى المعاصر إلى كلمة فاصلة فى هذه القضية ، لأننا نفتقد الكثير من العناصر التى تهيئ لنا أن نكوّن فيها رأياً علميًّا محدداً وقاطعاً .

كان للنقاد العرب القدامى رأى أوضحه ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » يقول :

« سمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أنّ مُقصِّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمن والآثار ، فبكىَ وشكا ، وخاطب الرَّبع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً

(١) عسس : اسم موضع .
(٢) معرسا : التعريس النزول ليلا للاستراحة .
(٣) غول وألعس : موضعان .
(٤) الحائل ، والسهب ، والخبتان ، وعاقل : أسماء مواضع .
(٥) استعجمت : لم تتكلم ، ولم تحر جواباً .
(٦) المعرس : من التعريس ، وهو نزول المسافر ساعة من الليل ليستريح — الصرم : القطع والهجر .
(٧) المتلبس : المختلط ، المشكل .

لذكْر أهلها الظاعنين ، إذ كان نازلةُ العمَدِ [١] فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نَازلةُ المدَر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميلَ نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ،وضارباً فيه بسهم حلال أوحرام . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع ، عقّب بإيجاب الحقوق ، فرحل فى شعره ، وشكا النَّصب والسهر ، وسُرَى الليل وحرّ الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير » .

وأورد ابن رشيق القيروانى فى كتابه « العمدة » إشارات لعدد من الشعراء وتعليقا له عليها ، يفهم منها فى مجموعها رأيه ورأيهم فى نشأة المقدمات . يقول : « سُئل ذو الرمة : كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر ؟ فقال : كيف ينقفل دونى وعندى مفاتيحه ، قيل له : وعنه سألناكَ ، ما هو؟ قال الخلوة بذكر الأحباب » . ويعقب ابن رشيق على ذلك : « فهذا لأنّه عاشق ، ولعمرى أنّه إذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ، ووضع رجله فى الرّكاب » . على أنَّ ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، وإنما كان واصف أطلال ، ونادب أظعان . وهو الذى أخرجه عن طبقة الفحول .

وقيل لكُثير عزة : كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال « أطوف فى الرباع المحيلة ، والرياض المعشبة ، فيسهل علىّ أرصنه ، ويسرع إلىّ أحسنه » .

وكلهم حام حول المعنى ولم يقع عليه ، فليست المقدمة الطللية فى نشأتها عملا مفتعلا تمهّد لما بعدها ، ولا تكلُّفاً يمسك به الشاعر ليقدح قريحته فتواتيه . إنها ، فيما يبدو ، أقدم عناصر القصيدة الجاهلية ، بقايا نظام ضارب فى القدم ، ضاعت مراحل تدرُّجه ويعسر علينا الآن أن ندركِ تطوّره ، والزمن الذى مرّ به قبل أن يبلغ صورته الأخيرة التى وصلنا عليها .

---

(١) نازلة العمد : هم أصحاب الأبنية الرفيعة .

ودرج الكثير من النقّاد ، فى القديم والحديث ، على اعتبار المقدّمة الطللية غزلا ، أو تمهيداً يسبقه ، وأراها نابعة من شيء آخر ، يمكن أن أسميه الحنين إلى الوطن ، ولئن ارتبط الحنين فى عصرنا الحاضر بوطن محدد ثابت تتعلق به مشاعر المواطن ، فقد كان فى حياة الفرد العربى وطناً متجدِّداً متغيِّراً . كل واد يهبطه يتعلق به وله فيه ذكريات ، كل منزل يألفه يلتقط منه مشاعر مغايرة ، كل رحلة يقطعها ترهف وجدانه بجديد من الأحاسيس والحياة والناس ، فكان الشاعر يعانى تمزّقاً نفسياً لا يشعر معه بالطمأنينة ، ويجد تلذُّذاً وعزاء وسلوى فى تذكر أحداث الماضى . كانت حياته كلها رحلة ، وعبرها كان يغيِّر طريقه أكثر من مرة ، وأحيانا دون أن يعرف إلى أين وفِيمَ ؟ .

والشيء الذى يميز الشاعر عن غيره قدرته على استرجاع الماضى ، استرجاعه وليس اكتنازه ، فمن الناس من يتمتع بذاكرة قوية ، يعجز معها الزمن عن محو شيء من مخزونها ، لكن ذاكرة الشاعر هى التى تفيد عن هذه الموهبة ، لأنه قادر على أن يبعث التجربة بحرية ، والقدرة هنا لا تعنى تذكّره تاريخ حدوثها وكيفيته فحسب ، وإنما تعنى القدرة على استرجاع الحالة الشعورية الخاصة بها .

فالبكاء على الأطلال ثمرة البيئة المتنقلة ، وهذا الجزء من القصيدة العربية يبدو أكثرها ترابطاً وتماسكاً . لأنه يقوم على معان ممسك بعضها برقاب بعض ، وَينتهى بعضها إلى بعض ، فالوقوف على الأطلال يدعو إلى تحديدها ، وتحديدها يستدعى وصف ما به تعرف ، والاستغراق فى تأمّلها يقود إلى مقارنتها بالحاضر الذى آلت إليه ، وما فعلت بها الرياح والأمطار وتعاور الليل والنهار .

ومن هنا لست أعد المقدمة الطللية وما يتصل بها من ذكر الأحبَّة غزلا ، فليس من الغزل فى شيء أن يقف الإنسان بمكان عاش فيه من قبل ، فحنّ إليه ، ووقف يسترجع ذكريات له تصرّمت ، ويلهب مشاعره بوصال طواه الزمن ، ويتلهف على أمس قد يعود وقد لا يعود ، ويتأسّى بذكريات كانت جميلة ، يفعل ذلك فى سن فتية يحنّ معها إلى المرأة ، ويفعله فى سنّ متقدمة لا تمثل فيها المرأة معه من المعانى ، إلاّ أمًّا تصنع الرجال ، وامتداداً إنسانيًّا يلطِّف حدة الحياة ، ورفقة طيبة تدفع وحشة الطريق ، وَليس ذلك من الغزل فى شيء ، حسيًّا ماديًّا كما عاشه شعراء الجاهلية ،

أو عذريًّا أفلاطونياً كما عبّر عنه بعض أخلافهم فيما بعد .

وذكريات امرئ القيس وأطلاله وليدة دفع عاطفي ، كان صاحبها يحن إلى أمسه فعلا ، ويشتاق إليه ، ويرجوه أن يعود ، وهي عواطف رغم بيئتها المحدودة ، ومن تكرار بعض صورها ، ذات ملامح إنسانية عميقة ، لا نكاد نفهما حتى نقف عندها ، ولا نكاد نقف عندها حتى نتجاوب معها ، ونفكر فيها ، وتتحول إلى واقع مجسَّم نتصوره ونعايش صاحبه ونلتقي معه ، نفرح له أو نأسى عليه ، لأنه يعبّر عن لون من الفراق كلنا نعيشه في صورة أو أخرى . فالموت فراق الحياة ، والفقر فراق الغنى ، والشقاء فراق السعادة ، والرحيل فراق الأهل والأحبَّة ، والعالم في حركته اليومية زاخر بألوان من المفارقات . ويضيق المرء ببعض الأسماء ، تثقل على أذنه ، ويضطرب معها لسانه ، فإذا تجاوزها إلى ما هو سهل وموسيقي ونافع ، تخلّت عنه الوحش التي يحسُّها ، وترسَّبتْ في وجدانه تجربة الشاعر ، فيمد ذاكرته إلى شعره يغترف منه ، للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها ، إذا لم يكن قادراً على إبرازها في الشكل الذي يريد .

والمرأة في جانبها النفسي أكثر وضوحاً في شعر الأطلال منها في شعر الغزل عند امرئ القيس ، لأنه فيها لا يلاحقها كياناً ماديًّا يصف دقائقه ، وإنما يعرض لها معنى إنسانيًّا يأسى لفراقه ، ويحزن لرحيله ، وتمتلئ عينه بالدموع عند تذكر هذه اللحظات ، وقلما يتجاوز ذلك أو يتخلى عنه ، فإذا فعل فلكي يقول عنها إنها طيبة الرائحة ، موشاة الثياب . والحديث عنها في المقدمة طبيعي يقتضيه صدق الانفعال واكتمال الصورة ، وليس إقحاماً لها في غير موضع ، ليُقال عنها كلام يمكن أن يقوله الشاعر في غير هذا المكان .

لقد رأى الشاعر الأطلال ، فأوّل ما يستردّ عنها من ذاكرته أجمل ما كان فيها ، وفي حياة صحراوية قاسية ، ومجتمع بدوي جافّ ، تصبح المرأة أرقّ وأجمل ما فيه . ومشاهد التحمُّل آخر ما رأى من مناظر أحبّته ، فهو يتبعهم حيثما ساروا ، وإلى أين اتجهوا ، ويعقب وصف هذه المشاهد تحديد الأطلال ، ولكنها لا تأتي في كل المقدّمات .

يصدر الشاعر الجاهلي في بكائه للأطلال ، وتصويره لأحزان الوداع ، عن عاطفة ذات جانب إنساني عام ، يشارك فيه الناس جميعاً في كل عصر وبيئة ، لأنه يتصل

بأعمق مشاعر الفرد وأصدقها ، من الحب والصداقة والوفاء ، ويرتبط بماضيه وحاضره ، بأمسه ويومه ، بإخفاقه ونجاحه ، والعاطفة فيه جانب جوهرى وأصيل ، وليست زينة تأتى مكملة وتابعة ، وهى – بكاء الأطلال – قبل ذلك وفوقه تعكس ارتباط الإنسان بأهم شيئين : الأرض والحياة !

وهذا الارتباط لا يتجه إليه الشاعر مباشرة ، وإنما يعبّر عنه إيحاء ، مختفياً وراء ستار رقيق أو صفيق من أسماء الأمكنة والمواضع والأشخاص ، رموز تضيع مع اندماجنا فى تجربة الشاعر ، فيبقى لنا منها ما وراءها وما ترمز إليه ، وتسقط معها الملامح الجغرافية المحدودة ، وتظلّ للتجربة أصالتها وشمولها ، يقرؤها الناس فيسعدون بها ويعجبون فى كل مكان ، وعلى كل لسان !

وامرؤ القيس فى مقدماته أوضح ما يكون شاعراً فنّاناً ، وتتجلى فنيته فيما يتأرجح فيه بين الحزن القاتل والرجاء المؤمّل ، يبكى ويجد فى البكاء شفاءه ، يعتصم بالرّبع ثم لا يعوِّل عليه ، ييأس ويلوذ بالصبر ، يعتصم بالصبر ثم يجد أن لا فائدة فيه ، يسائل الأحجار عساها تتكلم ، ثم يردّ بأنها صمّ صلاب فما عساها أن تقول . والحيرة والتأرجح انعكاس صادق لعاطفة رهيفة وحسّاسة ، فما من عاطفة تحتوى المعنى فى أبعد أعماقه وأصدقها تلتزم خطًّا واحداً فى الحياة ، من التزام الحزن أو العزوف عنه ، من انكباب على اللهو دائماً أو تسريحه أبداً ، وقصارى ما تستطيعه أن يرجح فيها أحد الجانبين ، وربما تشقى بالجانب الذى شالت كفّته ، أكثر مما تسعد بالجانب الذى رجحت موازينه .

وإذا كانت العاطفة فى المقدمات أصلاً تصدر عنه ، وتجعل منها شعراً إنسانيًّا رفيعاً ، فهى فى الوقت نفسه ، وتلك آية صدق وأصالة ، تعكس فى المادة التى صُوِّرت بها البيئة حولها ، بكل ما فيها من تقاليد ومثل وشجر وحيوان . والشاعر صادق فى ذلك ، لا يتكلف فى صناعته ، ولا يغرق فى صوره ، ولا يخرج بها عن دائرة التصوّر المقبول إلى الغلوّ المحال ، ولا يفتعلها ينحتها من الخيال ، فمهابط امرئ القيس ومنازله ، مرّ بها وخبرها وتحدث فيها ، فهو لا يتكلم عن أطلال وصفها من بعيد ، ولا يستمدّ معارفه عنها من حكايات القصاص ، أو ثرثرة الحدأة . وكان فى ذلك كله

دقيقاً ، ذكر الذين أفسحوا له من قلوبهم مكاناً ، والذين أداروا له ظهورهم إعراضاً ، حتى مباذله فى ميعة الصبا ، حين اقتضى المقام ذكَرها وأشار إليها ، وهو فى ذلك كله لم يكن مصوراً يرسم من الذاكرة مطمئناً ، وإنما كان فنَّانا يستجيب لدواعى العاطفة منفعلاً .

وكما رأينا ، تتراوح مقدماته ، فيما وصلنا من شعره ، طولاً وقصراً ، أقلها بيتان وأكثرها سبعة عشر ، وأميل إلى أن المقدمات المسرفة فى القصر بقايا مقدمات ضاعت وليست كاملة . وفى المقدمات يحدّد امرؤ القيس المكان غالباً ، والزمن قليلا ، ولحظة التعرف عليه نادراً ، ويعبّر عن خلوّ الديار بسكنى الوحش لها ، ووحش مطمئن يسرح فى الوديان حوله ، ثم يعود إلى منازله مرة أخرى ، ويتحدث عن أثر الرياح فيها ، والنبات الذى عليها ، وإذا تجاوزنا تحديد المكان فإن المشاعرالتى تتلوه لا تجرى على نمط واحد ، وصفَ النساء فى هوادجهن ، وحماراً وحشيًّا يهيج على أُتُنه ، فيعبث بها ، ويقضى منها وطره ، حتى الموسيقى كان لها من مقدماته نصيب ، فذكر قينة مغنية له ، ولم يخصّها بحديثه ، إنما تجاوزها إلى الأنغام نفسها ، فوصف جمالها ورقتها وتأثيرها ، وأنها كانت أعلى صوتا وأبعد أثراً من جيش كثير العدد ذى ضجيج .

عاشق المرأة

ما تزال مكانة المرأة فى المجتمع الجاهلى مهزوزة الصورة ، لم يقدّر لها القلم الذى يجلوها ، والفكر الذى ينير حوالكها ، مع أنها مفتاح أية دراسة للغزل فى عصوره الأولى ، مادياً أو عُذريًّا ، جاهليًّا أو إسلاميًّا ، والأخطاء التى نقع فيها ونحن ندرسها فى الأدب المتصل بها ، زوجة وأمًّا وحبيبة وشاعرة ، تأتى من نقص هذه الدراسة ، والإشارات القليلة المتصلة بها فى المصادر التاريخية تمدك بالدليل ونقيضه ، وتجدها فيها ملكة تحكم ، وكاهنة تتنبأ ، وشاعرة تشدو ، وناقدة تتذوق الشعر وتُفَصِّل القول فيه ، ونجد من العرب من يُنسب إلى أمّه ويفخر بها كما يفخر الآخرون بالانتساب إلى آبائهم ، فكان عمرو بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ينسب إلى أمه هند ، برغم شهرة أبيه ، وحرّر محمد بن حبيب الراوية رسالة فيمن نُسِب إلى أمه من الشعراء ، ونجدها أيضاً مبغوضة تُوأد ، والأخبار المتّصلة بالوأد مبتورة عن أسبابها غالباً ، والتعليل الذى أُعطِىَ لها جاء فى عصور متأخرّة نسبيا ، ويعكس ذهنية المؤرخين أكثر مما يصور الـواقع فعلاً . ونحن لا نعرف يقيناً ما القبائل التى كانت تمتهن المرأة وتباشر عادة الوأد ، وهل كانت تصدر فى ذلك عن دوافع دينية أو اجتماعية ، أو كان وراءها الاقتصاد محرك التاريخ ؟ وأرجح الدافع الأخير ، لأن بعض الروايات تربط الوأد بالفقر ، أو أن يجىء الولد مُشوَّها ، ولا تفرّق فى ذلك بين الولد والبنت ، بل تتخلّص من أى منهما .

ويبدو لى أن مكانة المرأة كانت تختلف فى البادية عنها فى الحاضرة ، وفى كليهما بمكانها الطبقّى من المجتمع ، وتخضع دائماً لتقاليد تتفاوت من قبيلة إلى أخرى ، تبعاً لبعْد القبيلة عن المؤثرات الخارجية والمراكز الحضارية أو قربها منها . والمرأة كما يصوِّرها الشعر . موطن إعجاب ومناط إجلال ، وحاتم الطائى حين يفخر بكرمه — مثلاً — يتوجه إلى المرأة ظنًّا منه أنّها إن رضيت عنه كفتْه رضا الناس جميعاً ، وإذا رد على ناقديه اختار المرأة محور الحديث ، تسائله ويرد عليها ، وإن لم يكن هناك سؤال ولا جواب :

مَهْلا نَـــوارُ ! أقِلِّي اللَّوْمَ والعذَلاَ ولا تقولى لشىءٍ فاتَ . ما فَعَلا
ولا تقولى لمـــالٍ كنت مَهْلِكَـهُ مهْلاً ، وإن كنتُ أعطى الجنَّ والخبلا
يرى البخيلُ سبيلَ المـال واحــدةً إنّ الجوادَ يـرى فى ماله سُبُلا
لا تَعذِلِينىَ فى مـــالٍ وصلتُ بـه رَحماً ، وخيرُ سبيلِ المال ما وَصَلاَ

ويفخر الشاعر بأنه المدافع عن المرأة ، الحامى لشرفها ، ويخصها بالحديث عندما يعدد فضائله ، وأكاد أجزم بأن المرأة كانت وراء ما نلمسه من ضغط الشاعر الجاهلى دائماً على ألوان من الصفات الشخصية تتصل به ، كأنه يريد أن يقول لها دائماً : ها أنذا . .. أراضية عنى ؟ يقول عنترة :

بكَرتْ تُخَوِّفُنِى الحتــوفَ كأننى أصْبحتُ عن عَرَضِ الحتُوفِ بمعزل
فأجبْتُها : إنَّ المنِيّـــةَ منهـــلٌ لابُدَّ أن أُسْقَى بــذاك المنهلِ
فاقنَىْ حَياءك ، لا أبَالَكِ ، واعْلَمى أنّى امرُؤٌ سأموتُ إنْ لم أقتلِ
إنَّ المنيّـةَ لـوْ تُمثَّــلُ مُثِّلتْ مثلِى إذا نَزَلوا بضنْك المنزِل

وما لدينا من شعر المرأة قليل ، ذهبت به عادات المجتمع . كان الشاعر راوية الشاعر ، وكانت المرأة راوية المرأة ، وما كان لأحدهما أن يكون راوية الآخر فلما انتهت الرواية إلى عصر التدوين ، بدأت مكانة المرأة الحرة تتراجع لتفسح مكانها لطبقة الجوارى والإماء ، وضاع بذهاب مكانتها شعرها ، ولو أن القليل الذى حفظ لنا متناثراً فى كتب الأدب ، يعالج كل فنون الشعر ، ويعبر عن حاجات المرأة الشعورية ، حتى ما اتصل منها بالعاطفة ، تقول أم الضحاك المحاربية فى زوج كانت تحبه فطلقها :

يا أيُّهـا الراكبُ الغــادى لطيَّتِهِ عرِّج أُبَنُّكَ عن بعضِ الذى أجِدُ
ما عالجَ الناسُ مِن وجدٍ تضمّنَهُمْ إلاَّ ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسْبِى رضـــاه وأنى فى مسرّتــهِ وَوُدِّه آخــرَ الأيّـــامِ أجتهـد

ولها أبيات أخرى فى مستوى شعر امرئ القيس ، عدم تحرّج وقلة حياء . وكانت الخنساء تأتى « عكاظ » شاعرة ، تنشد النابغة الذبيانى وتعرض عليه قصائدها ، وتكاد تنتزع لواء الشعر من حسّان بن ثابت . وجاءت السوق عبلة بنت خالد التميمية لاهية ، تأخذ بحظها مما كان يُهيأ فيه من لهو وشراب ، وباعت فى ذلك سمنا وراحلتين لزوجها ،

وعندما نفد ثمنهما رهنت ابن أخيه ، وشربت بثمن ذلك كلّه وهربت :

شِربتُ بِراحلتىْ مِحْجَـنٍ فياوَيْلَتى محجـنُ قاتلى
وبابن أخيـه على لـذَّةٍ ولم أحْتفِل عَذْلَـةَ العاذلِ

وكانت المرأة العربية تجير الهارب ، وحرب البسوس سببها اعتداء كليب بن ربيعة على ناقة سعد الجرمى ، وكان لائذا بالبسُوس ابنة منقذ البكرية ، خالة جَسّاس ابن مُرّة . وكانت تراقب الرجل زوجاً أو ابناً أو أخاً ، تسأله عن أعماله وتناقش تصرُّفاته ، ولها أن تتخذ لنفسها ثروة ، وثريّات مكة لعبْنَ دوراً واضحاً فى تنمية تجارتها ، وكانت خديجة زوج النبى عليه السلام ذات قوافل تعمل بين مكة والشام ، وهؤلاء الثريّات بحكم مصالحهن — مع استثناء خديجة لتزوّجها من الرسول — قاومن الإسلام ، والتزمن الجانب المناوئ له ، حتى انهيار حركة المقاومة القرشيَّة .

وكان عتاب الشعراء للمرأة رقيقاً هامساً ، لا فُحْش فيه ولا اقتحام ، وينادونها بخير الألقاب . ومن الشعر نعرف أنها كانت تبدى رأيها فى زوجها وتستشار . ولدينا إشارة إلى أن المرأة فى كِنْدة كانت ذات إعزاز واضح ، فكان يضرب بغلوّ مَهْرها المثَل ، لأنها لا تزوِّج بناتها بأقلّ من مائة من الإبل ، وربّما أمهرت الواحدة منهن ألفاً ، وكان الرسول عليه السلام يدعو : « اللهمَّ أذْهبْ ملك غسّان ، وضَعْ مُهور كنْدة » .

واحتلّت المرأة فى شعر امرئ القيس مكاناً أهم مما احتلته عند أى شاعر جاهلى آخر ، وعلى نحو تفرَّد به ، فيعرض لها فى ألوان ثلاثة : متذكراً ، ومتأمِّلا ، وماجنا . فى الأولى يأسى على أيّامه الخوالى معها ، ويكوِّن هذا الجانب جزءً من مُقدِّماته الطللية ، ومعها درسناه . وفى الثانية تناولها مخلوقاً جميلاً رقيقاً ، يصفه ويستغرق فى وصفه . وفى الثالثة جعلها مناط مغامراته ، مغامرات قد يكون فيها صادقاً أو صانعاً على نحو ما سنرى بعد قليل . والآن معه ، نرى كيف صوّر المرأة مثلاً أعلى للجمال الإنسانى .

إنها ذات خصر ضامر وسيقان ممتلئة ، لا رهلة ولا مسترخية البطن ، ليست قصيرة ولا مفرطة فى الطول ، ذات نحر يتلألأ صفاء كأنه المرآة ، بياضها مشوب بصفرة ، إذا نظرْتَ إليها صدّتْ حياء وخجلا ، فيبدو خدّها جميلاً أسيلاً بضّا ، وتتقى الناس بعينْين حانيتيْن هما فى سعتهما وصفائهما وجمالهما أشبه بعينْى بقرة وحشية ، طريّة

السنّ من وجرة ، ولها عنق ظبي أبيض ناصع البياض ، ليس بكريه المنظر أو فاحش الطُّول إذا مدَّته ، وليس بعاطل من الحلى إذا عرضته ، وشعر طويل فاحم السواد مرسل على ظهرها ، تداخل بعضه فى بعض لغزارته كقِنْو نخلة ، ارتفعتْ ذوائبه إلى أعلى ، تثنّى بعضه ، وبقِىَ الآخر مرسلاً لم يتثنَّ ، وضاعت ضفائره بين هذا وذاك .

كان خصرها ضامرًا ليِّنا يتثنَّى ، تمشى على ساقين كأنهما فى بياضهما ونعومتهما برديتان أشبِعتا رياً . أما أصابعها فرَخْصة بَضةُ ناعمة ، ليِّنة كبنات « النقَّا » ، دقيقة نقيّة مستوية ، كمساويك صُنِعتْ من شجر الإسْحل ، وضيئة الوجه ، زهراء مشرقة ، إذا ابتسمتْ ليلا شعّت ثناياها بريقاً وضوءاً ، وإذا برزتْ فى الظلام أنار وجهها ، وغلبَ الظلمة ، كأنه سراج راهب اعتزل الناس وعكف على العبادة . وهى مترفة لها من الخدم والحشم ما يكفيها مئونة اليقظة المبكِّرة ، فتبقى فى فراشها حتى يفجأها الضحى ، وبقايا مسك تتناثر فوقه لكثرة ماتملك منه . وروائح طَيبة تشع حوله لما فى جسدها من طيب . هى فى آخر صِباها ، وأوّل شبابها ، إذا ما خطرت ذهبت بلبِّ الحليم ، فصبا إليها وهام بها ، وأدام النظر فيها :

مُهفْهفةٌ بيضـــاءُ غيرُ مُفاضـــةٍ تَرائبُها مصقولـــةٌ كالسَّجَنْجلِ[١]
كبِكْرِ المُقاناةِ البيـــاض بصُفْرَة غذاهـــا نميرُ الماءِ غيرُ المُحلَّلِ[٢]
تَصُدُّ وتُبْـــدِى عن أَسيلٍ وَتتّقى بناظرةٍ مِن وَحْش وَجْرَةَ مُطْفِلِ[٣]
وجيدٍ كجيد الرِّئم ليس بفاحشٍ – إذا هى نصَّتْهُ – ولا بمُعَطَّلِ[٤]
وفَرْعٍ يَزينُ المَتْـنَ أسودَ فاحـمٍ أثيثٍ كَقِنْوِ النَّخلةِ المُتَعَثْكِلِ[٥]

---

(١) المهفهفة . اللطيفة الخصر ، الضامرة البطن – المفاضة : العظيمة البطن ، المسترخية اللحم – الترائب : جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر – السجنجل : المرآة ، مأخوذة من الرومية .

(٢) البكر : البيضة الأولى من بيض النعام ، أى خالط بياضها صفرة – النمير : الماء العذب – غير المحلل : لم ينزل عليه أحد فيكدر .

(٣) تصد : تعرض – أسيل : خد أسيل ، طويل ناعم ممتد – ناظرة : عين ناظرة – وجرة : اسم موضع – مطفل : ذات طفل .

(٤) الجيد : العنق – الرئم : الظبى الخالص البياض – نصته : رفعته – المعطل : المجرد من الحلى .

(٥) الفرع : الشعر – المتن : الظهر – الفاحم : الشديد السواد – أثيث : غزير – القنو : من النخلة كالعنقود من العنب – المتعثكل : المتداخل .

غدائــرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٍ إلى العُــلا ... تَضِلُّ المدارَى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ[١]
وكَشْحٍ لطيفٍ كالجَدِيلِ مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كأنبُوب السَّقِيِّ المُذَلَّلِ[٢]
ويُضْحِي فَتيتُ المسكِ فوقَ فِراشِها ... نؤومُ الضُّحَى ، لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ[٣]
وتعطو بِرَخْصٍ غــيرِ شَثْنٍ كأنّــه ... أَساريعُ ظَبْيٍ أومَساويكُ إِسْحَلِ[٤]
تُضِيءُ الظــلامَ بالعِشاءِ كأنَّها ... منارةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ[٥]
إلى مِثْلِهــا يَرْنُــو الحليمُ صبابةً ... إذا ما اسْبكَرَّتْ بينَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ[٦]

وامرؤ القيس لا يملّ الحديث عن المرأة ، وإنما يمضى معها واصفاً ومصوِّراً ومدققاً حتى مخدعها ، وقد يعود إلى ما أجمله فيفصِّله ، وإلى ما ترك فيستغرقه ، عوْد يجرّه إلى تكرار المعانى ، وإن كان يكسوها فى الأعم الأغلب ثوباً من البيان جديداً . وماذا يهم ؟ إن الحديث عن الجمال لذيذ وممتع حتى ولو كان معاداً ومكروراً .

كان لهوه فى هذه المرة مع آنسة رائعة ، دقيقة التقاسيم ، كأنها تمثال صنعه فنّان على عينه ، وجهها مشرق كالمصباح ، وحلْيها على جيدها لامع متوهج كجمر مصطلٍ ، أوقده بمرتفع من الأرض لقوم قافلين من سفر ، وكان من شجر الغضى ، تختلف عليه الريح فيشتد لهبه ، وكلّما زاده المصطلى تقليباً ازداد اشتعالا . وأسنانها بيضاء ، ناعمة رخصة البدن ، ليّنة ممتلئة ، امتلاء صحة وليس سمنة ولا ترهُّلا ، لعوب تذهب بفؤاد الرجل ، وتنسيه ثوبه إذا قام . ويعطى لامتلائها وتماسك جسمها ولينه صورة بدوية جميلة ، إنَّ عجيزتها تشبه رملا مع لينه ليس بمنهال ولا متناثر ، يلعب

---

(١) الغدائر : جمع غديرة ، وهى الخصلة من الشعر – مستشزرات : مرفوعات – المدارى : جمع مدرى ، الأمشاط .

(٢) الكشح : الخصر – الجديل : الحبل المفتول – المخصر : الدقيق الوسط – الأنبوب : البردى – السّق : صفة للنخل – المذلل : ذلل بالماء فهوريان .

(٣) لم تنتطق : لم تلبس المنطقة ، وهى إزار له حجزة – عن تفضل : أى بعد تفضل ، والتفضل لبس الفضال وهو ثوب واحد يلبس عند النوم .

(٤) تعطو : تتناول – الرخص : اللين الناعم – شثن : غليظ كز – أساريع : جمع أسروع ، وهو دود البقل ، تشبه به أنامل النساء – ظبى : اسم مكان – إسحل : نوع من الشجر ، دقيق الأغصان ، مستويها ، تشبه به الأصابع .

(٥) ممسى : أتى عليه المساء – متبتل : منقطع عن الناس للعبادة – المنارة : السراج .

(٦) يرنو : يديم النظر . اسبكرت : امتدت وتم طولها . الدرع : ثوب تلبسه الشابات . مجول : ثوب تلبسه الصبايا ، أى هى شابة بين الصغيرة والكبيرة .

فوقه وليدان اكتفيا بلين مسّه وسهولته ، غير منتفخة الجانبين أو الخاصرتين ، ولا ممتدة البطن إذا تحرّكتْ ، لا تترك الطيب على بدنها طويلا فتقبح رائحته ، وإذا مالت على ضجيعها ، وقد عرّاها من ثيابها ، صنعت ذلك فى لطف ليّن لا فى جفاء وثقل :

ويارُبَّ يــومٍ قد لهَــوْتُ وليلــةٍ ... بآنسةٍ كأنّهــا خط تمثــال

يُضيءُ الفراشَ وجْهُها لِضجيعِها ... كمصباحِ زيْتٍ فى قناديلِ ذُبّال (١)

كأنَّ على لَبّاتِهــا جمــرَ مُصْطَلٍ ... أصاب غَضىً جزْلاً وكُفَّ بأجْذالِ (٢)

وهبَّتْ لــه ريحٌ بِمُختلفِ الصُّوَى ... صَباً وشمالٌ فى مَنازلِ قفّــالِ (٣)

ومثْلكِ بيضاءِ العوارضِ طَفلَــــةٍ ... لَعوبٍ تُنَسِّينى إذا قمتُ سِرْبالى (٤)

كَحِقْفِ النَّقا يمشى الوليدان فوْقَه ... بما احْتَسَبا من لينِ مسٍّ وتَسْهالِ (٥)

لطيفةِ طَيِّ الكَشْحِ غــيرِ مُفاضَةٍ ... إذا انفتَلَتْ مُرْتَجَّةً غيرَ مِتْفالِ (٦)

إذا ما الضجيعُ ابتزَها مِن ثيابِها ... تَميلُ عليه هَوْنــةً غيرَ مِجبالِ (٧)

وكما وَصَفَ المرأةَ ، أيّة امرأة ، مخلوقة جميلة ، دون أن يعنى واحدة بعينها ترك لنا وصفاً لبعض رفيقاته بأسمائهن ، وصف جاريته هِرّ (٨) . وكيف كانت تصيد الرِّجال ، أفلت منها أبوه ، ووقع هو صريع هواها ، رمته بسهم غداة الرحيل فأصابت منه مقتلا ، وتناثر دمه كقطرات اللؤلؤ ، رقراقاً كالدُّر .

إنها تمشى نشوى ، كثَمِل تقطّعت أنفاسه يطأ كُثباناً من الرّمل ، ملساء مترجرجة ، مشرقة صافية ، فَتِيَّة السنِّ ، رخصة ناعمة ، لِيِّنة كعود باز منفطر ، إذا قامت انتصبتْ على مهلٍ وقاراً وجلالا ، وإذا تكلّمت فقليلا ، وعلى رويّة ، زهواً واعتزازاً ، وإذا

---

(١) الذبال : صانعو الفتائل .

(٢) لباتها : نحرها – المصطلى : المستدفئ – الغضا : شجر جمره يبقى طويلا – الجزل : ما عظم من الحطب ويبس – الأجذال : أصول الشجر ، أى حلق حول الجمر بها .

(٣) الصوى : جمع صوة ، وهى الأكم الصغار – القفال : الراجعون من السفر .

(٤) العوارض : الثغر – طفلة : ناعمة ، رخصة اليدين – السربال : القميص .

(٥) الحقف : ما استدار من الرمل – النقا . ما استدار من الرمل أيضاً .

(٦) الكشح : من الجسم ما بين السرة ووسط الظهر – المفاضة : العظيمة البطن – المرتجة : المهتزة لنعمتها – المتفال : التاركة للطيب حتى تقبح رائحتها .

(٧) ابتزها : خلع عنها ثيابها – الهونة : السهلة اللطيفة – المجبال : العظيمة الخلق .

(٨) انظر الفصل الخاص بسيرة شاعر .

فتَرتْ تكشّفتْ عن أسنان باردة ، فكأنها الخمر تسكر ، أو السحاب يُحيِي ، أو ريح الخزامى تعبق بالعطر ، أو العود يفوح ، وفمها فى الفجر الباكر ، مع صياح الديكة ، بارد طيب الرائحة :

وهرٌّ تصيد قلوبَ الرجالِ ... وأفلتَ منها ابنُ عمرو حُجْرْ
رمتْنِي بسهمٍ أصاب الفؤادَ ... غداةَ الرحيلِ فلم أنتصرْ
فأسبلَ دمعى كفَضٍّ الجُمان ... أو الدُّرِّ رَقْراقِه المُنْحَدِرْ(١)
وإذْ هى تمشِي كمشْى النّزيـ ... ـفِ يصرعُه بالكثيب البُهُرْ(٢)
بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدةٌ رخصةٌ ... كخُرعوبة البانَةِ المُنْفَطِرْ(٣)
فتُورُ القيامِ ، قطيعُ الكلا ... مِ ، تفترُّ عن ذى غُروبٍ خَصِرْ(٤)
كأنّ المدامَ ، وصوْبَ الغمامِ ... وريحَ الخُزامى ، ونَشْرَ القُطُرْ(٥)
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها ... إذا طَرَّبَ الطائرُ المِتحِرّْ(٦)

وبعض صاحبات امرئ القيس تعالين عليه ، وصرمن معه حبل ودّهن ، فاتخذ منهن موقف العاشق المتذلل ، يبثّهنّ هواه وحرقته . واحتفظت لنا « المعلقة » بموقفه من فاطمة ، بنت العبيد بن ثعلبة ، من عُذرة ، وهى ظاهرة لافتة للنظر ، أن تكون الوحيدة التى جاء ذكرها فى شعر امرئ القيس متأبّية متعالية متدلّلة ، من عذرة ، موطن الحب العذرى ، ومهبط شعرائه . على أى حالٍ تلمس فى موقف امرئ القيس معها رقّة ولطفا ، يعتب عليها هامساً ، يريدها أن تتدللّ شيئاً ، فبعض الدلال يزين المرأة ويُثير الرجل، لكنه لا يريدها أن تسرف فيه ، لأن الإسراف يشيع فى جوانبه اليأس ، وقد يصرفه عن هواها إلى أخرى ، ويلحّ عليها : إذا كنتِ قد عزمتِ على تركى فاصنعى ذلك فى رفق لا يؤذى . ويدعوها أن تتجمّل وهى الآمرة ، فلا تقسو

---

(١) الجمان : اللؤلؤ الصغار يعمل من فضة .

(٢) النزيف : السكران – الكثيب : المجتمع من الرمل – بهر : الانبهار.

(٣) البرهرهة : الرقيقة الجلد – الرؤدة : الناعمة – الرخصة : البضة – الخرعوبة : القضيب اللدن – المنفطر : المتشقق .

(٤) الغروب : استواء الأسنان ودقتها – خصر : بارد .

(٥) الخزامى : نبت طيب الرائحة – القطر : العود الذى يتبخر به .

(٦) يعل به : يسقى به – المستحر : المصوت بالسحر .

إذا نَوت هجراً ، وإلى فراقه إذا رأتْ فى أخلاقه ما تكره ، ثم يراوحها فيهدهد من غلوائها ، لا يغرنّك أنى لك عاشق ، وأن قلبى لك طائع ، مهما تأمريه يجب ، فثورة المستسلم جامحة ، وتمرّد الضعيف جارف ، والحذر يؤتى من مأمنه ، والدموع التى تتخذين منها سهاما لتحطيم قلبى ، لن تبلغى من ورائها شيئاً ، إنها تصيب قلباً مزّقته السهام ، وأضناه الحب ، ألِف الآلام واطمأن إليها ، فلن تزيده على ما فيه ألماً :

أفاطِمُ مهلاً ، بعَض هـذا التدلّل ! وإن كنتِ قد أزمعت صَرْمِى فأَجملى(١)
وإن كنتِ قد ساءتْك منى خليقـةٌ فسُلّى ثيابى مـن ثيابك تَنْسُلِ(٢)
أغـرّكِ مِنّى أنّ حُبّكِ قـاتِلِى وأنكِ مهما تأمرى القلبَ يَفْعَلِ
ومـا ذَرفتْ عيناكِ إلا لتقـدحِى بسَهْمَيْك فى أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

وهو يدعو إلى التمتع من الدنيا ، والدنيا فى مذهبه كأس وامرأة ، والمرأة فى ذوقه طيّبة دائماً ، بيضاء كالظبية ، أو سمراء كالتمثال ، حَصَان عفيفة ، أو متبرّجة معترضة :

تمتَّـعْ من الدنيـا فإنّك فـانِ من النشوَاتِ والنساء الحسان
من البيض كالآرام ، والأُدْم كالدُّمىَ حواصِنُهـا ، والمبْرقات الرَّوانى(٣)

يبقى جانب المغامرة من غزل امرئ القيس ، وهو شائك الطريق ، دقيق المعالجة ، يتطلب حذراً فى عرضه ، ومعرفة بما يقال ، وما يكتفى فيه بالإشارة والتلميح ، والتوفيق بين ما تقتضيه الأمانة العلمية ، ويفرضه إكمال الصورة ، وبين ما يتطلبه ذوق مجتمعنا المعاصر — أو بعضه على الأقل — وبيئة تباشر ما قاله امرؤ القيس عملا وتراه فى الخيالة مصوّراً ، ثم ترفض أن تسمعه تحليلا أدبياً ، لأن فيه صراحة واضحة ، وواقعية جافية ، برغم أنه الجانب الذى كان فيه امرؤ القيس أستاذاً مبدعاً ، وشاعراً خلاّقا .

تضمّنت معلّقة امرئ القيس قصتين من مغامراته : الأولى كانت مع عُنيزة ،

---

(١) أزمعت : انتويت — صرمى : هجرى .
(٢) سلى ثيابى من ثيابك ، كناية عن الافتراق .
(٣) الأدم : اللاتى يضر بن إلى السمرة — الحواصن : جمع حصان أو حاصن : العفائف — المبرقات : اللواتى يبر زن محاسنهن للرجال — الروانى : الدائمات النظر .

ابنة عمهُ شُرَحبيل ، فيما تقول الرواية ، وأنه احتال لرؤيتها فى قصة عرضنا لها من قبل[١] قبلناها جملة ورفضنا ما وُشِّيتْ من أفاويه . وكانت يوم « دارة جُلجُل » ، فيه عقر لصويحباته ناقته ، ناقة قوية ، مُوثقة الخلْق ، وُزِّعتْ رحالها على نوق كثيرة ، عند ما عادوا إلى الرحلة . كان لحمها وفيراً ، طعِمْنَ منه هنيئاً ، بلا مراسم ولا تقاليد ، يتقاذفْن اللحم أو يتهادينْه ، مَرَحاً ولكثرته ، وكان ما أعطت من شحم أبيض ناصعاً ملفوفاً كهدَّاب الحرير المفتول ، وتقاسمت الفتيات أحماله ، وبقى هو ، وكان من حظه أن يركب فى هودج عنيزة ، فتحرّش بها ، وضاقت به ، تهدده أن تنزل فتمشى راجلة ، فلا يخاف تهديدها ولا يهدأ ، يميل بهما الغبيط من عنف ما يتحرك ، فتأمره بالنزول فيُجيبها فى هدوء بارد ، وفى عناد من واتته الفرصة لا يريد لها ضياعا ، واستهتار من اطمأنّت نفسه لا يخاف غيره ، ولا يحسّ من ضميره وازعاً : هَوِّنى عليكِ ، دَعِى الناقة تسير ، وأرخى زمامها ، ولا تحرميني من حديثك وقبلاتك ، ثم يخرج من هذا الغرض إلى غزل صريح فاجر ، عرِف به واستَنّهُ لمن جاءوا بعده ، يتعهَّر فيه ولا يتستر ، لا يتعفف عن وصف ، ولا يكتفى بإيماء ، يقصّ عليها من مغامراته الفاضحة ، وتجاربه العديدة مع النساء ، نساء يختلفن سناً ووضعاً ، ورأيهنّ فيه ، وإعجابهنّ به ، أو هكذا يقول :

ألاَ ربَّ يـوم لكَ منهنَّ صالحٍ ... ولا سِيَّمَا يومٌ بدارةِ جُلْجُـلِ[٢]
ويومَ عقرتُ للعذارَى مطيّتِى ... فياعجبًا مِن رَحْلِهــا المُتحمَّلِ[٣]
يظلُّ العــذارَى يَرْتمين بلحمها ... وشحمٍ كهُداب الدِّمَقْس المفَتَّلِ[٤]
ويوم دخلتُ الخِدْرَ خِدْر عُنيْزَةٍ ... فقالت : لك الويلات إنَّكَ مُرجلِي[٥]
تقولُ ، وقد مالَ الغبيطُ بنا معا : ... عقرتَ بعيرى ، يا امرأ القيس ، فانزْلِ[٦]
فقلتُ لها : سيرِى ، وأرخِى زِمَامه ... ولا تُبعدِينى مِـن جناكِ المعلَّلِ
فمثلكِ حُبْلَى . . . .
. . . .

---

(١) انظر ص ٥٨ وما بعدها من هذا الكتاب .
(٢) انظر الهامش السابق .
(٣) مطيته : ناقته .
(٤) الدمقس : الحرير الأبيض .
(٥) مرجلى : تاركى أمشى راجلة .
(٦) الغبيط : قتب الهودج .

ثم يعود فى نفس المعلقة إلى مغامرة جريئة ثانية ، كانت له مع واحدة من صويحباته يُكْنى عنها ولا يذكر اسمها ، ويرسم فى صورة متكاملة كيف اقتحم الأهوال إليها ، وتخطىَّ القوم ، برغم يقظة هؤلاء ، ومنعة بيتها وتربّص أهلها به ، وإصرارهم على قتله لو استطاعوا أن يفعلوه خِفْية ، وما هم بقادرين لنباهته وحسبه . وقد بلغ بيتها ، والثريّا تتوسط السماء ، تلْمع فيها بين النجوم لمعان لؤلؤة تتوسط خرزاً فى ثوب مُوَشَّى ، وكانت صاحبته تأخذ أُهبتها لتنام ، خلعت ثياب اليوم ، وارتدت ثوب النوم ، فلما فجأها جرى بينهما حديث وحوار ، أقسمت له أنهَّا استنفدت جهدها فى دفعه ، فلم يبق لها حيلة ، وأنه مغرق فى استهتاره ، فلا سبيل له أن يتعقل ، ومَا بَقِى أمامها إلا أن تطيعه ، فخرجت معه إلى مكان قصىّ من الحىّ حيث لا تراهما العيون ، وقد ارتدت ثوبا طويلا ، تجر وراءهما ذيله ، فيمحو كل أثر تخلِّفه أقدامهما ، وقد تطيبتْ بمسك ينتشر منها قوياً ، كما لو كان نسيما رقيقاً مرّ بديار عامرة بزهور القرنفل ، فإذا داعبها مالت عليه . دقيقة الخصر ، ريَّانة الساق :

وبيضــةِ خِدْرٍ لايُرَامُ خِباؤُهــا ... تمتَّعتُ مِن لهوٍ بهـا غَير مُعجـلِ[1]

تخطّيتُ أهــوالاً إليهـا ومَعشراً ... علَيَّ حراصاً لـو يُسرّون مقتلى

إذا ما الثريّــا فى السماء تعـرّضتْ ... تعرُّضَ أثنــاء الوشاحِ المفصَّل[2]

فجئتُ وقــد نَضَتْ لنــومٍ ثيابَهـا ... لدى السِّترِ إلاّ لِبسْةَ المتفضِّل[3]

فقالتْ : يمينُ الله مالكَ حيلــةٌ ... وما إنْ أرى عنكَ العمايةَ تنجلى[4]

خرجْتُ بهـا تمشِى تجـرُّ وراءنـا ... على أَثَرَيْنَـا ذيل مِرْطٍ مُرحَّل[5]

فلمّـا أجزْنا ساحةَ الحىِّ وانتَحَى ... بنا بطنُ حِقْفٍ ذى رُكامٍ عَقَنْقَل[6]

إذا التفتَتْ نحـوِى تضوّع ريحُهـا ... نسيم الصَّبا جاءت بريَّا القَرَنْفُل[7]

---

(١) بيضة خدر : يريد امرأة كالبيضة فى صفائها ورقتها ، وأضافها إلى الخدر ، أى هى مكنونة غير مبتذلة .

(٢) الوشاح : خرز يعمل من كل لون — المفصل ؛ الذى فصل بالزبرجد .

(٣) نضت : نزعت — المتفضل الذى يلبس ثوباً واحداً .

(٤) العماية : الجهالة ، الاستهتار .

(٥) المرط : إزار يكون من حرير أو من صوف — مرحل : موشى .

(٦) الحقف من الرمل : المعوج — ركام : بعضه على بعض — عقنقل : منعقد متداخل .

(٧) تضوع : انتشر وتحرك — ريّا : رائحة .

هصرتُ بفَوْدَىْ رأسِها فتمايلتْ علىَّ ، هضيمَ الكشْحِ ، ريَّا المُخَلْخَلِ[١]

ومغامرة أخرى ، أشد تفصيلا ، وأعذب حديثاً ، وأرق وصفاً ، وأكمل تصويراً ، مع امرأة مجهولة ، لا نعرف غير اسمها ، ولم يذكر لها الرواة نسباً ، ولا يفصح هو عن شخصها أو ما به تعرف ، وأغلب الظن أن الاسم مجرد رمز لا يعنى شيئاً ، ذهب إليها متلصِّصاً ، يتقدم وئيداً خفيفاً ، خطوة وراء أخرى ، كحباب الماء يعلو بعضه بعضاً فى يسر وعلى سهولة ، فجأها بعد ما نام أهلها ، فجزعت منه ، واضطربت أمام جرأته ، وقالت له : قاتلك الله ! إنّك فاضحى ، السمار مازالوا حَلَقا ، والناس يقظى ، فيرد عليها مقسما بأغلظ الإيمان ، إنه لن يبرح مكانه ، ولو جاء مَن يُرديه ، ويمثِّل به قتيلا ، فإذا اجتثّ من فكرها أنه لن يذهب ، أشاع فى نفسها الطمأنينة ، ليبلغ مجلسهما غايته ، فلا خير فى لقاء حبيبة خائفة ، مضطربة الجوانح ، موزّعة الفكر ، فيقسم لها ثانية ، يمين كاذبٍ فاجر ، إن السّمار تفرقوا ، والناس ناموا ، فما من صوت يُسمع ، ولا حركة تُحس . فلما اطمأنّتْ حدّثته وحدّثها ، ثم أسمحتْ ، فانقادت بعد صعوبة ، وسَهُلتْ بعد تمنّع ، وانتقلا إلى ما يحبّان من لهو الحديث ، ورقّ كلامهما ، ثم راضها فذلّتْ ، وأسرفتْ فى الرضا بعد أن أسرفتْ فى التّمنّع ، فانتزع هواها ، وخلب فؤادها ، فمالت إليه ، وكرهت زوجها ، وأدرك الزوج إهمالها له ، وانصرافها عنه ، فعاد مغبرّا كاسف الحال . فلمّا عرف ما كان من أمرهما ، اختنق غيظاً وغط غطيطاً ، كجمل فتىّ قوىّ شُدَّ من خناقه بحبل ، يريد قتلى وذلك دون قدرته ، فليس فى وسعه أن يقتل من لا يفارق سيفه ، مسنون السهام ، محدَّد الأزجَّة ، صافية كأنها أنياب غيلان . وهو لا يملك رمحاً يطعن ، ولا سيفاً يُشهر ، ولا نبالا ترمى ، وحتى لو قتلنى فأزاحنى من طريقه ، لن يسعد معها ، فقد ملكت شغاف قلبها ، كما تستلذّ الناقة المهنوءة بالقطران ، يكادُ يُغْشَى عليها تلذُّذاً منه ، فليس أمامه من سبيل كى تحبّه ، وربّما أدّى قتلى إلى قطيعة بينه وبينها حزناً علىّ ، لكنى لست خائفاً ، وليست هى علىّ بمشفقة ، لأنها تعرف من زوجها مالا أعلم ، تعرفه ثرثاراً قوّالا ، يتحدث كثيراً ولا يعمل شيئاً :

سموتُ إليها بعدَ ما نام أهلُها سُمُوَّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ

---

(١) هصر : أخذ بالشىء وأماله إليه – فود الرأس : جانباه – المضيم : الضامر – ريا : ممتلئة .

فقالت : سباكَ اللهُ إنكَ فاضحى ... ألستَ ترى السُّمَّارَ والناسَ أحْوالى(١)
فقلتُ : يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً ... ولو قطَّعوا رأسى لَدَيْك وأوصالى
حلفتُ لها باللهِ حَلْفةَ فاجرٍ ... لَنَاموا فما إنْ مِن حديث ولا صَالِ(٢)
فلمَّا تنازعْنا الحديثَ وأسْمَحَتْ ... هَصَرتُ بِغُصنٍ ذى شماريخ ميَّالِ(٣)
وصِرْنا إلى الحُسنَى ، ورقَّ كلامُنا ... ورضتُ ، فَذَلَّتْ صعْبَةً أىَّ إذلالِ
فأصبحتُ معشوقاً ، وأصبح بَعْلُها ... عليه القَتَامُ ، سيِّئَ الظنِّ والبالِ(٤)
يغِطُّ غطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ ... لِيَقْتلنى ، والمرءُ ليس بقتَّالِ(٥)
أيقتُلنِى والمشْرفِىُّ مُضاجِعى ... ومَسْنُونَةٌ زُرقٌ كأنْيابِ أغوالِ(٦)
وليس بذى رُمحٍ فيطعُنُنى به ... وليس بذى سيفٍ ، وليس بنبَّالِ
أيقتلنى وقد شَغَفْتُ فؤادَها ... كما شغفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالى(٧)
وقد علمتْ سُلْمَى وإنْ كان بَعْلَها ... بأنَّ الفتى يَهْذِى وليس بفعَّالِ

ولم تكن المغامرة من جانبه دواماً ، يقتحم على صاحباته منازلهن ويضجرُهن ، فيخرجن معه ويسعدن به ، ويضقن منه ويستجبن له ، وإنما كنَّ يمضين إليه أيضا ، يرسل فى طلبهن أو يتحسَّسن أخباره ، يرغبن فيه أو يأسين لحاله ، وترك لنا صورة لمحاولة كهذه دقيقة الوصف ، متماسكة الجوانب .

فصاحبته التى كان يحبها خَفِرة حيِّية ، ذات طفل ترعاه ، موزَّعة القلب بينهما ، تخشى إذا تخلَّفت عنه أن يسىء بها الظن ، ويسوؤها إذا جاءته أن تدع وليدها يبكى ، فلما أبطأت أرسل فى طلبها ، حين لفَّ الظلامُ الحىَّ ، خشية أن يراها أحد ، فلبّتْ دعوته ، وأقبلتْ قطوف الخطا ، هيابة السُّرى ، كاعب النهد ، ممتلئة

---

(١) سباك : باعدك وفضحك .
(٢) صال : مصطلى بالنار ، يستدفىء .
(٣) هصرت : جذبت – الغصن : أراد به جسمها – ذى شماريخ : أراد به شعرها .
(٤) القتام : الغبار .
(٥) يغط غطيط البكر : يردد صوتاً كصوت المختنق ، والبكر الفتى من الإبل ، وهو صعب عند الرياضة ، فيشد من حبل فى خناقه ليراض به .
(٦) المشرفى : سيف نسب إلى قرى فى الشام يقال لها المشارف – الأغوال : جمع غول ، وهى السعالى : مخلوق خرافى ، كانت العرب تخافه وتخوف به الأطفال .
(٧) المهنوءة : المطلية بالقطران .

الكفل ، تمشى مبهورة النفس قلقا وحذرا ، كثمل خالط عقله مع الخمر بقيَّة من نعاس .

ويجرى بينهما حديث شيِّق ، تقول له مرتاعة مذعورة ، وهو يجرّدها من ثيابها ، دقيقة التقاسيم ، طويلة العنق : لو أن امرأً آخر تطلّب أن أفارق ربيتى فى هذه الساعة من الليل ، وأدع وليدى وحيدا ، لما أعرته أىّ اهتمام ، أمّا مشيئتك فلا أستطيع لها دفعا ، وقضّيا الليل قتيلين لا يعرف لهما الناس مصرعا ، تسعده وتدفع عنه الهمّ ، ويمتعها وينأى بها عن الملل ، ثم انقطع بينهما عادىّ الحديث ، وحلَّ مكانه آخر أخفت صوتا ، وأرق همساً ، وأعذب معنى ، ولفتهما الستائر ، فإذا أخذتها هِزَّة الروْع ، أمسكتْ بذراعيه ، ذراعي رجل مقدام :

ومنهنَّ سَوْفِى الخَـوْدَ بلَّلَهَا النَّـدَى ... تُراقبُ مَنْظومَ التّمائِمِ مُرْضَعـا[١]

يعـزُّ عليهـا ربيتى ، ويُسوءُهـا ... بكاهُ ، فتَثْنِي الجيدَ أنْ يتضّوعا[٢]

بعثتُ إليهـا والنجـومُ طوالعٌ ... حِذاراً عليهـا أن تقـومَ فَتُسْمعا

فجاءتْ ، قطوف المشْيِ ، هائِبةً السُّرَى ... يُدافـعُ رُكناها كواعبَ أرْبعا[٣]

يُزَجِّيهـا مَشْيَ النَّزيفَ وقـد جرَى ... صُباب الكرَى فى مُخِّـهِ فتقطَّعا[٤]

تقولُ ، وقـد جرَّدْتُهـا من ثيابِهـا ... كما رُعْتَ مَكْحولَ المدامعِ أَتْلَعَا[٥]

أَجِدَّكَ لو شيءٌ أَتانـا رسولُـهُ ... سِواكَ ، ولكن لم نجدْ لكَ مَدْفعَا

فبِتَنَا نصُـدُّ الوحش عنّـا كأنَّنـا ... قَتيلانِ ، لم يَعْلمْ لَنَا النَّاسُ مصرعا[٦]

---

(١) ساف : شم ، والسوف الشم – الخود : المرأة الخفرة الحيية – التمائم : جمع تميمة ، وهو العوذ ، ويريد بها قلادة صبيها .

(٢) ربيتى : شكى – يتضوع : يشتد بكاؤه ، ومعناه ألا يتضوعا .

(٣) قطوف المشى : مشيها متقارب – السرى : السير بالليل – ركناها : جنباها – الكواعب : جمع كاعب ؛ التى نهد ثديها .

• فسر أستاذنا الدكتور أحمد الحوفى « كواعب أربعاً » : « بأنها لم تجىء وحدها ، بل كان معها أربع من رفيقاتها الكواعب » (الغزل فى العصر الجاهلى ، الطبعة الثانية ، ص ٢٤٥) . ويخيّل إلىّ أن امرأ القيس يقصد بكواعب أربع : نهديها الكاعبين ، وردفيها الممتلئين .وعلى هذا النحو فهمت البيت وفسرته .

(٤) يزجى : يسوق – النزيف : السكران – صباب الكرى : بقية النعاس .

(٥) مكحول المدامع : ولد الظبية – أتلع : طويل العنق .

(٦) الوحش : الهم .

تجافَى عن المأثورِ بيْنى وبيْنها وتُدْنى عليها السَّابِرِىَّ المُضَلَّعا [١]
إذا أخذتْهَا هِزَّةُ الرَّوْعِ أمْسكتْ بمنكِبِ مِقْدامٍ عَلَى الهوْلِ أرْوَعا [٢]

ولم يقنع امرؤ القيس بفتيات طبقته يطاردهنّ ، محصَّنات عفيفات ، أو متحرِّرات معترضات ، وإنما تردّد على بيوت الريبة والهوى ، عند مَن يبعن الهوى لمن شاء . وترك لنا صورتين مختلفتين للونين متباينين . الأولى لواحدة كانت كذلك فى شبابها ، فلمّا تقدمتْ بها السنّ ، وذهبتْ بجمالها الأيّام انصرفتْ إلى بيت تديره لحسابها .

وقد ذهب امرؤ القيس إلى هذا البيت فى ليلة تلفّها السحب ، فوجد سيدة جَمَّاء . غاب عظم مرفقها وراء لحمها ، تتوسط عدداً من الفتيات الجميلات ، أيديهن بضّة ، وأصابعهن رقيقة ، ملساء طويلة ، وأنوفهن قنوى ، قاماتهن مديدة ، وخصورهن لطيفة ، تمَمَنَ خلقة واكتملن جمالا ، يبعن مع الهوى أمانىَّ وأحلاما ، تُضلّ الحليم ، ورغم أنَّه لم يكره فيهن شيئا ، ولم يكرهن فيه خليقة ، صرف هواه عنهن خشية الهلاك :

وبيتِ عذارى يومَ دَجْنٍ ولجتُهُ يطُفنَ بجمَّاء المَرافقِ مِكْسال [٣]
سِباطِ البَنانِ والعرانينِ والقَنا لِطافِ الخُصورِ فى تمامٍ وإكمال [٤]
نواعمُ يُتبِعْنَ الهوَى سُبُلَ المُنَى يَقُلْن لأهلِ الحِلْمِ ضُلّاً بتَضْلال
صرفتُ الهوى عنهن من خشية الردَى ولستُ بمَقْلِىِّ الخِلال ولا قال [٥]

والصورة الثانية بقايا لوصف وليست كاملة ، وردت فى القصيدة الثلاثين من ديوانه ، مقطوعة الصِلة بما قبلها وما بعدها ، وفيها دخل بيتاً ليس له رواق ، يفوح المسك فى أنحائه ، على امرأة بيضاء سمينة ، غارت عظامها وراء لحمها ، إذا جئتُها برزت فى قميصها :

وبيتٍ يفوحُ المسكُ فى حجراتِهِ بعيدٍ من الآفاتِ غيرِ مُرَوَّقِ [٦]
دخلتُ على بيضاءَ جُمٍّ عظامُها تعفى بذيل الدِّرع إذْ جئتُ مَوْدِقِى [٧]

(١) السابرى : ضرب من الثياب .
(٢) الهزة : الحركة ، الارتعاد .
(٣) الدجن : الغيم يملأ السماء – الجماء : من غاب عظم مرفقها لكثرة لحمها .
(٤) سباط البنان : لينات الأصابع – العرانين : الأنوف – القنا : القامات .
(٥) مقلى وقال : مكروه وكاره .
(٦) ليس مروّق : ليس له رواق ، سقف فى مقدم البيت أو ستر يمد دون السقف .
(٧) الدرع : قميص المرأة – مودقى : مكانى .

ذلك هو امرؤ القيس فى غزله ، متحفِّظاً عفيفاً ، أو مندفعاً صريحاً ، وذوقه فى الجمال هو الذوق الذى ترتضيه الفطرة السليمة فى كل عصر ، ولا أظن حكام مسابقات ملكات الجمال فى العالم اليوم يمكن أن يكون أمامهم من مقاييس للحكم بين المتسابقات أوضح وأدق مما ارتأى امرؤ القيس فى صويحباته ، حقاً أو أمنية ترجَّى أن تكون . فهى هيفاء مديدة ، فرعاء رشيقة ، مشرقة الوجه ، فاتنة العين ، آسرة النظرة ، أسيلة الخد ، ذات شعر غزير أسود طويل ، لمياء الشفة ، عذبة الثنايا ، طويلة الجيد ، صقيلة النحر ، كاعبة النهد ، ممتلئة الكفل ، ريّا الروادف والعجز ، ملتفة الفخذ ، بضّة اليد ، دقيقة الأصابع ، ريّانة الساق .

ونساء امرئ القيس لسن طرازاً واحداً فى أخلاقهن : ففاطمة متدللة معزوزة ، وليلى ناسية ناكرة ، وعُنيزة متمنِّعة مستجيبة ، وأسماء حُوّل قُلّب ، وسلمى غِرّة نافرة ، وماوية خبيثة ماكرة ، وهرّ لعوب مستجيبة ، ورقاش معترضة باذلة ، وأخريات كثيرات لا يذكر أسماءهن ، فيهن الساخطة المحتجبة ، والساذجة العاقلة ، والخائفة المتكبّرة ، ومَن تقصر حبها على رجل ، ومَن تهب نفسها الناس جميعاً . وصوّرها رقيقة الحديث ، هامسة الحوار ، تلذّ معه حتى يغشى عليها فما تستطيع قياماً إلا متكئة على ساعده ، وهناك مَن لها قوم يغارون عليها ، ويلاحقون امرأ القيس إذا ألمّ بحيّهم ، ولو استطاعوا قتلوه ، ومن لا يمثّل زوجها ثقلا فى البادية ، من العسفاء أو الرقيق أو غمار الناس ، يأتيها امرؤ القيس ولا يقيم لزوجها وزناً ، وهناك الحامل والمرضع ، والشابة الفتية ، والصبية المراهقة ، والحرة والجارية ، وبائعة الهوى ليس من حرج فى أن يلم بدارها ، وإنما الحرج كله فيما يصيب المرء بعدها من تهلكة ، جاء ذلك فى شعره ، عرضاً ومتناثراً ، ولكل امرأة صفة لا تتجاوزها ، أما نصيب المرأة الواحدة من مشاعر متباينة حين ترضى أو تغضب ، أو تسر أو تحزن ، وحين تخلص وتفى ، أو تتنكّر وتخون ، فلا يعرض له . وهو يغفل تماماً الحديث عن عقل المرأة ، وفضائلها النفسية ، وجمالها غير المرئى .

أول ما يبدو للدارس من سؤال ، لِمَ شُغِل امرؤ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة ، فوصفها ذكريات وبدناً ، وصوّرها حرة وبغيّا ، وحدثنا عنها طالباً ومغامراً ؟

الجواب يكمن فى نشأته العائلية ، كان أبوه متزوجاً بأكثر من امرأة ، ولسنا نعرف على التأكيد مكانة أمّه من قلب أبيه ، لكن واقع الحال ينبئ إذا أخذنا برواية أنها

أخت يزيد بن كبشة[١] – أنه كان زواجاً قبلياً ، تمليه صلة القرابة ودواعيها ، دون أن ينظر فيه إلى ما هو عماد أى زواج ناجح من توافق فى العواطف والميول ، وامرؤ القيس يصمت عن أمّه تماماً ، لا يعرض لها ولا مرة واحدة ، فهل يسوّغ لى هذا الصمت أن أفترض أنه افتقدها طفلا صغيراً ، فلم يبق لها من ذاكرته أدنى نصيب حين قوى عوده واشتد ساعده ؟ بلى ، ذلك ما أراه . من غير أمّ أمضى امرؤ القيس طفولته ، وشبّ يتيما ضائعاً ، أبوه فى شغل عنه بملاذه وملكه ، وقاسٍ معه فى تربيته وحسابه ، وفى البيت يفتقد العاطفة الودود ، فشب وقلبه صحراء خالية مجدبة ، يعمرها الخوف والوحدة ، وشىء واحد يمكن أن يملأ تماماً قلب الرجل الخالى ، هو قلب المرأة ، وفى الوقت نفسه هى أمضى سلاح لقتل الخوف ، واجتثاث الوحدة ، والمرأة القادرة هى المرأة الفاتنة ، وفتنتها تتمثل فى كمالها خلْقة وتصويراً . وهذا هو السبب فى أن امرأ القيس قصر شعره ومشاعره على الجانب الحسّى وحده من جمال حبيباته .

ويمكن أن أضيف إلى ذلك سبباً آخر ، هو أنه لم تكن هناك فرصة له – أو لغيره – لكى يلقى الحبيبة دواماً ، فى غير لحظات اللهو العاجلة ، ليكتشف الجانب الخفى من فضائلها ، لأن المجتمع الجاهلى رغم أنه لا يعرف الحجاب ، ولا يمنع الاختلاط ، كانت تحكمه تقاليد تجعل من الرجل جليس ندّه ، ومن المرأة سميرة بنت جنسها ، فكان ثمة فصل بين الجنسين تقليداً متعارفاً ، فلا يرى الرجل من جمال المرأة إلا جانبه الخارجى ، وهو جمال رغم ماديته يعكس جانباً كبيراً من فضائلها النفسية ، لأنه جوهر وتعبير ، وتجسيم لروحها قبل أن يكون دماً وأعصاباً ومادة ، والحب الحسى ، كالعشق العذرى ، ينبعث عن عاطفة ، ويعبّر عن شعور .

تبقى معنا قضية الجرأة فى وصف ما اعتاد الناس أن يبقوه سرّا ، يُشار إليه ولا يُقال ، ويُكنى به ولا يصرّح . والواقع أن ما جرؤ امرؤ القيس على تصويره جرت عادة الشعراء على قول الشعر فيه ، منذ كان هناك شعراء وإحساس ونساء ، إن لم يكن فى أعمارهم الناضجة ففى مطالع شبابهم ، إن لم يكن فى مجال الجد ففى ميدان التفكُّه ، إن لم يكن فى المحافل العامة ففى مجالسهم الخاصة . ويبقى من القضيَّة لماذا انفرد امرؤ القيس من بين شعراء الجاهلية بأن يُروَى عنه هذا الشعر الجرىء ؟

---

(١) انظر فصل « سيرة شاعر » من هذا الكتاب ص ٥١ وما بعدها .

إن فى رواية الناس لشعره هذا حتى عصر التدوين ، وبقائه فى روايات ديوانه المختلفة ، وشارك فى الحفاظ عليها وشرحها علماء من شتى أقطار العالم الإسلامى ، دليلا على أنه لم يكن يُجافى الأذواق السليمة كل المجافاة ومن الناس من عالج نفس أفكاره ، بألفاظ أكثر مداراة ، وفى أسلوب أقل صراحة ، والنهج الذى اختطه امرؤ القيس لنفسه لم يكن مما يعيب الفرد فى عصره ، والألفاظ التى حملت أفكاره لا تجرح ذوقاً ولا تخدش حياء ، وإذا لم يُرو للآخرين من معاصريه شعر فى مثل شعره ، باستثناء الأعشى وأم الضحاك المحاربية فى أبيات لهما قليلة ، فلأن الشعر كان بالنسبة لهم وظيفة اجتماعية ورسالة قبلية ، لابد أن يكونوا على مستواها ، فصالح القبيلة يسبق رغائبهم ، ويأتى الشعر تعبيراً عنه ، وتصويراً لما تراه ، قبل أن يكون تعبيراً عن نوازع الشاعر الفردية ، وأشد أفكاره ذاتيّة يعبّر عنها كواحد من القبيلة هو مثلها الأعلى . أما امرؤ القيس فكان شاعر نفسه ، ينفعل ، ويمضى مع انفعالاته حتى النهاية ، ويعبّر عنها دون أن يتحرّج أو يتأثمّ ، لأن الشعر عنده غاية وليس وسيله ، طريق للتعبير عن مكنون ذاته ، والبوح بدخائل عاطفته وليس مركباً إلى أبهة اجتماعية يبتغيها . والأعشى وكان الوحيد بين كبار شعراء الجاهلية الذى ناكب امرأ القيس طريقه ، على خجل واستحياء : لم يكن شاعر قبيلة ، وإنّما الشعر عنده موهبة يتعيش منها ، وليس فناً يصوغ فيه ذاته .

لقد قيل إن امرأ القيس كان فاحشاً وهى واحدة ، من مسلّمات كثيرة نتوارثها ونردّدها ، دون أن يسائل أىٌ منا نفسه ، أين هو الفحش فى شعر امرئ القيس ؟ ليس فى ديوانه غير بيتين فكرتهما مكشوفة ، واختار لهما من الكلمات أرقها ، فلا ترى فيهما لفظاً نابياً أو تعبيراً جارحا . وقد يتحدَّث عن ألوان من الصلات يؤثر الناس فى أيامنا ، وفيما قبلها ، أن يكون الحديث عنها خاصاً وهمساً ، فإذا عبّر عنها بصوت مرتفع ضاقوا به ، وإذا صوَّر رذائله برموا بها ، كأن يراود امرأة لها زوج ومن ورائه ، ثم يسرف فى الحديث عنها ، كيف أخذ بمجامع قلبها ، فأغراها بكرهه ، وكيف اقتحم الحىّ إلى أخرى ، استلها منه ، وذهب بها بعيداً عن القوم ، يسمر معها ، ويلهو بها . لكن إقحام العنصر الأخلاقى يخرج بنا إلى قضيّة قال القدامى رأيهم فيها صريحاً واضحاً ، حين قرّر على بن عبد العزيز الجرجانى فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » : « الدين بمعزل عن الشعر ، والأمران متباينان » والدين جماع الأخلاق الفاضلة فى العقيدة والسلوك .

وكلما كان الفن أخلص فى تعبيره عن حركات الواقع كان أتمّ ، وكلما كان أتمّ كان أقوى على استخراج الأخلاق من الأشياء نفسها . وليس يضيرنا فى شىء أن يصوّر فنان عاطفته وما تضمره من كره وحسد، لأن إخلاصه فى تصوير نفسه ، إذا كان فنّانا عظيما ، يحيل كرهه حباً ، ويرده إلى العدو مع نفسه فيلمس ظلمه لها ، وليس يضيرنا أن يهبط آخر بالفن فيجعل منه شهيد شبقه وشهواته ، لأن الوجدان الفنى ، إبّان عمله ، سيوحّد عناصر التشتت الداخلى تدفعها الشهوة ، ويروّض موجة الشبق العارمة ، ويصنع منها على فمه ، تلقائياً ، أغنية حزينة ، فالوجدان الفنى ليس بحاجة إلى الوجدان الأخلاقى يستمد منه العفّة ، إنه ينطوى فى ذاته عليها ، ويعرف متى يجب ألا يستعمل من صور التعبير غير الصمت ، وحين يتجاوز هذا الحياء ، ويخرج على الوجدان الفنى ، ويدسّ فى الفن ما لا تدعو إليه ضرورة ، أو يسوّغه مبرر ، فإنه يخطئ فنياً وأخلاقياً ، لأنه أخلّ بواجبه كفنان . على أن إدخال الأمور الشهوانية البذيئة فى الفن ، ليس هو الحالة الوحيدة غير الأخلاقية ، وليس أسوأها دائماً ، لأن دسّ الفضيلة على نحو أحمق هو أسوأ الحالات كلها ، لأنه يجعل من الفضيلة نفسها حماقة[1] .

فحسبنا من امرىء القيس أنه كان مع نفسه مخلصاً وصادقاً .

من أى المصادر اغترف امرؤ القيس أفكاره المكشوفة ، وبأى المثل اهتدى ؟ فيما يبدو لى جاءته من الجو الذى عاش فيه وتنسم أخلاقياته ، والبحث عن أسباب أخرى وراء بيئته القريبة ، لتبرير جرأته على عادات عصره ، تجاوز لما هو قائم بالفعل ، وتعلق بما هو متخيل وبعيد . ويأتى الخطأ فى التعليل من تصوّر أن العفة فى السلوك ، والتحرُّج فى القول ، صفة لازمة عند العرب جميعاً ، تمنع أن يوجد بينهم شاعر يُشهَر بهذا اللون من الصراحة ، فإذا وُجِدَ فلابدَّ من التماس دوافع لمنحاه خارج الحياة العربية نفسها ، على حين أن ما حول امرئ القيس يدفعه إلى الصراحة الجريئة ، والتمرّد على ما هو متعارف عليه من حدود القول . كان فى بيته محروم العاطفة ، وكان فى شخصه مهزوز الفحولة غير موفق فى صلاته العاطفية ، ونتاج ذلك كله إسراف

---

(١) بند توكروتشه ، المجمل فى فلسفة الفن ، ترجمة الدكتور سامى الدروبى ، ص ١٧١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ .

فى إرواء ظمئه ، وإسراف فى التحدّث عنه . ومن حين لآخر يمثل دور « دون جوان » فالنساء جميعاً يطلبنه ، وهنّ به كلفات ، وإليه روان ، لاتمتد أبصارهن إلى غيره . وكان جده الحارث مزدكياً ، سمحت له أخلاقه أن يُعرَف بين قومه بمذهب يدعو إلى أن يكون المال والنساء على المشاع ، وثارت بنو أسد على أبيه حجر لأنه يغير على نسائهم ، وكان مهلهل عدىّ بن ربيعة ، خاله أو شقيق زوج أبيه ، الخطوة الأولى فى الطريق الذى ساره امرؤ القيس ، ولم تكن حياته تفترق فى شىء ، فلسفة وسلوكا ، عما ارتضاه لنفسه شاعر كندة ، من التزوّد بأوفى نصيب من مباهج الحياة ، والعكوف على ملذات الشراب والنساء .

مع الطبيعة المتحركة

تستنفد الطبيعة من شعر امرئ القيس نصف ديوانه ، على حين لا يشغل الغزل منه ، وبه شُهِر ، غير ربعه ، وبقيته تعكس هموم الشاعر ، شاباً ضائعاً ، أو طالب ثأر مقاتلا ، وعبر حياته جاب الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، لاهياً أو طريداً ، فخبر مسالكها وشعابها ، وجبالها ووديانها ، وعاش تلفه رياحها وسحبها وأمطارها ، واصطاد حيوانها وطائرها ، وتروّح على غدرانها وفى جنانها ، ووجد عندها ما افتقده فى أسرته ، وتجاوبت معه على نحو لم يدركه فى مغامراته ، وفتحتْ له قلبها ، فهام بها وانفعل بأسرارها ، وأثرى الأدب العربى بجميل أفكاره ، وروائع صوره ، وكأمير فارس كان الفرس أول ما استحوذ على إعجابه منها .

صوَّره فى عدة مواضع من شعره ، وصفه فى المعلَّقة ، خَصّ سرعته بجانب متفرّد ، وخلقته بجانب آخر ، فى الجانب الأول قال إنه يغدو به بكرة مرحاً نشيطاً ، سريع العدو ، إذا أَدرك قطيعاً من الأوابد كان كالقيد لها ، لا تستطيع منه إفلاتاً ، لأنه يسبقها فيمنعها من الفوْت ، وهو ضخم شديد الحركة ، مِكرّ لا يسبق ، مِفَرّ لا يلحق ، مقبل حين تريد إقباله فلا يصد ، مدبر إذا رغبتَ فى إدباره فلا يرد ، يفر ويكر فى نفس الوقت ، ويقبل ويدبر فى آن واحد ، كأنه فى سرعته وصلابته جلمود صخرى هوى به السيل من قمة جبل مرتفع ، وظهره أملسُ مكتنز اللحم ممتلئ ، ينزلق اللبد عن أوسط ظهره ، انزلاق الهابط على صخرة ملساء ، يصب العدوّ صباً ، ويأتى بأفانين منه ، حين يدرك غيره من الجياد السابحات الوَنَى والكلال ، فتثير الغبار فى الأرض الصلبة بحوافرها إعياء ، ضامر ذابل كثير الجيشان ، حتى لتخال تكسّر صونه إذا حمى جيشان الماء فى قدر يغلى على النار ، لا يهدأ ولا يتوقف ، يُردى براكبه عن ظهره إذا كان غلاماً ناشئاً خفيفاً غير فارس ، ويرمى بأثوابه إذا كان فارساً حاذقاً ماهراً ، وهو فى سرعة عدوه وشدّة انسيابه ، أشبه بلعبة الخذروف يلهو بها الصبيان ، خذروف لُعِبَ به كثيراً ، حتى خفّ ودقّ وتقطع خيطه فوصل :

وقد أَغتـدِى والطيرُ فى وُكُنَاتِهـا	بمُنْجَردٍ قيْدِ الأوابـدِ هَيْكلِ (١)
مِكرٍّ مِفـرٍّ ، مُقبل مُدبـر معاً	كجُلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من عَلِ (٢)
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبـدُ عن حال متنه	كما زَلّتِ الصفواءُ بالمُتَنـزَلِ (٣)
على الذَبْـلِ جياش كأنّ اهتزامه	إذا جاش فيه حميُه غلى مِرْجلِ (٤)
مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الونَى	أثرْنَ الغُبَارَ بالكديد المُركَّلِ (٥)
يُطيرُ الغلامَ الخفَّ عـن صهواته	ويُلوِى بأثواب العنيفِ المُثقَلِ (٦)
دريرٍ كخُذْروفِ الوليـدِ أمَرَّه	تَتابـعُ كفَّيْه بخيطٍ مُوصَّـلِ (٧)

وبعد أن أنهى هذه الصورة التفصيلية ، ذات الألوان المتعدّدة ، لسرعة فرسه ، أخذ يصف لنا تكوينه الخلْقى : هو ضامر كالظبى ، صلب الساقين قصيرهما ، طويل الفخذين كالنعامة ، يجرى رخيًا كالذئب ، ويثب قريباً كالثعلب ، عظيم الأضلاع ممتلئ الجنبين ، إذا تأملته مستديرا رأيت ذيله يشدّ الانفراج الذى بين قائمتيه ، ذيلا فويق الأرض ليس بطويل ولا قصير . أملس الظهر إذا نُزِع عنه سرجه بدا ظهره لامعا كأنّه فى صفائه وملاسته مداك عروس أو صلابة حنظل ، جميل المنظر ، رشيق البدن ، متأهب دواما ، يمضى النهار فى شغل به ، فإذا كان المساء يمعن فيه النظر إعجاباً ، يتمثل محاسنه فى نفسه جملة ، ولكن هذه المحاسن لجلالها وكثرتها لا تتيح له بلوغ ما يصبو إليه ، فتبقى عينه زائغة بين أعلاه وأسفله :

له أيْطَلَا ظبىٍ ، وساقـا نعامـةٍ   وإرخاءُ سِرْحانٍ ، وتقريب تَتْفُلِ (٨)

---

(١) وكناتها : جمع وكنة ، وهى عش الطائر – منجرد : فرس قصير الشعر – هيكل : ضخم .

(٢) جلمود : صلب .

(٣) كميت : أحمر مائل إلى السواد – حال متنه : موضع ظهره – الصفواء : الصخرة الملساء .

(٤) الذبل : الضمور. جياش مضطرب – اهتزامه : صوته – حميه : غليه – المرجل : القدرة الكبيرة .

(٥) مسح : عداء – السابحات : الخيل تبسط يديها فى جريها – الونى : البطء والفتور – الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة – المركل : الذى يركل بالرجل مرة بعد مرة .

(٦) الصهوات : جمع صهوة ، وهى مقعد الفارس من ظهر الفرس – يلوى : يرمى يميناً وشمالا .

(٧) درير : سريع – الخذروف : حصاة مثقوبة يجعل فيها الصبيان خيطاً ، فيسمع لسرعة دورانها صوت ودوى – أمره : أحكم فتله .

(٨) أيطلا ظبى : خاصرتا غزال – إرخاء سرحان : عدو ذئب – تتفل ، ولد الثعلب .

ضليعٍ إذا استدبرْتَـهُ سدّ فرجَـهُ بضافٍ فُوَيق الأرضِ، ليس بأعْزَلِ[١]
كأنَّ على الكتْفَيْنِ منـه إذا انتحَـى مداكُ عروس أو صلابة حنظل[٢]
وباتَ عليـه سَرْجُـه ولجامُـه وبات بَعيني قائماً غيرَ مُرْسَلِ[٣]
ورُحْنـا وراحَ الطِرْفُ ينفضُ رأسَه متى ما ترَقَّ العينُ فيـه تَسَهَّلِ[٤]

وعاد إلى وصف الحصان على نحو مفصّل شيئاً ، فى قصيدته التى بارى بها علقمة ابن عبدة ، الملقب بالفحل ، واحتكما إلى زوجه أمّ جندب ، على نحو ما أشرنا إليه من قبل[٥] . يقول :

إنه غلّس قبل خروج الطيور من أوكارها ، فى ليل كثير المطر ، تسيل منه المذانب ، بفرس منجرد ، سريع العدو ، يصبح كالقيد للأوابد إذا لقيها ، أضْمرتْه ملاحقة الهوادى من الوحش ، واتّباعه لها كل شوط بعيد ، سريع بعد فتور ، وكأنّ أعلاه ، ضامراً ومسرعاً ، أعظم الشجر فى أعلى الأماكن ، إشرافاً وارتفاعاً وعظَم خِلْقة ، يبارى الخنوف فى سرعته ونشاطه ، صلب أملس ضامر كأنّه عود مشجب ، له خاصرتا ظبى ، وساقا نعامة ، وظهر عَيْر[٦] واقف على مرقب ، وحوافره صُمّ صِلاب مُلس ، كحجارة يتخللها الماء ، وعلاها الطحلب فاصفرتْ واملاسّتْ وصلبتْ . وكفله مثل كثيب من الرّمل لبّده الندى ، وكتفه فى سعته وارتفاعه مثل قتب الهودج وهو مشرف ، وعيناه مجلوتان أبداً ، نظيفتان كمرآة سيدة تُعنى بهندامها ، تديرها لترى هل استقرَّ النصيف المنقِّب فى مكانه من محجزها أم لا ، وأذناه دقيقتان محّددتان كأذنى بقرة وحشية ذُعرتْ فنصبتْ أذنيها ، شاهدتا عتقه وكرمه ، طويل العنق مُشرف ، كأنّ عنانه منجردا فى رأس جذع مشذب أسود الذيلِ ، ريّان الذنب ، شعره غزير كأنه قنو نخلة مثمرة من سميْحة ، فإذا جرى طَلْقين ابتلّ جانبه من العرق ، وسمعتَ له

---

(١) ضليع : عظيم الأضلاع – ضاف : ذيل سابغ – أعزل : مائل ذنبه فى ناحية وكانت العرب تتشاءم من ذلك .

(٢) المداك : الحجر يسحق عليه الطيب – الصلابة : الحجر الأملس يسحق فيه الحنظل .

(٣) غير مرسل : غير مهمل .

(٤) الطرف : الفرس السريع .

(٥) انظر ص ٦٤ .

(٦) العير : حمار الوحش .

خَفْقًا ، تقولُ هزيز الريح مرّتْ بشجر الأثأب :

وقد أغتدى والطيرُ في وُكُناتِهـــا ... وماءُ النَّدَى يجرِى على كلّ مِذنَبِ[١]

بِمُنْجَرِدٍ قَيــدِ الأوابدِ لاحَـــهُ ... طِرادُ الهــوادِى كلَّ شأوٍ مُغرِّبِ[٢]

عَلَى الأيْــنِ جَيَّاشٍ كأنّ سراتَـــهُ ... عَلَى الضُّمْرِ والتعداءِ سَرْحَةُ مَرْقَبِ[٣]

يُبــارِى الخَنَوف المستقِلّ زَمَـاعُهُ ... ترى شَخْصه كأنَّـه عُودُ مِشْجَبِ[٤]

له أَيطــلَا ظَبْيٍ ، وساقــا نعامــةٍ ... وصَهْوَةُ عَيْرٍ قائمٍ ، فوق مَرْقبِ[٥]

ويخطو عَلَى صُمٍّ صلابٍ كأنهـــا ... حجارةُ غَيْلٍ وارِسات بطُحْلَبِ[٦]

لــه كَفَلٌ كالدِّعْص لَبَّدهُ النّــدَى ... إلى حارِكٍ مثْلِ الغبيطِ المُذأبِ[٧]

وعينٌ كمــرآةِ الصَّناعِ تُديــرُها ... لمحْجِرِهــا مِن النّصيفِ المنقَّبِ[٨]

لـــه أذنانِ تَعــرفُ العِتقَ فيهمــا ... كسامِعَتَىْ مَذعُورةٍ وسْط رَبْرَب[٩]

ومُسْتَفْلِكُ الذِّفْــرَى كأنّ عِنانَـه ... ومَثْناتَهُ فى رأس جِــذْعٍ مُشَذَّبِ[١٠]

وأَسْحم ريــانُ العسيبِ كأنّـــه ... عَثَاكِيل قِنْوٍ مِن سُمَيْحَةَ مُرطبِ[١١]

إذا ما جــرَى شأوَيْن وابتــلَّ عِطفُه ... تقول هَزِيزُ الرِّيح مرّتْ بأثأَبِ[١٢]

فيما سبق كان امرؤ القيس يلاحق حصانه واصفا كيفما اتفق ، دون نهج محدد ،

---

(١) المذنب : مسيل الماء إلى الروضة .

(٢) لاحه : أضمره – الهوادى : المتقدمة فى قطيع الوحش – الشأو : الطلق – المغرب : البعيد .

(٣) الأين : الفتور – سراته : أعلاه – سرحة ، ما عظم من الشجر وطال – المرقب : كل ما أشرف من الأرض .

(٤) الخنوف : الذى يرمى بيديه فى السير ؛ وصف للحمار الوحشى – الزماع : المراد به هنا هو شعر الظلف .

(٥) صهوة : ظهر .

(٦) الصم : الحوافر – الغيل : الماء الجارى – الوارسات : المصفرات .

(٧) الكفل : العجز – الدعص : الكثيب الصغير من الرمل – حارك : ملتقى الكتف – الغبيط : قتب الهودج – المذأب : الموسع .

(٨) الصناع : الحاذقة بالعمل – المحجر : ما استدار حول العين – النصيف : الخمار – المنقب : المتقنع به .

(٩) الربرب : القطيع من البقر .

(١٠) المستفلك : المستدير كالفلكة – الذفرى : عظم ناتئ خلف الأذن – المثناة : الحبل المشدود فى رأسه .

(١١) أسحم : ذيل أسود – ريان : ممتلئ – العسيب : عظم الذنب – عثاكيل : شماريخ – قنو : عذق النخلة – سميحة : اسم بئر.

(١٢) الشأو : الطلق – الأثأب : شجر يشبه الأثل .

أوترتيب تحكمه قاعدة ، أما فى قصيدته التى مطلعها :

أحارِ بنَ عمـــرو كأنِّى خَمِرْ   ويعـــدو على المـــرءِ مَايأتَمِرْ

فأعطانا وصفاً رائعاً ، فى بناء متكامل ، من صور بصرية مرتبطة عن طريق التتالى أو المزج . اختار الوجه أولا ، لأنه أول ما يطالع الناظر من الفرس ، فرس سريعة خفيفة كالجرادة ، تناثر شعر ناصيتها كأنه سعف نخلة تفرّق ، وحافرها ، أسفل رجْلها ، كَقدح صبيّ رُكِّبتْ فيه ساق صلبة ، وما خلف رسغها من شعر كخوافى العقاب رقة وليناً ، إذا اقشعرّت انتفش ثم فاء إلى موضعه . ملتصقة المفاصل ، ليست برهلة ، متفرّقة لحم الحماتين ، ملساء العجز ، كصخرة جرى عليها السيل فأزال ما بها من غبار ، وذنب طويل سابغ كذيل فستان العروس ، يسد ما بين ساقيها ، مكتنزة المتنين قليلا ، كساعدى نمر بارك غلظا وصلابة ، وعُذَرها غزيرة منتشرة كذوائب النساء عبثت بها الريح فى يوم بارد . وعنق كشجرة اللبان طولا ، شقراء كلهيب نار أضرمها غوىّ ، وجبهة متسعة كظهر ترس صنعه فنان حاذق ، ذات منخر متسع كجحر ضبّ ، يتيح لها أن تتنفس مستريحة ، وعينها مكتنزة صُلْبة ضخمة كأنّما شُقّت مآقيها من آخر العين .

وبعد أن وصفها تفصيلا أخذ يصفها كُلاًّ ، وكما وُفّق فى الأولى كان رائعاً فى الثانية ، فإذا أقبلت كانت رقيقة المقدم ، مستديرة المؤخر ، ملساء ليّنة ، ناعمة رطبة ، كقَرْعَة غُمست فى غدير . وإن أدبرت فهى صخرة مدوّرة ، صُلْبة مجتمعة ملساء ، وإنْ أعرضتْ بدتْ مستوية الخلقة ، قليلة اللحم كجرادة ، غير أنّها تزيد عليها ذنباً طويلا ، تثب كالظبى أو تسح كالمطر ، ملوّنة السير ، تعدو أحياناً وتخطو أخرى ، فإذا أسرعت اندفعت كظبية أخطأها صياد ماهر ، فانطلقت بكل قواها تلتمس النجاة ، قوية مهيّأة إذا وقع بها السوط جالت وأسرعت ، وصبَّتْ عدوها كسحاب ينهمر برداً :

وأركبُ فى الـــرَّوْعِ خَيْفانـــةً   كسا وجههَا سعفٌ مُنتَشِرْ[1]

(١) الخيفانة : الجرادة ، وبها شبه الفرس السريعة الخفيفة – كسا وجهها سعف منتشر : أراد الناصية ، والمنتشر : المتفرق .

لهـــا حافـرٌ مثل قَعْبِ الوليـــ ... ـدِ رُكّبَ فيه وَظيف عَجِـرْ (١)

لهـــا ثُننٌ كخـــوافى العقـــا ... بِ سودٌ يفِئْنَ إذا تَزْبئرّ (٢)

وساقان كعْبـــاهُما أصْمعَـا ... نِ لَحْمُ حماتَيْهِما مُنْبَتِرْ (٣)

لهـــا عَجُـزٌ كصفاةِ المَسِيـــلِ ... أبـــرز عنهـــا جُحافٌ مُضِرٌ (٤)

لهـــا ذَنَبٌ مِثْـــل ذيْـــل العروسِ ... تُسدّ بـــه فرجَهـــا مِن دُبُـــرْ

لهـــا مَتْنَتان خَظاتَـــا كَمَـــا ... أكبَّ على ساعديْهِ النَّمِـــرْ (٥)

لهــــا عُـــذَرٌ كقرون النسا ... ءِ رُكّبْن فى يوم ريحٍ وصِرْ (٦)

وسالفـــةٌ كَسحوقِ اللُّبـــان ... أضرمَ فيـــه الغوىُّ السُّعُرْ (٧)

لهـــا جبهـــةٌ كسراةِ المِجَنِّ ... حَذَّقَـــهُ الصانعُ المقْتَدِرْ (٨)

لهـــا مَنْخِـــرٌ كوِجـــارِ السباعِ ... فمنـــه تُرِيـــحُ إذا تَنْبَهِـــرْ (٩)

وعينٌ لهـــا حَدْرةٌ بَـــدرةٌ ... شُقتْ مآقيهـــا مِنْ أُخُـــرْ (١٠)

* * *

إذا أقبلتْ قلتَ دُبَّـــاءةٌ ... من الخُضْر مغموسةٌ فى الغُدُرْ (١١)

وإن أَدبـــرتْ قلتَ أُثْفيَّـــةٌ ... مُلَمْلَمـــةٌ ليس فيهـــا أُثُـــرْ (١٢)

---

(١) القعب : القدح الصغير – الوظيف : فى الرجل ما بين الرسغ إلى الركبة ، أوما بين الرسغ إلى العرقوب – العجر : الذى كأن فيه عقداً لصلابته .

(٢) الثن : جمع ثنة ، وهى الشعرات التى خلف الرسغ – الخوافى : ما بعد القوادم من ريش الجناح – تزبئر: تقشعر .

(٣) الكعب : المفصل – أصمعان : صغيران ، وأراد لصوقهما – الحماتان : اللحمتان الغليظتان اللتان فوق الكعبين – منبتر : بائن متفرق .

(٤) الصفاة : الصخرة – المسيل : السيل – الجحاف : السيل يجرى ويجمع كل شىء فى طريقه .

(٥) خظاتان : مكتنزتان قليلا .

(٦) العذر : شعرات قدام القربوس ، وهوآخر العرف – قرون النساء : ذوائبها .

(٧) السالفة : هنا العنق – السحوق : الطويلة – الغوى : الغاوى – السعر : جمع سعير ، وهوشدة الوقود .

(٨) سراة المجن : ظهر الترس .

(٩) الوجار : جحر ضب – تريح : تخرج الريح أى تتنفس – تنبهر : يتتابع نفسها .

(١٠) حدرة بدرة : مكتنزة صلبة ضخمة .

(١١) الدباءة : القرعة .

(١٢) الأثفية : الصخرة المدورة – ململمة : مجتمعة .

وإن أعرضتْ قلتَ سُرْعُوفَــةٌ ‏ لهــا ذنب خَلْفَهَا مُسبَطِــرْ (١)
لهـــا وثباتٌ كوثْبِ الظّبــا ‏ ءِ فوادٍ خطاءٌ ووادٍ مَطِــرْ (٢)
وتعـــدو كعدْوِ نجــاةِ الظبا ‏ ءِ أخطأهــا الحاذقُ المقْتَدِرْ (٣)
وللسوط فيهــا مجالٌ كمــا ‏ تنزَّلَ ذو بَـــرَدٍ مُنْهَمِــرْ

وحصان امرئ القيس الذى يصفه حصان صيد ومتعة ، وترف وجاه ، وما من مرّة عرض فيها لفرس الحرب إلا ضاقت عليه سبل القول ، ونضبت مشاعره ، وتوقف فى فمه القول . وصف فرس الحرب فى أبيات ثلاثة كان فيها مُستثاراً بذكريات أمسه ، فى مقدمة طللية ، ثم طوى وصفه مستعجلا هاربا ليحدثنا عن ذكرياته على فرس صيد فى أبيات ثلاثة أخرى . وعرضنا لهما من قبل فى حديثنا عن المقدمات الطللية(٤) .

ثم عرض لفرس الحرب مرة ثانية ، وفى ثلاثة أبيات أيضاً ، جاءت عرضا عبر نوبة آسية ، يقارن فيها بين أمس عزيز ، وحاضر مهم ، ويكره أن ينتهى به الحال على هذا النحو ، كأنه لم يشارك فى حروب قومه ، على فرس ضخم قوى القوائم ، نشيط سريع فى إقباله وإدباره ، سليم المقدم ، مشرف الكفل ، صلب الحوافر لا يهاب الجرى ، كأن مكان الردف منه مؤخّر فرخ نعامة :

ولم أشهـدِ الخيلَ المغيرة بالضّحــا ‏ على هيكلٍ نَهْدِ الجُزارَةِ جَوّالِ (٥)
سليمِ الشَّظَى ، عَبْلِ الشَّوَى ، شَنِجِ النسَا ‏ له حَجَباتٌ مُشرِفاتٌ على الفالِ (٦)
وصمٌّ صِلابٌ ما يَقِينَ مـــن الوَجَى ‏ كأنّ مكان الرِّدْفِ منه على رالِ (٧)

ومن الحرب إلى فرس الصيد ، فأبان كيف غدا به مبكّرا ، والطيور لمّا تزل فى أعشاشها ، فى واد معشوشب خال ، توالت عليه الأمطار ، فأزهرت أرضه وحمته

---

(١) السرعوفة : الجرادة – المسبطر : الممتد الطويل .
(٢) الخطاء : جمع خطوة – مطر : أى تمطر فيه العدو .
(٣) نجاة الظباء : يقال فرس نجاة وناقة نجاة ؛ إذا كانت ناجية سريعة العدو.
(٤) الأبيات فى صفحة ١٧٤
(٥) الجزارة : القوائم .
(٦) الشظا : عظم صغير فى يد الفرس – الشوى : القوائم – النسا : عرق – الحجبات : رءوس الأوراك – الفال : الفائل ؛ عرق عن يمين أصل الذنب ويساره .
(٧) الصم : يريد الحوافر – الوجى : المشى – الرأل : فرخ النعامة .

رماح قومه فلا يستطيع أحد اقتحامه ، قطعه على فرس صُلْبة الخلْق ، كميْت اللون ، أترز الجرى لحمها ، فكأنها هراوة حائك :

وقـد أغتدِى والطيْرُ فى وُكُناتهــــا لغيْثٍ من الوسْمِيِّ رائــده خال[١]
تحاماهُ أطــرافُ الرماحِ تحاميـــاً وجــاد عليه كلُّ أسْحَمَ هَطَّال[٢]
بِعجْلِــزَةٍ قــد أترزَ الجـرىُ لحمها كُمَيْتٍ كأنّها هِراوَةُ مِنْوال[٣]

فى هذه المرّة بدأ بوصف فرس الصيد ، على غير العادة ، فى نفس الظروف التى وصفه فيها قبلا ، أسوان يجترّ ذكرياته ، مهيض الجناح يعيش فى أمجاده الذاهبة ، وجاء وصفه من ثلاثة أبيات أيضاً ، يقول : هبطت واديا طال عشبه وتلوّنتْ أزهاره ، وتعاورته أمطار مرعدة ، على فرس ضخم يعطيك دون سؤاله أفانين من الجرى ، غير مبطئ ولا ضنين :

وغيثٍ كألْــوان الفَنــا قــد هبطْتُهُ تعاورَ فيــه كلُّ أَوْطفَ حَنَّــانِ
على هيكل يُعطيكَ قبــل سؤالِــهِ أفانين جرْىٍ غيرَ كزٍّ ولا وانِ[٤]
كتَيْسِ الظبــاء الأعْفــر انْضرجتْ لــه عُقابٌ تدلّتْ من شَماريخِ ثَهْلانِ[٥]

وكما وصف الحصان أداة صيد ، وسلاح حرب ، وصفه مطيّة سفر ، فعلى ظهر فرس مرتفع ، متغيّر اللون ضامر ، قطع كهفاً مقفراً مُضِلاّ كجوف حمار وحشىّ ، يدافـع المطايا كلّما دنت منه ، وقربت إليه ، ويتسرب بين الإبل حوله يميناً وشمالا ، كغصن ناعم يتثنى بين أغصان مشدودة :

وخَرْقٍ كجوفِ العَيْرِ قفــرٍ مَضِلّـــةٍ قطعتُ بسامٍ ساهِمِ الوجهِ حُسَّان[٦]
يُدافِــعُ أعطافَ المطايــا برُكْنِه كما مال غصنٌ ناعمٌ بين أغصانِ[٧]

لم يصف أحد من سابقى امرئ القيس الحصان إلاّ أبو دواد ، لأن عمرو

(١) الغيث : هنا يراد به البقل والنبت – الوسمى : أول المطر .
(٢) تحاماه : تحميه – أسحم : أسود .
(٣) عجلزة : فرس صلبة اللحم – أترز : أيبس – كميت : لونها بين السواد والحمرة .
(٤) كز : ضنين – الوانى : الفاتر المبطئ .
(٥) التيس : الفحل من البقر الوحشى – انضرجت : انقضت – شماريخ : أعالى .
(٦) بسام : بفرس مشرف مرتفع .
(٧) الأعطاف : الجوانب – ركنه : منكبه .

ابن قميئة أمضى حياته فقيراً ، رأى الحصان كثيراً ، ولعله امتطاه أحيانا ، لكنّه لم ينفعل به ، ولم يجذب انتباهه ، وكان صادقاً مع نفسه إنساناً وفناناً ، فابتعد عنه وقنع بالناقة يصفها ، ويبثها حنينه وأشواقه[1] . وليس ثمة شك فى أن امرأ القيس اتكأ فى وصفه للحصان على أبى دواد ، وأفاد من معلوماته الواسعة ، والتقيا فى الأوصاف العامة ، وردّا بعض النتائج إلى أسبابها . ففرس كل منهما ضامر لأنه يجرى طويلا ، يلاحق الصيد أو يطوى الوهاد ، فالترهّل والارتخاء مردهما إلى قلّة الحركة عند الحيوان والإنسان على السواء . ويلتقيان أيضاً . والإبداع للسابق منهما ، فى وصف جزئيات الحصان أولا تفصيلا ، ثم تقديمه كلا بعد ذلك ، وجزئيات امرئ القيس وكلياته عرضنا لها فيما مرّ[2] ، وجزئيات أبى دواد وكلياتها تبدو أوضح ما تكون فى قطعة من أبيات ثمانية ، وربما كانت بقايا قصيدة :

ومُحَجَّـــل خُضِبت قوائمُـهُ وِتْــراً ، وليس لشفعها خَضْبُ
إحــدى اليديْن بهــا طَلاَقَتُهَا والغابــراتُ نَواصِــعٌ غُرْبُ[3]
والمِرْفقــان له بمــا احْتَمــلا كدعائمٍ عُرِضتْ لهــا الخُشْبُ
وحمــاتُهُ فى الساق آرزَةٌ وَصَلَتْهما الرَّبَلاَتَ والكَعْبُ[4]
ونأتْ مــن الشمْراخِ رُثْمَتُــهُ قَدْرَ الرواجبِ بَيْنهــا رَتْبُ[5]
كالسَّيْدِ مــا استقبلتــه وإذا وَلَّى تقول : مُلَمْلَمٌ ضَرْبُ[6]
لأَمٌ إذا استعرضْتَــهُ ومَشى متتابعــاً ما خانَــهُ عَقْبُ[7]
يمشى كمَشْيِ نعامــةٍ تَبِعَتْ أُخرى إذا هى راعها خَضْب

وفيما عدا ذلك كلاهما يصدر عن نفس مستقلة ، وعبقرية متفرّدة ، فأبو دواد

---

(١) انظر فصل « امرؤالقيس وسابقوه » .

(٢) انظر ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(٣) الطلاقة : المطلقة هى القائمة من الفرس ليس فيها بياض – الغابرات : الباقيات .

(٤) الحماة : اللحم المجتمع فى وسط الساقين من ظاهرهما – آرزة : شديدة مجتمع بعضها إلى بعض – الربلات : الأفخاذ .

(٥) الشمراخ : الغرة فى الفرس إذا دقت فى الجبهة وعلى قصبة الأنف – الرثمة : كل بياض أصاب الجحفلة العليا أوأكثر – الرواجب : قصب الأصابع – الرتب : مقدارالفرق بين الخنصروالبنصر.

(٦) ململم : مجتمع الخلق – ضرب : خفيف اللحم .

(٧) اللأم : الشديد – عقب : جرى بعد جرى .

يقوم على خيل المنذر موظفاً مسئولا ، يعرف من أمرها كل شيء ، ويضمّن شعره الكثير من تجاربه فى هذا الموقع ، فيصف الخيل جمعتْ فى مكان مطمئن ليُقَصّ شعرها ، وأصبح هو المتحكِّم فى مصائرها ، استرخى بعضها فما يستجيب لصوت ، ونأى بعضها الآخر فما يجتمع على نداء ، وتمدّدتْ أفراسها حبالى ، بعضها على وشك أن يلد ، وبعضها الآخر يلد فعلا ، تُلقى بأولادها ملفوفة فى جلد رقيق كأنه زهر الشقائق ، وكلها يُعنى بطعامها ، حبالى أومرضعات :

قد بِتُّ ربَّ الخيــل يــوم أقُصُّهــا ... بمجامعِ الفيفــاء يُلقِينَ الحصى

يُنْذرِينَ جَنْدل حائــرٍ لجنوبهـــا ... فكأنّما تُذكِي سنابكُها حُبَى (١)

ولقــد صَمَمْنَ فـــا يُجبْنَ مُوبِّها ... ولقد نَخِلْنَ مِن القيادِ على الوجى (٢)

فى كل منزلـــةٍ وكل مُعــرَّسٍ ... سَخْلٌ تَنَاجَلُه الزجاجُ من الصَّلا (٣)

مُهْــرٌ يُؤَيِّن هالكاً أو مُهْـــرةٌ ... كالفَلْقِ سُلَّ مِن القرابِ ، قد انتحى (٤)

وكأن أسلاءَ الجيـــادِ شقائـقٌ ... أو عُتْرَفانٌ قـــد تحشَّشَ للبلى (٥)

بكــرتْ بأيديهم تَوجسُ حُـــرّةٌ ... نفَسَاء شاخِصَةٌ تَلفَّـــعُ بالسَّلى

يقفونهـــا بالــزاد وهى أثـــيرةٌ ... معصوبة الحِقوَيْن مِن حَذَرِ الخوى (٦)

ويصف غذاء فرسه فى اصطبله ، وقد حبست عليه الإبل الشتاء كله ، يشرب من ألبانها ، فهو جار لها من أن يغار عليها ، لأن صاحبه يقاتل عليه من يريدها ، ويلحق من أغار عليها فيردها .

دافعَ المحلَ والشتاءَ ويَبْسَ الـــ ... ـــعودِ عنــه قَناعِسٌ أظْــآرُ (٧)

رَهِــلاتٌ ضَرَّاتُهــنَّ مَهَـــاريـ ... ـسُ جِلادٌ إذا شَتَوْن غِــزارُ (٨)

فَقصِرْنَ الشتاءَ بعـــدُ عليه ... وهو للذَّوْدِ أنْ يُقَسَّمْنَ جـــارُ

(١) يذرين : يطرن – الحائر : المكان المطمئن .

(٢) المؤبه : الذى يصوت بالخيل .

(٣) معرس : منزل إقامة – الصلا : استرخاء الصلوين وهما على جانبى الذنب لقرب نتاج الفرس .

(٤) الفلق : الكسرة من الشيء ، ومن معانيه السهم .

(٥) الأسلاء : جمع سلى ، الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا .

(٦) الخوى : خلوبطن الفرس عندما تلد .

(٧) قناعس : نوق طويلة سنمة – آظآر : ذوات ولد .

(٨) المهاريس من الإبل : الشداد .

وفرس أبى دواد سليم البدن معافى ، برىء من الأمراض والعلات ، لم يصبه منها ما يوجب عرضه على الطبيب البيطرى ليعالجه :

أَيِّــدُ القُصْرَيَيْنِ مــا قِيــد يَوماً   فيُعْنَى بِصَرْعَــــة بِيْطــارُ

أما امرؤ القيس فأمير ، عالج بعض ما عالج أستاذه من أوصاف الخيل ، وفاقه فى التصوير ، لا يقدم الفكرة فى صورة بسيطة ساذجة ، كما يقدمها أبو دواد فى الأعمّ الأغلب ، وإنما يكسوها أطارف من التشبيه والاستعارة ، ويزيد عليه إطناباً فى الحديث عنها واستغراق جوانبها ، وهو لا ينزل حيث يرى فرسه ماذا يأكل ، ولا ما يُصْنع به إذا مرض ، فلذلك من يقوم به ، وإنما يقدمه لنا صحيحاً نشيطاً ، مهيأ للرحلة دواماً ، مستجيباً للعدْو فى أية لحظة من ساعات الليل أو النهار.

وكما وصف امرؤ القيس الحصان وصف الناقة ، وإذا كان الأول أداة لهوه ومظهره عزه ، فإن الثانية وسيلة الانتقال فى الصحراء ، حين تصعب الأرض ، ويغزر الرمل ، وتنعدم المياه ، ويقل العشب ، وتكثر الأحمال ، ويثقل المتاع .

وقصائد شبابه تخلو من ذكر الناقة تماما ، ولا يأتى لها على ذكر فى المعلقة ، وأول إشارة لها نجدها فى قصيدته التى مطلعها :

خليلىَّ مُرَّا بى على أمّ جُنــدَبِ   نُقضٍّ لُباناتِ الفؤادِ المعـــذَّبِ

وقد قالها حين كان لاجئاً فى بنى طَيِّئ ، وبها بارى علقمة بن عبدة ، على نحو ما أشرنا إليه من قبل[1] . ويبدو كنادم على ذكره لها ، لا يكاد يتحدث عنها فى بيت ، ويشَبّهها بحمار وحشى ، حتى يدعها ويمضى يصف الحمار ويسرف فى وصفه . ولا يأتى ذكره لها إلاّ بعد همّ ، فهو إذا بَعُد عمن يهوى سلا عنه ، وأرضى قلبه ، ووجد العزاء فى رحله على ناقة بيضاء طويلة ، حملته ورحاله ، وكأنها فى سرعتها حمار وحشى ، لم يبيضّ منه سوى خاصرتيه ، يرفع صوته بالأسحار ، يطرب نفسه حين يرعى ، يتهادى نشوان ، كسكران يتمايل ثملاً ، يغنى ليطرب رفاقه المتنادمين ، حمار من « عَماية » يعيش فى أرض معشوشبة ، إذا شرب تساقط من فيه بقايا ما أكل من عشب ، وأخصب ما تكون أرض « عماية » حيث ينحنى الوادى ، هناك يطول نبتها حتى يساوى أشجار السدر ، لأنها ممرّ جيوش ، غانمين وخيَّب ، فلا ينزلها أحد ليرعاها خوفاً ، فذلك أوفر

(١) انظر ص ٦٤ .

لخصبها ، وأتمّ لكلئها :

وإنكَ لم تقطع لبــانةَ عاشق ... بمثلِ غدوٍّ أو رواحٍ مؤوّبِ[١]
بأدماءَ حُرْجُوجٍ كأن قُتُودَهـــا ... على أبلق الكَشْحين ليس بمُغرَب[٢]
يُغرِّدُ بالأسحارِ فى كل سُدْفــةٍ ... تَغَرُّدَ ميَّاحِ الندامَى المَطرِّبِ[٣]
أَقَبُّ رَباعٌ مِـــن حَمِيرِ عَمايــةٍ ... يَمُجُّ لُعاعَ البقلِ فى كل مَشْرَبِ[٤]
بِمَحنِيّةٍ قـــد آذرَ الضـالُ نَبْتَهَا ... مَجَرَّ جيوشٍ غانمين وخُيَّبِ[٥]

وللمرة الثانية يتسلّى عن هموم حُبّه بالرحلة على ناقة شديدة سريعة ، لا يضنيها حرّ الهاجرة ، حين ينتصف النهار وتتوسط الشمس السماء ، وتعيا الإبل ويفتر سيرها ، تطوى ما انخفض من الأرض واطمأن ، وتعلو ما ارتفع منها وصلب ، وكأنها يلفتها السراب وقت الظهيرة اكتست ملاء أبيض منشوراً .

واسعة الصدر ، تباعد ما بين عضديها فاكتمل خلقها ، تعدو مسرعة كأن هرًّا قد ربط إلى حزامها ، فهو يخدشها وينفرها ، وتُطايرُ الحصى بأخفافها ، دون أن يؤثّر فيها يصيبه من ساقها ، أو يذهب بشعره ، ويتناثر الحصى من خلفها وأمامها ، ترمى به رجلها فى كل جهة ، وعلى غير نظام ، كأنه رمى أعسر ، وصوت الحجارة حين ترمى بها وتقع ، كصوت دراهم رديئة ، ينقدها صيرف من « عبقر » :

فـــدعْ ذا وسلِّ الهمَّ عنكَ بجسْرةٍ ... ذَمولٍ إذا صام النهارُ وهجَّرَا[٦]
تقَطعُ غيطاناً كأنّ متونهـــــاَ ... إذا أَظْهرتْ تُكْسَى ملاءً مُنشَّرا[٧]
بعيـــدة بين المنكبيْنِ كأنّهــا ... ترى عند مَجْرَى الضّفرِ هرًّا مُشَجَّرَا[٨]

---

(١) لبانة : حاجة – المؤوب من يسير النهار كله .

(٢) الأدماء : الناقة البيضاء – الحرجوج : الطويلة – القتود : أداة الرحل – أبلق : أبيض – مغرب : أبيض الوجه والأشفار وهو عيب .

(٣) السدفة : بقايا ظلام الليل – المياح : الذى يميح فى جانبيه ، يميل شدة ونشاطاً .

(٤) أقب : ضامر البطن – رباع : ألقى رباعيته – عماية : جبل بناحية نجد .

(٥) المحنية : حيث ينحنى الوادى – آزر : ساوى – الضال : شجرة السدر .

(٦) الجسرة : الناقة النشيطة – الذمول : ذات السير السريع – صام النهار : قام واعتدل .

(٧) الغيطان : ما انخفض من الأرض – المتون : ما ارتفع منها – أظهرت : دخلت فى الظهيرة .

(٨) الضفر : حبل مفتول يشد به البطان – المشجر : المربوط إليها .

تُطايـــرُ ظُرَّانَ الحصى بمناسمٍ ... صِلابِ العُجَى ملثومُها غيرُ أمْعَرا[١]
كأنّ الحصى مـــن خلْفِها وأمامِها ... إذا نَجلته رِجْلُها خذْفُ أعْسَرَا[٢]
كأن صليلَ المَرْوِ حين تطيرُه ... صليلُ زيوفٍ يُنْتَقدْنَ بعَبْقَرَا[٣]

أما فى القصيدة التى مطلعها :

غشيتُ ديـــارَ الحيِّ بالبَكَـراتِ ... فعارمةٍ ، فبُرْقـــةِ العيَرَاتِ

فيذكر الناقة فى البدء عرضاً ، يقول إنه عليها ، تسرع به كحمار وحشى ثم يدعها إلى الحمار نفسه ، يصفه مع أتنه فى أبيات ستة عرضنا لها قبل[٤] ، يعود بعدها إلى الناقة من جديد ، يمدحها ويذمها فى بيتين اثنين ، كانت ناقة طيبة ، متماسكة كألواح تابوت موتى النصارى ، وما زال يحثها ويزجرها على طريق بيِّن متشعب ، حتى تركها رذّية عييّة ، ورغم حمله عليها فى السير ، واستخدامها فى السفر البعيد ، لما تزل فيها بقية وحِدّة ! :

وعَنْسٍ كألواحِ الإران نسأتُهـا ... على لاحب كالبُرْدذى الحِبَرات[٥]
فغادرتُهـا مِـــن بعد بُدْنٍ رَذِيَّـةً ... تَغَالى على عوجٍ لها كَدِنات[٦]

وقد أسرف الدكتور سيد نوفل فى التأويل حين ارتأى « أن امرأ القيس لتوضيح معنى الهزال فى ناقته ، استعار معانى الفناء من ألواح سرير الموتى ، ومعانى التفرقة بين ما كانت عليه الناقة فى شبابها ، وما هى عليه فى هزالها ، من الخطوط المتميزة فى الثوب »[٧] لأن الإران تابوت من خشب صلب يشد بعضه بعضاً ، وبه يشبه

---

(١) الظران : جمع ظرر ؛ وهو الطويل من الحصى – المناسم : جمع منسم ؛ وهو الخف – العجى : جمع عجية أو عجاية ، وهو عصب صغير فى اليدين والرجلين – غير أمعر : ما يصيب أرجلها من الحجارة لا يؤثر فيها ولا يذهب بشعرها .

(٢) نجلته : فرقته – الخذف الرمى .

(٣) المرو : الحجار – الزيوف : الرديئة – عبقر : موضع باليمن كانت دراهمه زيوفا .

(٤) انظر ١٦٧ وما بعدها .

(٥) العنس : الناقة الطيبة الشديدة – الإران : تابوت موتى النصارى – لاحب : طريق بين – ذى الحبرات : ذى الوشى والتزيين .

(٦) بدن : سمينة – رذية : معينة – تغالى : تنكمش فى السير – العوج : قوائمها المعوجة – كدنات : شديدة صلبة .

(٧) سيد نوفل : شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ٣٣ ، القاهرة ١٩٤٥ .

العرب الناقة القوية ، لا الهزيلة ، يقول طرفة ، وهو خير من وصف الناقة :

أمـــون كألواح الإران نسأتهـــا على لاحبٍ كأنّه ظهرُ بُرْجُدِ[١]

والخطوط المتميزة فى البرد الموشى ، التى جاءت فى شعر امرئ القيس ، كانت لتوضيح صورة الطريق التى عبرها ، صنعتها القوافل بأخفافها ، تتلوى عبر وديان تختلف ألوانها ، ومن التكلف البالغ أنْ نفهم أنَّ امرأ القيس رمز به للتفرقة بين حالى الناقة سمينة قوية ، وهزيلة متداعية .

فى القصيدة التاسعة من الديوان كان نصيب الناقة بيتاً واحداً ، يقول فيه إنه قطع أرضاً واسعة تتحرَّقها الرياح على ظهر ناقة قوية ، لينة المشى سهلة ، مذعان مطاوعة :

وَخَرْقٍ بعيـــدٍ قد قطعتُ نِياطُـــه على ذاتِ لَوْثٍ سَهْوَةِ الْمَشْىِ مِذْعَانِ

ثم حظيت بخمسة أبيات كاملة من القصيدة الخامسة عشرة ، فيها أخذ يحث ناقته الجادة على السير ، فأسرعت فى خطو متقارب كنعامة ، خلال ظهيرة متوهجة ، طويلة العنق ، مشرفة الرأس ، دامية الخف ، قوية نشيطة ، رغم ما تلقى من عنت ومشقة ، تتمايل فى كل جهة لشدة سيرها ، تكاد تصرعه ، وهيهات ! وهو على ظهرها تطوى الأرض طيًّا ، بدت له « بدراً » موصولة « بكُتَيْفَة » و « أرمام » بعضٌ من « عاقل » ، رآها مواضع متصلة على تباعد ما بينها ، فدعا لها بالخير والسلام جزاء ما أسرعت :

وَمُجِــدَّةٍ نَسَّأْتُهَــا فتكمَّشَتْ رتْكَ النعامةِ فى طريق حامِ[٢]

تَخْدِى عَلَى العِلاَّتِ سَامٍ رأسُهـا روْعاءُ مَنْسِمُها رَثِيمٌ دامِ[٣]

جالتْ لتصْرَعَنى فقلتُ لها اقْصِرِى إنِّى امرُؤٌ صَرْعِى عليك حَرَامُ

وكأنّمـا بَـدْرٌ وَصِيلُ كُتَيْفَةٍ وكأنّمَا مِـن عاقلٍ أرْمَـامُ[٤]

فَجُزِيت خيرَ جزاء ناقــةِ واحدٍ ورجعْتِ سالمةَ القَرَا بِسَلاَمِ[٥]

---

(١) أمون : موثقة الخلق – نسأتها : حملتها على السير – البرجد : كساء فيه خطوط .

(٢) نسأتها : حملتها على السير – تكمشت : أسرعت – رتك النعامة : تقارب خطوها فى سرعة .

(٣) تخدى على العلات : تسرع على ما بها من مشقة – روعاء : تفزع من كل شيء – المنسم : باطن خف البعير – الرثيم : الذى رثمته الحجارة ، أى جرحته فهو يسيل دما .

(٤) بدر وكتيفة وعاقل وأرمام : أسماء أمكنة .

* هذا البيت يأتى فى الديوان بعد تاليه ، وقدمناه ليكون بناء الأبيات أكثر توافقا . (٥) القرا : الظهر .

وعاد يعزّى نفسه عن ذهاب الأحبة بالابتعاد عن منازلهم على ناقة قوية متينة ، طويلة كبنيان اليهودى ، إذا زجرتها استجابت وأسرعت ، امتد عنقها كأنه عَذْق من غراس ابن معنق ، تُتابع سيرها لينة هينة ، كسحاب متفرق يدفع بعضه بعضاً ، لا تتوقف فى عدوها ، كأنَّ إلى جنبها هرا تجرّه ، يخدشها عبر الطريق ، وعند كل منحنى ، سريعة يرى نفسه فوقها ، وقرابه ونمرقه ، كأنه يمتطى ظليما من النعام ، فزعاً نافراً ، ذا زوائد فى رجليه ، يروح من أرض لأرض بعيدة ، لأنه ذكر حفرة له ، فيها صغاره ، وبقايا بيض فلّق ، وبيض يوشك أن يفقس ، يطوف بآفاق البلاد ، ويذهب بعيداً ، تسحقه ريح الصبا سحقاً :

فعزَّيتُ نفسى حين بانوا بجسْرةٍ ... أمونٍ كبنيانِ اليهودىّ ، خيْفَقِ[١]
إذا زُجـرتْ ألفيتَهَـا مشمعلَّـةً ... تُنيفُ بعذْقٍ مِن غراسِ ابن مُعْنِقِ[٢]
تروح إذا راحت رواح جَهامـةٍ ... بإثر جهـامٍ رائح متفـرِّقِ[٣]
كأنّ بهـا هـرًّا جَنيبـاً تَجـرُّه ... بكل طريق صادفَتْـهُ ومأْزِقِ[٤]

* * *

كأنّى ورحْـلى والقـرابَ ونمْرُقى ... على يَرْفَئِىّ ذى زوائدَ نَقْنَقِ[٥]
تروّحَ مِـن أرضٍ لأرضٍ نَطِيَّةٍ ... لِذِكْرةِ قيْضٍ حول بيضٍ مُفلَّقِ[٦]
يجولُ بآفاقِ البلادِ مغرِّبـاً ... وتسحقهُ ريحُ الصِّبا كلَّ مَسْحَقِ[٧]

وعلى نفس النهج يتسلّى عن تذكّر حبيبة ملتفّة الغدائر ، بيضاء الأسنان ، بناقة خفيفة سريعة ، تميزت هذه المرة بأنها حائل لم تلقح ولم تحمل ، تظاهر عليها الشحم من كل جانب ، ليست بَكرة ، ولا ذات ضغن فتنزع إلى موطنها دائماً ، ويحتاج حاديها إلى أن يشدّها دوماً ، مستجيبة تعطى ما عندها من السير فى سهولة ،

(١) جسرة : ناقة — خيفق : طويلة .
(٢) مشمعلة : سريعة — تنيف : تشرف .
(٣) جهامة : سحابة .
(٤) المأزق : الطريق الضيق .
(٥) القراب : الوعاء يتخذ من أديم — يرفئ : ظليم ؛ وهو الذكر من النعام — النقنقة : صوته .
(٦) نطية : بعيدة — القيض : فلق البيض وقشوره .
(٧) مغرباً : بعيداً — تسحقه : تذهب به بعيداً .

وكأنّه عليها ورحله وقرابه ونمرقه ، ومن حولها تتناثر الأحجار الصغار ، وتتكسر فيكون لها وميض ، على ظليم من النعام ترك عرسه وبيضهما بمنعرج الوعساء ، فإذا آب إليها في آخر النهار يعودها ، خشيته وهربت منه . ثم يسائل امرؤ القيس نفسه : أيهما أكثر شبهاً بناقتى ، ذلك الظليم من النعام ، أم هذا الحمار من الوحش ؟ .

وهكذا يمضى فى حديثه ، من الناقة إلى النعامة ، ومن النعامة إلى حمار الوحش ، يفصّل من أمره وحاله وخلْقه وجسمه ، هو حمار أبيض ، يطارد أتنا ذوات صغار كثيرة ، أضمره العدو ، خميص البطن ، مرتفع المتن ، على حاجبه خدش من بقايا ضرب ، وبصدره آثار عضّ انحص عنها الشعر ، وكأن ظهره ، بما فى وسطه من خطة تخالف سائر لونه ، جعاب السهام يجرى بينها الذهب ، وهى فى « قو» تأكل نبتاً وبقلا غضًّا ، رُعِيَ من قبل ثم أخلف ثانية ، سمنت عليهِ ، وتناثر شعرها فكأنه نسيل حرير أخضر ، أوخوص نخل أطارته الرياح ، ظل يرعاها فى الصيف بأعلى حائل ، حتى إذا جاء الربيع ولم يَسُغ لها حليّ وقصيص ، تركت المكان إلى آخر ، ترعى الكلأ الغض ، وتستغنى به عن شرب الماء ، لولا أن الهاجرة اشتدت على صغارها فصاتت تطلب الماء ، فصاح بها الفحل يناديها ، فأقبلت عليه أتان ، طويلة الأرساغ ! غير حامل ، فأوردها آخر الليل ماء غزيراً ممتداً ، غطته طحالب خضراء ، فشر بن على حذر ؛ وهنّ خوائف ، ترتعد منهن الكلى والفرائص ، ثم أصدرها عشيَّة فسلك بها طريقاً مرتفعاً ، يقوم عليها شديد البأس ، خفيف الخطو ، كمقلاء الوليد ، وخلفهن سار جحش ، وجحش آخر سقط عند رجوعهن فاندقت عنقه :

فهــل يُسلِّينَ الهمَّ عنكِ شِملــةٌ مُداخَلَةٌ صمُّ العظامِ أصوص[١]
تظاهَــرَ فيها النيُّ لا هى بكرةٌ ولا ذاتُ ضِغْنٍ فى الزّمام قَمُوصُ[٢]
أؤوبٌ، نعوبٌ لا يُواكِلُ نَهْزُهـــا إذا قيل سيرُ المدلجين نَصِيصُ[٣]

---

(١) الضمير فى عنك يعود إلى صاحبته ، وشملة الناقة الخفيفة – الأصوص : الناقة الحائل التى لم تلقح ولم تحمل .

(٢) النى : الشحم – البكرة : الفتية من النوق – لا ذات ضغن : لا تنزع إلى موطنها – القموص : التأخر.

(٣) النعوب : المسرعة كأن لها صوتاً تخرجه – لا يواكل : لا يتراخى – نهزها : جذبها – المدلجين : جمع مدلج ؛ السائرون أول الليل – نصيص : نص كل شيء منتهاه .

كأنى ورحْلى والقرابَ ونُمْرُقِى ... إذا شُبَّ للمرْوِ الصغارِ وبيصُ(١)
على نِقْنِقٍ هَيْقٍ لـه ولعرسه ... بمُنْعرج الوعساءِ بَيْضٌ رَصيصُ(٢)
إذا راح للأُدْحىّ أوباً يفنُّهـا ... تحاذرُ مـن إدْرَاكِهِ وتحيص(٣)
أذلك أم جونٌ يُطـارد آتُنـاً ... حملْنَ فأَرْبَى حَمْلهنَّ دُرُوصُ(٤)
طواه اضّطمارُ الشدِّ والبطـنُ شازبٌ ... معالًى عَلَى المتنيْنِ فهـو خميصُ(٥)
بحاجبـهِ كدحٌ من الضَّرْبِ جَالبٌ ... وحارِكهُ من الكِدَام حَصيصُ(٦)
كأَنَّ سراتُه وجُـدّةَ ظهـرِهِ ... كنائنُ يَجْرى بَيْنَهُنَّ دَليصُ(٧)
ويأكلْن مـن قَوٍّ لُعَاعًا وربّـةً ... تَجَبَّر بَعْد الأَكْلِ فهو نميصُ(٨)
يُطير عِفَـاءً من نسيلٍ كأنَّـهُ ... سُدوسٌ أطارتْـهُ الرياحُ وخُوصُ(٩)
تصيّفها حتى إذا لمْ يَسغْ لهـا ... حَلِىٌّ بأَعلى حائلٍ وقَصِيصُ(١٠)
تغَالَبْن فيـه الجزءَ لولا هواجـرٌ ... جنادبهـا صَرْعى لهـنَّ فَصيصُ(١١)
أرنَّ عليهـا قاربـاً وانتحت لـه ... طُوالةُ أرساغِ اليديـنِ نَحُوصُ(١٢)
فأَوْردهـا من آخـرِ الليلِ مَشْرَباً ... بَلائقَ خُضْراً ماؤهنَّ قليصُ(١٣)

---

(١) المرو : الحجارة – وبيص : بريق .

(٢) نقنق : الذكر من النعام – منعرج : منقطع – الوعساء : أرض ذات رمل .

(٣) الأوب : الرجوع – الأدحى : الموضع الذى فيه بيض النعام – يفنها : يعودها – تحيص : تهرب .

(٤) الجون : الحمار فى لونه بياض – إناث البقر الوحشى – دروص : صغار .

(٥) الاضطمار : الضمر – الشد : العدو – شازب : ضامر – معالى : مرفوعاً – خميص : ضامر .

(٦) الكدح : الأثر – جالب : جرح جالب عليه قشرة – الحارك : ما بين كتفى الحمار – الكدام : العض – حصيص : انحص شعره .

(٧) سراته : ظهره – جدة ظهره : الخط الذى فى وسط ظهره – كنائن : جمع كنانة ؛ وهى جعبة السهام – دليص : ذهب له بريق .

(٨) قو : اسم موضع – اللعاع : القليل الرقيق من النبت والبقل – الربة : نبت – نميص : صغير .

(٩) العفاء : الخفيف – النسيل : ما سقط من الشعر – السدوس : الطيلسان – الخوص : ورق النخل .

(١٠) حلى : نبت – حائل : اسم موضع – قصيص : شجر .

(١١) الجزء : أن تأكل الرطب وهو الكلأ فى أيام الربيع فتستغنى به عن شرب الماء – الهواجر : جمع هاجرة ؛ وهى شدة الحر فى أنصاف النهار – الجنادب : جمع جندب ، ذكر الجراد – فصيص : صوت .

(١٢) أرن : نهق – قاربا : معناها هنا داعيا إلى الماء – انتحت له : قصدته – بحدص : لم تحمل بعد .

(١٣) بلائق : جمع بلثوق (بضم الباء وسكون اللام) ؛ وهى المياه المستنقعة أو المنبسطة على الأرض – قليص : قلص الماء إذا كثر وارتفع وجم .

فيشرَبْن أنفاساً وهـــن خوائفٌ ... وتُرعدُ منهنّ الكُلَى والفرِيصُ(١)
فأصْدَرهـــا تعلو النِّجادَ عشيّةً ... أقبُّ كمِقْلاء الوليدِ شَخِيصُ(٢)
فَجحْشٌ على أدْبارِهِـــنّ مُخَلَّفٌ ... وجحشٌ لدى مَكَرِّهنَّ وقيصُ(٣)

اتخذ امرؤ القيس ، كما رأينا ، من الناقة معبراً ليصف لنا النعامة ، أو الحمار الوحشى ، واتخذ الفرس مطية ينقلنا بها إلى عالم الصيد ، بوسائله وحيوانه ومغامراته وما يدور فيه من صراع بين الإنسان والحيوان ، أو بين الحيوان والحيوان وقد يعاوده الحنين إلى الحديث عن الفرس ، فيضمن كلامه عن الصيـــد بعضا من شمائله وخصائصه ، على نحو ما سنرى .

وتضم « معلّقته » وهى أول قصيدة فى ديوانه ، وصفاً موجزاً لواحدة من رحلات صيده ، يصف فيها قطيعاً من بقر الوحش اعترض طريقه ، تمشى إناثه مطمئنّة ، على مهل وفى تناسق ، ويلفّها هدوء خاشع ، كأنهن عذراوات حسان يطفن « بدوار » ، صنم كان يعبد فى الجاهلية ، وقد سبق فرسه سرب البقر ، ثم ردّها على أعقابها فدارت حيارى ، وتناثرت كقلادة من جَزَع ، قلادة ثمينة يلبسها صبىّ كريم على أهله عمومة وأخوالا ، وقد أدرك الفرس أوائل الوحش ، وبقيت أواخرها هادئة لم تتفرق ، كأنها لسرعة فرسه لم تشعر بما أصاب هواديها ، فما ذعرت ولا تفرّقت ، وقد تبع ثورا ونعجة فأدركهما فى طلق واحد ، ولم يعرق لفرسه بدن فيغسل ، ولطّخ صدرَه دمُ الوحش الذى صاده ، كأنه عصارة حنّاء صبغ بها شيب ، وبدأ الطهاة يعالجون لحم ما صاد ، منهم مَن يشوى ، ومنهم من يطبخ فى القدر يتعجّل إنضاج لحمه :

---

(١) الفريص : جمع فريصة ؛ اللحمة التى تلى الإبط ، وهو أول ما يرعد من الدابة .

(٢) أصدرها : الإصدار عكس الورود ، عاد بها من الشرب – النجاد : الطريق المرتفع – أقب : ضامر البطن – المقلاء : العود الذى يضرب به الغلام القلة ، وهى لعبة لصبية الأعراب – شخيص : مرتوع .

(٣) مكرهن : رجوعهن – وقيص : سقط فاندقت عنقه .

* بعد البيت الأخير يوجد فى الديوان البيت التالى :

وأصـــدرها بادى النواجـــذ قارح ... أقب ككر الأنـــدرى محيص

وأراه فى غير مكانه ، ولأنه آخر بيت فى القصيدة يبدو لى أن ألصق بها إلصاقا ، لأنه لا يزيد عن المعنى الوارد فى البيت الذى قبل الأخير هنا شيئا .

فعنَّ لنـا سِرْبٌ كأن نِعاجَـهُ عَذارَى دُوارٍ فى مُلاء مذَيَّلِ(١)
فأدْبرنَ كالجزْع المفصَّل بيْنَه بجيدِ مُعَمّ فى العشيرةِ مُخْوَلِ(٢)
فألحْقَنَا بالهــاديات ودُونَــه جواحِرُها فى صرَّةٍ لم تزَيَّلِ(٣)
فعادَى عِــداءً بينَ ثــورٍ ونعْجةٍ دِرَاكاً ولم ينضح بماءٍ فيَغْسَلِ(٤)
كأنّ دماء الهــاديات بنحْــرِهِ عُصارةُ حِنّـاء بِشَيْبٍ مُرجَّلِ
فظلَّ طُهاةُ اللحمِ مِن بيْنِ مُنْضجٍ صَفيفَ شِواء أو قَديرٍ معجلِ(٥)

لكن وصفه الذى نعرض له الآن ، أجمل بياناً ، وأدق تفصيلا ، فقد خرج للصيد مبكّرا على فرس ضامرة قوية ، فذعر بها قطيعاً من بقر الوحش ، بيضاوات الجلود ، موشيات الكوارع ، مثْل خالٍ من برود اليمن ، فلما أحستْ به البقر أجهدت العدو فى « جمَزَى » ، كأنها خيل عليها أجلال بيض ، ثم لاذت بالفحل يحميها ، فحل مُسِنّ ، أخنس الأنف ، ممتدّ الظهر ، طويل القرن ، جعلته ممايلى الصائد ليذبّ عنها ، بينما ركّز الصائد عينه على ثور ونعجة من سمانِ القطيع ، يلاحقها فى طلق واحد ، تبذل الفرس من سرعتها ، ويعطى هو من فنه ، حتى لا يفلت الوحش منهما ، وكانت الفرس فى عدوها سريعة منقضة كأنها عُقاب صيود .

وامرؤ القيس لا يقنع من العقاب بلفظها ، وبما يوحى به من سرعة وانقضاض ، وإنما يرسم لنا صورة واضحة لحركتها وطباعها وهدفها وإنسانيتها ، إنْ صح هذا التعبير ، وللأرض التى تجعل منها ساحة لنشاطها ، ووكرها الذى تتّخذه سكنا .

بلى ، إن فرسه فى عدوها صورة من عُقاب فتخاء الجناحين ، تبسطهما وتقبضهما فى يسر ، ذات أفراخ صغار تطعمها ، فلا تملّ الطيران من أجلها ، بحثاً عن صيد جديد ، وهى عقاب حديدة البصر ، تنقضّ على أرانب « الشَّرَابَّة » ضحوة ، بعد أن أدركت خطرها ثعالب « أُورال » فاختفت خوفاً ، ويزدحم وكرها بقلوب الطير التى

(١) عنّ : عرض – سرب : قطيع – نعاج : جمع نعجة ، إناث الحمر الوحشية – دوار : صنم من أصنام الجاهلية – الملاء : الملاحف – مذيل : طويل الذيل مهدب .
(٢) المفصل : الذى فصل بينه باللؤلؤ – جيد : عنق .
(٣) الهاديات : المتقدمات من البقر – الجواحر : ما تخلف منها – والصرة : الجماعة – لم تزيل : لم تفرق .
(٤) دراكا : مداركة .
(٥) قدير : ما يطبخ فى القدر .

جاءت بها إلى أفراخها فالتهمتها ، قلوب مضى على بعضها حينٌ من الدهر فيبست وجفَّت ، وأخرى قريبة عهد لمّا تزل رطبة ليّنة ، وهذا الخليط من بقايا القلوب يابسة ولينة كالعنّاب رطبا ، وحشف التمر قديماً ويابسا ، صورة دقيقة بديعة ، كان بشّار بن بُرْد يغار منها ، ويقول : ما قرَّ لى قرار منذ سمعتها ، حتى صنعتُ مثلها[1] وقد سبق رحلة الصيد حديث عن فرس فى بيت واحد ، كان كالتمهيد لها :

ذعــرْتُ بها سِرْباً نَقيًّا جُلـــودُه ... وأكْرُعة وشىُ البُرودِ مِن الخالِ[2]

كأنّ الصُّوارَ إذ تجهّـــد عَـدْوَهُ ... على جَمَزَى خيلٌ تجولُ بأجلالِ[3]

فجـــال الصّوَارُ واتَّقَيْنَ بقَرْهَبٍ ... طويلِ القرا والرّوْقِ أخنسَ ذَيَّالِ[4]

فعادى عِـداءً بيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَـةٍ ... وكان عِـداءُ الوحْشِ منىّ على بالِ[5]

كأنى بفَتْخَـاءِ الجَنَاحَيْنِ لِقْوةٍ ... صَيُودٍ من العِقْبان طأطأتُ شِملالِ[6]

تخطَّفُ خِزّانَ الشَّرَبَّــةِ بالضحَـا ... وقد جَحَرتْ منها ثعالبُ أَوْرالِ[7]

كأن قلوبَ الطيْرِ رَطْبــاً ويابساً ... لدى وَكْرِها العنّابُ والْحَشَفُ البالى[8]

وهو فى صيده لا يقف عند نوع معين من الوحش ، وإنما يلاحق ألواناً متعدّدة منه ، بعضها بقر أبيض الجلود ، أنِس شيئاً فهو أقل خوفاً ، وبعضها الآخر اتُن بيدانية لا تقرب الناس ، ذات ولد تخشى عليه فهى مذعورة أبداً ، وفى يومه هذا لَقِى نعاجا يرتعين خميلة ، يتبخترن فيها كعذراوات فى أردية بيضاء مهدبة ، فتنادى الصيادون ، وشدّ كل واحد عذار فرسه عجلا ؛ وعدت البقر ، وأدرك الرفاق أن امرأ القيس لها

---

(١) بيت بشار الذى يشير إليه :

كأن مثار النقع فوق رؤوسهم ... وأسيافنـــا ، ليـــل تهاوى كواكبه

(٢) الخال : ضرب من برود اليمن .

(٣) الصوار : قطيع بقر الوحش – جمزى : هنا اسم موضع .

(٤) قرهب : فحل من البقر مسن – الأخنس : القصير الأنف – القرا : الظهر – الروق : القرن – أخنس : قصير المشافر – الذيال : السابغ الذنب .

(٥) على بال : موضع اهتمام منى .

(٦) الفتخاء : اللينة الجناحين – اللقوة : السريعة من العقبان – طأطأت : دانيت وخفضت – الشملال : الخفيفة السريعة .

(٧) خزان : جمع خزن (بضم الخاء) ، وهو ذكر الأرانب – الشربة : اسم موضع – جحرات : اختفت – أورال : اسم موضع .

(٨) العناب : ثمر الكرز ، أو هو فى شكله – الحشف البالى : ردىء التمر ويابسه .

وحده فنادَوْه : سبقنك فاعجل بهنّ ، فتقدَّم إليها ومعه غلامه على ظهر فرس قوى مجدول الظهر ، فى صلبه ويديه انحناء ، وجَهدَ الغلام ليكون على مستوى عَدْو سيّده ، بينما اندفع فحل القطيع كمطر منهمر عشية ، وتبعته النعاج ، موليات يخرجن من أرض ندية خصبة والفرس يلاحقها ، والفارس من فوقه يلهبه بساقه ، ويدره بسوطه ، ويزجره بصوته ، فيندفع أهوج مجنوناً سريعاً كخذروف الوليد ، يبلغ صيده فى طلق واحد غير متعب . كان وطيس المعركة ساخناً ، حتى إن الفيران فى منخفض الوادى أحسَّتْ بها ، ظَنَّتْها مطراً ينهمر ، يوشك أن يغرق جحورها ، فتركها مسرعة تخطّ لها طريقاً على جدد الصحراء ، حيث الأرض مستوية وصلبة .

وعندما بلغ هذا القدر من التمهيد ، بدأ يرسم صورة أخاذة ، ونابضة بالحياة والحركة ، بين الفرس وبين ثور ونعجة ومعهما شَبُوب ، هو فحل القطيع وأسنّه والذاب عنه ، ابيضّ جلده كصحيفة ، لحقها الفرس ، وأراد أن يصرعها جميعاً فى شأوواحد ، بينما بقية الثيران تضرب فى الرمل ، تلاحقها رماح مشدودة فيُسْمع لها غماغم ، صُرع بعضها فانكبّ على وجهه ، واتقاها بعضها الآخر بقرونه وقرون حديدية كأنها حدّ المخرز .

فلما فصلتْ المعركة أمر الفتيان بالنزول ، ودعاهم إلى نصب الخباء ، وجعلوا دروعهم أوتاده ، وسيوفهم عُمُده ، وحبال إبلهم أطنابه ، وفضل أثوابهم ستاره ، حتى إذا أُقيم دخلوه وأسند كلٌّ ظهره متعباً إلى رحل جديد منمّق صُنع فى الحيرة ، وحوله أسند الوحش ميتاً ، تبدو عيونه ، انقلبت فبدا فيها البياض والسواد ، خرزا لما يُثقَّب . ثم أكلوا من لحمها شواء نصف منضج ، وفى أعراف الخيـــل مسحوا أكفّهم ، وكان اللحم كثيراً ، فحملوا بقيّته ، معهم ، وُضع جانب منه فى الحقائب ، وجُعل الجانب الآخر فى خرجة تحتهم على الخيل تضيق بما فيها ، كما لو كانوا عائدين من « جُوَاثى » ، حيث التمر كثير وجميل ، ويحمل منه الناس ما طاب لهم بينما الفرس نشط كتيس من الظباء ، يعيش على نبت الرمل ، فهو ينفض رأسه ، ضيقاً بريح عرقه وتأذّياً منه :

فيوْماً على سِربٍ نقىّ جُلُـــودُه ويوماً على بَيْدانة أمِّ توْلبِ[1]

---

(١) بيدانة : أتان فى البيد – التولب : الولد الصغير .

فبينــا نِعاجٌ يرْتَعين خميلــةً ... كمشْى العذارَى فى الْمَلاءِ المهدَّبِ (١)

فكان تنَادِينَـــا وعَقْدَ عِــذَارِه ... وقال صِحابى قد شأَوْنَكَ فاطْلُبِ (٢)

فَلأياً بلأْيٍ ما حملْنـــا وليــدَنا ... على ظَهْرِ مَحْبوكِ السَّراةِ مُحَنَّبِ (٣)

وولى كشؤْبــوبِ العَشىِّ بوابــلٍ ... ويخرُجْنَ مِن جعْدٍ ثراهُ مُنَصَّبِ (٤)

فللساقِ أُلْهــوبٌ وللسَّوْطِ دِرَّةٌ ... وللزجْــرِ منه وقْعُ أهْوجَ مِنْعَبِ (٥)

ترى الفأرَ فى مُستنقع القاعِ لاحباً ... على جَدَدِ الصحراءِ مِن شد مُلْهِبِ (٦)

خَفاهُنَّ مـــن أنفاقِهِــنَّ كأنما ... خَفاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِىٍّ مجلِّبِ (٧)

* * *

فعادَى عِداءً بين ثـــورٍ ونعْجةٍ ... وبين شَبُوبٍ كالقضِيمَة قَرْهَبِ (٨)

وظلَّ لثيرانِ الصَّريم غماغِــمٌ ... يُدَاعِسُها بالسَّمْهَرِىِّ المعلبِ (٩)

فكابٍ على حُــرِّ الجبين ومُتَّقٍ ... بِمَدْرِيَةٍ كأنّها ذَلْقُ مِشْعَبِ (١٠)

وقُلنــا لفتيان كــرامٍ ألا انزلوا ... فعالُوا علَينا فضل ثوب مُطنب (١١)

وأوْتادُه ماذِيّــةٌ وعمــادُهُ ... رُدَيْنِيّةٌ فيها أسِنّةُ قعْضَبِ (١٢)

---

(١) النعاج : إناث بقر الوحش — الخميلة : رملة فيها شجر — الملاء : الملاحف البيض — المهدب : ذو الهدب .

(٢) شأونك : سبقنك .

(٣) المحبوك : القوى المجدول — السراة : الظهر — المحنب : الذى فى يديه وصلبه انحناء .

(٤) شؤبوب : دفعة المطر الغزيرة — الجعد : الشديد النداوة .

(٥) المنعب : الذى يستعين بعنقه فى الجرى ويمده .

(٦) لاحبا : مسرعا — الجدد : ما استوى من الأرض — ملهب : شديد العدو.

(٧) الودق : المطر — المجلب : الذى تسمع له جلبة .

(٨) الشبوب : الثور المسن — القضيمة : الصحيفة البيضاء — القرهب : المسن .

(٩) الصريم : القطعة من الرمل تنقطع عن معظمه — الغماغم : الأصوات — يداعسها : يطاعنها — السمهرى : الرمح الشديد — المعلب : المشدود بالعلباء ، وهى عصا فى القفا يشدون بها الرماح وهى طرية ، ثم ييبس عليها . فيؤمن من تعطفها عند المطاعنة .

(١٠) كاب : ساقط — المدرية : القرن — ذلق : حد — مشعب : مخرز :

(١١) عالوا : ارفعوا — مطنب : مشدود بالأطناب ، وهى حبال الخباء .

(١٢) الماذية : الدرع الصافية — الردينية : رماح نسبت إلى « ردينة » ، امرأة كانت تبيع الرماح — قعضب : اسم رجل كان يعمل الأسنة من بنى قشير ، ويقال هوزوج ردينة .

وأطنابــهُ أشْطانُ خُوصٍ نجائبٍ ... وصهوتــهُ مِنْ أتحميٍّ مُشَرعَبِ(١)

فلمّــا دَخَلنَاه أَضَفْنَا ظُهورَنــا ... إلى كل حاريٍّ جديدٍ مُشطَّبِ(٢)

كأنّ عيونَ الوحْشِ حولَ خِبائنـا ... وأرحُلِنا الجزْعُ الذى لم يثقَّبِ(٣)

نَمُشُّ بأعــرافِ الجيــادِ أكفّنا ... إذا نحنُ قُمنا عن شِواءٍ مُضهَّبِ(٤)

ورُحنا كأنّا من جُؤَاثَى عَشِيَّـةً ... نُعالى النعَاجَ بيْنَ عِدْلٍ ومُحْقَبِ(٥)

وراحَ كَتَيسِ الرَّبْــلِ يَنفضُ رأسه ... أَذَاةً به من صائكٍ متحلِّبِ(٦)

فى هذه المرّة فصَّل القول عن رفاقه فى الرِّحلة . الربئ والغلام ، فقال إنه غدا فى رحلته قبل أن يهبّ الناس من نومهم ، على فرس ضخم ، صليب الجنب ، شبعان ممتلئ الجوف . وأرسل قبله ربيئاً يستطلع المكان ، ويراقب الصيد من مشرف مرتفع ، يحسن التستُّر والاختفاء كذئب الغضا ، يمشى الضراء ويتقى ، يرفع رأسه وسائر بدنه ملتصق بالأرض كولد ظبية ، حتى لا يراه الصيد فينفر منه ، وحين لمح بعضاً منه عاد يزحف على بطنه ، يلفه الغبار من كل جانب ، وأنبأه : هناك قطيع من البقر ، وعانة من الحمر ، وخيط من النعام ، ترعى متفرقة ، فقام إلى فرسه فألجمه ، فرس كغصن البان صفاء لون وحسن منظر ، نشط مرح لا يكاد يهدأ ، لم يستطع الغلام

---

(١) أطناب : حبال الخباء – أشطان : جمع شطن ؛ وهو حبل الناقة – الخوص : النوق الغائرة العيون – صهوته : أعلاه – الأتحمى : ضرب من برود اليمن – المشرعب : المصنف .

(٢) حارى : رحل منسوب إلى الحيرة – المشطب : الذى فيه خطوط وطرائق .

(٣) الجزع : خرز يمانى فيه بياض وسواد .

(٤) نمش : نمسح – المضهب : الذى لم يدرك نضجه .

(٥) جؤاثى : قرية بالبحرين يمتاز فيها التمر – عدل : جعل فى خرج – محقب : وضع فى حقيبة .

(٦) الربل : نبت ينبت فى آخر الصيف – التيس : الذكر من الظباء . الصائك : العرق الثقيل الريح – متحلب : تحلب العرق سال .

* بعد البيت الأخير يوجد فى الديوان بيتان هما نهاية القصيدة ، وفى وصف الفرس :

كأن دمــاء الهاديــات بنحــره ... عصــارة حناء بشيب مخضب

وأنت إذا استدبرتـــه سد فرجه ... بضاف فويق الأرض ليس بأصهب

وكلا البيتين وردا فى « المعلقة » بنفس ألفاظهما ومعانيهما ، مع تغيير وحيد فى الكلمة الأخيرة من كل بيت ، ليوافق القافية فى القصيد التى أقحم عليها ، فهى هناك فى البيت الأول « مرجل » ، وهى هنا « مخضب » ، وفى البيت الثانى هناك « بأعزل » وهنا « بأصهب » ، ولا يخالطنى ريب فى أن الأمر اضطرب على الراوى ، وخانته ذاكرته ، وقد صرفت النظر عنهما ، لأن مكانهما الطبيعى فى « المعلقة » .

أن يركبه إلا بعد معالجة ، يسطو بنفسه فلا يتوقى ما رُكِبَ وما ضرب بحافره ، ضامر كأعواد رحل مبريَّة ، وكأن غلام امرئ القيس إذ ركبه فرّ به مسرعا جاداً فى عدوه ، امتطى ظهر باز يحلّق فى السماء ، رأى أرنباً فهوى إليها ، يدنو منها ، يتأمّلها قبل أن ينقضّ عليها .

فقال له : صوّب الفرس ولا تجهده ، خذ عفوه ولا تحمله على العدو فيصرعك ، فلما أحس به القطيع تناثر كعقد مفصل على نحر وليد ذى قميص مطوّق . وأدرك الغلام الصيد ، وفرسه ثان من عنانه ، لم يجهد ، ولم يُخرج كلّ ما عنده من الجرى ، ينساب فى سهولة مطر غزير ، وأخذ يطعن ما يدركه من بقر وحمر ، فصاد ثوراً وحماراً وظليما ، دون مشقَّة يعرق معها فرسه ، ثم أخذ يخضب ناصية فرسه بدم الصيد ، بينما وقف الفرس فى كبرياء وزهو ، كرئيس فارسى .

فلما تمّ الصيد ، ضربوا لهم خباء ، وبدأ أصحابه يصنعون من نعمتهم شواء يأكلونه ، وقد بدا يحملونه معهم ، وآبوا من رحلتهم عشاء يحملون ما صادوا كقوم عائدين من « جؤاثى » يحملون تمراً :

وقد أغتدى قبل العُطاسِ بهيكلٍ ... شديدِ مَشكِّ الجنْبِ فَعْمِ المُنَطَّقِ(١)
بعثنا ربيئاً قبــل ذلك مُخْمِــلاً ... كذئْب الغَضا يمشِى الضرَاء ويتّقِى(٢)
فظلّ كمثل الخشْفِ يرفــعُ رأسَهُ ... وسائرُه مثلُ الترابِ المُدَقَقِ (٣)
وجاء خَفِيًّا يسفِنُ الأرضَ بطنَــهُ ... ترى التُّربَ منه لاصقاً كلّ مُلْصَقِ(٤)
فقال ألاَ هـــذا صوارٌ وعانــةٌ ... وخِيطُ نعامٍ يَرْتعى متفرِّقِ(٥)
فقُمنـــا بأشلاءِ اللجــامِ ولم نقُدْ ... إلى غُصْنِ بانٍ ناضرٍ لم يُحَرَّقِ(٦)
نُزَاولُــه حتى حملْنـــا غلامَنـــا ... على ظهرِ ساطٍ كالصليفِ المعرَّقِ(٧)

(١) فعم المنطق : ممتلىء الجوف .

(٢) الربىء : الرقيب – مخملا : مستتراً – الضراء : اختيال وتبختر .

(٣) الخشف : ولد الظبية .

(٤) يسفن : يمسح .

(٥) الصوار : القطيع من البقر – العانة : القطيع من الحمر – الخيط : القطيع من النعام .

(٦) أشلاء : حدائد .

(٧) ساط : لا يتوقى ما ركب وما ضرب بحافره – الصليف : هنا عودٌ من أعواد الرحل – المعرق : ضامر تبدو عروقه .

كأن غلامى إذْ علا حالَ مَتْنِـهِ على ظهر بازٍ فى العماء مُحلِّقِ[١]

رأى أرْنباً فانقضَّ يَهْـوِى أمامَـه إليْها وجلاَّها بطرْفٍ مُلقْلقِ[٢]

فقلتُ لـه صوِّبْ ولا تُجْهِدنَّـه فَيُدْرِكَ مِن أعلى القطاةِ فتزْلَقِ[٣]

وأدبرْنَ كالجـزْعِ المفصَّـلِ بينَهُ بجيدِ الغلامِ ذى القميصِ المُطَوَّقِ[٤]

وأدْركهنَّ ثانيـاً مِـن عِنانِـهِ كغيْثِ العشىِّ الأقهبِ المتودِّقِ[٥]

وظلّ غلامى يُضجعُ الرُّمحَ حولَـهُ لكل مهاةٍ أو لأحقبَ سَهْوَقِ[٦]

فصاد لنا ثوْرا وعيْرا وخاضبـاً عِداءً ولم يُنْضحْ بماءٍ فيعرَقِ[٧]

وقام طُوالَ الشخصِ إذْ يَخْضُبُونَه قيامَ العزيزِ الفارسىِّ المنطقِ[٨]

فقلنا ألا قدْ كان صيدٌ لقانصٍ فَخَبُّوا علينا كلَّ ثوْبٍ مروّقِ[٩]

وظلّ صِحابِى * يَشْتَوون بنعمـةٍ يَصفُّون غاراً باللكيكِ الموشّقِ[١٠]

ورُحْنا كأنا من جُوَّاثى عَشِيَّـةً نُعالى النعاجَ بَين عَدْلٍ ومُشْنقِ[١١]

وكما وصف امرؤ القيس الفرس يصيد به ، والناقة يحمل عليها رحاله ، والحمر الوحشية يصطادها ، ومَنْ صحبه عبر هذه الرحلات ، قدّم لنا صورة دقيقة ، رواها الأصمعى ، وجاءت منفردة ، لأشهر رام فى عصره ، عمرو بن المسبح الطائى ، وهو من بنى ثعل ، وهى قصيدة أنكرها الدكتور شوقى ضيف ، بزعم أن عمرا زمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، فقد وفد على الرسول عليه السلام فيمن وفد من العرب .

---

(١) حال متنه : موضع الراكب عن ظهره .

(٢) الملقلق : المبادر بالنظر الذى لا يفتر .

(٣) فيدرك : فيصرعك – القطاة : موضع الردف من الفرس .

(٤) الجزع : الخرز – المطوق : عليه طوق .

(٥) الأقهب : ما كان لونه إلى الكدرة مع البياض – المتودق : الشديد .

(٦) مهاة : بقرة وحشية – الأحقب حمار الوحش – سهوق طويل .

* هذا البيت يأتى بعد تاليه فى الديوان . وقدمناه عليه لأن تسلسل المعنى يقتضيه .

(٧) الثور : من بقر الوحش ، والعير : الحمار ، والخاضب : الظليم .

(٨) المنطق : ذو المنطقة .

(٩) خبوا علينا : اضربوا لنا خباء – مروق : له رواق .

(١٠) الكيك : اللحم الكثير الثخين – الموشق : المقدد .

(١١) المشنق : المعلق الذى لم يجعل فى الأعدال .

وفيما أرى وفود عمرو على الرسول لا يصلح سبباً لدفع القصيدة ، وإنكارها على امرئ القيس ، لأن الذين رووْاوفادته قالوا إنه كان فى سنّ متقدمة ، ابن مائة وخمسين سنة ، وقد لا يكون الرقم دقيقاً ، لكن أبا حاتم السجستانى أورده فى كتابه « المعمرين » كواحد منهم ، ولا يحتاج عمرو إلى أن يبلغ هذه السنّ ، بل لا يحتاج لأن يبلغ المائة ليعاصر امرأ القيس والبعثة المحمدية ، وشاعر كندة نفسه ، لو امتدّ به العمر فعاش ما عاش أنداده من معمّرى الشعراء ، لأدرك الإسلام ، ولربما وفد على الرّسول فيمن وفد ، فقد كان بين وفاته ومولد الرسول فترة لا تتجاوز عشر سنوات بحال . ومن جانب آخر ، ارتضى الدكتور شوقى ضيف نفسه القصيدة السادسة من الديوان ، ومطلعها[١] :

غشيتُ ديارَ الحىِّ بالبكراتِ فعارمةٍ فبُرْقةِ العِيرَاتِ

وفيها جاء ذكْر عمرو هذا ، وأن قطعان الوحوش كانت ترقبه ، تخشاه وتخاف منه :

فاوردها ماءً قليلاً أنيُسهُ يحاذرْن عمراً صاحبَ القُتَراتِ

يصف امرؤ القيس عمراً بأنه صياد ماهر من بنى ثعل ، يصيد الوحش مخاتلا ، يكمن فى القُتَرَ ، كى لا يفطن له الصيد فينفر منه ، أعدّ قوساً مائلة الجوانب ليرمى بها ، لا ينحنى على الوتر عند الرمى ، وحين ترد الوحش عليه يضع الرمى قبالة وجهه وجبهته ، حتى إذا اطمأنّتْ قريباً من الماء رماها فى فرائصها وأصاب مقاتلها ، بسهم استلّه من كنانته ، يتوهج حدة وبريقاً كجمر مشتعل ، جعل له ريش طائر ، وأرقة ، وحدّده ، فسقطت مكانها لا تستطيع حراكا . ياله من صياد ماهر ، إذا عُدَّ قومه فلا وُجد فيهم ! صيّاد مُطعم ، لا يكاد سهمه يخطئ ، ليست له حرفة يكتسب منها غير الرماية على كبر سنه :

رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَلْ متْلجٍ كفيهِ فى قُتَرهْ[٢]

عارض زَوراءَ من نَشَمٍ غيْرِ باناةٍ على وَتَرِهْ[٣]

قد أتتْهُ الوحْشُ واردةً فتنَحَّى النَّزْعِ فى يَسَرهْ[٤]

(١) الدكتور شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى ، ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .

(٢) متلج كفيه : يدخل كفيه – القتر : بيوت الصائد التى يكمن فيها لئلا يفطن له الصيد .

(٣) الزوراء : القوس المائلة الجوانب – النشم : شجر تتخذ منه القسى – غير باناة : غير بانية ، وقيل رجل باناة ، وهو الذى يحنى صلبه فيذهب سهمه على وجه الأرض .

(٤) تنحى النزع : تحرف حيال وجهه – النزع : مد اليد فى الرمى – يسره : قبالة وجهه .

فرماهـــا في فرائصهـــا بإزاء الحوْضِ أو عُقُــرهْ (١)
برَهيشٍ مـــن كِنانتـــهِ كتلظِّي الجمـــرِ في شَرَرِهْ (٢)
راشَهُ مِـــن رِيش ناهِضَـــةٍ ثُم أمْهــاهُ عَلى حَجَـــرِهْ (٣)
فهـــو لا تنمِي رميـــتُهَ مالَــه لا عُـــدَّ مِن نَفَرِهْ (٤)
مُطْعَمٌ للصَّيـــدِ ليس لـــه غيْرَهـــا كسْبٌ على كِبَرِه (٥)

صاد امرؤ القيس بنفسه على فرسه ، وأرسل غلمانه يصيدون له ، وهو من ورائهم يوجههم ، وآن له أن يصحبنا في رحلة أخرى ، إلى نوع آخر من الصيد عرفته العرب ، وهو استخدام الكلاب السلوقية المدربة في الصيد ، وقدّم لها بوصف الحمار الوحشي مستغرقاً ، بعد أن عرَّف به عرضاً ، خلال حديثه عن الصيد أو الخيل أو الرحلة ، واتخذ سبيله إلى ذلك الحديث عن ناقته ، لكنه لم يشر إليها بأكثر من أنه ورحاله فوقها ، كحمار وحشيّ فتيّ ثم انصرف عنها إليه .

إنه حمار قارح ، خميص البطن ، قبالة عين ماء أو على جبل متباعد الأنحاء ، يمرح في « شَرْبَة » نشطا ، ويتحرك في « عِرْنان » حذرا متوجساً ، تعشَّى قليلا وجمع أظلافه يحفر بها مسكناً يبيت فيه ، وكناساً يأوى إليه ، يهيل التراب ويذريه ويثيره ، اشتدَّ عليه حرَّ الهاجرة ، فأخذ ينبش الأرض ، ليصل إلى برد الثرى ، يدفع به شدة الحر والعطش . فإذا هيَّأ لنفسه مناماً فتر عزمه ، وهدأ نشاطه ، ونام على جنبه وخدّه ، كالأسير المقيَّد ، لا يبدى حركة ولا يحدث ضجيجاً .

اتخذ كناسه إلى شجرة تجمع حولها الرمل ، فإذا بللتها دفعة من مطر أو ندَّتها مزنة من سحاب ، هدأ وسكن كأنه بيت رجل أعرس بأهله ، فإذا تنفَّس الصبح دهمته كلاب مضراة على الصيد ، كأنها في ضراوتها ودربتها « كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس » . جُوِّعت لتضرى على الصيد ، وتكون أشد فتكاً وأقوى عراما . حمراء العيون ،

---

(١) الفرائص : جمع فريصة ؛ لحمة بين الجنب والكتف تتصل بالفؤاد ؛ وهي مقتل – الإزاء : مهراق مهراق الدلو ومصبها من الحوض – عقر الحوض : مقام الذين يردون الماء للشرب .

(٢) الرهيش : السهم الخفيف – الكنانة : جعبة السهام .

(٣) ناهضة : فرخ من فراخ النسور أو العقبان – أمهاه : أرقة وحدده .

(٤) لا تنمي رميته : لا تنهض بالسهم وتغيب عنه – لا عد من نفره : دعاء عليه على وجه التعجب منه .

(٥) مطعم للصيد : لا يكاد سهمه يخطىء .

مشتعلة الأحداق ، تتوهج كأنها نوّار عضرس ، فلما رآها الحمار شدَّ مخلِّفاً وراءه سحابا من الغبار يكسو هذه الكلاب ، وكأنه إذ يعلو الأضماد والآكام جذوة من النار. وكلمّا أيقن أنه إن لاقى هذه الكلاب فى وادى الرمث ، فإن نفوساً ستهلك ، ودماء ستهرق ، وقد يكون دمه بينها ، سابق الريح لا يبقى من عدوه على شىء ، وهو يتصور أنها لو أدركته فستأخذ بساقيه ووركيه وتمزّقهما تمزيقاً ، كما يمزّق الولدان ثوب حاج قادم من بيت المقدس ، يلتفون به ، يلتمسون منه البركة . وقد يئست الكلاب من لحاقه ، فانحدرت إلى ظلّ أشجار الغضا ، وتركت الحمار قويا نشيطاً كالفحل الهجان ، شموساً نافراً لا يقوى على مواجهته أحد .

كأنى ورحلِى فوق أحْقَبَ قارِحٍ ... بِشربَة أوطارٍ بِعِرْنان مَوجِسِ(١)
تعشى قليلاً ثم أنحى ظُلُوفه ... يُثيرُ الترابَ عن مَبيتٍ ومَكنِسِ(٢)
يَهِيلُ ويُذرِى تُرْبَها ويُثيرهُ ... إثارةَ نَبَّاثِ الهَواجِرِ مُخْمِسِ(٣)
فباتَ على خدٍّ أحَمّ ومَنْكِبٍ ... وضَجْعَتُهُ مثْلُ الأسيرِ المكَرْدسِ(٤)
وباتَ إلى أرْطَاةِ حِقْفٍ كأنّها ... إذَا ألْثَقَتْهَا غَبْيَةٌ بَيْتُ مُعْرِسِ(٥)
فصبَّحه عند الشَّرُوقِ غُدَيَّةً ... كلاَبُ ابن مُرٍّ أو كِلاَبُ ابن سِنْبِسِ(٦)
مُغَرَّثةً زُرْقاَ كأن عيونها ... مِن الذَّمْرِ والإيحاءِ نوَّارُ عِضْرَسِ(٧)
فأدبَرَ يكسوها الرَّغامَ كأنه ... على الصَّمْدِ والآكام جَذْوَةَ مُقْبسِ(٨)
وأيْقَنَ إنْ لاقيْنَه أَنّ يومه ... بذى الرِّمْثِ إنْ ماوتَتْهُ يوم أنْفُسِ(٩)

(١) الأحقب : حمار الوحش – قارح : مسن – طاو : ثور خميص البطن – الموجس : الخائف .

(٢) أنحى : اعتمد – الكناس : الموضع الذى يكنن فيه من الحر والبرد .

(٣) يهيل : يسقط – يذرى : يفرقه ويرمى به – نباث : الرجل يشتد عليه حر الهاجرة فينبث التراب ، ليصل إلى بارده .

(٤) الأحم : الأسود – المكردس : المطروح على جنبه المتقبض .

(٥) أرطاة : شجرة – حقف : ما أعوج من الرمل – الثقتها : بلتها وندتها – الغبية : المطرة .

(٦) ابن مر وابن سنبس : شخصان لهما كلاب مدربة .

(٧) مغرثة : مجوعة – الذمر : الزجر والإغراء – العضرس : شجر أحمر النور.

(٨) الرغام : التراب – الصمد : المكان المرتفع – الآكام : جمع أكمة ، وهى كالصمد فى المعنى – مقبس : طالب قبس من نار .

(٩) الرمث : اسم موضع فيه كثير من شجر الرمث ، وهو شجر يشبه الغضا – ما وتته : جلدته وصابرته – يوم أنفس : يوم زهاق أنفس .

فأدْركنــه يأْخذْنَ بالسَّاقِ والنّسَا كما شَبْرَقَ الوِلْدَانُ ثَوْبَ المُقَدِّسِ [١]
وغوَّرنَ فى ظِلِّ الغَضــاَ وتَرَكْنَه كقرمِ الهجانِ الفادِرِ المتشمس [٢]

ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحرِّكة ، ومن غير معاناة ندرك أن مظهرين منها كانا مناط إعجابهِ ، وموضع إعزازه . الخيل والصيد . وما جَاء عبرهما فضرورة اقتضتها طبيعة التصوير ، أوجَاء بها التزام الواقع . إنه موزَّع القلب بين الفرس والأوابد ، ما يكاد يصف الأولى حتى يمضى إلى الثانية ، وإذا طلب الأوابد صائداً ، وصف نِصَالها مطلوبة ، عطف من حين لآخرعَلَى فرسه ، فبثَّه عواطفه ، وذكر بعض فضله ، وهو يصدر فى ذلك كله عن إعجاب وحب وانفعال ، ويمتزج حديثه عنه بالحنان والود ، يصفه فيختار له أجمل الصفات ، ويقارنه بأكمل المخلوقات ، ولا يعرض له إلا فى أكمل حَالاته.لقد كانت الفروسية بمظاهرها المتباينة ، صيداً وسباقاً وسيادة ، واحدة من هواياته المفضلة .

وصف الفرس فى حالاته المختلفة ، مقبلا على الصيد قويا ، وعائداً منه جليداً ، لم تنهكه المطاردة لكنها تركت ظلّها عليه . وفصّل القول فى عدوه وخلقه ، فهو سريع كخذروف الوليد ، مندفع كالصخرة الهاوية ، منقض كالعقاب الصيود ، كما وصف جبهتــه وعينه ومنخره وأذنه ، وعنقه وأعرافه وظهره وكفله ، وذيله وشعره وبطنه وخاصرته ، وساقه وحوافره . وبعض الصفات كالضمور أكثر القول فيه ، وبعضها عاد إليهِ أكثر من مرة ، وشيء منها لا يتكرر أبداً .

أما حديثه عن الناقة فيصدر عن تقدير لدورها فى حياة الصحراء ، فلا يكاد يذكرها إلا هارباً من همّ ، وعازماً على رحلة ، وأطول وصف خصها بهِ لا يتجاوز خمسة أبيات ، ولا يتعدى الحديث عن سرعتها وما يتصل بها ، يقرّر حقيقة لا تحس أن وراءها أية عاطفة ، لكن ما يَمسّهُ بريشته كفنان يبلغ فيهِ قمة الإبداع ، لا يقنع بأن يقول إنها سريعة قوية تضرب الأرض بأخفافها فتُطاير الحصى من خلفها وأمامها ،

---

(١) النسا : عرق من الورك إلى الكعب – شبرق : مزق – المقدس الراهب يأتى بيت المقدس ، أو مطلق زائر له .

(٢) غورن : سرن فى الأرض المنحدرة – قرم الهجان : الفحل الكريم – الفادر : الممسك عن الضراب – المتشمس : الشموس النفور.

وإنما يرسم للحصى صورته ، ويعيِّن اتجاهه ويضبط وقعه ، فهو طويل عريض محدد يطير فى غير نظام كرمى أعسر ، أصم الصوت عند سقوطه كرنين نقد مزيَّف ، ولأنهُ يقرّر واقعاً ، صوّرها قوية مسرعة ، ومتعبة مجهدة ، وفتية شابة ، وعجوزاً مترهلة ، يلمّ بأحوالها فى إيجاز ، وأحياناً يقف بها عند بيت واحد ، يتخذ منه ذريعة لوصف النعام أو الحمار الوحشى وأهمل وصفها تفصيلا إهمالا تاماً ، فلم يصف منها غير امتدادها ، ووقع أخفافها على الأرض ، وسعة صدرها ، وتباين ما بين عضديها ، وتقارب خطوها ، وطول عنقها ، وتمايل بدنها حين تسرع تكاد تصرع راكبها ، بينما أسرف معاصروره ولاحقوه فى تتبع أجزاء جسمها حتى إن طرفة خصّها فى « معلقته » بتسعة وعشرين بيتاً كاملة ومتوالية ، وقصائده الأولى فى صدر شبابه خلت من الناقة ، فلا نجد لها ذكراً فى « المعلقة » ، ولا القصيدة الثانية فى الديوان ، وهما من روائع شعره ، وسكت عن فضائلها التى خصت بها ، مما يتصل بالصحراء والحياة فيها ، من الصبر على العطش ، وتحمل المكاره ، والعيش على القليل والخشن من الغذاء .

ووصف من أوابد الصحراء وحيوانها ماله بالصيد صلة ، وصف الحمار الوحشى وأتنه ، وبقر الوحش ونعاجه ، وتعاطف معها فأفسح لها من قلبه مكاناً رحيباً ، على نحو ما صنع مع فرسه من قبل .

صوّر الحمار فى خلْقه وطباعه ، يغار على أُتنه ، ويحتد فى زجرها ، يرعى صغارها ويوفر لها الماء ، ولا يدع شيئاً من شكله إلاَّ ألمّ به ؛ وهيأ له من الصورة مكاناً ، من خدش على حاجبه بقايا ضرب ، وعض فى صدره انحصَّ عنه الشعر . ووصف من البقر الوحشىّ ما كان متبدّياً نافراً ، أو وديعاً هادئاً ، وصوّر نعاجه تتهادى فى صورة عذراوات فى مقام العبادة ، يمشين خاشعات ، يملأ الجلال جوانبهن وتتغشاهنَّ السكينة ، فإذا دهمها صياد تناثرت ، كعقد صبى كريم ، فى فوضى وعلى غير نظام . وعبر هذه الصور قدم لنا لمحات خاطفة لظليم النعام ، وكلب الصيد ، والبازوالعقاب والأرانب والفيران .

وتفيض صور امرئ القيس باللفتات الإنسانية الذكية ، والخبرة الواسعة بالحيوان وطباعه ، فالنعامة أسرع ما تكون حين تعود إلى بيضها ، والناقة أصعب قياداً حين تنزع إلى مهبطها ، والكلب أشدَّ ضراوة حين يُجوَّع ، وعين الحيوان ، كعين الإنسان ، تطلّ منها رغائبه إذا احتدَّت ، والخيل تعطى ما عندها من عدو دون أن تسأل ، والإبل

تعطيه إذا والاها راكبها نهزاً وزجراً ، والأول للصيد والزينة ، والثانية للأحمال والرحلة .
وجملة « أنا وقرابى ونمرقى » وقف على الناقة ، ولا تأتى فى معرض الحديث عن الفرس
أبداً. وهو يدرك خداع البصر حين يسرع المرء ، فتبدو الأشياء فى نظره متصلة وإن
فصل بينها المكان بمسافات شاسعة ، ويعتمد فى صوره ، أحياناً ، على ثقافة السامع
وذكائه ، فالحمر ترد الماء وتشرب خائفة ، ثم يصمت عنها بعد ذلك لا يفصح لِمَ
هى خائفة ؟ ، اعتماداً على علم سامعه ، أو قارئه ، بأن موارد المياه فى الجاهلية كانت
دواماً مهبط الصيادين .

عبر الطبيعة الصامتة

نعنى بالطبيعة الصامتة ما ينتظم مظاهر الكون من سماء وأفلاك ، ونجوم وكواكب ، وسحب وأمطار ، ورعد وبرق ، وليل ونهار ، وكان حظ بلاد العرب منها وافراً ومتلوّناً ، فالسماء صافية آنا ، وتلفّها السحب آونة ، عزيزة المياه حيناً ، جارفة المطر أحياناً ، وفيها الصحارى والرياض ، والجبـــال والأودية ، والوهاد والنجاد ، والرياح العواتى ، والنسيم رقيقاً . ومن الباحثين المحدثين من يرى أن بكاء الأطلال يأتى من شعر الطبيعة فى الطليعة[١] ، ولا أراه كذلك ، فهو فن قائم بذاته ، له بواعثه ودوافعه ، على نحو ما عالجناه من قبل[٢] .

كانت الطبيعة إلف امرئ القيس وتوأم روحه ، متاع بصره ، ومجال فكره ، هام فى محاسنها ، وتفيَّأ ظلالها ، صاد وحشها ، وألف شعابها ، وفيها ومعها أمضى أكثر أيامه وأجملها ، حتى أصبحت جزءاً من ذاته ، وخدينا لحياته ، تأمّلها مليًّا فأدرك خفاياها ، وفتحت له قلبها فعرف أسرارها ، وحلّت من قلبه مكاناً وسيعاً ، فتغنى بها ، على نحو ما رأينا فى الفصل السابق ، وما سنعرض له الآن .

يكوّن الحديث عن المطر فى « المعلقة » واحدة من أفكارها اسامة الجميلة ، وقد سار فيه على نحو منطقى بديع ، رأى السحاب فتحدث عن البرق والرعد والمطر ، وجلس يتأمّلهـــا ويتابع تحرّكها إلى أن آتت أكلها روضات من النبات والزهر والألوان . ومن المعالم الجغرافية التى تضمنها الوصف ندرك أن مسقطها كان منازل قومه فى بنى أسد ، بالقرب من تيماء فى شمال الحجاز . فالبرق يلمع وسط سحب متراكمة مستديرة كلمع اليدين تتحركان فى سرعة ، أو كمصباح راهب أمال الزيت على فتيلته ، غذّاها فتوهّج ضوْؤها . ثم قعد هو وصحبه يتأمل ذلك البرق ، وينظر من أين يجىء

(١) انظر مثلا :

الدكتور سيد نوفل ، شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، ص ٤١ .

عبد العظيم على قناوى ، الوصف فى الشعر العربى ، الجزء الأول ، الوصف فى العصر الجاهلى ، ص ص ٢٤٤ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩ م .

(٢) انظر فصل « شاعر الأطلال » ، ص ٥٩ وما بعدها .

بالمطر ، ويا بعد ما رأى ! رأى مطراً غزيراً شمل جهات مترامية ، فكان يمينه على جبل قَطَن ، ويساره على جبلى السِّتار وَيَذْبُل .

لقد غطّى ما حول « كُتَيْفة » واقتلع سيله الأشجار الضخمة العالية فى طريقه ، وقلبها رأساً على عقب ، فجعل عاليها سافلها .

ومرّ على جبل « القنان » برشاشه فأكره الوعول المستقرّة به على النزول .

ولم يترك بتيماء جذع نخلة قائماً ، أسقطها جميعاً ، ولم يبق من أبنيتها إلاّ ما كان قويًّا مشيداً بالجنادل والصخور العظيمة .

وأصبح جبل « ثَبِير » حين غطّاه الماء الكثير ، والغثَاء الأسود ، إلاّ رأسه ، كشيخ متدثر متزمل فى غطاء مخطّط .

وكشف ما على رأس « المُجَيْمر » من التراب والنبات ، ودار السيل حوله بما احتمل من بقاياها ، فكان كرأس فلكة المغزل .

واستحال فى أودية أخرى إلى سيل جارف ، فأغرق السبَاع ، واحتملها طَافية على وجه الماء ، مقلوبة على ظهورهَا ، بادية خراطيم رءوسها وأطرافها ، ترى من بعيد كأنّهَا جذور بصل برّىّ .

ثم ألقى هذا المطر أثقاله بصحراء الغبيط فأنبتت نباتاً حسناً ، مختلف الزهر واللون ، فكان نزوله بها كنزول التاجر اليمانى إذا جاء محمّلا بعياب فيها ثيَاب ملوّنة ، ينشرهَا أمَام النَاس ، ترغيباً لهم فى شرائهَا .

لقد أحال المطر هذا الوادى إلى روضة من النبَات والزهر ، تغرد فيه الطيور طربة مبتهجة كأنهَا سكارى ، بدأت صبَاحهَا بشرب رحيقٍ سلافٍ مفلفلِ[١] :

أصَاحِ ترى برْقاً أُريكَ وميضَــهُ   كلمعِ اليدينِ فى حَبِىٍّ مُكللِ[٢]

يضىء سنَاهُ ، أو مصَابيحُ راهبٍ   أهانَ السليطَ بالذُّبالِ المفتَّلِ[٣]

قعدتُ لــه وصحبتى بين ضَارجٍ   وبين العُذيب بُعْدَمَا متأمَلِ[٤]

---

(١) أعدنا ترتيب الأبيات على نحو ما اقتضاه تسلسل المعانى .

(٢) الوميض : لمع البرق – الحبى : المرتفع – المكلل : الذى بعضه على بعض .

(٣) أهان : أكثر منه – السليط : الزيت – الذبال : الفتائل .

(٤) ضارج والعذيب : اسما موضعين .

علا قطناً بالشَّيْم أيْمَـــنُ صوْبِـهِ ... وأيْسَرُه على السِّتارِ فيَذْبُلِ [١]

فأضحى يسحُّ المــاءَ حول كُتَيْفَةٍ ... يَكُبُّ على الأذْقانِ دوْحَ الكَنْهُبُلِ [٢]

ومرَّ على القنــانِ من نَفَيَانــــهِ ... فأنزل منه العُصْمَ من كل منزِلِ [٣]

وتيماء لم يترك بهـــا جِذْعَ نخلـــةٍ ... ولا أُطماً إلاّ مَشيداً بجَنْدَلِ [٤]

كأنَ ثَبِــيراً فى عرانينِ وَبْلـــه ... كبيرُ أناسٍ فى بجادٍ مُزَمَّلِ [٥]

كأنَّ ذُرَى رأسِ المُجَيمِرِ غُـدْوةً ... من السيل والغُثّاءُ فُلْكة مِغْزَلِ [٦]

كأنَّ السِّباعَ فيــه غرْقَى عَشِيَّةً ... بأَرْجائِهِ القُصْوَى أنابيشُ عُنصُلِ [٧]

وألْقى بصحـــراء الغَبِيط بَعاعَــهُ ... نُزولَ اليمانِى ذى العِيابِ المُحَملِ [٨]

كأن مَكاكِىَّ الجُـــــواءِ غُدَيَّة ... صُبِحْنَ سُلافاً من رحيق مُفَلْفَلِ [٩]

وكما وصف المطر عنيفاً جارفا ، وسيلا دافقاً يكتسح فى طريقه كل شىء ، وصفه غزيراً هادئاً ، فاض به الوادى ، فى أبيات جاءتنا مستقلة . فالسحابة مسترخية دانية ، يعمُّ ماؤها الأرض ، وتختفى معها أوتاد الأخبية ، ثم تظهر إذا هدأ المطر وسكن وأقلع عن السكب ، وترى الضبَّ وقد أبرزه الماء من حجره سابحاً ماهراً ، خفيفاً نشيطاً ، يثنى براثنه ويبسطها ، كما يثنى السابح ذراعه ويمدها ، فلا ينعفر بالتراب لأنه

---

(١) قطن : جبل فى بلاد بنى أسد – الستار ويذبل : جبلان مما يلى البحرين .

(٢) يسح : يصب – كتيفة : اسم موضع – يكب : يقلب – دوح : جمع دوحة ، الكثيرة الورق والأغصان – الكنهبل : ما عظم من الشجر .

(٣) القنان : جبل لبنى أسد – النفيان : ما فاض من مجتمع السيل – العصم : يريد الوهول ، جمع وعل ، وهو تيس الجبل ، جنس من المعز الجبلية .

(٤) تيماء : مدينة تقع على نحو ٣٢٠ كيلو متراً شمالى يثرب ، على مقربة من الطرف الشمالى الغربى من بادية نجد الأطم : الحصون المبنية بالجنادل ، أى الحجارة الكبيرة الضخمة .

(٥) ثبير : جبل بمكة – عرانين : أوائل – وبل : جمع وابل ، وهو المطر الشديد – البجاد : الكساء المخطط – مزمل : ملتف .

(٦) ذرى : جمع ذروة ، وهى أعلى الشىء – المجيمر : اسم جبل – الغثاء : ما يحمه السيل من رغوة ومن فتاة الأشياء التى على وجه الأرض .

(٧) أرجاؤه : نواحيه – أنابيش : جمع أنبوش ، وهو الغراس المقلوعة – عنصل : بصل برى .

(٨) الغبيط : اسم مكان – بعاع : الأثقال – العياب : المتاع .

(٩) المكاكى : جمع مكاء ، وهو طائر – الجواء : ما اتسع من الأرض، وقد يكون اسم موضع – السلاف : أول ما يعصر من الخمر – الرحيق : الخمر .

لسرعته لا يمسّ الأرض إلاّ خفيفاً ، أو لأن طول الانسكاب ذهب بالعفار ، وترى الأرض ذات الشجر غمرها المطر ، فلا يبدو منها إلا اعالى أشجارها ؛ فظهرت ؛ وقد علاها الزبد ؛ كرءوس انفصلت عن أعناقها ؛ وغطتها خمرها .

ثم هدأ الجو شيئاً ، وسكنت الأمطار ساعة ، حتى إذا كان العشى تجمع السحاب من جديد ، فاستدرته ريح الصبا ، ومراه بردها ، فتكاثف وتراكم ، ثم قصدته ريح الجنوب فأضافت إليه دفعة أخرى ، فإذا هو ينصب انصبابا ، حتى ضاقت خيْم وجُفاف ويُسْر عن آذيّه المضطرب ، وموجه المصطخب ، وسيلة المنحدر ، مع اتساع آفاقها ، وامتداد أكنافها ، وشهد امرؤ القيس هذه المطرة على فرس ضامر الكشحين ، شديد محكم الخلق :

دِيمَـــةٌ هَطلاءُ فيهـــا وَطَفٌ	طبقُ الأرضِ تحرى وتـــدرّ (١)
تُخْـــرِجُ الوَدَ إذا مـــا أَشجَذَتْ	وتُوارِيـــهِ إذا ما تَشْتَكِرْ (٢)
وتـــرى الضبّ خفيفـــا ماهـــراً	ثانيـــا بُرْثُنـــه ما يَنْعَفِرْ (٣)
وتـــرى الشّجْراءَ في رَيِّقِـــهِ	كرُءُوسٍ قُطِّعت فيهـا الخُمُرْ (٤)
ساعةً ، ثم انتحاهـــا وابـــلٌ	ساقطُ الأكْنافِ ، واهٍ ، مُنْهمِرٍ (٥)
راح تَمْرِيهِ الصبَّـــا ، ثم انْتَحى	فيـــه شُؤْبُوبُ جنوبٍ منفجِر (٦)
ثَجّ حتى ضـــاقَ عـــن آذِيِّـــهِ	عَرْضُ خَيم ، فجَفافٍ ، فَيُسُر (٧)

---

(١) الديمة : المطر يدوم فى سكون دون رعد ولا برق – الهطلاء : الكثيرة الهطل – الوطف : استرخاء السحابة ، ودنوها من الأرض – تحرى : تتحرى المكان وتثبت فيه – تدر : يكثر ماؤها .

(٢) الود : الوتد فى لغة نجد ، أو هو اسم جبل – أشجذت : أقلعت وسكنت – تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها .

(٣) الضب . حيوان زاحف – البراثن : المخلب – ما ينعفر : لا يصيبه العفر ؛ وهو التراب .

(٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير – ريقه : أوله – خمر : جمع خمار ، وهو ما تضعه المرأة على رأسها .

(٥) انتحاها : قصدها – ساقط الأكناف : ثابت النواحي – واه : ضعيف يتشقق منه الماء أو ينخرق عنه المطر .

(٦) تمريه : تستدره – شؤبوب : دفعة المطر .

(٧) ثج : سال وصب – آذيه : موجه – خيم وجفاف ويسر : أسماء أمكنة قريبة من الدهناء .

قد غـدا يَحمِلُني في أنفِـــهِ لاحِــقُ الإطليْن محبوكٌ مُمَــرّ(١)

أعجب النقّاد القدامى بأبيات امرئ القيس هذه ، وكان الأصمعيّ يحدّث عن أبي عمرو بن العلاء ، وأنّه سأل ذا الرُّمَّة فقال : أيّ الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال : قول امرئ القيس ، وأنشده هذه الأبيات وامرؤ القيس فيها يبدو هادئ النفس ، موفور النشاط ، خليَّ البال ، فجاءت أبياته كذلك ، تعبر عن أمطار هادئة حينا ، وغزيرة أحيانا ، لكنها حتى في غزارتها لينة رقيقة ، لا تحطم ولا تدمر ، على مياهها يسبح الضب خفيفاً حين يعترضه الماء ، ويجرى سريعاً حين يصيب الجفاف ، يلتمس الأمان غير مذعور ولا مضطرب . وامتداداً لمشاعر البهجة نحَّى البرق والرعد عن الصورة ، فلم يأت لهما على خبر ، لما يثيرانه في النفس من جزع وهلع ، حتى لو كان المرء معجباً بالمطر راغباً فيه . ولم يعش الشاعر على هامش هذا العالم من الجمال ، فانطلق عبره بفرسه ، يمتع قلبه وعينه .

أما في القطعة الأولى فتتبع رحلة السحاب من بدايتها إلى نهايتها ، برقا له وميض ولمعان ، يسبق كل مطر غزير ، وبعيداً منه جلس يتأمّله ، ثم رافقه كل مراحله ، مزمجراً عنيفاً يقتلع الشجر ويهدم البيوت ، ويجرف في طريقه كل شيء ، يحاصر الجبال ويُنزل منها الوعول . لكن السيل ليس شراً خالصاً ، وإنما فيه خير ، وخير كثير ، وسوف ينتهي ذلك الماء إلى واد مجدب ، فيحيله جناناً وارفة ، ذات خضرة وشجر وزهر مختلف الألوان ، تسعد به الطيور وتنتشي ، فتغني له ، ولنفسها ، وللدنيا جميعا .

وعرض امرؤ القيس للسحاب والبرق والمطر ، في حوار له مع التوأم اليشكري حين نازعه زعامة الشعر ، وهي أبيات تمثل قدرة الشاعر على الصناعة ، وتمكنه من الارتجال ، ولا يتوافر لها عنصر الانفعال والاستجابة ، فهي أوصاف دقيقة ، في قول منظوم ، ومن هذا الجانب وحده تسمّى شعراً ، ولا سبيل لإنكار القصة كلها بزعم أن ألفاظها سهلة ، فما كان يمكن أن تكون على نحو آخر لأنها وليدة حوار فوري وعفوي ، لا تعمّل فيها ولا تجويد ، وراويتها هو شيخ الرواة وأتقاهم أبو عمرو بن العلاء ، كما أن هذا النحو من القول شائع في البوادي ، ومعروف بين من ينحدرون من أصول عربية

(١) أنفه : أول هذه المطرة – لاحق الأطلين : ضامر الكشحين – ممر : يقال حبل ممر ، أي محكم الفتل ، أي قوي .

عربية فى الصعيد الأعلى[١] .

وقد لمس امرؤ القيس فى حواره الجانب المتشائم ، فتحدث عن البرق عريضاً ومتوهجاً ومزعجاً ، فلم يستطع النوم مع دويّه ، على حين نام رفيقه ، وكان صوته يأتى من بعيد حيث لا يراه ، فلما دنا ، جاء معه المطر فاكتسح كل الظباء . وكان التوأم يردَ على كل فقرة منه ، فيعطى معنى امرئ القيس امتدادا وعمقا :

امرؤ القيس : أحــار ترى بُـرَيْقــاً هبَّ وَهْناً

التـــوأم : كنار مجــوسَ تستعرُ استْعارا[٢]

امرؤ القيس : أرقتُ لــه ونــام أبو شُرَيْح

التـــوأم : إذا ما قُلت قد هدأ استطارا[٣]

امرؤ القيس : كــأن هــــزيزه لِــوراَءِ غيبٍ

التـــوأم : عِشَــارٌ وُلَّــهٌ لاقتْ عِشَــارا[٤]

امرؤ القيس : فلمـــا أنْ دنا لقَفَا أضـــاخٍ

التـــوأم : وهتْ أعجــاز ريِّقــه فحــارا

امرؤ القيس : فــلم يترك بذات السرِّ ظبْيــاً

التـــوأم : ولم يــترك بَجَهلتهــا حمــاراً

وجاء وصف المطر فى مطلع قصيدة :

أعنىِّ على برقٍ – أراه – وميض يضيءُ حبيًّا فى شماريخ بيضِ

وجاءت القصيدة فى ديوان امرئ القيس ، غير ثابتة النسب ، وارتأى بعضهم أنها لأبى دواد الإيادى ، وإلى هذا الرأى أميل ، ولا أرى مبرراً لدراستها هنا .

---

(١) هذا اللون من المطارحة كان ، حتى ربع قرن مضى ، مادة السمر فى مجالس الليل ، بين قبائل المطاعنة ، فى المنطقة الممتدة بين إسنا وأرمنت من محافظة قنا ، ويقال فى أوزان منظومة ، ولغة أرقى من العامية كثيراً ، ودون الفصحى قليلا ، وفى طفولتى سمعت الكثير منه ، ولو أن هذو اللون من القول بدأ يتراجع ويتلاشى أمام انتشار الإذاعة والصحافة .

(٢) وهنا : بعد هدوء الليل .

(٣) استطار : انتشر .

(٤) عشار : ناقة أتى على حملها تسعة أشهر – وُلَّه : جمع ولهى وهى التى فقدت أولادها .

هموم شاعر !

كان امرؤ القيس صاحب هم فى صباه ، وطريد هموم فى رجولته ، والهم منشؤه القلق ، والقلق وراء كل إبداع عبقرى ، وأول ما نلقى من همومه أبيات له فى المعلقة طافحة بالأسى ، قالها فى أيَامه الأولى ، فتيًّا تضيق الدنيا بشبابه ، وقدمها لنا فى صورة جلية جميلة ، ما يكاد المرء ينشدها ويتملاها حتى تلفّه التجربة بأبعادها من كل جوانبه ، فيرى فيها نفسه خالصة ، وأى الناس بلا هموم ؟

فيها ينقلنا فجأة من حديث ممتع وجميل عن صاحبته وجمالها ، تذهب بلب الحليم ، ولا يملك لهواها دفعاً ، إلى رحلة عبر ليل بهيم ، وقف منه موقف الممتحن ، يختبر ما عنده من صبر أو جزع ، فأطبق عليه بضروب من الهمّ ، كثيفة الظلمة ، متراكمة متلاحقة لا تنتهى . كأنها أمواج بحر خضم ، والليل ثقيل رتيب لا يريد أن يمضى ، ومطحون به يرقب الصبح قلقاً ، وماذا يصنع بالصبح إذا جاء ؟ . . إنه ليس بأفضل من الليل ، لن يحمل إليه عزاء ، ولن يخفف ما به من بلوى ، ومع ذلك يرقبه ويتمناه تعلّقاً بخيوط من الأمل يراها واهية ، وترقباً لأحداث الغد المجهول ، لكن الليل جاثم على قلبه ، ونجومه لا تريد أن تغرب ، كأنما شُدَّت بأسباب قوية الفتل إلى جانب من جبل « يَذْبُل » الرابض ، وكأنما الثريّا علّقت بأمراس من الكتان فهى لا تتحرك ، سُمّرت فى مكانها لا تسير :

وليلٍ كمــوج البحرِ أرْخَى سُدولَهُ   علىّ بأنواعِ الهمــومِ ليبتلِي[1]
فقلتُ لــه لَما تمطَّى بِصُلْبِـــه   وأردفَ أعجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ[2]
ألاَ أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجلِي   بصبْحٍ وما الإصباحُ فيكَ بأمْثَلِ
فيالكَ من ليــلٍ كأن نجـــومه   بكل مُغارِ الفتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
كأنّ الثريَّــا عُلِّقتْ فى مَصامِها   بأمْراسِ كتانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

رسم امرؤ القيس فى هذه الأبيات صورة أدبية تنبض بالحياة والحركة ، للهمّ

(١) سدوله : أستاره .
(٢) تمطى : امتد ، ناء بكلكل : نهض بصدره .

ينيخ عليه بكل قواه ، فيسحقه تحته سحقاً ، لا يترك له بارقة من أمل تحمل إليه شعاعاً من طمأنينة ، ولا نافذة من رجاء يتخذها مهرباً إلى عالم الهدوء الرحيب ، ورسم لوحته بمادة عمادها الحقيقة والمجاز والاستعارة والإرداف . وأعجب النقاد القدامى بما فيها من ألوان البيان ، وكانت عندهم المثل الأعلى للاستعارة .

كان امرؤ القيس نسيج وحده فى الحديث عن همومه بين معاصريه ، ولم يجاره منهم غير النابغة الذبيانى ، وقصّر دونه ، وكان عالة عليه ، فى أبياته :

كِلِينى لِهَمٍّ يا أُمَيْمَـــة ناصبِ   وليــل أقاسيه بطىء الكواكبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليس بمُنْقَضٍ   وليس الذى يرعى النجـوم بآيب
وصــدرٍ أراحَ الليــلُ عازبَ همِّهِ   تضاعفَ فيه الحزنُ مِن كل جانب

لأنّ تصوير امرئ القيس لهمومه أشد تجسياً من تصوير النابغة وصورته عامة شاملة ، يتوجه بها إلى سامعه وقارئه ، إلى نفسه وغيره ، فى عصره وما بعد عصره ، على حين أن دعوة النابغة المباشرة إلى أميمة فى أول أبياته جعلت منها حديثاً خاصاً ، دعوة تجعل بينك وبين التجاوب معه فى مشاعره وتمثّل تجربته حاجباً مانعاً من خاصية التصوير ، فلا يصبح لك أن تتطفـــل عليه ، بينما تستطيع أن تمد قلبك وعقلك إلى أبيات امرئ القيس ، تستعيرها للتعبير عن تجربة لك تحسّ بعجزك عن خلق شكل يحتويها .

وليل امرئ القيس كموج البحر صاخب عنيف متوال ، لفه بأنواع من الهموم ، وداخل أستارها انفرد به وحيداً ، فطحنه بثقله ، واجتث من أعماقه كل ينابيع الأمل ، حتى أصبح يخاف الفجر ، خشية أن يحمل ضوء الصبح ألواناً من الهموم أقسى من هموم الليل ، فيتراجع متقهقراً يلوذ بالليل من جديد ، يرقب نجومه الثابتة ، وامتداده غير المنتهى ؛ أمّا همّ النابغة فواحد ، ضاق به صدره فحسب ، ووجد من يلوذ به ، ويشكوله ، ويحتمى برحابه ، وليله بطىء الكواكب ، مجرد بطء ، فظنّه لن ينقضى ، مجرد ظن .

لكنه الآن لا يشكو همًّا ، وإنما يأسى لأيامه الخوالى ، ومع أن القصيدة قالها فى أيام شبابه ، لأنه مات ولم يتجاوز الأربعين من العمر ، إلاّ أن الإحساس بثقل الحياة ، وصعوبة الرحلة وطولها ، جعله يكثر من الحديث عن الشيخوخة صراحة أو تلميحاً ، فهو يرد على امرأة عيَّرته بالكبر ، ويقص طرفاً من مغامراته ، ثم يشير إلى رحلة له إلى

بيت مريب ، يخلص منها عاتباً على نفسه ، أو على دهره ، أن تكون له هذه نهاية المطاف ، كأنه لم يكن فى خوالى أيامه فارساً يشمخ بجواده ، يباهى به القوم ، أو يلاحق الصيد ، أو يركبه لأنه يجد فى رفقته سعادة وغبطة ، وكأنَّه لم يتبطن من الكواعب كل مترفة غنية جميلة ، ولم يشرب الخمر زقاقاً ، ولم يعطف بفرسه حين جفل غيره ، ولم يشارك فى ردّ المغيرين على قومه ضحى :

كأنِّىَ لم أركبْ جـواداً للـذَّةٍ ولم أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خُلْخَالِ
ولم أسْبَأ الزِّقَّ الروِىَّ ولم أقُـلْ لخيلى كُرِّى كَرَّةً بعـدَ إجْفَالِ
ولم أشْهدِ الخيلَ المُغِيرَةَ بالضُّحا على هَيْكلٍ نَهْدِ الجُزَارَةِ جَوّالِ

ثم يفصح عن ذات نفسهِ ، إن وراء متاعبه آمالا كباراً يسعى لها ، تؤرقه ويشقى بها ، لو كان يطلب مجرد العيش لكفاه قليل من المال ، ولكنه طالب مجد ، ودون المجد أهوال ، ومادام لا يدرك أواخر الأمور ، ولا ينال غاية الأمَال ، ولا يتأتى له كل مَا يريد ، فلن يألوجهداً ولن يقصرعن طلب ، مَا بقيت فيه حياة :

فلو أنّ مَا أسعى لأدْنى معيشة كفانى ، ولم أطْلُب قليلٌ من المالِ
ولكنّما أسعى لمجـدٍ مُؤثَّـلٍ وقد يدركُ المجدَ المؤثَّل أمثـالِى
ومَا المرءُ ما دامتْ حُشاشةُ نفْسِه بمُدرِكِ أطرافِ الخطوبِ ولا آلِ

وكما شقى بهمومه وآماله ، كان ممروراً من أصحابه ، كلما لقى إنساناً ورجَا منه حسن الصحبة ، وأمّل فيه خيراً ، وجد منه عند الاختيَار مَا لا يرضاه ولا تقر به عينه ، فاستبدل به آخر ، لكن التالى ليس بأفضل من السابق ، ذلك حظه مع الناس ، لا يتخذ منهم صاحباً إلاّ خانه وتغيّر :

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُهُ وقرّتْ به العينانِ بُدِّلتُ آخرا
كذلك جَدِّى ، مَا أصاحب واحداً مِـن الناس إلاّ خاننى وتغيّرا

وأكسبه تقلّب الحوادث جلداً وصبراً وقوة قلب ، فإذا ركن إلى إنسان فأصفاه الود ، وأخلصه الحب ، واتخذه خليلاً ، ثم جنا ثمار ذلك صاباً وعلقماً ، فارقه غير نادم ولا آسف ، وإذا طمع فيه من بنى قومه طامع آثره على نفسه ، ونزل له عن بعض حقه :

وخليـلٍ قـد أفارقُـهُ ثم لا أبـكى على أثَـرِهْ

وابـــن عمٍّ قد تركتُ لــــه صفْوَ ماءِ الحوْضِ عن كـــدرهْ

وكانت رحلته إلى بيزنطة هما خالصاً ، وقصيدته فيها تصوير دقيق لهذا الهم ، حين تلاحقه الآلام فيسقط مريضاً ، وتقسو عليه الغربة فيواجهها وحيداً ، ويلقاه الناس فى مدن الشام وما بعد الشام ، فلا يرون فيه إلاَّ عابر سبيل ، يثير الفضول ، ويلفت النظر ، ثم يمضى فى طريقه ، لا يهمهم أمره ، من أين قدم ، وإلى أين يمضى[١]

ولدينا واحدة من قصائده كاملة ، كلها تأمّلاتُ قلق ، وزفرات مهموم ، واستسلام مقهور ، أمام الدهر وصروفه ، والحياة وأسرارها ، وقالها على التأكيد بعد جولة الثأر الطويلة ، فى بطاح الجزيرة بين قبائلها ، يرجو فيُجاب ويَرْضى ، ويطلب فيُصَدّ ويَغضب ، استقرى مَن دونه ، ونزل بمن يكرهونه ، وكان حصيلة ذلك كله المزيد من الدماء والفشل والبعد عن طيّب الآمال ، واستهدى تاريخ أسرته ، وفيهم من يبزّه فى مجالات السياسة والحرب ، فإذا بهم قد مضوا صرعى مطامحهم ، فعاد إلى نفسه فى هذه الأبيات يذكّرها ويضع أمامها ثمرة نضالهم .

إنّ طيب الحياة أسْكرنا ، فغفلنا عن رحلة نسرع فيها إلى المجهول ، وتنتهى بنا إلى غيب لا نعلم من أمره شيئاً ، والإنسان فى جانبه المادىِّ كالعصافير والذباب والدود ضعفاً وتهالكاً ، وينماز عنها بالإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، والعقل المفكر ، ذلك هو ما يجعله أشد جرأة من ذئب عنيد . لقد أقلع عن لهوه ومغامراته وركن إلى مكارم الأخلاق ، وكفاه أمام لائميه تجربته مع الدنيا ، وتاريخ أسلافه . من التراب جاء ، وإليه يعود ، وهذا الموت يسلبه شبابه ونفسه وجرمه ، فيستحيل تراباً ، كأنه لم يهزل مطاياه بطول السفر ، ودُءوب السير بكل فلاة منخرقة ، ولم يسر على رأس جيش لهام ، ولم يظفر من الغنائم بالكثير الغالى ، ثم كانت النهاية أن يرى فى العودة ، مجرّد العودة ، بلا ظفر ولا غنيمة ولا فائدة ، أملاً يُرتجى . لقد ذهب الحارث جده ، ومن بعده قُتِل حجر أبوه ، وعمه شرحبيل ، فما ينتظر بعدهم ليناً من صروف الدهر ، وإنها لقادرة على تفتيت الصخرة ، وسينتهى على نحو ما انتهوا :

---

(١) القصيدة فى الفصل الخاص بالرحلة إلى قيصر .

أرانـــا مُوضِعينَ لأمْـرِ غيب ونسحرُ بالطعــامِ وبالشرابِ[١]

عصـــافيرٌ وذِبّـــانٌ ودودٌ وأجْـــرأُ من مُجَلِّحَـــةِ الذئابِ[٢]

وكلُّ مكارمِ الأخلاقِ صـارتْ إليــه همتى وبــه اكْتسابى

فبعضُ اللَّومِ عاذِلتى فـإنى ستكفينى التجــاربُ وانتسابى

إلى عرقِ الثرى وشَجَت عُروقى وهــذا الموت يسلُبُنى شبابى[٣]

ونفسى سوف يَسلُبُها وجِـرْمى فيُلحِقُنى وشيــكا بالُتراب[٤]

ألم أُنضِ المطىَّ بكلِّ خَــرق أمقِّ الطولِ لمَّاعِ السَّراب[٥]

وأركبُ فى اللَّهـامِ المَجْـر حتى أنالَ مآكلَ القُحَمِ الرَّغابِ[٦]

وقــد طوَّفْتُ فى الآفــاقِ حتَّى رضيتُ من الغَنيمةِ بالإيــابِ

أبعــد الحارث الملكِ بن عمرو وبعد الخيْرِ حُجْرِ ذى القِباب

أرجِّى مــن صروف الدهـرِ ليناً ولم تَغْفُل عن الصُّمِّ الهِضــابِ

وأعــلمُ أنّنى عمّـــا قليــلٍ سأُنْشبُ فى شَبَا ظُفُرٍ وناب[٧]

كما لاقى أبى حُجْــرٌ وجــدّى ولا أنْسى قتيــلا بالكُــلابِ

هناك خط فاصل بين لونين من الهمّ يعرض لهما امرؤ القيس ، فيما بيَّنا من شعره . القلق الذى يعانيه كفنان ، وما يعرض له من غرابة الأطوار وتلوّن اللمحات ، ثمن ما يعيشه من لحظات سامية ، وتمثّلها أبياته فى الليل ، وهمومه فيها غامضة ، لا يفصح عنها ، أو عن أسبابها ، ورغم تشاؤمه فيها يطل مِن ورائها كإنسان يراها ضرورة ، ويراها جزءاً من تكوينه . وهمّ مصدره تناقض الحياة أمامه ، واختلافها عليه ، وفشله فى تحقيق مطامحه ، واستعادة ملكه ، وهو فى ذلك يلتقى ، إلى حد كبير ، مع المتنبى

---

(١) موضعين : مسرعين .

(٢) المجلحة : المصممة على الشيء لا ترجع عما تريد .

(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت .

(٤) الجرم: البدن – الوشيك : السريع .

(٥) أنض : أهزل – الخرق : الأرض الواسعة – الأمق : الطويل .

(٦) اللهام : الجيش الكثير– المجر : الكثير أيضاً – القحم : جمع قحمة ، دفعة . من شرف ومنزلة ينالها – الرغاب : الواسعة المكينة .

(٧) شبا كل شيء : حده .

شاعر العربية الأكبر ، فيما بعد عصر الجاهلية . وفى هذا الجانب تنضح أشعاره سواداً ويأساً ، يأسَى على أيامه الخوالى ، ويسترجع مصارع قومه ، ويعرض للموت وللفناء ، ويقلِّل من قيمة الدنيا ، ويصوّر فى وضوح ، وربما لأوّل مرة فى الأدب العربى ، أنّنا من التراب جئنا وإلى التراب نعود ، نفس الفكرة التى جاء بها القرآن ، وزاد عليها ومنه نبعث مرة أخرى : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » . وامرؤ القيس حين أغفل البعث كان منطقياً مع نفسه وتجاربه وعقيدته ، فهو لم يكن يؤمن به ، أو على الأقل غير واضح فى ذهنه .

وهو يفرّق فى ذكاء بين الصاحب يلقاه عرضاً ، ويختلفان سريعاً ، تجمع بينهما المنفعة وتفرِّق بينهما المصالح ، ومثل هذا الطراز من الناس يضعه موضع التجربة قبل أن يجعله مناط الثقة ، وكأمير وملك ، قبل أن يكون شاعراً ، فإن الذين التفوا ، أو يحاولون أن يلتفوا به ، هم – كالعادة – من أراذل الناس . وما من حاكم أو طاغية إلا ابتلى بهذه البطانة ، تفسد عليه من أمره ، وتزين له رذائله ، وتقيم بينه وبين الصالح حجاباً ، وأوّل فتنة فى الإسلام على أيام عثمان ، ويحفظ التاريخ أصولها كاملة ، كان مبعثها بطائن السوء . لكن امرأ القيس كان فناناً وذكيًّا . فتخلى عنهم واحداً وراء آخر ، وتبين أخلاقهم صاحباً إثْرَ صاحب ، وهو يسميهم أصحابًا فحسب ، ويعتبر تنكرهم له خيانة ، ويرى فى أشخاصهم لوناً قاتماً من نفاق المجتمع وزيفه ، فتأتى أبياتـه طافحة بالألم والمرارة . أمَّا الذين أخلصوا له مودَّتهم ، وأصبحوا أخلاءه ، ثم تجافوا فسلك كلٌّ طريقه ، فيعرض لهم مترفقاً ، يعتذر عنهم ، ولا يبكى ذهابهم تماسكا ، لأنَّ كل ما فى الحياة إلى فراق .

فى رأى النقد القديم

خضع امرؤ القيس فى القديم لألوان ثلاثة من النقـــد ، آراء خاطفـــة من مُعجَب مُتذوِّق ، وأحكام عامة من ناقد متخصص ، تناولته شاعراً وأوضحت رأيها مجملا . ودراسة مفصلة ، تلاحق القصيدة أو البيت أو الكلمة ، تبين ما فيها من وجوه الإعجاز والسمو ، وتتلمس ما تراه أخطاء فى النظم أو البلاغة أو النحو.

يأتى فى الجانب الأول لبيد بن ربيعة ، سابع شعراء المعلقات وآخرهم ، كان مخضرماً شهد الإسلام وآمن به ، ولم يقل بعده إلا بيتاً واحداً من الشعر فيما زعموا ، فقد مرّ فى الكوفة بمسجد بنى نَهْد ، يتوكأ على محجن له ، فلما جاز القوم أرسلوا إليه فتى منهم فقالوا : الحق أبا عَقِيل فاسأله : من أشعر العرب ؟ فقال : الملك الضِّلّيل ، يعنى امرأ القيس . فرجع إليهم وأخبرهم فقالوا له : ارجع إليه فاسأله : ثمّ مَن ؟ فرجع إليه فقال : ثم من ؟ فقال : ثم صاحب المِحْجن أبوعقيل ، يعنى نفسه .

وروى ابن الكلبى أن قوماً أقبلوا من اليمن ، يريدون النبى صلى الله عليه وسلم ، فضلّوا ووقعوا على غير ماءٍ ، ومكثوا ثلاثاً لا يقدرون عليه ، فجعل الرجل منهم يستذرى بفىء السمر والطلْح ، فبيناهم كذلك أقبل راكب على بعير ، فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرئ القيس :

لَمّـا رأتْ أن الشريعـةَ همّهـا ... وأنّ البياضَ من فرائصها دامى[1]

تَيمّمَتِ العين التى عنـد ضارج ... يفىءُ عليها الظلُّ عَرْمَضُها طامى[2]

فقال الراكب : من يقول هذا الشعر؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم ، وأشار لهم إليه ، فأتوه فإذا ماء غدَق ، وإذا عليه العرمض والظلّ يفىء عليه ، فشربوا منه وارتووْا ، حتى إذا بلغوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه ،

(١) الشريعة : مشرعة الماء ، وهى مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون – همها : طلبها – والضمير فى رأت للحمر .

(٢) ضارج : جبل – العرمض : الطحلب . طامى : مرتفع .

والمعنى : أن الحمر لما أرادت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة ، وأن تدمى فرائصها من سهامهم ، عدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التى فيه . والبيتان غير واردين فى ديوان امرئ القيس .

وقالوا : أحيانًا بيتان من شعر امرئ القيس ، فقال النبي : « ذاك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها ، منسى فى الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة ومعه لواء الشعراء يقودهم إلى النار» . وهى رواية مشهورة عند الإخباريين والأدباء ، فقد أوردها ابن قتيبة فى كتابيه « الشعر والشعراء » و« عيون الأخبار» ، ورواها أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » ونقلها ياقوت فى « معجم البلدان » ولكن أهل الحديث ، وهم الحجة فيما ينسب إلى الرسول ، يضعّفونها أو ينكرونها[١] .

وذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

« سابق الشعراء ، خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصح بصراً » يريد أنه ذلّل لهم الطريق إليه ، وبصرهم بمعانيه ، وفنن أنواعه وقصده فاحتذى الشعراء على مثاله ، وكان عمر يتذوّق الشعر ويصدر فى حكمه عليه عن رأى مصيب .

فإذا تجاوزنا هؤلاء المتذوِّقة إلى أصحاب الأحكام المجملة ، وجدنا فى مقدمتهم ابن سلامّ الجمحى (ت ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م) ، فقد جعل امرأ القيس رأس الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، ثم أبان عن رأيه فيه دون أن يتجاوز الكلّيات إلى التفاصيل ، يقول : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبَّه النساء بالظباء والبيْض ، وشبّه الخيل بالعُقبان والعصى ، وقيَّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً » .

ومع أن ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) لم يأخذ بفكرة الطبقات فى التأريخ للشعراء وترتيبهم فى كتابه « الشعر والشعراء » ، إلا أنه بدأ تراجمه بامرئ القيس ، وخلالها أبدى رأيه فيه : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب ، واتبعته عليها الشعراء ، من استيقافه صحبه فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ » . وأردف رأيه بأبيات استجادها من شعره ، أبيات سوف تُتخذ المثل الأعلى عند دارسى البلاغة فى عصره وما تلاه .

ثم جاء الآمدى ، الحسن بن بشر بن يحيي (ت ٣٧١ هـ = ٩٨٢ م) فى

(١) انظر تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وهو من رجال الحديث ، على الرواية فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، ص ١٢٧ ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٣٨٦ = ١٩٦٦ م .

كتابه « الموازنة بين الطائيين» فاحتوى آراء سابقيه ، وزاد عليها : « . . .وبهذه الخلة دون ما سواها فضل امرؤالقيس ؛ لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى ، وبديع الوصف ، ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام ، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأنواع ، ولولا لطيف المعانى واجتهاد امرئ القيس فيها ، وإقباله عليها ، لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا فى تقديمه بأن قالوا : هو أول من شبه الخيل بالعصى ، وذكر الوحش والطير ، وأول من قال : قيد الأوابد ، وأول من قال كذا وقال كذا ، فهل هذا التقديم له إلا لأجل معانيه » .

وأورد القاضى أبو بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م) رأيه على نحو أكثر تفصيلا ، فى كتابه « إعجاز القرآن » ، فقال : « أنت لا تشك فى جودة شعر امرئ القيس ، ولا ترتاب فى براعته ، ولا تتوقف فى فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع فى طرق الشعر أموراً اتبع فيها ، من ذكر الديار والوقوف عليها ، إلى ما يتصل بذلك : من البديع الذى أبدعه ، والتشبيه الذى أحدثه ، والمليح الذى تجد فى شعره ، والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله ، والوجوه التى ينقسم إليها كلامه : من صناعة وطبع ، وسلاسة وعفو ، ومتانة ورقة ، وأسباب تُحمد ، وأمور تُؤثر وتُمدح . وقد ترى الأدباء أوّلا يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً ، ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره فى أشياء لطيفة ، وأمور بديعة ، وربما فضّلوهم عليه ، أوسوّوْا بينهم وبينه ، أوقرّبوا موضع تقدمه عليهم ، وبرّزوه بين أيديهم .

ولما اختاروا قصيدته فى السّبْعيات[1] ، أضافوا إليها أمثالها ، وقرنوا بها نظائرها ، ثم تراهم يقولون : لفلان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته ، وتساويه فى طريقته ، وربما غبرّت فى وجهه أشياء كثيرة ، وتقدمت عليها فى أسباب عجيبة .

وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره ، كان أمراً محصوراً ، وشيئاً معروفاً .

(١) يريد المعلقات السبع .

أنت تجد من ذلك البديع أو أحسن منه فى شعر غيره ، وتشاهد مثل ذلك البارع فى كلام سواه ، وتنظر إلى المحدَثين كيف توغلوا إلى حيازة المحاسن ، منهم من جمع رصانة الكلام إلى سلاسته ، ومتانته إلى عذوبته ، والإصابة فى معناه إلى تحسين بهجته ، حتى إن منهم من إن قصر عنه فى بعض ، تقدَّم عليه فى بعضٍ ، وإنْ وقف دونه فى حال ، سبقه فى أحوال ، وإن تشبَّه به فى أمر ساواه فى أمور ، لأن الجنس الذى يرمون إليه ، والغرض الذى يتواردون عليه ، هو مما للآدمى فيه مجال ، وللبشرىّ فيه مثال ، فكلٌّ يضرب فيه بسهم ، ويفوز فيه بقدح ، ثم قد تتفاوت السهام تفاوتاً ، وتتباين تبايناً ، وقد تتقارب تقاربا ، على حسب مشاركتهم فى الصنائع ، ومساهمتهم فى الحرف » . ولم يقف الباقلانى عند هذا الحد من النقد ، وإنما تناول المعلقة ، أروع شـــعر امرئ القيس فى نظر النقاد القدامى ، على نحو عنيف فى نقد متحامل ، يستحق وحده وقفة مستأنية ، وسوف نعرض له بعد قليل[1] .

أما النقد المفصّل على الشعر نفسه ، وتطبيق القواعد البلاغية والنحوية ، فيمكن إجماله فى اتجاهين : أولهما يتعاطف مع الشاعر فيستقصى ما فى شعره من الاستعارات الجميلة ، ومن التشبيهات الجيّدة ، ومن المحسّنات البديعية ، ومن المعانى المبتكرة ، وما أخذ الشعراء منه ، وكانوا فيه عالة عليه .

فقد أعجب أبو عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ، وحماد الراوية بقوله « قيد الأوبد » فى بيته :

وقـــد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجـــرد قيد الأوابـــد هيكل

وعنى أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيدا لها ، وكانت بحالة المقيَّد لسرعة عدوه ، وذكروا أنها من الاستعارة البليغة ، وأن امرأ القيس مبدعها ، واقتدى به الناس ، واتبعه الشعراء ، فقيل : « قيد النواظر » و « قيد الألحاظ » و« قيد الكلام » و« قيد الرهان »[2] ، وعنه رددها شعراء عصره وما بعد عصره .

---

(١) انظر فصل « الباقلانى والمعلقة » ص ٢٥١ وما بعدها.

(٢) وأخيراً بلغة الإدارة « قيد الحفظ » .

يقول الأسود بن يعفر[١] :

بمقلصٍ عَتَـــدٍ جهيزٍ شَـــدُّه   قيــد الأوابــدِ والرهـــان جوادِ

ويقول أبو تمام :

لهـــا منظرٌ قيـــد الأوابـــد لم يزل   يروح ويغدو فى خضـــارته الحبُّ

ويعده علماء البلاغة أول من ابتدع التشبيه الملفوف ، وهو تشبيه شيئين فى بيت واحد ، واستشهدوا له بقوله :

كأنّ قلوب الطير رطبـــاً ويابساً   لدى وكرها العنّاب والحشف البالى

وأعجب قدامة بن جعفر من تشبيه امرئ القيس أربعة بأربعة فى بيت واحد ، وعدّه أفضل التشبيه ، وتبعه الناس فى هذا الوصف ، وعنه أخذوه ، ولم يجتمع لهم ما اجتمع له :

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامــــةٍ   وإرخاء سرحانٍ ، وتقريب تَتْفُلِ

وأول من ابتدع التشبيه الوهمى ، حين شبه نصال النبل بأنياب الأغوال ، وهى مخلوق أسطورى ، زعموا أنها كالإنسان ، ولكن رجليها رجلا حمار ، وأنها صغيرة الرأس ، مشقوقة اللسان ، مشوهة الساق :

أيقتلنى والمشرفى مضـــاجعى   ومسنونةٌ زرق كأنياب أغـــوال

وأول من ابتدع الاستعارة التمثيلية ، حين مثّل عينى صاحبته بسهمى الميسر ، المعلى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة ، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثّل بهما عينيها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور ، فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل :

وما ذرفتْ عينـــاك إلا لتضربى   بسهميْك فى أعشار قلب مقتَّل

ويطول بنا القول لو تتبعنا ما يزعم علماء البلاغة والنقد أن امرأ القيس أبدعه من فنون المعانى وصور البيان وأنماط البديع ، ويطول أكثر لو حاولنا أن نتتبّع ما كان من معانيه أول غير مسبوق فيه ، ثم احتذاه لاحقوه على امتداد حياة الأدب العربى .

الاتجاه الآخر من النقد المفصل كان يستهدف تتبع سقطات الشاعر وأخطائه . وقد أمسك النحاة بخناقه ، وقالوا إنه أخطأ فى البيت :

---

(١) انظر ص ١٣٥ من هذا الكتاب .

أردتُ بهـــا فتكاً فلم أرتمض لـــه وقد هممت نفسى بعد ما كدت أفعله

لأن « أفعلَه » نصب على تقدير « أنْ » ، وهو شاذ . هكذا قالوا ، والحق أنه ليس بشاذ ، وإنما تأتى « أنْ » فى خبر كاد قليلا ، والقلة لا تعنى الشذوذ ، وأنشد سيبويه بيتـــاً شبيهاً ببيت امرئ القيس فى الشطر الثـــانى ، وقال أراد بعدما كدت أن أفعله ، فحذف « أنْ » وأبقى عملها . ويعلق الأشمونى على بن محمد ، على قول سيبويه : « فيه إشعار باطراد اقتران خبر كاد بأن ، لأن العامل لا يحذف ويبقى عمله إلاّ إذا اطرد ثبوته » .

وزعم النحويون أنه جزم « أشرب » على غير قاعدة فى البيت :

فاليـــوم أشربْ غير مستحقبٍ إثمـــا من الله ولا واغـــــلِ

وأوردوه شاهداً يحتجون به فى جواز تسكين المتحرّك لاجتماع الحركات .

وثمة رواية أخرى تأتى فيها كلمة « أُسْقَى » بدل « أشرب » فى البيت ، وليس فيها خروج على قواعد النحو لامتناع ظهور الحركات على الألف المقصورة ، ويخيل إلى أن الرواية الأولى أصح ، رغم مجافاتها لقواعد النحو ، وإن الرواية الثانية مجرد تصحيح قام به الراوى لما تصوّر أنه خروج على قواعد اللغة .

وثمة أخطاء نحوية أخرى ، أو بتعبير أدق كلمات لم تأت طبقاً للقواعد التى انتهى إليها النحاة ، فليس يصح فى الفهم أن يقال إن امرأ القيس أخطأ فى النحو ، وهو مستمد من شعره وشعر غيره ، فقالوا إنه نصب فعل الأمر « بَلِّغْ » . فى قوله :

أيـــا راكباً بَلِّـــغَ إخواننـــا من كان من كنـــــدة أو وائل

وأنه أسقط النون من كلمة « خظاتان » لغير إضافة ظاهرة فى البيت :

لهـــا مَتْنتَان خَظاتَـــا كما أكبّ على ساعديـــه النمـــر

وأن كلمة « هطلاء » جاءت على غير قياس فى بيته التالى ، لأنه لا يقال فى مذكرها سحاب أهطل ، أومطر أهطل ، حتى يكون مؤنثها هطلاء :

ديمـــة هطلاء فيهـــا وطـــف طبق الأرض تحـــرى وتـــدر

وأن كلمة « مُزمّل » جاءت مجرورة ، وحقها أن ترفع لأنها وصف « لكبير » فى البيت .

كأنَّ ثَبِيرا فى عَـــرانين وبلـــه كبيرُ أناسٍ فى بجاد مُزمَّـــلِ

ورَفْع كلمة « مزمّل » يجعل فى البيت إقواء ، لأن الكسر هو حركة روىّ القصيدة ، فأبقاه النحاة على الكسر وتأوّلوه ، فقالوا إن « مزمّل » مخفوضة على الجوار مثل قولهم : هذا جُحر ضبٍّ خربٍ . وهو تأويل لا يبرئ امرأ القيس من الوقوع فى هذا العيب ، فقد أقوى مرتين فى قصيدة واحدة ، فى بيتين متجاورين ، لا يفصل بينهما غير بيت واحد :

جالتْ لتصرعنى فقلتُ لهـا اقصرى إنّى امرؤ صرعى عليكِ حرامُ
فجزيتِ خيرَ جزاء ناقـةِ واحـدٍ ورجعت سالمةَ القـرا بسلامِ
وكأنمـا بدْرٌ وصيل كُتَيْفَـةٍ وكأنمـا مِن عاقـل أرمامُ

وأخذوا عليه فى العروض أنه جاء بالتفعيلة الأخيرة لكل شطر ، فى بيت مصرّع من بحر الطويل على « مفاعلين » ولم يفعل ذلك غيره من الشعراء ، لأن تفعيلة بحر الطويل الأخيرة فى كل شطر إذا صُرّع تصبح مفاعلن ، وذلك فى قوله :

ألا انعم صباحاً أيهـا الطلل البالى وهل ينعمن من كان فى العصر الخالى

ومن النقّاد من أعرض عما جاء فى شعر امرئ القيس على غير مألوف القواعد فى النحو والصرف والعروض والبلاغة ، وتتبع سقطاته فى معانيه حين تتناقض أو تضطرب ، أو حين يراها الناقد كذلك ، ومعظم هؤلاء يصدرون فى أحكامهم عن أفكار فلسفية ، أو مقاييس جدلية ، آخر ما يصلح لتقويم العمل الفنى ، فابن رشيق القيروانى يرى فى قول امرئ القيس :

فيالك من ليل كأنّ نجومـه بكل مغار الفتل شدتْ بيذبـل
كأن الثريـا عُلّقت فى مصامها بأمراس كتانٍ إلى صم جندل

أن البيت الأول يغنى عن الثانى ، والثانى يغنى عن الأول ، ومعناهما واحد لأن النجوم تشتمل على الثريا ، كما أن يذبل يشتمل على صم الجندل ، وقوله شُدّتْ بكل مغار الفتل مثل قوله « علقت بأمراس كتان » . وعابوا عليه أنه قال فى موضع :

فلـو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجـد مؤثـل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالى

ثم قال فى موضع آخر :

فتملأ بيتنـا إقطاً وسمنـاً وحسبك من غنى شبع وريّ

بزعم « أن المعنى الأول أفخر ما قيل ، والثانى أنذل ما قيل ، والشاعر قد ناقض نفسه حيث وصفها فى موضع بسمو الهمة ، وقلّة الرضى بدنىء المعيشة ، وأطرى فى الموضع الآخر القناعة والاكتفاء من الغنى بالشبع والرى » .

وأمسك ابن السيد البطليوسى ، العالم اللغوى الأندلسى (ت ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م) بمعنى واحد يأتيه من كل جانب ، حين شبه امرؤ القيس حمرة دم الصيد على صدر فرسه ، بحمرة الحناء على الشيب فى قوله :

كأنَّ دمـــاء الهاديـــات بنحره عصـــارة حناء بشيب مرجّـــل

فانتقد هذا عليه بعض أصحاب المعانى وقالوا : إنما كان يصح تشبيه حمرة الدم على صدره بحمرة الحناء على الشيب ، لو كان الفرس أشهب . وقد ذكر أنه كان كميتاً فى قوله :

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلّت الصفـــواء بالمتنزل

فإذا صح أنه كان كميتاً بطل التشبيه ، فقال آخرون : إنما قال هذا لأن الفرس عرق ويبس العرق على صدره فابيض . فصار لذلك كالأشهب ، كما قال بشر بن أبى حازم :

* تراها من يَبيسَ الماء شهباً *

فرد عليهم آخرون فقالوا : قد وصف امرؤ القيس فرسه بأنه لم يعرق فى قوله :

فعادى عداءً بين ثـــور ونعجـــة دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل

فبطل ما اعتذرتم به . فردَّ عليهم خصماؤهم بأن قالوا : لم ينف امرؤ القيس العرق فى جميع الأوقات ، لأن ذلك عيب فى الفرس . وإنما وصف أنه صاد قبل أن يعرق ، وهذا لا يبطل أن يكون قد عرق بعد ذلك . والدليل على أنه عرق بعد الصيد قوله :

ورحنا وراح الطرف ينفض رأسه أذاةً بـــه من صائك متحلّب

وهذا إفصاح بأنه إنما نفى عنه العرق فى وقت الصيد وقبله ، ولم ينفه بعده .

واختلف أصحاب المعانى فى اختضاب صدره بالدم ، على أىِّ جهة كان ، فقال بعضهم : أراد أنَّ راكبه لما طعن الثور والنعجة ، ثار الدم من الطعنة إلى صدره فاختضب به .

وقال آخرون : بل كانوا يخضبون قوائم الفرس وصدره بدم صيده . ليعلم من يراه

أنه قد صاد ، واحتجوا بقول امرئ القيس :

وقام طـــوال الشخص إذ يخضبونه قيـامَ العزيز الفارسىّ المنطـــق

ذلك هو النقد القديم فى ألوانه وطعومه ، لم نأت به كله ، وما كان لنا ذلك ، فاكتفينا بنماذج مختلفة منه ، سنردّ على بعضها فى فصل تال ، ولم نضمّن هذه النماذج نقد الباقلّانى للمعلقة . لأنه يستحق ، وحده فصلا خاصاً ووقفة مستأنية .

الباقلانى والمعلقة

لم يؤلف الباقلانى ، أبو بكر محمد بن الطيب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ كتابه فى تاريخ الأدب أو النقد ، وإنما ألّفه فى « إعجاز القرآن » وأعطاه نفس الاسم ، لكنه سلك لتحقيق هدفه طريقاً سلبياً ، فلم يدلّل على إعجاز القرآن فى ذاته ، وإنما اختطّ لنفسه أن يدلل على تسخيف غيره ، فتظهر بذلك بلاغته ، وجعل سبيله « أن يعمد إلى قصيدة مُتَّفق على كبر محلها ، وصحة نظمها ، وجودة بلاغتها ، ورشاقة معانيها ، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها ، مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة ، والمعروفين بالحذق فى البراعة ، فنقفك على مواضع خللها ، وعلى تفاوت نظمها ، وعلى اختلاف فصولها ، وعلى كثرة فضولها ، وعلى شدّة تعسفها ، وبعض تكلفها ، وما تجمع من كلام رفيع ، يُقْرن بينه وبين كلام وضيع ، وبين لفظ سوقىّ ، يقرن بلفظ ملوكى ، وغير ذلك من الوجوه التى يجىء تفصيلها ، ونبين ترتيبها وتنزيلها » .

وقد اختار هدفاً له امرأ القيس ، لأنه — فيما يرى — « كبيرهم الذى يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذى يعترفون بفضله ، وقائدهم الذى يهتمون به ، وإمامهم الذى يرجعون إليه » واختار له خير شعره ممثلا فى « معلّقته » ، وابتدأ بها من مطلعها يمسك بتلابيب كل بيت ، ويتمحّك عند كل لفظ وحرف ، يقول : « إذا شئت أن تعرف عِظَم شأنه ، فتأمّل ما نقوله فى هذا الفصل ، فى أجود أشعاره ، وما نبيّن لك من عواره ، على التفصيل .

وذلك قوله :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل ... بِسقْط اللوى بين الدَّخول فحومل
فتُوضح فالمِقْراة لم يعف رَسمهـــا ... لمـا نسجتْها من جنوب وشَمْأَلِ

الذين يتعصَّبون له ويدّعون له محاسن الشعر ، يقولون : هذا من البديع ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر العهد والمنزل والحبيب ، وتوجَّع واسترجع ، كله فى بيت ، ونحو ذلك .

وإنما بيَّنا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن ، وإن كانت ، ولا غفلتُنا

عن مواضع الصناعة ، إنْ وُجِدَت .

تأملْ – أرشدك الله ، وانظر – هداكَ الله : أنت تعلم أنه ليس فى البيتين شىء قد سبق به فى ميدانه شاعراً ، ولا تقدّم به صانعاً . وفى لفظه ومعناه خلل :

فأول ذلك : أنه استوقف من يبكى لذكر الحبيب ، وذكراه لا تقتضى بكاء الخلىّ ، وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا ، على أن يبكى لبكائه ، ويرقّ لصديقه فى شدة بُرحائه ، فأما أن يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه ، فأمر محال .

فإن كان المطلوب وقوفُه وبكاؤُه أيضاً عاشقاً ، صح الكلام من وجه ، وفسد المعنى من وجه آخر ! لأنه من السَّخف أن لا يغار على حبيبه ، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه ، والتواجد معه فيه !

ثم فى البيتين ما لا يفيد ، من ذكر هذه المواضع ، وتسمية هذه الأماكن : من « الدخول » و« حومل » و« توضح » و« المقراة » و« سقط اللوى » ، وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا ، وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضرباً من العىّ !

ثم إن قوله : « لم يعف رسمها » ، ذكر الأصمَعىّ من محاسنه ، أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته ، فلو عفا لاسترحنا .

وهذا بأن يكون من مساويه أولى : لأنه إن كان صادق الود ، فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جدَّة عهد ، وشدَّة وجد ، وإنما فزع الأصمعى إلى إفادته هذه الفائدة ، خشية أن يعاب عليه ، فيقال أىّ فائدة لأنْ يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه ؟ وأى معنى لهذا الحشو؟ فذكر ما يمكن أن يذكر ؛ ولكنه لم يخلِّصه – بانتصاره له – من الخلل .

ثم فى هذه الكلمة خلل آخر ، لأنه عقب البيت بأن قال :

* فهل عند رسم دارس من مُعَوَّل ! *

فذكر أبو عبيدة : أنه رجع فأكذب نفسه ، كما قال زهير :

قفْ بالديـــار التى لم يعْفُها القـدمُ نعم ، وغيّرها الأرواح والديـــمُ

وقال غيره : أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كله ، وبالثانى أنه ذهب

بعضه ، حتى لايتناقض الكلامان .

وليس فى هذا انتصار ، لأن معنى « عفا » و« درس » واحد ، فإذا قال : « لم يعف رسمها » ثم قال : « قد عفا » ، فهوتناقض لا محالة !

واعتذار أبى عبيدة أقربُ لو صحّ ، ولكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك كما قاله زهير ، فهو إلى الخلل أقرب .

وقوله : «لِمَانسجتها » كان ينبغى أن يقول : « لما نسجها » ، ولكنه تعسّف فجعل « ما » فى تأويل تأنيث ، ولأنها فى معنى الريح ، والأولى التذكير دون التأنيث ، وضرورة الشعر قد قادته إلى هذا التعسف .

وقوله : « لمْ يعف رسمها » ، كان الأولى أن يقول : « لم يعف رسمه » ؛ لأنه ذكّر المنزل ؛ فإن كان ردَّ إلى هذه البقاع والأماكن التى المنزل واقع بينها ، فذلك خلل ، لأنه إنما يريد صفة المنزل الذى نزله حبيبه ، بعفائه ، أوبأنه لم يعف دون ما جاوره .

وإنْ أراد بالمنزل الدارحتى أنّث ، فذلك أيضاً خلل .

ولو سلم من هذا كله ومما نَكْره ذِكره كَراهية التطويل ، لم نشك فى أنَّ شعر أهل زماننا لا يقصرعن البيتين ، بل يزيد عليهما ويفضلهما .

ثم قال :

وقوفـاً بهـا صحبى علىّ مطيّهم   يقولون : لا تهلك أسى وتجمَّل

وإن شفائى عَبْرة مهراقـــــة   فهل عند رسمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

وليس فى البيتين أيضاً معنى بديع ، ولا لفظ حسن كالأوّلين .

والبيت الأول منهما متعلق بقوله : « قفا نبــك » ، فكأنه قال : قفا وقوف صحبى بها علىّ مطيهم ، أو : قفا حال وقوف صحبى . وقوله « بها » : متأخر فى المعنى وإن تقدّم فى اللفظ . ففى ذلك تكلف وخروج عن اعتدال الكلام .

والبيت الثانى مُخْتلّ من جهة أنه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافياً كافياً ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى ، وتحمُّل ومُعَوَّل عند الرسوم ؟

ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدلَّ على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ، ثم يسائل : هل عند الربع من حيلة أخرى ؟

وقوله :

كدأبكَ من أم الحويرث قبلها وجارتها أمِّ الربــاب بمأسل
إذا قامتا تضوع المسك منهمــا نسيم الصبا جاءتْ بريا القَرَنْفُل

أنت لا تشك فى أن البيت الأول قليل الفائدة ، ليس له مع ذلك بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ ، وإنْ كان منزوع المعنى !

وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله :

* إذا قامتا تضوع المسك منهما *

ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيباً على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط ، فذلك تقصير !

ثم فيه خلل آخر : لأنه بعد أن شبّه عَرْفها بالمسك ، شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص . وقوله : « نسيم الصبا » فى تقدير المنقطع عن المصراع الأوَّل ، لم يصله به وَصْلَ مثله .

وقوله :

ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بلَّ دمعى محملى
ألَا ربَّ يــوم لك منهن صالح ولا سيما يــوم بدارة جلجــل

قوله : « ففاضت دموع العين » ، ثم استعانته بقوله : « منى » استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع .

وقوله : « على النحر » حشو آخر ، لأن قوله : « بلَّ دمعى محملى » يغنى عنه ويدل عليه ، وليس بحشو حسن ، وإعادة ذكره الدمع حشو آخر ، وكان يكفيه أن يقول : حتى بلَّت محملى ، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله .

ثم تقديره أنه قد أفرط فى إفاضة الدمع حتى بلَّ محمله ، تفريط منه وتقصير ، ولو كان أبدع لكان يقول : حتى بلَّ دمعى مغانيهم وعِرَاصَهم . ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية . لأن الدمع يبعد أن يَبُلّ المحمل ، وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل ، وإن بله فلقلته وأنه لا يقطر . والبيت الثانى خال من المحاسن والبديع ، خال من المعنى ، وليس له لفظ يروق ، ولا معنى يروع ، من طباع السوقة ! فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب .

ذلك هو نقد الباقلانى للمقدمة الطللية عند امرئ القيس ، وهو كما رأينا نقد تافه ، لا يصدر عن إحساس أو تذوق أو منطق أو قاعدة ، وهو أقرب إلى العبث منه إلى النقد ، لأن كلمة « نبك » تعنى البكاء الحقيقى ، وقد تعنى استشعار الأسى لذهاب مسرات الأمس ، والتلهف على عودتها ، ويمكن أن يبكى المرء وحده وأن يبكى والذين معه ، يبكى كل واحد أمسه وحظه ، والأمر من قبل وبعد تصوير شعرى ، لحالة نفسية ، اولم يدرك الباقلانى أيضاً العاطفة التى تشد الإنسان إلى الأرض التى عاش فوقها ، ومرح فى عرصاتها ، فاستخفَّ بذكر الأسماء ، وغفل عن أهميتها فى تحديد معالم الصورة .

والحق مع الأصمعى فى أن قيام أثر للرسوم الدوارس ، على نحو ما صوَّره امرؤ القيس ، أشد تأثيراً مما لو ذهبت كلاً ، فيصعب على العقل والقلب تبيّنها ، والربط بين حاضرها وأمسها . ولا تناقض بين قوله « لم يعف رسمها » وقوله « رسم دارس » ، لأن الرسم العافى هو الذى ذهب جملة ، والدارس ما بقيت له آثار تدل عليه ، وما زعمه من مخالفته للنحو ، أو حتى تجاوزه لغير الأولى ، لا يستقيم بداهة ، لأن القواعد نفسها صُنِعت على شعره وشعر غيره من طبقته ، فهو المثال وليس المحتذِى ، فضلا عن أن محاورة الباقلانى فى هذا الجانب تمحك وهذر ، لأن الشاعر يتحدث عن منزل كان فى ديار متعددة ذكرها ، والضمير يعود عليها مؤنثاً ، وكلها كانت منازل حبيبته ، لكن الباقلانى لا يفرق بين منزل فى البادية عريض وطويل وممتد ، وبين منزل يسكنه فى بغداد ، مساحته أمتار ، وتحده أربعة جدران .

على هذا النحو يمضى الباقلانى فى تحطيم صور المعلقة ، يقول :

ويـــوم عقرتُ للعـذارى مطيّتى ... فياعجبا من رحلهـــا المتحمل

فظل العـــذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتّل

تقديره : اذكر يوم عقرت مطيّتى ، أو يرده على قوله « يوم بدارة جلجل » ، وليس فى المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته . وقال بعض الأدباء : قوله « يا عجبا » يعجبهم من سفهه فى شبابه ، ومن نحره لهن ، وإنما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعاً عن الأول ، وأراد أن يكون الكلام ملائماً له .

وهذا الذى ذكره بعيد . وهو منقطع عن الأول ، وظاهره أنه يتعجب من تحمل العذارى رحله ، وليس فى هذا تعجب كبير ، ولا فى نحر الناقة لهن تعجب . وإن

كان يعنى به أنهن حملن رحله ، وأن بعضهن حملنه ، فعبر عن نفسه برحله ، فهذا قليلا يشبه أن يكون عجباً ، لكن الكلام لا يدل عليه ، ويتجافى عنه . ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شيء غريب ، ولا معنى بديع أكثر من سفاهته ، مع قِلّة معناه ، وتقارب أمره ، ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا (زمان الباقلانى) .

وإلى هذا الموضع لم يمرَّ له بيت رائع ، ولا كلام رائق .

وأما البيت الثانى فيعدونه حسناً ، ويعدون التشبيه مليحاً واقعاً ، وفيه شيء : وذلك أنه عرَّف اللحم ونكَّر الشحم فلا يعلم أنه وصف شحمها ، وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع للعامَّة ، ويجرى على ألسنتهم ، وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فرّتْ مرسلة ، وهذا نقص فى الصنعة ، وعجز عن إعطاء الكلام حقه .

وفيه شيء آخر من جهة المعنى ، وهو أنه وصف طعامه الذى أَطعم من أضاف بالجودة ، وهذا قد يعاب ، وقد يقال : إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيباً ، وإنما الفُرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً .

وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشيء يقع للعامة ويجرى على ألسنتهم ، فليس بشيء قد سبق إليه ، وإنما زاد « المفتل » للقافية ، وهذا مفيد ، ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ، ولم يعدّ أهل الصنعة ذلك من البديع ، ورأوه قريباً .

وفيه شيء آخر من جهة المعنى ، وهو أن تبجحه بما أطعم للأحباب مذموم ، وإن سوّغ التبجح بما أطعم للأضياف ، إلاّ أنْ يورد الكلام موردِ المجون ، وعلى طريق أبى نُواس فى المزاح والمداعبة .

وإذا كان نقد الباقلانى مثيراً فى أوله ، فهو مضحك فى هذه المرة ، لأنه تخبط وناقض نفسه أكثر من مرَّة : نقده بأنه وصف طعامه بالجودة ، ثم قال إن العرب تفخر بذلك ، وأن الفرس هم الذين يرونه عيباً ، ثم عقب عليه بأن ذلك مباح على أىّ حال إذا كان فى مقام المزاح ، وامرؤ القيس كان مع صويحباته فى رحلة ، تنسى فيها المراسم ، ويكثر فيها المزاح ، ويعيش الناس على سجيّتهم . ووصف تشبيهه الشحم بالدمقس ، بأنه يجرى على ألسنة العامة . أى عامة يعنى ؟ العامة فى عصر امرئ القيس أو فى عصره ، إن كانوا فى عصر امرئ القيس فن هم ؟ وكيف عرف أن هذا التشبيه كان جارياً بينهم ؟ وإن كانوا فى عصره ، فهل يعاب امرؤ القيس بتشبيه أرسله ،

فأصبح شعبياً تتداوله العامة بعد موت الشاعر بأربعة قرون .

ويمضي الباقلانى مع بقية أبيات المعلقة ، يقول :

ويـــوم دخلت الخـــدر خدر عنيزة　　فقالت : لك الويلات إنك مرجلى

تقول وقد مال الغبيط بنا معـــاً　　عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

قوله : « دخلت الخدر خدر عنيزة » ، ذكره تكريراً لإقامة الوزن ، لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحة له ولا رونق . وفى المصراع الأخير من البيت كلام مؤنث من كلام النساء ، نقله من جهته إلى شعره ، وليس فيه غير هذا . وتكريره بعد ذلك « تقول وقد مال الغبيط » ، يعنى قتب الهودج ، بعد « فقالت لك الويلات إنك مرجلى » لا فائدة فيه غير تقدير الوزن ، وإلاَّ فحكاية قولها الأول كاف ، وهو فى النظم قبيح ؛ لأنه ذكر مرة « فقالت » ، ومرة « تقول » ، فى معنى واحد وفصل خفيف . وفى مصراع الثانى تأنيث من كلامهن . وذكر أبو عبيدة أنه قال « عقرت بعيرى » ولم يقل ناقتى ، لأنهم يحملون النساء على ذكور الإبل لأنها أقوى . وفى ذلك نظر ، لأن الأظهر أن البعير اسم للذكر والأنثى ، واحتاج إلى ذكر البعير لإقامة الوزن .

حين لا يجد الباقلانى شيئاً يمسك به يتكئ على حجة واهية لا تصدر عن ناقد واع بأصول النقد ، أو متذوق رهيف الحس ، وهى القول بأن هذه الكلمة أو تلك جاء بها الشاعر ليقيم الوزن ، كأنما الشعر كلمات مرصوصة تقاس مساحة أو توزن حجما ، فكلمة « خدر» الثانية وكلمة « بعير» من هذا القبيل ، ونسى الجمال الذى تثيره الأولى فى النفس ، حين يشدّ الشاعر انتباه سامعه بأنه دخل الخدر ، حتى إذا كان معه وأعاره مشاعره ، طمأنه فى كلمة واحدة : خدر عنيزة . واستخدام الثانية برّره الباقلانى نفسه بعد اعتراضه ، حين قرر أنها تطلق على المذكر والمؤنث . ثم مدح امرأ القيس من حيث أراد ذمه ، حين قرّر أن فى البيتين كلاما فيه طراوة النساء ، ذلك أن امرأ القيس يحكى كلام صويحباته ، وحين يستطيع أن يضع على لسانهن ما هو من شأنهن فعلا يكون قد بلغ قمة الإبداع فى التصوير . وزعمه بأن البيت الثانى لم يأت بجديد عما فى البيت الأول ، يدل على أنه لم يفهم البيت ، أو لأنه مدفوعا بفكرة نقضه لم يحاول أن يفهمه ، لأن ثمة فارقاً واضحاً بين معنى كل منهما ، فى الأول تحذّره : إنك توشك أن تجعلنى أمشى راجلة ، وفى الثانى تقول له : إذا لم تبق هادئاً فانزل .

ويزيد الباقلانى ، وقوله :

فقلت لهــا سيرى وأرخى زمامــه ولا تبعدينى مــن جناك المعلل

فمثلك حبلى قــد طرقت ومرضــع فألهيتهــا عن ذى تمائم محــول

البيت الأول قريب النسج ، ليس له معنى بديع ، ولا لفظ شريف ، كأنه من عبارات المنحطين فى الصنعة . والبيت الثانى عابه أهل العربية ، وتقديره أنه زير نساء ، وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن ، لأن الحبلى والمرضعة أبعد من الغزل وطلب الرجال ، وهو فى الاعتذار والاستهتار والتهيام ، وغير منتظم مع المعنى الذى قدمه فى البيت الأول ، لأن تقديره لا تبعدينى عن نفسك ، فإنى أغلبُ النساء ، وأخدعهن عن رأيهن ، وأفسدهن بالتغازل . وكونه مفسدة لهن لا يوجب له وصلهن ، وترك إبعادهن إياه ، بل يوجب هجره والاستخفاف به ، لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش ، وركوبه كل مركب فاسد . وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره .

وقوله :

إذا ما بكى . . . . لم يحــوّل

ويوماً على ظهر الكثيب تعــذَّرتْ علىَّ وآلتْ حلفــة لم تحلّل

فالبيت الأول غاية فى الفحش ، ونهاية فى السخف ، وأى فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ، ويذهب هذه المذاهب ، ويرد هذه الموارد ، إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه ، ويوجب له المقت ، وهو لو صدق لكان قبيحاً ، فكيف ويجوز أن يكون كاذباً . ثم ليس فى البيت لفظ بديع ، ولا معنى حسن . وهذا البيت متصل بالبيت الذى قبله ، من ذكر المرضع التى لها ولد مُحْوِل .

فأما البيت الثانى فيتعجب منها بأنها تشدّدتْ وتعسرت عليه ، وحلفت ، فهو كلام ردىء النسج لا فائدة لذكره لنا أن حبيبته تمنعت عليه يوماً بموضع يسميه ويصفه . وأنت تجد فى شعر المحدثين من هذا الجنس فى التغزل ما يذوب معه اللب ، وتطرب عليه النفس ؛ وهذا مما تستنكره النفس ويشمئز منه القلب ، وليس فيه شىء من الإحسان والحسن .

لم يجد الباقلانى فى الأبيات الأربعة الماضية ، خللاً فى النحو أو اللغة أو النظم ،

فجاءها من ناحية المضمون ، إن معانيها لا ترتضيها الأخلاق ، لا يقول هذا صراحة ، وإنما يلفُّ حوله ويدور كأنه خائف أن يأخذ أحد بتلابيبه فيقول له : وما دخل الأخلاق هنا ؟ ولو قالها صريحة ، واتخذها مذهباً ، لوجد من يقف إلى جواره يعاضده ، ولكنه سبّ الشاعر والأبيات دون أن يفصح عن رأيه ، دون أن يعرض علينا مذهباً محدداً نتخذه قاعدة نحتكم إليه ، وقد أعجبه شعر الغزل فى العصر العباسى حيث عاش ، لكنه لم يقدم لنا هذا النموذج الذى ارتضاه لنقارنه بمذهب امرئ القيس ومنحاه فى التعبير ، وقد وَسم أبياته بأنها عارية من الحسن والإحسان .

ويمضى الباقلانى ، وقوله :

أفاطم مهلاً بعضَ هـــذا التدلُّل وإن كنتِ قد أزمعتِ صرمى فأجملى
أغـــرَّكِ منى أن حبكِ قاتــلى وأنكِ مهما تأمرى القلب يفعل

فالبيت الأول فيه ركاكة جدا ، وتأنيث ورقة ، ولكن فيه تخنيث . ولعل قائلا أن يقول : إن كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل ، وليس كذلك ، لأنك تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم . والمصراع الثانى منقطع عن الأول لا يلائمه ولا يوافقه ، وهذا يبين لك إذا عرضت معه البيت الذى تقدمه . وكيف ينكر عليها تدللُّها ، والمتغزّل يطرب على دلال الحبيب وتدلله .

والبيت الثانى قد عيب عليه ، لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا تغتر بما يريها من أن حبَّها يقتله ، وأنها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والمحب إذا أخبر عن مثل هذا صدق . وإن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه ، وإنما ذهب مذهباً آخر ، وهو أنه أراد أن يظهر التجلد ، فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات ، من الحب والبكاء على الأحبة ، فقد دخل فى وجه آخر من المناقضة والإحاطة فى الكلام . ثم قوله « تأمرى القلب » معناه تأمرينى ، والقلب لا يؤمر ، والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة .

وقوله :

فإن كنتِ قد ساءتك منى خليقةٌ فسلِّى ثيابى من ثيابك تنسُل
وما ذرفت عينـــاك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتَّل

البيت الأول قد قيل فى تأويله إنه ذكر الثوب وأراد البدن ، مثل قول الله تعالى :

« وثيابك فطهِّر » . وقال أبو عبيدة هذا مثل للهجر ، وتنسل : تبين . وهو بيت قليل المعنى ، ركيكه وضيعه ، وكل ما أضاف إلى نفسهِ ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف ، يوجب قطعه ، فلِمَ لَمْ يحكم على نفسه بذلك ، ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتفصى من وصله ، وأنه مهذب الأخلاق ، شريف الشمائل ، فذلك يوجب أن لا ينفكّ من وصاله . والاستعارة فى المصراع الثانى فيها تواضع وتقارب ، وإن كانت غريبة .

وأما البيت الثانى فعدود من محاسن القصيدة وبدائعها ، ومعناه : ما بكيت إلا لتجرحى قلباً معشّراً – أى مكسّراً – من قولهم « بُرْمةٌ أعشارٌ » إذا كانت قطعاً . هذا تأويل ذكره الأصمعى ، وهو أشبه عند أكثرهم ، وقال غيره : وهذا مثل للأعشار التى تقسم الجزور عليها ، ويعنى بسهميك : المعلّى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فأراد أنّك ذهبت بقلبى أجمع . ويعنى بقوله « مقتَّل » : مذلل . وأنت تعلم أنه على ما يعنى به فهو غير موافق للأبيات المتقدمة ، لما فيها من التناقض الذى بينا .

ويشبه أن يكون مَن قال بالتأويل الثانى ، فزع إليه لأنه رأى اللفظ مستكرها على المعنى الأول ، لأن القائل إذا قال : « ضرب فلان بسهمه فى الهدف » بمعنى أصابه ، كان كلامه ساقطاً مرذولاً ، وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينيها كالسهمين النافذين فى إصابة القلب المجروح ، فلما بكتا وذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين فى قلبه .

ولكن من حمل على التأويل الثانى سلم من الخلل الواقع فى اللفظ ، ولكنه يفسد المعنى ويختل ، لأنه كان محباً – على ما وصف به نفسه من الصبابة – فقلبه كله لها ، فكيف يكون بكاؤها هو الذى يخلص قلبه لها ؟ . وأعلم بعد هذا أنّ البيت غير ملائم للبيت الأول ، ولا متصل به فى المعنى ، وهو منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ، ولا سبب يوجب ذلك فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال .

ثم لو سلم له بيت من عشرين بيتاً ، وكان بديعاً ولا عيب فيه ، فليس بعجيب ، لأنه لا يدعى على مثله أن كلامه كله متناقض ، ونظمه كأنه متباين ، وإنما يكفى أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت ، مما لا يمكن أن يقال إنه يتقدم فيه أحداً من المتأخرين فضلا عن المتقدمين ، وإنما قدم فى شعره لأبيات قد برع فيها وبان حِذقه بها ، وإنما

أنكرنا أن يكون شعره متناسباً فى الجودة ، ومتشابهاً فى صحة المعنى واللفظ ، وقلنا إنه يتصرف بين وحشى غريب مستنكر ، وعربية كالمهمل مستكرهة ، وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامى سوقى فى اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين سخف مُستشنع .

تلك هى وجهة نظر الباقلانى فى أجمل أبيات القصيدة وأرقها ، وهو أحياناً يزيف المعنى فيقول : « كيف ينكر عليها دلالها » ، وامرؤ القيس لم ينكر هذا الدلال ، بل رغب فى شىء منه ، وإنما أنكر أن تسرف فيه فينتهى بهما الأمر إلى القطيعة . كذلك لم يفهم الاستفهام فى « أغرك منى أن حبّك قاتلى » ، تصوره استفهاماً إنكاريًّا ، وهو تقريرى ، يقرر به « لقد غرَّك أن حبك قاتلى » ، والاستعارة فى « تأمرى القلب » بالغة الغاية والروعة ، وإذا لم يُؤمر القلب فى مجال العاطفة والحب فمتى يؤمر ؟ وإذا لم يؤمر من الحبيبة فأمام من يتذلَّل ؟ إنّ امرأ القيس أصاب كل الإصابة حين اتجه إلى القلب مصدر الأحاسيس والحياة ، لكأنما كل ما غيره ذهبت به الصبابة ، أو دونه .

ويقول الباقلانى ، فأما قوله :

وبيضـــة خدرٍ لا يُـرام خِبـاؤها   تمتعت من لهـو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليهـا ومعشراً   علىَّ حِراصاً لو يسرون مقتلى

فقد قالوا : عنى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ، ولكن لم يسبق إليها ، بل هى دائرة فى أفواه العرب ، وتشبيه سائر . ويعنى بقوله « غير معجل » أنه ليس ذلك مما يتفق قليلاً وأحياناً ، بل يتكرر له الاستمتاع بها ، وقد يحمله غيره على أنه رابط الجأش ، فلا يستعجل إذا دخلها خوْف حصانتها ومنعتها . وليس فى البيت كبير فائدة ، لأن الذى حكى فى سائر أبياته قد تضمن مطاولته فى المغازلة واشتغاله بها ، فتكريره فى هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى ، إلاّ الزيادة التى ذكر من منعتها ، وهو مع ذلك بيت سليم اللفظ فى المصراع الأول دون الثانى .

والبيت الثانى ضعيف . وقوله « لو يسرون مقتلى » أراد أن يقول : لو أسرّوا ، فإذا نقله إلى هذا ضعف ووقع فى مضمار الضرورة ، والاختلاط على نظمه بين ، حتى إن المتأخر ليحترز من مثله .

لم يدرك الباقلانى ، كما أدرك امرؤ القيس ، مصدر السعادة فى الحب ، وهو

التجاوب والتكامل والتوافق فى الطباع ، ولم يستطع أن يتجاوز مفهوم الألفاظ مفردة إلى ما تعطيه الصورة كاملة ، فليست هناك فى الحق ثياب تغسل ، وإنما أراد « إذا وجدت من طباعى ما يكون عائقاً فى سبيل انصهارنا روحاً واحداً فى بوتقة الحب ، فالفرقة خير ، والتباعد أسلم .

واعترف بما فى « وما ذرفت عيناك » من حسن وجمال ، ربما لأنّ الخليفة عبد الملك بن مروان أعجب به ، وشاركه إعجابه من كان فى مجلسه ، وكأنه ندم على شهادته فعاد من جديد يكرر دعوى التناقض ، وعدم ملاءمة البيت لما قبله . تصوّر مسّطح للعاطفة ، أوقعه فى التفاهة ، لأن المرء إذا كان رهيف الحس لا يلزم من الشيء الجميل ، أى شيء ، موقفاً موحَّداً مستمراً ، إنما يصعَّد فيه ويهبط ، ويرتفع معه وينزل ، ويرضى عنه ويغضب ، وذلك هو الوقود الذى يحفظ للعاطفة حماستها وتأججها ، وقد صنع نفس الشيء فى « وبيضة خدر » رأى النقاد يعجبون بالبيت فقال إنه جميل ، ثم عقب عليه : لكنه لم يأت بجديد . ولم يدرك معنى الاستمرار الذى يوحى به استخدام الفعل المضارع فى « لو يسرون » بدل استخدام الماضى فعدها من أخطاء الشاعر ، واستخدام المضارع فى موضع الماضى ، لجعل صورة الشيء ماثلة فى الذهن أبداً ، بعض أوليات علم البلاغة العربية .

ويتابع الباقلانى نقده ، وقوله :

إذا ما الثريـــا فى السماء تعرضت   تعرض أثنـــاء الوشاح المفصَّل

أنكره قوم عليه ، وقالوا الثريا لا تتعرض ، حتى قال بعضهم : سمَّى الثريا وإنما أراد الجوزاء ، لأنها تعرض ، والعرب تفعل ذلك ، كما قال زهيْر : «كأحمر عاد » ، وإنما هو أحمر ثمود . وقال بعضهم فى تصحيح قوله إنما تعرِض أول ما تطلع وحين تغرب ، كما أن الوشاح إذا طرح يلقاك بعرْضه . والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه ، وأنه من محاسن هذه القصيدة ، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ، ويستولى على الأمد . . .

وفى جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه فى الحسن ، أو يساويه ، أو يقاربه ، فقد علمت أنّ ما حلَّق فيه ، وقدَّر المتعصب له أنه بلغ النهاية فيه ، أمر مشترك ، وشريعة مورودة ، وباب واسع ، وطريق مسلوك ، وإذا كان هذا بيت القصيدة ،

ودرّة القلادة ، وواسطة العقد ، هذا محله ، فكيف بما تعداه ؟

ثم فيه ضرب من التكلف ، لأنه قال « إذا ما الثريا فى السماء تعرّضت » ، فتعرضت من الكلام الذى يستغنى عنه ، لأنه يشبه أثْناء الوشاح بالثريا ، سواء كان فى وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، فالتهويل بالتعرض ، والتطويل بهذه الألفاظ ، لا معنى له .

وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصَّل ، فلا معنى لقوله « تعرُّض » وإنما أراد أن يقول : تعرُّض قطعة من أثناء الوشاح ، فلم يستقم له اللفظ ، حتى شبه ما هو كالشيء الواحد بالجمع .

أصاب الباقلانى الفهم لأول مرة ، فلم يقع فى الجدل الطويل الممل الذى وقع فيه الآخرون . هل أخطأ امرؤ القيس أم لم يخطئْ ؟ وهل تتعرَّض الثريا أم لا تتعرض ؟ . وكانت القضية أهون من ذلك بكثير لأن الشاعر أراد أن يحدد معالم كبرى نجوم السماء تتعرضها ، وتلمع فى وسطها بين نجوم دونها ضوءاً ، كوشاح فصّل بالجواهر ، جواهر ليست ذات شكل واحد ، وإنما تلمع كبرياته – كل واحدة بمعزل عن الأخرى – وسط عدد من الجواهر الصغيرة ، أقل حجماً وأخفت بريقاً . ولو وقف الباقلانى عند التفسير وحده لأفاد وأنصف ، ولكنه قال إن امرأ القيس أخطأ حين « شبه ما هو كالشيء الواحد بالجمع » ، كأنه لم يدرس المجاز ولم يقرأ القرآن .

وينتقل الباقلانى إلى بيتين آخرين . وقوله :

فجئت وقد نضتْ لنــومٍ ثيابها ... لدى السِّتْرِ إلا لبسة المتفضِّــلِ
فقالت : يمين الله ما لك حيلــة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلى

انظر إلى البيت الأول والأبيات التى قبله ، كيف خلَّط فى النظْم ، وفرط فى التأليف ، فذكر التمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحرَّاس ، ثم ذكر كيف كانت صفتها لما دخل عليها ووصل إليها ، من نزعها ثيابها إلا ثوباً واحداً ، والمتفضل هو الذى فى ثوب واحد ، وهو الفضل ، فما كان من سبيله أن يقدمه إنما ذكره مؤخراً . وقوله « لدى الستر » حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس فى البيت حسْن ، ولا شيء يفضَّل لأجله .

وأما البيت الثانى ففيه تعليق واختلال ، ذكر الأصمعى أن معنى قوله « مالك حيلة » أى ليست لك جهة تجيء فيها والناس أحوالى . والكلام فى المصراع الثانى منقطع

عن الأول ، ونظمه إليه فيه ضرب من التفاوت .

وقوله :

فقمتُ بهـا أمشى تجـرُّ وراءنـا ... على إثرنا أذيـال مرط مرجّـل

فلمـا أجزنا ساحة الحى وانتحى ... بنا بطن حقف ذى حقاف عقنقل

البيت الأول يذكر محاسنه من مساعدتها إياه ، حتى قامت معه ليخلوا ، وأنها كانت تجر على الإثر أذيال مرْط مرجّل ، والمرجل ضرب من البرود ، يقال لوشيه الترجيل ، تكلف ، لأنه قال « وراءنا على إثرنا » ولو قال على « إثرنا » كان كافياً ، والذيل إنما يجرى وراء الماشى ، فلا فائدة لذكر وراءنا ، وتقدير القول : فقمت أمشى بها ، وهذا أيضاً ضرب من التكلف ، وقوله « أذيال مرط » ، كان من سبيله أن يقول : ذيل مرط .

وأما فى البيت الثانى فقوله « أجزنا » بمعنى « قطعنا » ، و« الخبت » ! بطن من الأرض ، والحقف : رمل منعرج ، والعقنقل : المنعقد من الرمل الداخل بعضه فى بعض ، وهذا بيت متفاوت مع الأبيات المتقدمة ، لأن فيها ما هوسلس قريب ، يشبه كلام المولدين وكلام البذلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة ، وليس فى ذكرها والتفضيل بإلحاقها بكلامه فائدة :

وهكذا كلما أعوزت الباقلانى الحجة فى تشويه بيت ، أمسك بأية كلمة فيه ، وأخذ يصيح : هنا حشو ! ، أو هذه الكلمة جاءت متأخرة وحقها أن تتقدم ، أو متقدمة وحقها أن تتأخر ، فكلمة « لدى الستر » عنده حشو ، لأنها جاءت بعد « نضت لنوم » وغفل عن أن الإنسان ليس من الضرورى أن ينام فى بيته ، ومن البيت فى حجرة النوم ، وإنما يجوز أن ينام فيها وفى غيرها ، ولكن مكاناً واحداً هو الذى يخلع فيه ثياب الحياة ، ويرتدى ثوب النوم ، هو حجرة الستر ، وذلك ما غاب عن فطنته . ولم يجد فى البيت « فقالت يمين الله » حشوا يمسك به ، فقال إن المصراع الثانى منقطع عن الأول ، والحال أنهما أشد ما يكونان تماسكا وتكاملاً . تقول له : ليست لى حيلة فى دفعك ، ولست مقلعاً عن غيك .

وعاد يمسك بكلمات من الأبيات الأخرى ، قال « أذيال » وحقه أن يقول « ذيل » ، والثوب الواحد ، قد تكون له أذيال عديدة فعلا ، وقد يكون له ذيل واحد يساويها جميعاً فى مقام الاعتبار والتقدير . واستوحش كلمة « عقنقل » . وهى لها نفس الصفة

فعلاً ، ولكنها فى الحق جاءت لتعبر عن معنى يساويها وحاشة وصعوبة وتعقيداً .

ويمضى الباقلانى فى حديثه ، وأما قوله :

هصرتُ بغصنىْ دوحـــةٍ فتمايلت   علىّ هضيمَ الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضـــاء غير مفاضـــة   ترائبها مصقولة كالسجنجـــل

فمعنى قوله « هصرت » جذبت وثنيت ، وقوله بغصنى دوحة تعسّف ، ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين . والمصراع الثانى أصح ، وليس فيه شىء إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين . وأنت تجد ذلك فى وصف كل شاعر ، ولكنه مع تكرره على الألسنة صالح . وأما معنى قوله « مهفهفة » : أنها مخففة ليست مثقلة . والمفاضة التى اضطرب طولها . والبيت مع مخالفته فى الطبع الأبيات المتقدمة ، ونزوعه فيه إلى الألفاظ المستكرهة ، وما فيه من الخلل ، من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض ، فليس بطائل ، ولكنه قريب متوسط .

وقوله :

تصـــد وتبـــدى عن أسيل وتتّقى   بناظرة من وحش وجـــرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش   إذا هى نصّتـــه ولا بمعطّل

معنى قوله « عن أسيل » أى بأسيل ، وإنما يريد خداً ليس بكز ، وقوله « تتّى » ، يقال اتقاه بحقه ، أى جعله بينه وبينه . وقوله « تصد وتبدى » متفاوت ، لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد .

وقوله « تتّى بناظرة » لفظة مليحة ، ولكنه أضافها إلى ما نظم به كلامه وهو مختل ، وهو قوله « من وحش وجرة » وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا ، كان من سبيله إلى أن يضيف إلى عيون الظباء أو المها دون إطلاق الوحش ، ففيهن ما تستنكر عيونها .

وقوله « مطفل » فسّروه على أنها ليست بصبية ، وأنها قد استحكمت وهذا اعتذار متعسف ، وقوله « مطفل » زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذى ذكره الأصمعى . ولكن قد يحتمل عندى – عند الباقلانى – أن يفيد غير هذه الفائدة ، فيقال إنها إذا كانت مطفلا لحظت أطفالها بعين رقة ، فنى نظر هذه رقة نظر المودة ، ويقع الكلام متعلقاً تعليقاً متوسطاً .

وأما البيت الثانى فمعنى قوله « ليس بفاحش » أى ليس بفاحش الطول .

ومعنى قوله « نصته » رفعته ، ومعنى قوله « ليس بفاحش » ، فى مدح الأعناق ، كلام فاحش موضوع منه .

وبعد أن تعب من الهدم ، وملّ الاختلاق ، رأى فى النصفة عدلاً ، فالتفت إلى أبيات جميلة من المعلقة أوردها فى جو من لا يكاد يصدق ، يقول : فأما الذى زعموا أنه من بديع هذا الشعر ، فهو قوله :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

والمصراع الأخير عندهم بديع ، ومعنى ذلك أنها مترفة متنعمة ، لها من يكفيها . ومعنى قوله « لم تنتطق عن تفضل » ، يقول لم تنتطق وهى فُضُل ، و« عن » بمعنى « بعد » ، قال أبو عبيدة : لم تنتطق فتعمل ، ولكنها تتفضل .

ثم عرض لأبيات امرئ القيس فى الليل ، وعدّها من محاسنه ، وقارنها بأبيات النابغة وعرضنا لها قبلا[1] .

وقد خرّجوا له فى البديع من القصيدة قوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

له أيطلا ظبى وساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فأما قوله « قيد الأوابد » فهو مليح ، ومثاله فى كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير ، والتعمّل بمثله ممكن . وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفاً ، ويؤلفون المحاسن تأليفاً ، يوشحون به كلامهم . والذين كانوا من قبل – لغزارتهم – وتمكنهم لم يكونوا يتصنعون لذلك ، وإنما كان يتفق لهم اتفاقاً ، ويطرد فى كلامهم اطرادا .

وأما قوله فى وصفه : « مكر مفر » فقد جمع فيه طباقاً وتشبيهاً . وفى سرعة جرى الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف .

وكذلك فى جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه فى بيت واحد صنعه ، ولكن قد عورض فيه وزوحم عليه ، والتوصل إليه يسير ، وتطلبه سهل قريب .

وهذا القدر يكفى فى كتابنا – إعجاز القرآن – ولم نحب أن ننسخ لك ما سطّره الأدباء فى خطأ امرئ القيس فى العروض والنحو والمعانى ، وما عابوه عليه فى أشعاره ،

---

(١) انظر ص ٢٣٦ وما بعدها

وتكلموا به عليه فى ديوانه ، لأن ذلك أيضاً خارج عن غرض كتابنا ، ومجانب لمقصوده .

تلك هى آراء الباقلانى فى « المعلقة » ، أسرف فيها على نفسه وعلى الذوق الأدبى ، حين جعل من الجدل والمنطق عماده فى الفهم والتفسير ، وهما آخر ما يستخدم فى تذوق الشعر ، وأخطأ حين واجه القضية بفكرة سابقة ، وما كان له إلا أن يكون كذلك ، لأنه يتحدث عن إعجاز القرآن ، إعجاز نحسّه تذوقاً ونؤمن به عقيدة ، فلا مجال للمقارنة بينه وبين غيره من ضروب القول ، وبخاصه أن القرآن نسيج وحده فى لونه الفنى ، وأخطأ حين أغفل صور امرئ القيس ككل إغفالا تاماً ، فهو يمسك بخناق البيت داخل القصيدة ، وبخناق الكلمة فى نطاق البيت ، وبخناق الحرف معزولا عن الكلمة ، ولعمرى لوفعل ذلك بالقرآن الكريم نفسه ، لما أبقى له من البلاغة على شىء .

وهو اتجاه كان يخالف منحى النقد الأدبى السائد فى عصره ، وما بعد عصره ، فلنترك القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٦٦ هـ أو ٣٩٢ هـ) صاحب كتاب « الوساطة » ، وكان معاصراً للباقلانى ، يرد عليه : « . . لكن الذى أطالبك به ، وألزمك إياه ، ألا تستعجل بالسيئة قبل الحسنة ، ولا تقدم السخط على الرحمة ، وإن فعلت فلا تهمل الإنصاف جملة ، وتخرج عن العدل صفرا ، فإن الأديب الفاضل لا يستحق أن يعقد بالعثرة على الذنب اليسير ، من لا يحمد منه الإحسان الكثير ؛ وليس من شرائط النصفة أن تنعى على أبى الطيب بيتاً شذّ ، وكلمة ندرت ، وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ، ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع ، وروائعه وقد بهرت العقول ، ولا من العدل أن تؤخره الهفوة المنفردة ، ولا تقدمه الفضائل المجتمعة ، وأن تحطه الزلة العابرة ، ولا تنفعه المناقب الباهرة » . وهذه الالتفاتة التى وقف بها الجرجانى تحسب له فى أكرم الالتفاقات ، وإحدى المعالم البارزة فى تاريخ النقد الأوربى منذ القرن السابع عشر إلى الآن ، فبوالو Boileau, Despreaux . الشاعر والناقد الفرنسى (١٦٣٦ — ١٧١١ م) ، وشيخ المدرسة الكلاسيكية فى فرنسا ، يرى أن النقد ينهض على دعامتين : رعاية القواعد اللازمة فى اللغة وفى الفن ، والحكم على إنتاج الأديب جملة مع مراعاة القواعد السابقة .

وبهدى من قواعد النقد القديم ، وإضافات النقد الحديث ، سوف نعرض فى الفصل التالى رأينا فى شعر امرئ القيس جملة .

فى ضوء النقد الحديث

يلتقى النقد الحديث مع النقد القديم فى بعض القضايا ، ويخالفه فى بعضها الآخر . يتفق معه فى أن امرأ القيس أبدع صورا أدبية نابضة بالحياة والقوة والجمال قلما صنع مثلها أحد من معاصريه أو سابقيه أو من جاءوا بعده من الشعراء الجاهليين ، وعالج فنونا من التشبيه قصر دونها أنداده ، وكل ما زعم له القدامى من أوليات فهى حق ، ما دام شعره أول شعر يصلنا يحمل هذه المعانى والصور.

يخالفه فى النقد القائم على تصيّد الأخطاء المفردة أو افتعالها ، والوقوف عند الكلمات والجدل حولها ، والحكم على أعمال الشاعر من خلال قيم لم تكن سائدة فى عصره ، أو كان سائدا ما يناقضها .

ومن ثم فنحن نرى أن القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ، ومثله الباقلانى ، جانبه الصواب فى نقده للبيت :

تصدُّ وتبدى عن أسيل وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

وقوله : « سألتُ من لا أحصى من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلا على وحش ضَرية وغزلان بُسيطة ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، أما العيون فقل أن تختلف لذلك » . فالحق أن عيون الحيوان – كالإنسان – فى منطقة ما أجمل منها فى غيرها ، أو أشد بريقاً وأصفى لونا .

لقد نجح امرؤ القيس فى أن ينقل لنا بصدق ، تجربته كاملة ، تنمُّ عن عميق شعوره وإحساسه ، واقتناعه الذاتى بما عالج فى شعره ، وإخلاصه الفنى فى التعبير عنها ، ونقلها إلينا فى دقة كاملة ، تتمثل فيها ألوان الحياة التى عاشها ، والصراع الذى عرض له ، إزاء الأحداث التى أحاطت به ، وفتح أنفسنا على حقائق ومعان تقصر عن أدائها الكلمات الجامدة فى المعاجم ، أو الروايات الهامدة مسجاة فى كتب التاريخ .

وهو يفضى بذات نفسه فى إخلاص ، لا يتحرج ولا يقتصد ، هادئ طوراً كالنسيم ، ومكتسح عاصف أحياناً كالسيل ، يزهو ويتضاءل ، ويشمخ ويأسى ، ويحزن ويتجلد ، وينتقل من الحبيب الصاد إلى الحبيب الواصل ، استمتع به ومعه ،

وكلا الأمرين يثيره ويبكيه ، ويتطرق من ذلك إلى جزئيات تخدش الحياء المعاصر عند بعض الناس ، فنجتزئها فى دراسات التذوق ، وتبقى لها أهميتها فى دراسة التاريخ ، يرجع إليها الدارس الناقد ، والعالم الباحث ، إذا أراد رسم صورة كاملة ودقيقة لاتجاهات العصر الجمالية ، أو ليدرك من خلالها حدود القول فى تلك الفترة من الزمن ، فى هذا الجانب من الأرض .

وهو شاعر الصورة الناطقة دون منازع ، وصوره الأدبية دقيقة محدّدة ، لا يكتفى بأن يقول إنَّ صاحبته رقيقة ناعمة ، وإنما هى ناعمة بقدر لو جرت معه أنملة فوق ثوبها لأثرت فى بشرتها . وعيون بقر الوحش ملقى حول خيامهم ، انقلبت فظهر منها بياضها وسوادها ، لا تشبه الخرز صنع عقداً ، وإنما تشبهه جزءاً لما يثقب . ومع الدقة والتحديد يترك جانباً خفياً لذكاء القارئ وخياله يزيد المعنى جمالا وإثراء . وإذا وصف حماراً وحشياً بأنه سمين ، يعيش على أرض معشوشبة ، أشدّ ما تكون خضرة حيث ينحنى الوادى ، هناك يطول نبتها حتى يساوى أشجار السدر ، لأنه ممر جيوش ذاهبة إلى القتال أو عائدة منه ، وقف عند هذا الحدّ من الصورة ، وترك لقارئه أنْ يتخيل الصلة بين مرور الجيوش واخضرار المنحنى وارتفاع أشجاره[1] . وأكثر ما تكون صور امرئ القيس من تشبيه ، وتزدحم قصائده بكل جميل منها ، ويأتى عنده عن طبع لا عن تعمّل ، وبعض ألوان التشبيه توجد عند سابقيه ، لكن معظمها من خلقه ، وعنده نجد أول صورة بلاغية لما يسميه علماء البلاغة بالتشبيه المقلوب ، حين شبه البقر بالنساء[2] ، والتشبيه المقيد وأشرنا إليه من قريب ، والتشبيه الملفوف ، وهى فنون من التصوير تبعه فيها الشعراء من بعده ، وغالى فيها المتأخرون منهم ، وتأتى الاستعارة عنده بأقسامها ، تصريحية ومكنية وتمثيلية ، على نحو أقل ، وأكثر ما يستخدم من ألوان البديع الجناس والطباق .

وخياله واقعى ، ينبع من الحقيقة ويتناول المألوف ، فلا إحالة ولا غرابة ، ولا غموض ولا غلو ، وهو يؤمن بالطاقة الخلاقة المبدعة عند الإنسان الفنان ، وبقدرته على أن

---

(١) انظر البيت رقم ٢ ص ٢٠٢

(٢) انظر البيت رقم ١ ص ٢١٧

يتفوق على صنع الطبيعة ، فالمرأة جميلة عنده كتمثال صنعه فنان فى هكر ، وجبهة الفرس متسعة كظهر ترس حذَّقه صانع مقتدر .

والمادة التى يصوغ منها صوره تتصل بالبادية ومظاهرها اتصالا وثيقاً ، كأسماء الأمكنة ، وبعر الآرام ، والنخلة ، والرئم ، والأساريع ، والذئاب ، والثعالب ، والحنظل ، وأوتاد الخباء ، والناقة ، وأشياء أخرى كثيرة ، لكنه لم يكن بدوياً مغرقاً فى البداوة ، وإنما كان نصف حضرى ، أو إن شئت الدقة كان متحضّراً فى البادية ، ومن هنا نجد أن بين مادته الأدبية ما ينم عن رقى وترف وثراء ، فلم يكن المسك أو الفلفل ، وكلاهما بعض مادته ، مما يعتاده فقراء الناس ، ولم تكن البادية – عادة – مقصد تجار اليمن يحملون إليها الفاخر من الثياب ، وهو شديد الزهو بنعومة صاحبته وترفها ، فهى لا تصحو مبكرة لعمل المنزل ، وفى غير حاجة لأن تشقى من أجل لقمة العيش ، وقلّة مثله هى التى كانت تغدو إلى الصيد تتخذ منه رياضة ومتاعاً .

ويلحظ الناقد أن امرأ القيس محايد للغاية فى تصوير ما عرض له من مظاهر الطبيعة المختلفة ، صوَّرها ماديًّا ، فوصف شكلها ولونها وحركاتها ، وأبان لنا اتجاهات المطر القاسية الجافية حيناً ، الهادئة الخيرة أحياناً ، وأنه جلس وصحبه يتأمّلونها ، دون بادرة أخرى يصور فيها شعوره الشخصى وموقفه النفسى ؛ وانفعاله الوجدانى بما رأى وأحسَّ وصوَّر ، كأنه لا يهدف من شعره غير التصوير .

وإذا كانت بعض صوره الأدبية مما لا يسيغها الذوق المعاصر ، فيعجز مثلا أن يجد علاقة وثيقة بين حركة البرق ولمع اليدين ، فإن بقية الصور ، وتمثّل الجانب الأكبر من إبداعه ، احتفظت بحيويتها على امتداد قرون طويلة ، حين يصور تأثير صوت الناى فى القلوب والأسماع بأنه أعلى صوتاً وأشد فاعلية من ضجيج جيش لهام ، أو نحر المرأة رقيقاً مصقولا يتلألأ صفاء كأنه المرآة ، أو تصوير الجبل جلله المطر وعرّقه ولفّه ، فلا تبدو غير قمته بأنه أشبه بشيخ اشتد عليه البرد ، فازداد فى عباءته التفافاً ، وبها التصاقاً .

كذلك يلحظ النقد الحديث أن قصائد امرئ القيس لا تجرى على سنن المنطق ، فالقصيدة الواحدة تتناول أكثر من قضية ، وتضم أكثر من موضوع ، ويعرض الشاعر فيها لكل ما يقع فى خاطره كيفما اتفق وهى بهذا تفتقد الوحدة العضوية ، أى وحدة

الموضوع ووحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع ، وما يستلزمه ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً تتقدم به القصيدة شيئاً فشيئاً ، حتى تنتهى إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدى بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل فى الأفكار والمشاعر .

وذلك ناتج – فيما أرى – من احتمال أن القصيدة الواحدة ليست إلا مجموعة مختلفة من القصائد ، ذات بحر واحد وقافية واحدة وروىّ واحد ، ضاع من كلّ شىء ، وحفظ الرواة من كلّ بعضاً ، أو أن الفجوات القائمة بين عناصر القصيدة المختلفة كانت تربطها أفكار ضاعت عبر الزمن الذى كانت تروى فيه شفاها ، أو أنها مجموعة من الخواطر المتناثرة ، صاغها الشاعر نفسه ، على فترات متباعدة ، فكان لكل واحدة منها جوها النفسى الخاص وتسلسلها المستقل .

ولدينا إشارة موجزة وهامة ، أوردها ابن رشيق فى كتابه « العمدة » ، ولم يلتفت إليها أحد من الدارسين المحدثين ، وتلقى ضوءاً كاشفاً على القضية ، مؤداها أن أبيات وصف المطر فى معلقة امرئ القيس[١] ، المبدوءة بكأن كانت تتوارد فيما بينها معطوفة بالواو ، وأن الرواة هم الذين أسقطوها ، فهل كانت شهرة امرئ القيس سبباً فى إقبال الناس على رواية شعره وإفسادها ؟ يخيل إلىّ ذلك ، لأن أطول قصائد عمرو بن قميئة ، وصلت لنا ذات وحدة متماسكة ؛ وتدور حول موضوع واحد[٢] . وغريب أن يكون هذا عند عمرو ابن قميئة . ولا يثير انتباه امرئ القيس ، فيسير على نهجه ويحتذيه .

وبعض القصائد مبتسرة ، تسير فى البدء على النهج الذى يحتذيه امرؤ القيس ، من مقدمة طللية ، ثم وصف الناقة ، وبيت واحد عن السيف يتوقف عنده فجاءة[٣] . والقصائد غير المصرعة ربما كانت أجزاء من قصيدة ، أو أن أولها ضاع ، أو بُتِر ، أو نقل إلى مكان آخر يتفق معها وزناً وقافية ، وأغلب القصائد القصيرة غير مصرعة ، رغم أنه قالها ناضجاً مجرباً فى أواخر حياته .

والأبيات التى تتكرر كاملة ، ولا تختلف إلا فى الكلمة الأخيرة التى تتوقف عليها

---

(١) انظر ص ٢٣٢

(٢) انظر ص ١٤٤ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٥٤ من ديوان امرئ القيس .

حركة الروى ونوعه ، وتتفق فى البحر ، والمعنى فيها كلها واحد يبدو أنها كانت تند من الراوى ، فإذا حار معها وضعها فى أى قصيدة من بحرها وأكملها بالكلمة التى تتفق مع حركة الروىّ ونوعه ، وأستبعد أن يكون امرؤ القيس ، وكان شاعراً مجوّدا يصنع شعره ، ويتأمله ويراجعه ، يكرر نفسه ، فذلك أشق شيء على الفنان[1] .

والموسيقى الداخلية فى الأبيات تتناسب على نحو رائع مع الأحداث عنفاً وليناً ، فحين صور المطر عنيفاً كاسحاً جارفاً يقلب الأشجار الضخمة العالية رأسا على عقب استخدم الأفعال : يسح ويكب ، والكلمات : على الأذقان ، والدوح ، والكنهبل ، وعندما هدأ المطر وخفت حدته ، وتسربت بقاياه إلى مكان آخر ، فلم تصنع غير إقلاق الوحش فى مرابضه استخدم الأفعال : مرّ وأنزل ، والكلمات من نفيانه ، وهى ألفاظ موحية مشعة فى الحالين[2] .

ولغة امرئ القيس ، على غير ما يتوهم الكثيرون ، إذا بعدتْ عن الأسماء ولا حيلة له فيها رقّتْ ، وإذا تناولت ما هو مألوف ومتصور من حيوان أو جماد سهلتْ ، وإنما تأتى الغرابة حين يلتقط صوره من بيئة غير مألوفة لنا . وكثير من كلماته متداول فى عامية الريف عندنا ، مثل ؛ قارح ، وغيطان ، وحائل ، ونبات الرّبة ، والتيْس ، ورذِيّة ، والسرْحة . وتعبير « على بالى » بمعنى موضع اهتمام منى ، ويستخدم لوناً من التشبيه مألوفاً وشائعاً عند بعض القبائل فى الصعيد الأعلى ، ولم أره عند شاعر غيره ، حين يجعل أداة التشبيه الفعل « تقول » ، فحصانه إذا انطلق ، وانبل جانبه من العرق ، سمعت له حفيفاً تقول هزيز الريح مرّتْ بشجر الأثأب .

ومعلومات امرئ القيس واسعة ، وكل ما يذكره من حيوان أو نبات ، أو شراب أو ثياب ، ينسبه إلى أحسن مكان شُهِر به ، ولدينا منه : وحش وَجْرة ، ونخل شوكان أو سَمَيْحة أو ابن يامن ، ونعاج تَبالة ، ودمى هَكِر ، وحمير عَمَايَة ، وخمر خُصّ أو عانة ، وكروم شِبام ، وغراس ابن معنق ، وحقة حِمْيرية ، وحوْك العراق ، ورحال الحيرة ، وثياب أنطاكية .

وأوّل من فطن إلى جمال القصص الغرامية وأدرك جميل وقعها فى النفوس ، فرواها

---

(١) انظر هذه الأبيات والتعليق عليها ، ص ٢٢١

(٢) انظر ص ٢٣٢ .

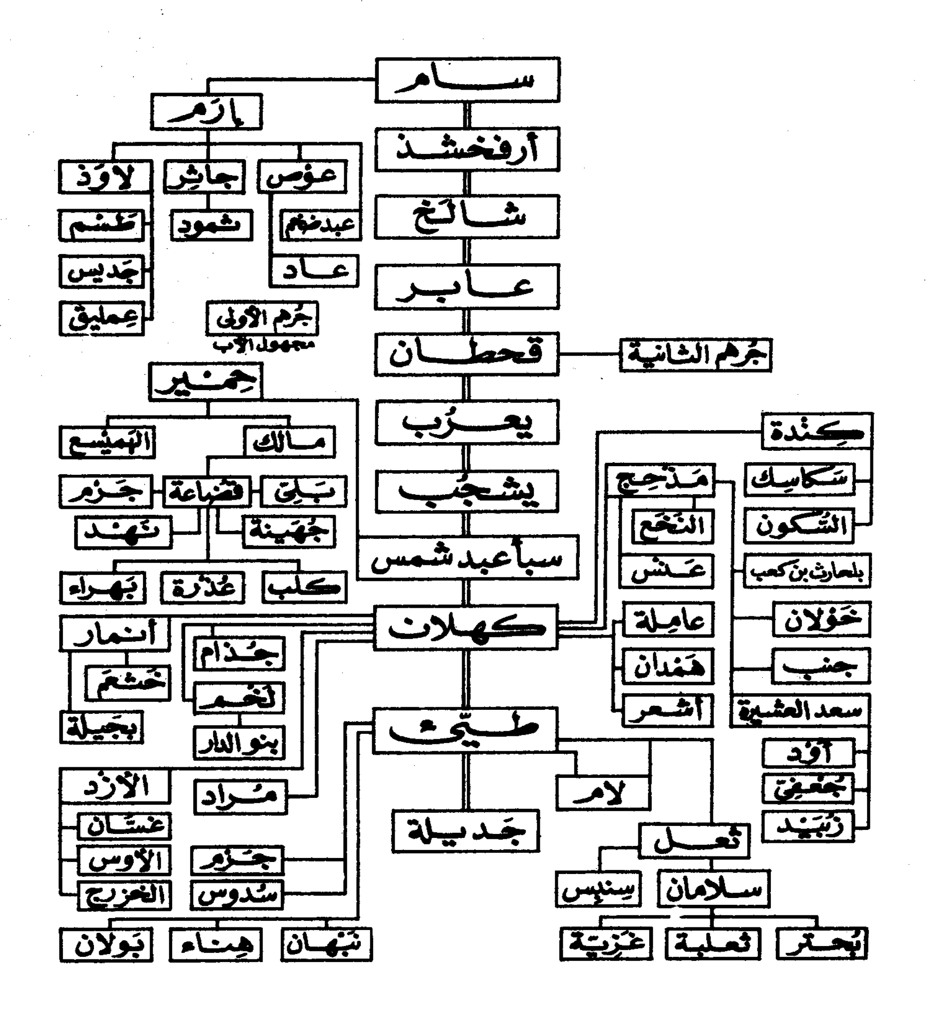
فى ظرف ولباقة ، وقصها فى جرأة وصراحة ، وأدار فيها الحوار بينه وبين صاحبته ، وجعل من نفسه وشخصه مناط الحديث ومحوره أحياناً ، وهو اتجاه تبعه فيه عمر ابن أبى ربيعة ، وبلغ به القمة ، فعرف به وتوقف عنده .

وصور امرئ القيس بصرية فى معظمها ، ولا يستخدم حاستى السمع والشم إلا فى القليل النادر ، ولا تنتشر الرائحة الجميلة فى شعره إلا من قيام ، ولا تكون إلا كنسيم يحمل رائحة عود وبخور طوراً ، ورائحة قرنفل طوراً آخر .

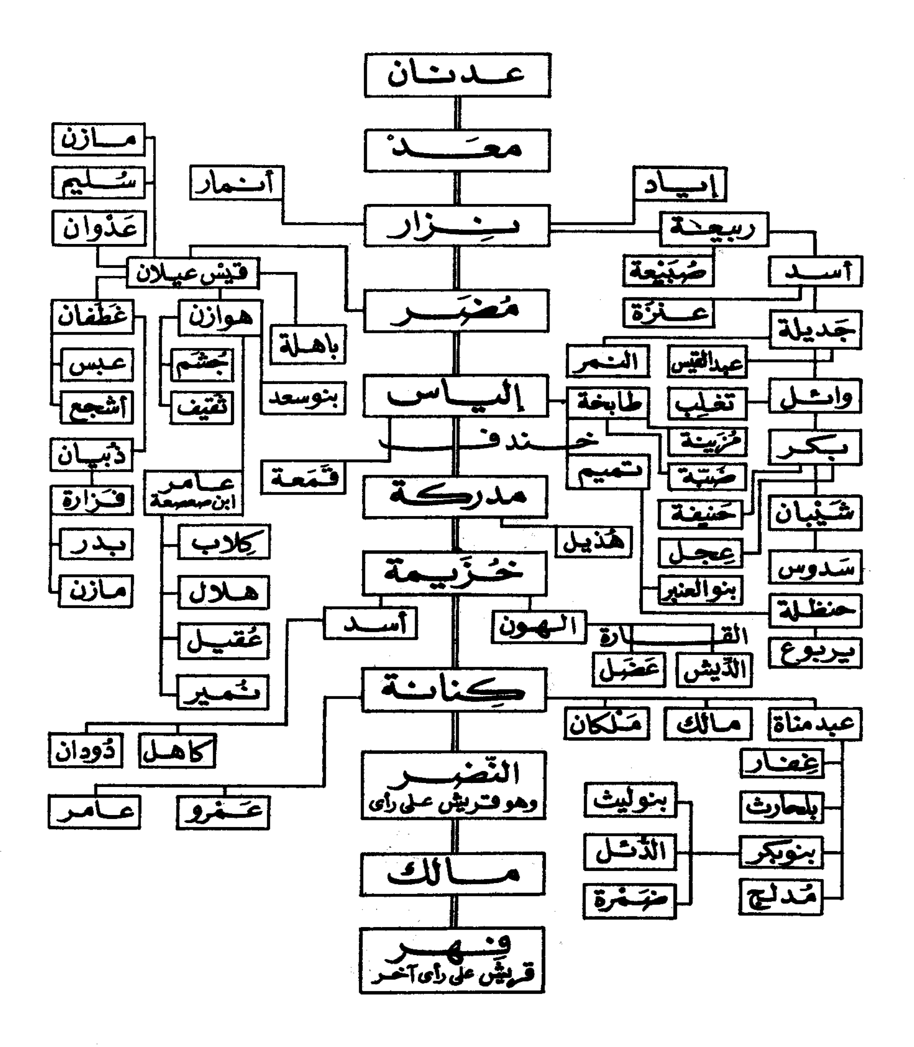
كان امرؤ القيس شاعر نفسه ، انطوى داخلها وفاض عنها ، فلم يشارك فى مدح أو هجاء أو رثاء ، نعم إنه شكر من ساعده ، وذمّ من تخلوْا عنه ، والفرق بين الشكر والمدح بيِّن ، الشاكر يفعل وبوسعه ألاّ يشكر ، والمدح يأتى سلفاً ويبقى صاحبه فى الانتظار طامعاً .

لقد ترك امرؤ القيس من الأثر فى الأدب العربى ما لم يتركه شاعر عربى آخر ، وظل الشعراء يعيشون على أفكاره وصوره أمداً طويلا ، وحتى أيامنا هذه ، فلعل فى هذه الدراسة بعض الوفاء له ، وإنّها لدونه وإنه لأكبر منها .

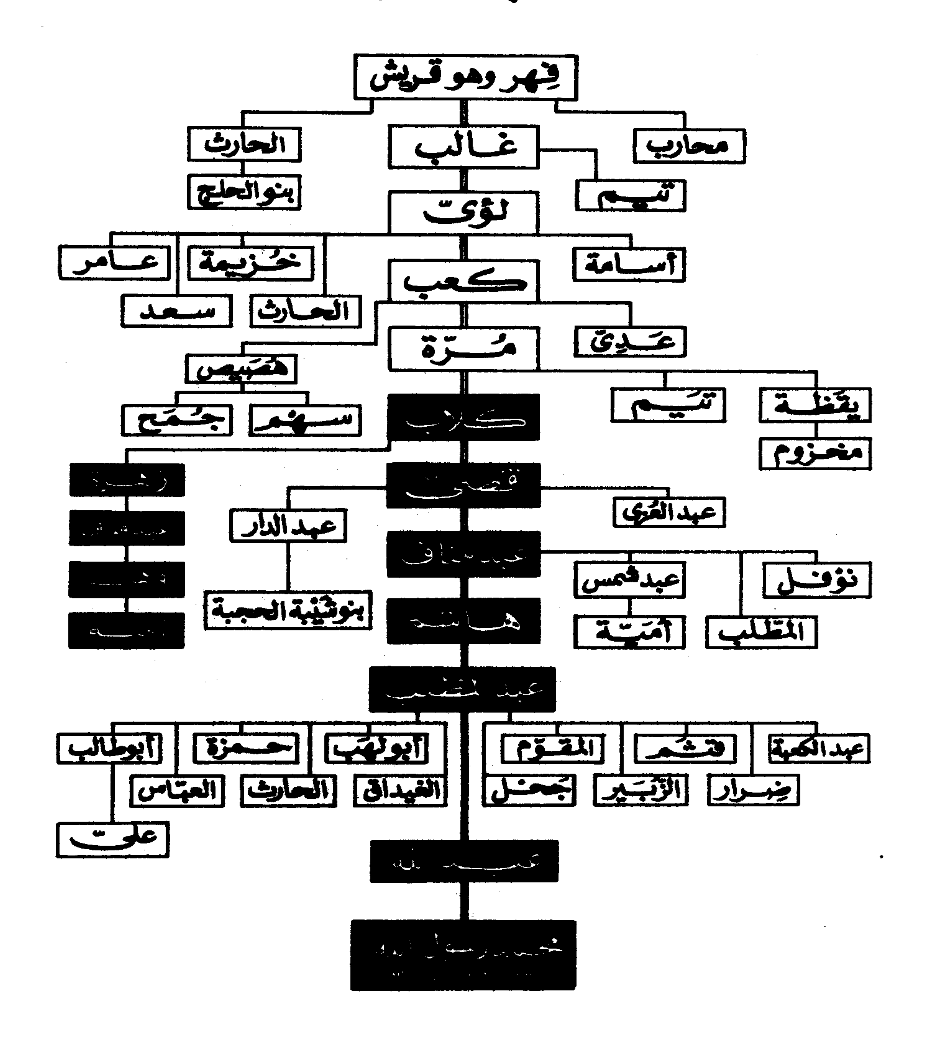
العرب البائدة والعاربة



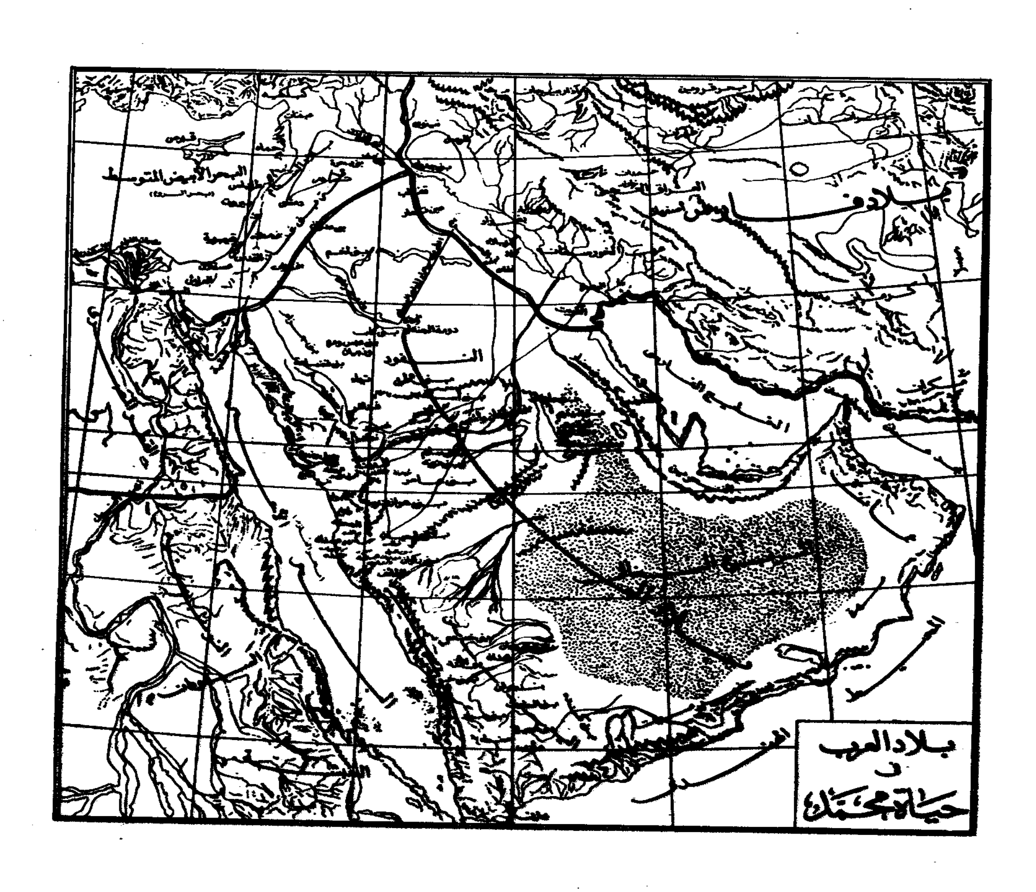
العرب المستعربة



نسب قريش



فهر وهو قريش
محارب
غالب
الحارث
تيم
بنو الحلج
لؤي
أسامة
خزيمة
عامر
كعب
سعد
الحارث
عدي
مرة
هصيص
سهم
جمح
كلاب
تيم
يقظة
مخزوم
قصي
عبد العزى
عبد الدار
عبد مناف
نوفل
عبد شمس
بنو شيبة الحجبة
هاشم
المطلب
أمية
عبد المطلب
عبد الكعبة
قثم
المقوم
أبو لهب
حمزة
أبو طالب
ضرار
الزبير
جحل
الغيداق
الحارث
العباس
علي


البحر الأبيض المتوسط
بلاد العرب
في
حياة محمد ﷺ

١ – المصادر

- الآمدى ، أبوالقاسم ، الحسن بن بشر : الموازنة بين الطائيين .
- الأصفهانى ، أبوالفرج ، على بن الحسين بن محمد الأموى :
  الأغانى ، طبعة دارالكتب المصرية ، وبولاق ، والساسى
- الأصمعى ، أبوسعيد ، عبد الملك بن قريب :
  الأصمعيات ، بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر .
  تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٥٩ م .
- الأعشى ، ميمون بن قيس : ديوانه – شرح وتعليق الدكتورمحمد حسين ، القاهرة ، بلا تاريخ .
- البطليوسى ، أبومحمد ، عبد الله بن محمد بن السيد :
  الانتصارممن عدل عن الاستبصار ، تحقيق الدكتورحامد عبد المجيد .
- البغدادى ، عبد القادربن عمر :
  خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧ هـ .
- البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، مصر١٩٠١ م .
- التبريزى ، أبوزكرياء ، يحيى بن على :
  ١ – شرح القصائد العشر ، المطبعة المنيرية ، ١٣٥٢ هـ .
  ٢ – شرح الحماسة ، نشرمحمد محيى الدين ، المطبعة التجارية .
- الجاحظ ، أبوعثمان ، عمربن بحربن محبوب :
  ١ – البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ١٩٣٧ .
  ٣ – المحاسن والأضداد ، طبعة الخانجى ، ١٣٢٤ هـ .
- حاتم الطائى : ديوانه ، لندن ، ١٨٧٢ ، ضمن مجموعة .
- حاجى خليفة ، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبى :
  كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، مصر١٢٧٤ هـ .
- ابن حزم ، أبومحمد ، على بن سعيد :
  جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليڤى بروفنسال ، دارالمعارف بمصر ، ١٩٤٨
- أبوحنيفة الدينورى ، أحمد بن داود : الأخبارالطوال .
- ابن رشيق ، أبوعلى ، الحسن بن رشيق القيروانى :
  العمدة فى محاسن الشعروآدابه ، نشرمحمد محيى الدين عبد الحميد .
- الزبيدى ، أبوبكر ، محمد بن الحسن :
  طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق أبوالفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٤ .
- الزبيرى ، أبوعبد الله ، المصعب بن عبد الله بن المصعب :
  كتاب نسب قريش ، تحقيق ليڤى بروفنسال – دارالمعارف .
- زهيربن أبى سلمى : ديوانه ، دارالكتب ، القاهرة ١٩٤٤ .

• الزوزنى ، أبوعبد الله ، الحسين بن أحمد .
شرح المعلقات السبع ، طبعة التجارية ، القاهرة ١٩٣٨ .
• أبوزيد القرشى ، محمد بن أبى الخطاب : جمهرة أشعارالعرب ، بولاق ، القاهرة .
• السجستانى ، أبوحاتم ، سهل بن محمد : كتاب المعمرين ، الخانجى ، القاهرة ١٩٠٥ .
• ابن سلام ، محمد بن سلام الجمحى :
طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة .
• ابن الشجرى ، أبوالسعادات ، هبة الله بن على بن محمد بن حمزة :
١ – مختارات شعراء العرب ، القاهرة .
٢ – الحماسة ، طبعة الهند ، ١٣٤٥ هـ .
• طرفة بن العبد : ديوانه ، طبع شالون ١٩٠٠ م .
• ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٠ .
• القالى ، أبوعلى ، إسماعيل بن القاسم :
الأمالى ، القاهرة طبعة دار الكتب المصرية .
• ابن قتيبة ، أبومحمد ، عبد الله بن مسلم :
الشعروالشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ .
• المبرّد – أبوالعباس ، محمد بن يزيد :
الكامل ، طبع ليبزج .
• المرزبانى – أبوعبيد الله ، محمد بن عمران :
١ – الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .
٢ – معجم الشعراء ، تصحيح كرنكو ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .
• المفضل بن محمد الضبى :
المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكروعبد السلام هارون .
• عبيد بن الأرض :
ديوانه ، دار المعارف ، القاهرة .

٢ – المراجع

(أ) فى اللغة العربية

• أحمد أمين : فجر الإسلام .
• جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام .
• سيد نوفل : شعر الطبيعة فى الأدب العربى .
• شيخو ، الأب لويس : شعراء النصرانية ، بيروت ، ١٩٢٦ م .
• شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، الأدب الجاهلى .
• عبد العظيم قناوى : الوصف فى الشعر العربى ، الجزء الأول ، العصر الجاهلى .

- عمر الدسوقي : ١ – النابغة الذبياني   ٢ – الفتوة عند العرب .
- محمد خلف الله أحمد : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده .
- محمد صالح سمك : أمير الشعر في العصر القديم .
- محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام .
- محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث . الطبعة السادسة .
- مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب .
- ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية .

(ب) في اللغات الأجنبية

Basset (R.) :
La Poésie arabe antéislamique, Paris, 1880, I Vol.

Blachère (R.) :
Histoire de la Littérature Arabe, des Origines â la fin du Xve siécle de j - c., Paris 1952 - 1964, 2 vol.

Bousono (C.)
Teoria de la expresion poética, Madrid, 1962.

Dhorme (E.) :
Langues et'Ecritures sémitiques, Paris, 1930.

Huart (CL.) :
Histoire de la littérature Arabe, Paris, 1908.

Kayser (W.) ;
Interpretacion y analisis de la obra literaria, Madrid 1958.

Kiernan (R.H.) :
L'Exploration de I'Arabie, Paris, 1938.

Maranon (G.) :
Vida e Historia, 7a edicion Madrid. 1958.

Ortega y Gasset (J.) :
Estudios Sobre el amor, 1a edición Madrid. 1958.

محتويات الكتاب

كتب للمترجم

● **امرؤ القيس : حياته وشعره**
الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .
● **دراسة فى مصادر الأدب .**
الطبعة السابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .
● **ملحمة السيد : دراسة مقارنة .**
الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .
● **مع شعراء الأندلس والمتنبى .**
للمستشرق الإسبانى غرسية غومث، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢
● **بابلوا نيرودا : شاعر الحب والنضال .**
(نفد وتعاد طباعته الآن)
● **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة .**
الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .
● **القصة القصيرة : دراسة ومختارات .**
الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٢ .
● **الشعر العربى المعاصر : روائعه ومدخل لقراءته .**
الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ .
● **دراسات أندليسية : فى الأدب والتاريخ والفلسفة .**
الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٨ .
● **الفن العربى فى إسبانيا وصقلية .**
للمستشرق الألمانى فون شال، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ .
● **الحضارة العربية فى إسبانيا .**
للمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٥ .
● **التربية الإسلامية فى الأندلس .**
للمستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١ .
● **الأخلاق والسير لابن حزم .**
تحقيق وتقديم وتعليق، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ .

● الأدب المقارن : أصوله ومناهجه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٩ .
● فى الأدب المقارن : دراسات نظرية وتطبيقية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٩٢ .
● الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف .
ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى هنرى بيريس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ .
● الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية ، جـ ١ للمستشرق الألمانى فون شاك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩١ .
● الأدب الأندلسى من منظور إسبانى ، دراسات لكبار المستشرقين الإسبان ، مكتبة الأداب ، القاهرة ١٩٩٢ .
● مناهج النقد الأدبى (ترجمة) ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٢ .

كتب تحت الطبع :
● مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن .
● الحب عند دانتى وابن حزم ، دراسة مقارنة ، مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتى .
● تحفة الأنفس وشعار سكان أهل الأندلس ، رسالة فى الجهاد ونظم الحرب فى الإسلام ، لابن هذيل (تحقيق) .
● فن الشعر ، أو الوافى فى علم القوافى لأبى البقاء الرندى (تحقيق) .

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٢٧٠٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3863-6

١ / ٩٣ / ٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)